دكتور
محمد لقمان الأعظمي الندوي

مجتمع المدينة المنورة في عهد الرسول صلى الله عليه وسلم

دار الاعتصام

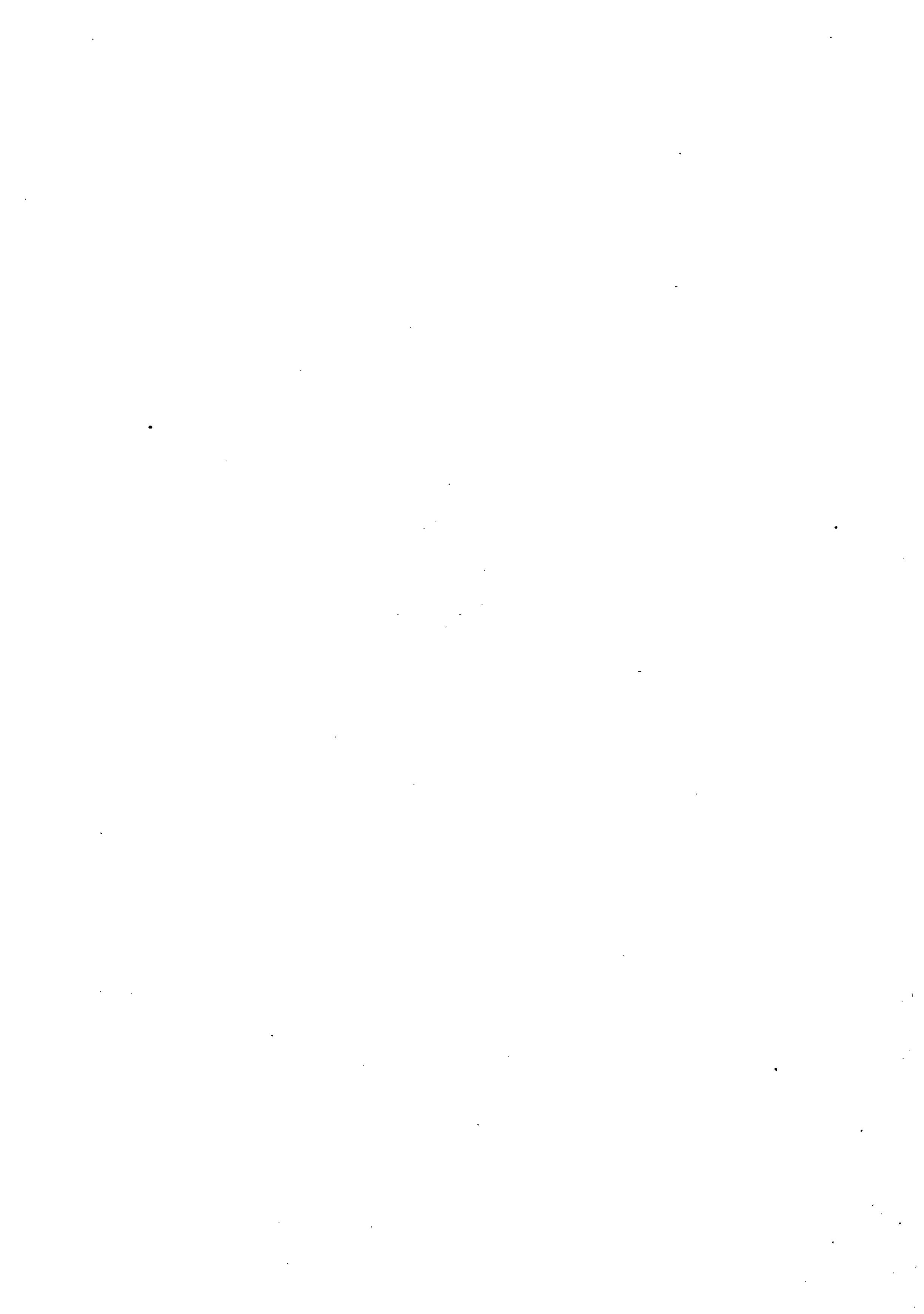


دار الإعتصام

٨ شارع حسين حجازى ـ ت٣٥٤٦٠٣١/٣٥٥١٧٤٨ ص ب
٤٧. القاهرة الرمز البريدى ١١٥١١ فاكسيميلى ٣٥٤٦٠٣١

للطبع والنشر والتوزيع





هذا الكتاب

فى أصله رسالة دكتوراه قدمت إلى كلية الآداب جامعة القاهرة ـ قسم اللغة العربية وقد منح صاحبها درجة الدكتوراه بمرتبة الشرف الأولى وكانت لجنة المناقشة مكونة من :

أ د . / يوسف عبد القادر خليف	رئيساً
أ د . / محمود على مكى	عضواً
أ د . / أحمد محمد النجار	عضواً

★ ★ ★



تقديـــم

بقلم : أبي الحسن على الحسنى الندوى

الحمد لله رب العالمين ، والصلاة والسلام على أشرف المرسلين ، وخاتم النبيين محمد وعلى آله وصحبه أجمعين ، ومن تبعهم بإحسان إلى يوم الدين .

أما بعد :

فقد طلب منى الأخ العزيز « محمد لقمان الأعظمي الندوى » أن أكتب تقديماً لبحثه « مجتمع المدينة المنورة فى عهد الرسول ﷺ فى ضوء القرآن الكريم » فعددت ذلك شرفاً لكرامة الموضوع ، ولهذا الانتساب الشريف فقد اجتمع فى هذا الموضوع شرف المكان والزمان ، وذات الرسول ﷺ ، وصحبه البررة الذين لم يشهد التاريخ مجتمعاً أفضل من مجتمعهم .. وأكد هذا الشرف القرآن الكريم بقوله : ﴿ محمد رسول الله والذين معه أشداء على الكفار رحماء بينهم تراهم ركعاً سجداً يبتغون فضلًا من الله ورضواناً ، سيماهم فى وجوههم من أثر السجود ، ذلك مثلهم فى التوراة ، ومثلهم فى الإنجيل كزرع أخرج شطأه فآزره ، فاستغلظ فاستوى على سوقه ، يعجب الزراع ليغيظ بهم الكفار ، وعد الله الذين آمنوا وعملوا الصالحات منهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾الفتح آية ٢٩ .

لقد وصف القرآن الكريم هذه الطليعة المؤمنة التى كانت تشكل مدرسة محمد ﷺ وصفاً تتجلى به صورة تلك المجموعة ، ويتضح من وصف القرآن التنقيح التدريجى لهذا المجتمع البشرى إلى أن اكتمل جماله ، وتوافرت خصاله ، وترابطت وحداته .

إن التآلف بين مختلف أفراد البشر أساس للمجتمع .. ولا يتحقق هذا التآلف إلا بوجود جوهر يجمع بين مختلف وحدات المجتمع التى تختلف فى

الطبائع والانفعال والإقدام ، والقبول والرفض ، والحب والكراهية ، والانقياد والإباء .. وكان العرب الذين كانوا يتميزون بروح الفردية والإباء والأنفة أبعد الأمم عن الانقياد والالتفات حول شخص إلا فى إطار محدود كإطار القبيلة .. وفى إطار القبيلة كذلك كانت تنشأ النخوة والأنفة .. فكان أفراد القبيلة يخرجون من طاعة سيد القبيلة أحياناً .

ولذلك بقى العرب إلى ظهور الإسلام وحدات متناحرة ، وصار النفور طبيعة العرب التى اختصوا بها على الأمم الأخرى .

ومن يدرس تاريخ العرب .. وهو مسجل فى دواوين الشعر الجاهلى ، وأخبار العرب وأيامهم لعرف أن أصعب الأمور بالنسبة للعرب هو التآلف بينهم .. لأن النفور والشموس كانت ميزتهم ، ولم تكن القبائل المختلفة متحاربة .. وإنما كانت الأسر موزعة فيما بينها .. وقد أصبح شكوى بنى الأعمام موضوعاً من موضوعات الشعر الجاهلى ، لا تخلو قصيدة منه ، وتعدى هذا النفور إلى بنى الأب الواحد كذلك .

كان هذا التنافر قائماً فى يثرب التى عرفت بالحروب الطاحنة بين الأوس والخزرج ، وكان على أشده فى مكة والطائف بين مختلف الأسر .. أما العداء بين عدنان وقحطان ، وبين العرب والعجم فهو أمر معروف .. فقد كانت بينهم حواجز نفسية واجتماعية لا تزول .. بل تزداد عبر الأيام .

كان إيجاد مجتمع يشمل على الوحدات البشرية ، أو الكتل البشرية من هؤلاء الأفراد بطرائق تذوب فيه الأواصر الأخوية ، والروابط بين الأب والابن ، والزوج والزوجة ، بالانتساب إلى عقيدة ، والالتحاق بذات الرسول ﷺ معجزة فى ذاته .. معجزة فى تاريخ البشرية بكامله .

كان المجتمع الذى أنشأه محمد رسول الله ﷺ فى المدينة المنورة التى جعلها قاعدة لدعوته ، ومركزاً لتربيته ، وإعداده للنفوس مجتمعاً إنسانياً عالمياً لا يوجد له نظير إلى يومنا هذا .. وقد توفرت فى هذا المجتمع جميع خصائص المجتمع المتحضر من العقيدة والعلم ، وروح التكافل ، والتكامل ، وصلاحية التوسع والامتداد والتبادل .. وقد اعترف القرآن الكريم أن هذا التآلف كان نتيجة لموقف الرسول ﷺ وسلوكه فقال :

﴿ فبما رحمة من الله لنت لهم ولو كنت فظاً غليظ القلب لانفضوا من حولك ﴾ آل عمران : ١٥٩ .

كان من خصائص المجتمع الإسلامى الأول الذى نشأ فى المدينة المنورة الالتزام بعقيدة واحدة ، ونقل هذه العقيدة إلى سائر مجالات الحياة .. فكانت تقام الروابط فى ضوء هذه العقيدة ، وكانت الميزة الثانية الارتباط بذات الرسول ﷺ ، وإيثاره على غيره ، والخضوع التام له .. وكانت الميزة الثالثة هى المبادرة والسبق إلى أعمال الخير .. كالإيثار ، والتعاطف ، والنجدة ، والإسعاف ، كما جاء فى القرآن الكريم : ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ الحشر : ٩ .

كانت نتيجة هذا الإيثار ، والمساواة ، والمواساة أن خلا المجتمع المدنى من التباغض والتحاسد الذى يقطع أواصر المجتمع ، ويقرض حبائل الصلات القائمة بين مختلف أفراده .

وكما يدل عليه الحديث النبوى : « المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً » وقد ظهرت هذه الخصائص فى البأساء والسراء ، وفيهما يمتحن الإنسان .. وقد وصف القرآن الكريم هذه الصفة الاجتماعية بقوله :

﴿ والمؤمنون والمؤمنات بعضهم أولياء بعض ، يأمرون بالمعروف ، وينهون عن المنكر ، ويقيمون الصلاة ، ويؤتون الزكاة ، ويطيعون الله ورسوله ، أولئك سيرحمهم الله ، إن الله عزيز حكيم ﴾ التوبة : ٧١ .

وقال فى سورة الأحزاب :

﴿ إن المسلمين والمسلمات ، والمؤمنين والمؤمنات ، والقانتين والقانتات ، والصادقين والصادقات ، والصابرين والصابرات ، والخاشعين والخاشعات ، والمتصدقين والمتصدقات ، والصائمين والصائمات ، والحافظين فروجهم والحافظات ، والذاكرين الله كثيراً والذاكرات ، أعد الله لهم مغفرة وأجراً عظيماً ﴾ الأحزاب : ٣٥ .

لقد وجدت فى المجتمع المدنى جميع خصائص المجتمع الراقى المثالى .. ولذلك كان المجتمع المدنى مجتمعاً نامياً متوسعاً باستمرار .. والاستمرارية والتوسع هى خصائص الحياة الفردية ، أو القبلية .. ولم توجد مثل هذه الخصائص للنمو ، والتوسع ، والترابط ، والمساواة ، والعدالة فى مجتمع آخر .. سواء كان هذا المجتمع فى فارس أو الروم ، أو العصر الحاضر الذى يعد عصر الحياة الاجتماعية .

ويمكن أن يقاس هذا النمو والازدهار الذى كان فى المدينة بفضل التكافل والتعاطف والتآخى فى عدد أفراد هذا المجتمع بعد وصول الرسول ﷺ إلى المدينة المنورة ، وفى عدد المسلمين فى حجة الوداع ، ومن خلو هذا المجتمع من القضايا والمشاكل الاجتماعية التى تحدث فى كل مجتمع .

وهل يوجد مثال فى تاريخ الحضارات أن يقدم مذنب أو مجرم نفسه للمحاكمة ، ويفرض على نفسه أقسى العقوبة ويحتملها ، ولا تنشأ فى نفسه كراهية أو نقمة ، ويواجه كل إغراء وإثارة ، كما تتضح فى قصة كعب بن مالك عندما تخلَّف عن الاشتراك فى غزوة تبوك ، وإخوته الذين ذكر القرآن الكريم قصتهم بتفصيل ، وموقف عبد الله بن عبد الله بن أبيٍّ بن سلول إزاء والده عند قوله :

﴿ ليخرجن الأعز منها الأذل ﴾ المنافقون : ٨ .

يقول علماء النفس : إن حب المال والغلبة من غرائز الإنسان .. وإذا تعرض هذا الحب للخطر بدأ الصراع .. ولكن المجتمع المدنى يقدم مثالًا مدهشاً لغلبة عنصر الإيمان ، والتعلق بذات الرسول ﷺ على هذه العناصر المادية التى تؤدى إلى الصراع ، وتشتت المجتمع .

المثال الأول : ما جاء فى الحديث الشريف عن الأنصار الذين وجدوا شيئاً فى أنفسهم لدى تقسيم المغانم ، وأخيراً رضوا بالقسمة ، وآثروا الرسول ﷺ .

والمثال الثانى : لدى خلافة سيدنا أبى بكر رضى الله تعالى عنه .. فقد كان هذا التعيين للخليفة الذى كان من المهاجرين فى بلد الأنصار ، وكان الأنصار يطمحون إلى الاشتراك فى الحكم .. لكنهم قبلوا هذا الحكم ، وتجنبوا الصراع ، وبقى المجتمع المدنى موحداً ، ثم وافقوا على حكم الخليفة الأول للخروج من المدينة فى جيش أسامة ، وحرب الردة ، رغم اختلافهم فى الرأى ، وأبلوا فى المعركتين بلاء حسناً .

لقد صور المؤرخون المجتمع الإسلامى الأول تصويراً يختلف عن تصوير القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، بإبراز أحداث مشتتة .. لأن الذين ألفوا هذه الكتب كانوا بعيدى الصلة عن المجتمع المدنى ، وعن العهد الأول ، فعرضوا أحداث التاريخ الأول فى ضوء ميولهم الفكرية ، وواقع

حياتهم ، وكانت الحاجة ماسة إلى عرض جو هذا العهد ، وهذا المجتمع فى المنظور القرآنى .. وقد أحسن أخونا العزيز الأستاذ « محمد لقمان الأعظمى الندوى » بعرض هذه الرؤية القرآنية للحياة فى عهد الرسول ﷺ .

وقد قضى مدة فى دراسة القرآن الكريم ، والحديث النبوى الشريف ، وكُتُبِ السير ، ليأخذ صورة حقيقية للمجتمع الإسلامى الأول الذى نشأ بتربية الرسول ﷺ ، وكانت له تجربة فى مجال الدعوة والتوعية الإسلامية .. وقد وهبه الله عاطفة دينية بفضل دراسته ونشأته ، وصلاته برجال الفكر الإسلامى .. فقد درس فى ندوة العلماء ، ثم التحق بالأزهر ، ثم مارس مهنة التعليم .. فكان اختياره لهذا الموضوع خدمة فى مجال الدعوة الإسلامية .. لأنه أراد أن يقدم نموذجاً للمجتمع الإسلامى ، ليكون قدوة للدعاة ، فجزاه الله خير الجزاء ، ونفع بكتابه ، وكثر أمثاله .

والله تعالى ولى التوفيق ، وهو يهدى السبيل .

أبو الحسن على الحسنى الندوى

ندوة العلماء ١٤٠٨/٨/١٢ هـ .
لكنو الهند ١٩٨٨/٤/١ م

★ ★ ★



مقدمة

بقلم الأستاذ الدكتور يوسف خليف
أستاذ الأدب العربى والدراسات الإسلامية
كلية الآداب ــ جامعة القاهرة

كانت الهجرة النبوية إلى المدينة المنوَّرة نقطة تحول فى تاريخ الدعوة الإسلامية ، وبداية انطلاق فى تاريخ الإسلام لتوحيد الجزيرة العربية فى أمة واحدة ، والخروج بالعرب إلى آفاق الأرض حاملين مشاعل الدين الجديد ، لإعلاء كلمة التوحيد ، وإعلان شعار الإسلام : « لا إله إلا الله ، محمد رسول الله » ، وإقامة دولة القرآن التى تسوِّى بين المسلمين جميعا بعيدا عن فوارق الجنس واللغة والطبقة ، لا فضل فيها لعربىّ على عجمىّ إلا بالتقوى ، ﴿ إن أكرمكم عند الله أتقاكم ﴾ .

ومن هنا كان عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ فى قمة ذكائه وعبقريته حين اتخذ منها بداية للتقويم الإسلامى . وصدق رسول الله ــ ﷺ ــ القائل عنه : « إن الله جعل الحقَّ على لسان عمر وقلبه » .

كانت الهجرة النبوية البشرى المبكرة لنصر الله والفتح ، ودخول الناس فى دين الله أفواجا ، ووضع « كلمة الله » و « كلمة الذين كفروا » فى موضعهما الصحيح ، بعد ما ظن رؤوس الشرك وأولياء الطاغوت فى مكة أنهم قادرون على أن يطفئوا نور الله بأفواههم ، وأن يسكتوا صوت الحقِّ المنزل على رسول الله من عند الله . وصدق الله سبحانه القائل فى كتابه الكريم : ﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار ، إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا ، فأنزل الله سكينته عليه ، وأيده بجنود لم تروها ، وجعل كلمة الذين كفروا السفلى ، وكلمة الله هي العليا ، والله عزيز حكيم ﴾ .

وكانت الهجرة النبوية أيضا البداية الحقيقية للدولة الإسلامية التى وضعت لبنتها الأولى منذ أن بركت « القصواء » ناقة رسول الله ﷺ فى مربد الغلامين اليتيمين سهيل وسهل ليقول الرسول عليه السلام : « هذا إن شاء الله المنزل » ، وليبدأ بناء المسجد ، القاعدة الأولى للمجتمع الإسلامى الجديد ، ثم ترتفع القواعد بعد ذلك لبناء هذا المجتمع ، ويتتابع الوحى بآيات التشريع الذى يحدد للدولة الناشئة نظامها السياسى والاجتماعى والاقتصادى ، ويسن لها قوانينها التى تنظم سياستها الداخلية والخارجية ، ويرسم لها الصورة المثالية التى يريدها لها فى سلوكياتها وأخلاقياتها وعلاقاتها الفردية والجماعية . ويقف رسول

لله ﷺ يتابع الوحى فى تنزيله تفسيرا وتفصيلا وتطبيقا ، وتتردد أحاديثه الشريفة فى أرجاء المجتمع الجديد تحمل لأبنائه الذين يؤسسون الدولة الجديدة خير الدنيا والآخرة ، وتحدد لهم معالم الطريق السوى ، وتهديهم ﴿ الصراط المستقيم ، صراط الذين أنعمت عليهم غير المغضوب عليهم ولا الضالين ﴾ .

لقد كانت المرحلة المدنية فى تاريخ الدعوة الإسلامية مرحلة التشريع ، بعد ما مضت المرحلة المكية فى تأصيل أصول الإسلام الاعتقادية ، وبين العقيدة والشريعة ، الدائرتين الكبريين اللتين يدور فيهما الإسلام ، كانت مرحلة المدينة هى مرحلة « الشريعة » ، وكانت مرحلة مكة هى مرحلة « العقيدة » . وفى رأيى أن كلتا المرحلتين فى حاجة إلى دراسة ، بل إلى دراسات تقف عندهما ، وتتخصص لهما ، لتكشف عن المنهج القرآنى والمنهج النبوى فى إقامة الحياة الجديدة : ديناً ودولة ، وليست إحداهما بأحق من الأخرى بالبحث والدراسة . وإذا كان صاحب هذه الدراسة ، الدكتور محمد لقمان الأعظمى ، قد وقف عند المرحلة الثانية ، فإنا ننتظر منه دراسة أخرى تقف عند المرحلة الأولى . والله يهدينا ويهديه سواء السبيل .

* * * *

عرفتُ صاحب هذه الدراسة منذ أكثر من ربع قرن من الزمان طالبا بقسم اللغة العربية فى كلية الآداب من جامعة القاهرة ، حيث يلتقى أبناء الأمة الإسلامية من شتى أطرافها باحثين عن الثقافة العربية والإسلامية فى هذا القسم العريق .

عرفته طالبا وافدا من بلاد الهند العريقة التى تربطها ببلاد العرب وشائج وثيقة منذ أقدم عصورها حتى اليوم ، يحمل معه مثلا طيبا لإخواننا فى الدين فى هذه البلاد الذين يحملون فيها مشاعل الإسلام متوقدة وهاجة ، ويرفعون أعلامه الخفاقة بأيديهم القوية ، امتداداً للراية المظفرة التى رفعها منذ خمسة عشر قرنا من الزمان البطل المسلم الكبير محمد بن القاسم الثقفى حامل نور الإسلام إلى هذه البلاد الطيبة .

وتوالت سنوات الدراسة موفقة مباركة ، وانتهت المرحلة الأولى من رحلة فتى الهند العلمية ، وبدأت رحلته مع الدراسات العليا لنيل درجة الماجستير فى الأدب العربى مع الشاعر العباسى خالد بن يزيد الكاتب ، وأسعدتنى مناقشة رسالته ، فقد رأيت الفتى الوافد من بلاد الهند وقد أجاد اللغة العربية كأحد أبنائها . ولم يكن ذلك غريبا عليه ، فهو ينتمى إلى أسرة عريقة فى الإسلام وفى العربية . ثم جمعتنى به رسالة الدكتوراه مشرفاً عليها ، وقد غير اتجاهه إلى

الدراسات الإسلامية ، واقترحت عليه دراسة « مجتمع المدينة المنورة فى عصر النبوة كما يصوره القرآن الكريم » . وبدأت رحلته الثالثة التى صحبنى فيها سنوات ذوات عدد ، ورأيت فيه باحثا على صلة وثيقة بالمكتبة الإسلامية الغنية بتراثها ، وعلى علم واسع بعلومها من تفسير وحديث وفقه وتاريخ . وكان عمله فى هذه السنوات فى الأرض المباركة التى ظهر فيها الإسلام وانتشر منها سببا آخر لتعميق هذا العلم وهذه الصلة ، وأيضا لتوثيق صلته باللغة العربية وإجادته لها إجادة تامة .

وتوالت سنوات رحلته معى ، ورأيت الجهد الضخم الذى يبذله فى رسالته ، والسعى الدؤوب الذى لم يكن يهدأ ليحقق الهدف الذى يسعى إليه ، حتى إذا ما بلغنا الغاية ، وتمت الرسالة ، كان إعجاب لجنة المناقشة بها إعجابا كبيرا : قدرت له الجهد الخصب الذى بذله فيها ، وأثنت على المنهج العلمى الدقيق الذى سلكه فى دراستها ، وعلى الأسلوب العربى السليم الذى كتبها به ، ونوهت بسيطرته المحكمة على جوانب موضوعه ، وخبرته الواسعة بمصادره ومراجعه ، وحمدت له دقة أحكامه التى انتهى إليها ، وسلامة نتائجه التى حققها ، ومنحته لذلك أعلى تقدير تمنحه الجامعة لرسالة دكتوراه : مرتبة الشرف الأولى .

لقد كانت الرحلة طويلة ، ولكنها كانت ممتعة ، ومع كل خطوة كنا نخطوها على امتداد الطريق الطويل كان الإحساس بالسعادة يتجدد ، والشعور بالرضا يتضاعف . وحقا إن الحياة مع الدراسة القرآنية — كما ذكر صاحب هذه الدراسة — « سعادة لا يعرفها إلا من ذاقها ، سعادة ترفع العمر وتباركه ، وتجلو القلب وتصقله » .

* * * *

تحية وتهنئة إلى محمد لقمان الأعظمى الوافد من الهند ليدرس فى القاهرة مجتمع المدينة المنوَّرة ، تأكيدا لوحدة الإسلام فى مشارق الأرض ومغاربها . وصدق الله العظيم القائل فى كتابه الكريم : ﴿ إن هذه أمتكم أمة واحدة وأنا ربكم فاعبدون ﴾ .

والصلاة والسلام على محمد رسول الله الذى بلغ الرسالة ، وأدى الأمانة ، وخرج باللغة العربية ، لغة القرآن الكريم ، من حدود جزيرتها إلى آفاق الأرض الواسعة ، وأضاء بنور الإسلام ما بين مشرق الشمس ومغربها . والحمدلله رب العالمين .

يوسف خليف



بين يدى الكتاب

الحمد لله رب العالمين ﴿ كتاب فصلت آياته قرآناً عربياً لقوم يعلمون ﴾(١) ونصلى ونسلم على المبعوث رحمة للعالمين ، وعلى آله وصحبه أجمعين ..

أما بعد :

فمن المُسَلَّم به أن المجتمع الإسلامى فى المدينة المنورة الذى أقامه سيد المرسلين ﷺ بعد الهجرة مجتمع مثالى ، متكامل ، لم تحظ الدنيا كلها من بعده بمثله .

ومن هنا رأيت أن يكون موضوع رسالتى دراسة تحليلية أستجلى فيها أسس هذا المجتمع ومعالمه وملامحه فى عصر النبوة خاصة ، كما يصوره القرآن الكريم .

وقد حرصت فى هذه الدراسة على الالتزام بالمنهج التحليلى لواقع المجتمع المدنى فى هذا العصر بطوائفه الثلاث : المسلمين ، وأهل الكتاب : اليهود والنصارى ، والمنافقين فى ضوء تصوير القرآن الكريم له .

وكان الهدف الذى تسعى إليه هذه الدراسة عن طريق هذا المنهج استجلاء الحقائق حول هذا المجتمع المثالى : كيف تأسس ؟ وما الركائز التى قام عليها ؟ وما الأساسيات التى ساهمت فى تكوينه وتنظيمه ؟ وما التطورات الاجتماعية والاقتصادية التى شهدها ؟ وما التحديات والتكتلات التى واجهته ؟ وما الأساليب التى كان يسلكها نبى الهدى ﷺ لمواجهة هذه التحديات حتى نما وازدهر وتكامل ، وتحول من صورته الجاهلية إلى صورته الإسلامية المثالية ؟ .

لقد كانت هذه الدراسة إجابة عن هذه الأسئلة ، وعن كثير غيرها .. وهى من وجه آخر تحقيق لأمنية عذبة طالما راودتنى لدراسة هذا المجتمع كلما أمعنت النظر فى الآيات التى تتحدث عن أهل المدينة ، وكلما تعمقت فى إدراك مفاهيم القرآن وأبعاده ، وكلما سمعت أو قرأت حادث الإفك ، وقصة الثلاثة الذين خُلِّفوا .. فهذان الحدثان فى تصورى يمثل الأول منهما الفتنة التى يمكن أن تفت فى عَضُد الاستقرار الداخلى .. وقد عالجها الرسول ﷺ علاجاً هو فى واقعه الأسوة الحسنة التى ينبغى أن يلتزم بها كل فرد ، وصورها القرآن تصويراً هذَّب به النفس الأمارة بالسوء .

---

(١) فصلت : ٣ .

ويمثل الثانى منهما الفتنة التى يمكن أن تفت فى عضد الأمن الخارجى ، وهيبة الدولة فى قلوب أعدائها .. وقد عالجها الرسول ﷺ بحكمة القائد المربى ، وصور القرآن بعض لقطاتها تصويراً رائعاً معجزاً .

وإذا كانت الدراسات حول مجتمع المدينة غير قليلة قديماً وحديثاً .. فإن هذه الدراسة حرصت على أن تكون لها شخصيتها المتفردة ببعض ملامحها فى وسط هذه الدراسات .

وأبرز ملامح دراستى هذه أنها استمدت حقائقها من خلال التصوير القرآنى لأحداث هذا المجتمع .. وهو تصوير معجز خالد سيبقى إن شاء الله تعالى جديداً متجدداً بتجدد الأيام والظروف. كلما قرأته ألفيت عطاء جديداً يؤكد لك كأنك تقرأه أول مرة .. لأنه تصوير يخاطب أفراد المجتمع وجماعته قائلًا : « أقم دولة القرآن فى قلبك تقم فى مجتمعك » .

حاولت أن أجمع لوحات متنوعة ترسم صورة لهذا المجتمع بأبعاده الكاملة خلال أوثق نص عاصر تنظيمه وتأسيسه وهو « القرآن الكريم » البليغ المعجز .. فآياته الموحية خير ما يصور هذا المجتمع بأبعاده الدقيقة ، ويبرز ما فيه من السلبيات والإيجابيات .. ولن يرتاب باحث فى هذا الدين فى أن فكرة المجتمع واضحة بارزة فى شعائره ونظمه على السواء ، وأنها الفكرة الأولى القوية الشائعة فى كيانه كله .. ولا يمكن عزل القرآن عن المجتمع ، أو عزل الجانب الاجتماعى عنه .

من هنا كنت أركز على إبراز سمات المجتمع المدنى ومعالمه ومميزاته من خلال الوقائع والأحداث ، ومن خلال جمع النظم والقيم التى أحدثها القرآن ، وباستعراض مظاهر التطور ومراحله ، والتحول من مجتمع الجاهلية المادى إلى المجتمع الإسلامى الجديد .. وهى أبرز سمة امتاز بها هذا المجتمع ، والتزمت هذه الدراسة بإبرازها .

وأول شىء اعتمدت عليه فى هذه الدراسة الآيات القرآنية ، وبدأت أتتبعها آية آية ، وأخذت أبوّبها على موضوعات متنوعة حتى بدأ يتراءى لى أنه بإمكانى رسم صور كثيرة لجوانب هذا المجتمع .. إن لم تكن وافية بكل شىء فإنها تضم الخطوط الرئيسية للصور التى ينبغى أن تكون ، وتتجلى معالمها بذكر الأحداث والوقائع والمناسبات من خلال المصادر الموثقة .

وبدأت أنسق الآيات وأرتبها حسب الموضوعات والأفكار المطلوبة ، وأسجلها فى بداية الأحداث ، وأحياناً فى أثنائها ، وأدع القارىء يعيش فى ثناياها ، ويتمعن فى معانيها ، وهى ترصد له الأفكار ، وتهىء له الأجواء بعنوان ــ

« الآيات تتحدث عن كذا .. وعن كذا » ومع دراسة هذه الآيات ثم مقارنتها بالروايات الموثقة يتجلى المجتمع الجديد .. هو جديد فى توجهه واعتقاده وسلوكه .. وليس جديداً بأفراده .. فالأفراد بالأمس فى المجتمع السابق هم أفراد اليوم فى المجتمع الجديد .. وإنما تظهر الفجوة بين المجتمع السابق والمجتمع الجديد .

وكان الاعتماد الثانى بعد كتاب الله : التركيز على قراءة كتب التفسير ، والأحاديث ، والسيرة النبوية لما فى مادتها من ثروة عظيمة لمعرفة طبيعة المجتمع وما فيه من عادات وقيم ، وما فى هذه الأحاديث من تفصيل وتوضيح لكثير من الآيات .. لأنها جاءت تنفيذاً لأمر الله تعالى : ﴿ وأنزلنا إليك الذكر لتبين للناس .. ﴾(١) ولذلك وجدت من الأفضل نقل حديث كعب بن مالك رغم طوله شرحاً للآيات ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا .. ﴾ كما كان حديث الإفك خير طريق لشرح الآيات ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم .. ﴾ علاوة على ما فيها من تصوير دقيق للبيئة المدنية .

ثم مضيت أبحث عن الدراسات الحديثة .. لأن البحث العلمى لا يمكن أن يستكمل عناصره إلا بعد متابعة الأبحاث الجديدة المتعلقة به ، فوجدت أن هذه الدراسات التى تتعلق بهذا البحث بوسيلة أو بأخرى متنوعة وكثيرة : منها ما هو تاريخى ، ومنها ما هو تربوى أو أدبى .. وكلها تختلف عن هذه الدراسة التى تمت فى ضوء النصوص القرآنية لتبقى فى إطارها الفنى الأدبى الذى يختلف عن الدراسات التاريخية ، وما يتعلق بالسيرة النبوية التى تعتمد فى مادتها على الحديث والروايات التاريخية .

وبعد هذه الدراسة الشاملة ، والتشبع بروح المجتمع المدنى من خلال الآيات تبلورت فى ذهنى صور واضحة عن تطور البيئة المدنية ، وما جدَّ فيها من قيم ومعايير وعادات وسلوك فكان أن انقسم الموضوع إلى أربعة أبواب :

الباب الأول :

تعلق بتأسيس المجتمع « المجتمع المدنى فى مرحلة التأسيس » واشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

« الهجرة وتأسيس المجتمع المدنى » ويتحدث عن الهجرة ودورها فى تطوير المجتمع وتنظيمه .. وكانت الآيات خير وسيلة لإبراز مكانة الهجرة ، وضرورتها ، وضرورة البحث عن قاعدة أخرى تحمى هذه العقيدة .

---

(١) النحل : ٤٤ .

الفصل الثانى :

عن « ركائز المجتمع الجديد » من بناء المسجد ، وكتابة الوثيقة ، والمؤاخاة بين المهاجرين والأنصار .. واعتبرت أن هذه الركائز الثلاث كان لها أكبر الأثر فى تنظيم المجتمع المدنى ، وتثبيت دعائمه ، وتطوير أنظمته .. وكان من أبرز هذه الركائز فكرة الإخاء الرائدة التى كانت بداية لتنظيم علاقات اجتماعية جديدة ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية والاجتماعية .. فكانت الأخوة مسئولية حقيقية مبتكرة ، واعتبرت من مظاهر الأخوة الإيواء : إيواء أهل الصفة حيث كانت الأخوة رأس مالهم الأساسى ﴿ للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾[1] والقرآن وجَّه الأنصار إلى تنقية هذه الثروة التى اعتبرتها رأس مال أهل الصفة ﴿ ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ﴾[2] ولذلك سجل القرآن أجمل صورة لحفاوة الأنصار بالمهاجرين ، واستقبالهم لهذه الفئة الصادقة قائلًا : ﴿ والذين تبوأوا الدار والإيمان من قبلهم يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ (٣)

الفصل الثالث :

« الجهاد والسرايا والغزوات الأولى » وكانت الآيات أيضاً خير وسيلة لإبراز مفاهيم الجهاد ، وإعطاء تصوير جديد للموت والحياة ، وإعداد النفوس والتشبع بمعانى الجندية والقيادة .

والحق أنه قدواجهتني فى أثناء دراستى لهذا الباب .. وبخاصة فى الفصلين الأولين عدم كثرة الآيات القرآنية ، لإلقاء الضوء الكافى على تأسيس المجتمع ، وبزوغ فجر الاسلام ، مما جعلنى أستعين بنصوص السيرة والأحاديث لأربط أجزاءها حتى تستمر الأحداث متسلسلة ، كما أننى لم أجد نصوصاً صريحة يمكن اعتبارها وثائق لكتابة « الوثيقة » مما جعلنى أترجم عباراتها بالآيات بصورة تقريبية .

أما الفصل الثالث : الذى تعلق بالجهاد والغزوات فقد كان غنياً بالآيات ، وكانت هى المادة الأساسية لإبراز الأفكار ، وربط الأحداث ، واستخراج النتائج والعبر .. ودرست فى هذا الفصل غزوة بدر ، وغزوة أحد ، دون غيرهما من الغزوات .. لأن لهما تأثيراً مباشراً فى تنظيم المجتمع وتكوينه .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .

(٢) البقرة : ٢٦٧ .

(٣) الحشر : ٩ .

الباب الثانى :

« المجتمع المدنى فى مرحلة التطوير » واختص بوسائل تطوير هذا المجتمع .. وقد اشتمل على فصلين :

الفصل الأول :

« أساسيات تطوير المجتمع (الوسائل النظرية) » ويتحدث عن الوسائل النظرية من التربية الفردية والجماعية .

الفصل الثانى :

« التربية بالأحداث (الوسائل العملية) » ويتحدث عن الوسائل التطبيقية .. لأنها من أبرز سمات التربية النبوية ، ولأنها أكثر تأثيراً فى المجتمع ، وأشد وقعاً فى النفوس .. ومن وسائل التربية التطبيقية التى سلكها القرآن لتنظيم المجتمع المدنى كانت قضية اللعان .. وهى أن هلال بن أمية قذف امرأته ، وقال النبى ﷺ : « البينة .. وإلا حَدٌّ فى الظهر » فنزلت آيات تعالج هذه القضية : ﴿ والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ﴾ (١)

ثم درست حادثة الإفك دراسة مفصلة ، ووقفت عندها وقفة المتأمل المتمعن الحريص على استخراج النتائج .. واستطعت من خلال هذه الدراسة أن أستنتج كثيراً من العيوب والنقائص التى كانت موجودة فى المجتمع المدنى ، واستمرت حتى السنة السادسة تقريباً .. وكأنها كانت تنتظر حدثاً عظيماً يقع ، فيشغل الناس ، ويلفت الأنظار ، وتتلبد الغيوم ، ثم تنقشع لتظهر وراءه أنظمة دقيقة تنظم سلوك المجتمع وأخلاقياته ﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم .. ﴾ (٢)

وكان آخر ما درست فى هذا الموضوع غزوة تبوك ، وحادثة الثلاثة الذين خُلِّفوا .. وهذه الحادثة كما رواها كعب بن مالك بأسلوبه الأدبى المثير جاءت شرحاً للآيات التى تتحدث عنها ﴿ وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا .. ﴾ (٣)

وفى هذه الرواية صورة بارزة من المجتمع المدنى المتكامل ، ولمحات جميلة تدل على متانة بنائه ، وصفاء عناصره ، ونصاعة تصوره لمعانى الجماعة ، ولتفهم معانى القيادة .

---

(١) النور : ٦ .

(٢) النور : ١١ .

(٣) التوبة : ١١٨ .

الباب الثالث :

« البنية الاجتماعية فى صورتها الجديدة » وأفرد لإبراز سمات المجتمع المدنى ، ومعالمه ، ومميزاته ، واشتمل على ثلاثة فصول :

الفصل الأول :

« الأسرة ووسائل الحفاظ عليها » ويتحدث عن الزواج كوسيلة هامة من وسائل تنظيم المجتمع وتطهيره .. ودرست فى هذا الفصل الأمراض الخطيرة التى كانت فاشية فى المجتمع اليثربى ، واستمرت حتى بعد الهجرة بفترة غير قصيرة .. ومنها الزنا ، والميسر ، والخمر .. لأنها كانت من معالم الحياة الجاهلية ، وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح ، واتخاذ الشواء ، كما صور مصعب بن سعد أحد هذه المجالس بروايته المثيرة .

فنسقت الآيات حسب الترتيب الزمنى لبعض الأحداث ،ودرستها دراسة علمية حتى اتضحت كل مرحلة على حدة تصور حلقة مسلسلة متدرجة فى معالجة هذه الأمراض .

الفصل الثانى :

« التطورات الاقتصادية والتكافل الاجتماعى » ويتحدث أولًا عن خصائص الاقتصاد الإسلامى ، ومشروعية المال وحله ، ووضعه فى محله .. ولقد حدد الإسلام مدلول كلمة « الاقتصاد » فى قوله تعالى : ﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواما ﴾(1) وكان من عناية الإسلام لإبراز سمات الاقتصاد الإسلامى ومعالمه أنه من أوائل ما نزل فى هذا الصدد عندما قدم النبى ﷺ المدينة : ﴿ ويل للمطففين ﴾ ، فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق فقرأها .. وبينْتُ مدى استجابة المجتمع لهذه الأسس الأقتصادية ،وسقت على ذلك نماذج حية .. فعندما نزلت الآية : ﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً .. ﴾ (2)انطلق أبو الدحداح رضى الله تعالى عنه إلى الرسول ﷺ قائلًا : (فإنى أقرضت ربى عز وجل حائطى) ، وحائطه فيه ستمائة نخلة .. والقصة تمثل تطوراً رائعاً فى التطبيق العملى الاقتصادى ، وتطبيقاً بليغاً فى الانفاق فى سبيل الله .

وبعد هذه الخطوة درست الآيات التى عالجت قضية الربا ، مراعياً فى ذلك التدرج الزمنى والحكمة المطلوبة منه .

---

(1) الفرقان : ٦٧ .

(2) البقرة : ٢٤٥ .

ويتحدث هذا الفصل ثانياً عن التكافل الاجتماعي .. وهو من أبرز صفات المجتمع المدنى ، وأكثر ما يميزه عن غيره من المجتمعات .. فأوردت جملة من الآيات التى تتحدث عن فكرة التكافل ، ودرست فى ضوء ذلك معنى التكافل لغة وشرعاً ، ثم بينت أن الإسلام نظم هذا التكافل على أساس تقسيم المجتمع فى صورة وحدات متكافلة .

الفصل الثالث :

عن « الآداب الاجتماعية » التى نظمت سلوك هذا المجتمع .. هذا المجتمع المتواد ، المتحاب ، المترابط ، المتكافل ، الذى حققه القرآن فى أرق وأصفى صوره ليكون نبراساً للأمة يحتذى به ، أحاطه بسياج من الأسباب الوقائية .. منها التثبت من الأخبار ، وعدم إساءة الظن بالمسلم ، والنهى عن السخرية منه ، والاستهزاء به ، والنهى عن التجسس والغيبة .

ومن هذه الآداب الاجتماعية التى تجلت خلال دراستنا للآيات : النهى عن رمي المحصنات لينشأ مجتمعاً نظيفاً ، كل فرد فيه مصون العرض ، تضيق فيه فرص الغواية والانزلاق .. ومن هذه الآداب الجديدة : الأمر بغض البصر .. لأن الإسلام يهدف إلى إقامة بيئة نظيفة لا تتاح فيها الأسباب لإهاجة الشهوات فى كل لحظة .. وقد أثبت خلال دراستى أن الإسلام جاء بتحيته الخاصة التى تميز المجتمع المسلم .

ومن الأفكار والقيم الجديدة التى تلقاها المجتمع المدنى وسط الأحداث والتطورات فى العقائد والسلوك أسس الاستئذان وآدابه .. إنها وإن تك فى صورة آداب اجتماعية فإنها فى جوهرها تشريع وقائى يهدف إلى تحصين عزة مجتمع الإسلام وشخصيته .

الباب الرابع :

عن « الأقليات فى المجتمع المدنى » : أهل الكتاب « اليهود والنصارى » والمنافقون ، وضم فصلين :

الفصل الأول :

« أهل الكتاب » درست فى هذا الفصل أولا النصوص التى تتعلق باليهود ، وتبين تحركاتهم ، وتأثيرهم فى هذا المجتمع ، مراعياً فى ذلك الترتيب الزمنى ، وتسلسل الأحداث .. ثم درست الأسباب التى دعت اليهود إلى الاصطدام بدعوة محمد ﷺ ، ودعمت بعضها باعتراف الكاتب اليهودى الشهير « ويلفنسون » ثم وضحت كيف عالج القرآن هذا الموقف ، وأن العلاج كان ذا شقين .. أولا : تنديد القرآن بمواقف اليهود العدائية لإثارة البلبلة فى المجتمع ، والشق الآخر خطاب

إلى المجتمع المدنى ، ونصحه بألا ينخدع بأقوال اليهود وأباطيلهم .

ووقفت بعد ذلك عند جدال اليهود مع الرسول ﷺ ، ثم تطرقت إلى أسباب التطهير .. درست هذه المواقف لأخلص بنتيجة فرضتها الأحداث .. وهى ضرورة تطهير المجتمع المدنى منهم .. ولقد تعددت مواقف التطهير .. فكان لكل فريق من اليهود موقف .. وفى نهاية هذا الفصل تحدثت عن تأثير النصارى فى المجتمع المدنى ، ثم ذكرت حقيقة النصارى كما يسجلها القرآن على لسان عيسى عليه السلام : ﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً ﴾[1] .. ثم سجلت مباهلة النصارى ، ومجادلتهم للنبى ﷺ ، وكيف انجلى الحق عندما تراجع النصارى وأبوا المباهلة فكان لها صدى عميق فى المجتمع .

الفصل الثانى :

« المنافقون » فقد أفردته للأقلية الثالثة (المنافقين) ، ودرست فى هذا الفصل معنى النفاق اللغوى والشرعى ، وبدايته ، ومواجهته للموكب النبوى ، ثم ذكرت حرصهم على استغلال مجريات الأحداث الجارية بالمجتمع ، وسجلت موقف القرآن منهم ، وكيف تولى كشف أمرهم ، وفضح سرائرهم ، وتحديد موقف الإسلام والمسلمين منهم .. وبذلك تمت عناصر المجتمع المدنى من المؤمنين ، واليهود ، والنصارى ، والمنافقين .

وبعـــد :

فالحياة مع الدراسة القرآنية نعمة لا يعرفها إلا من ذاقها .. نعمة ترفع العمر وتباركه ، وتجلى العقل وتصقله .. عشت فى ظلال هذه النعم حقبة من الزمن مع هذل الموضوع بفضل تشجيع أستاذنا الكريم الأستاذ الدكتور « يوسف عبد القادر خليف » والحائز على جائزة الملك فيصل في الأدب العربي عام ١٤٠٩هـ ــ ١٩٨٩ م الذى كان لإشرافه الدؤوب ، وأسلوبه التربوى أكبر الأثر فى إنجاز هذا الموضوع .

.. وكذلك أقدم جزيل شكرى إلى الأستاذين الجليلين : الأستاذ الدكتور : محمد على مكى أستاذ ورئيس قسم الدراسات الأسبانية فى جامعة القاهرة ، والحائز على جائزة الملك فيصل فى الدراسات الأندلسية عام ١٤٠٨ ــ ١٩٨٨ م والأستاذ الدكتور : أحمد محمد النجار الأستاذ فى جامعة عين شمس كلية البنات .

---

(١) مريم : ٣٠ .

ولا أستطيع أن أكافئهم جميعاً إلا بالدعاء لهم ببركة العمر ، وصلاح العمل ، وحسن الخاتمة « وخيركم من طال عمره وحسن عمله » .

وقد أخذت بعين الاعتبار البالغ ما أسدوه من تقويم وتوجيه عند مراجعة الكتاب وإعداده للطبع ، وأقدم أسمى آيات الشكر والتقدير إلى جميع الإخوة الذين ساهموا فى إخراج هذا الكتاب .. ولا سيما أخي فى الله محمد سمير عبد الله خريج هندسة القاهرة ـــ ومن مواليد المنصورة ، والأخ الرياضى الأستاذ : عبد الناصر إسحق مصطفى المعيد فى الكلية المتوسطة « بحائل » (السعودية) ، وقد كان الصبور الودود إلى أن أخرج هذا الكتاب ، والأخ الدكتور : محمود توفيق الأستاذ المساعد فى جامعة الأزهر ـــ كلية اللغة العربية .

وإنى لأرجو من الله ـــ جل جلاله ـــ أن تكون هذه المساهمة المتواضعة فى الدراسات القرآنية فاتحة خير لأمثال هذه الدراسات .. والله تعالى الموفق والهادى إلى سواء السبيل .

﴿ رب أوزعنى أن أشكر نعمتك التى أنعمت علىّ وعلى والدى وأن أعمل صالحاً ترضاه ، وأدخلنى برحمتك فى عبادك الصالحين ﴾ (١)

د . محمد لقمان الأعظمى الندوي

كلية إعداد المعلمين / قسم الدراسات الإسلامية

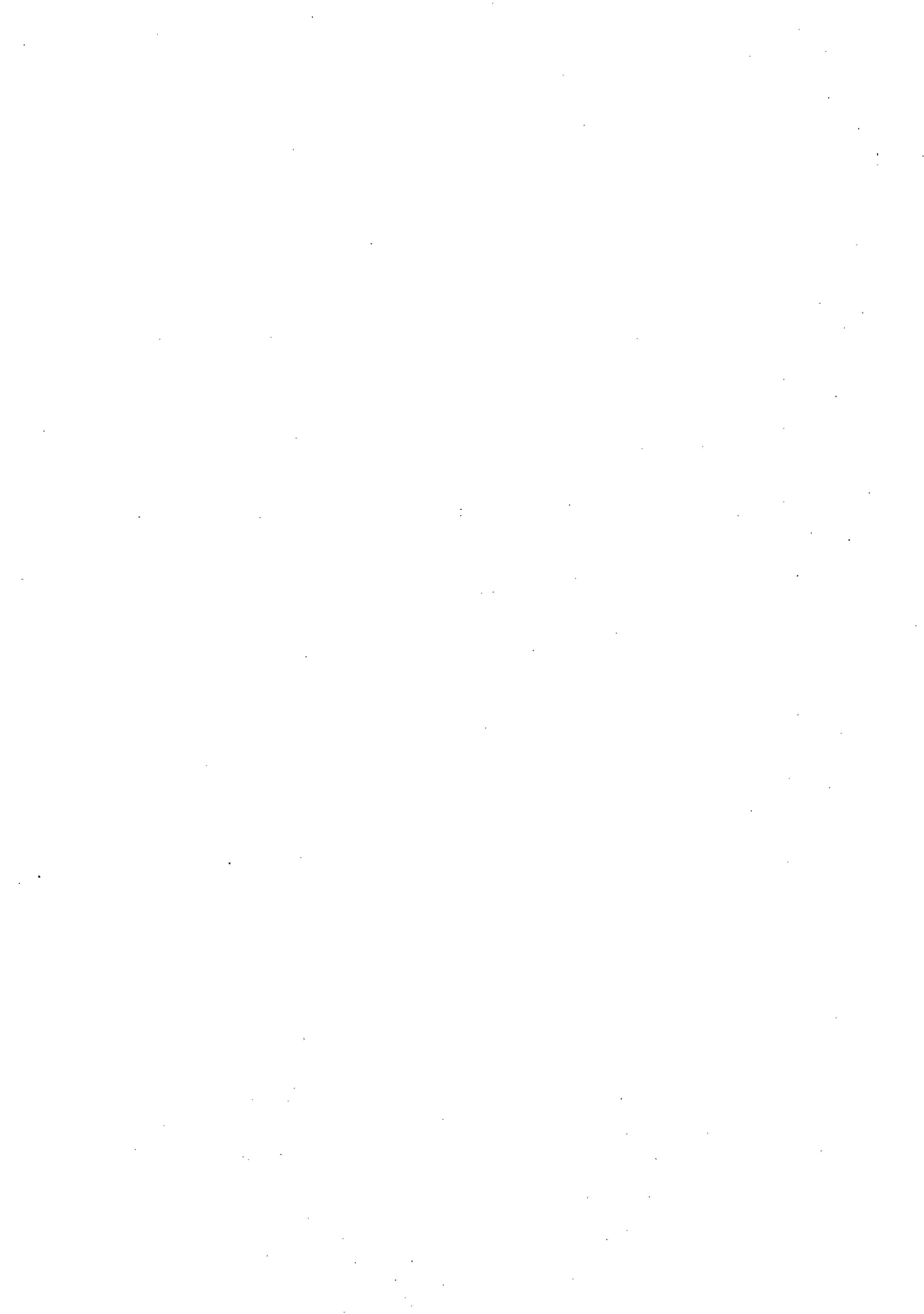
حائل ـــ السعودية

١٤٠٨/٣/١٢ هـ

٣ /١١/ ١٩٨٧ م

* * *

(١) النمل : ١٩ .



الباب الأول

المجتمع المدني في مرحلة التأسيس

الفصل الاول

الهجرة وتأسيس المجتمع المدنى

الفصل الثانى

ركائز المجتمع المدنى الجديد

الفصل الثالث

الجهاد والسرايا والغزوات الأولى



الفصل الأول

الهجرة وتأسيس المجتمع المدنى

« الآيات تصور مفهوم الهجرة وأبعادها وأهدافها »

١ ــ دوافع الهجرة .
٢ ــ طوالع الهجرة إلى الحبشة .
٣ ــ بيعة العقبة الأولى واختيار المدينة داراً للهجرة .
٤ ــ بزوغ فجر الإسلام فى المدينة وبيعة العقبة الثانية :
٥ ــ الإذن العام بالهجرة إلى المدينة .
٦ ــ موكب الرسول ﷺ فى طريق الهجرة .
٧ ــ عناية الله ترعى الموكب .

﴿ لا تحزن إن الله معنا ﴾

(التوبة : ٤٠)

* * *



الآيات التى تصور مفهوم الهجرة وأبعادها وأهدافها :
يقول الحق عز وعلا :

إِنَّ الَّذِينَ تَوَفَّاهُمُ الْمَلَائِكَةُ ظَالِمِي أَنفُسِهِمْ قَالُوا فِيمَ كُنتُمْ قَالُوا كُنَّا مُسْتَضْعَفِينَ فِي الْأَرْضِ ۚ قَالُوا أَلَمْ تَكُنْ أَرْضُ اللَّهِ وَاسِعَةً فَتُهَاجِرُوا فِيهَا ۚ فَأُولَٰئِكَ مَأْوَاهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَسَاءَتْ مَصِيرًا ﴿٩٧﴾ إِلَّا الْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ الرِّجَالِ وَالنِّسَاءِ وَالْوِلْدَانِ لَا يَسْتَطِيعُونَ حِيلَةً وَلَا يَهْتَدُونَ سَبِيلًا ﴿٩٨﴾ فَأُولَٰئِكَ عَسَى اللَّهُ أَن يَعْفُوَ عَنْهُمْ ۚ وَكَانَ اللَّهُ عَفُوًّا غَفُورًا ﴿٩٩﴾ * وَمَن يُهَاجِرْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ يَجِدْ فِي الْأَرْضِ مُرَاغَمًا كَثِيرًا وَسَعَةً ۚ وَمَن يَخْرُجْ مِن بَيْتِهِ مُهَاجِرًا إِلَى اللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ يُدْرِكْهُ الْمَوْتُ فَقَدْ وَقَعَ أَجْرُهُ عَلَى اللَّهِ ۗ وَكَانَ اللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿١٠٠﴾

النساء : ٩٧ — ١٠٠ .

إِنَّ الَّذِينَ آمَنُوا وَهَاجَرُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَالَّذِينَ آوَوا وَّنَصَرُوا أُولَٰئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَاءُ بَعْضٍ ۚ وَالَّذِينَ آمَنُوا وَلَمْ يُهَاجِرُوا مَا لَكُم مِّن وَلَايَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا ۚ وَإِنِ اسْتَنصَرُوكُمْ فِي

ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

الأنفال : ٧٢ .

وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُؤْمِنُونَ حَقًّا ۚ لَّهُم مَّغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٧٤﴾ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مِنۢ بَعْدُ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ مَعَكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ مِنكُمْ ۚ وَأُو۟لُوا۟ ٱلْأَرْحَامِ بَعْضُهُمْ أَوْلَىٰ بِبَعْضٍ فِى كِتَٰبِ ٱللَّهِ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ بِكُلِّ شَىْءٍ عَلِيمٌۢ ﴿٧٥﴾

الأنفال : ٧٤ ـ ٧٥ .

إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ

إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾

التوبة : ٤٠ .

وَالسَّٰبِقُونَ الْأَوَّلُونَ مِنَ الْمُهَٰجِرِينَ وَالْأَنصَارِ وَالَّذِينَ اتَّبَعُوهُم بِإِحْسَٰنٍ رَّضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِي تَحْتَهَا الْأَنْهَٰرُ خَٰلِدِينَ فِيهَا أَبَدًا ذَٰلِكَ الْفَوْزُ الْعَظِيمُ ﴿١٠٠﴾

التوبة : ١٠٠ .

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي اللَّهِ مِن بَعْدِ مَا ظُلِمُوا لَنُبَوِّئَنَّهُمْ فِي الدُّنْيَا حَسَنَةً وَلَأَجْرُ الْآخِرَةِ أَكْبَرُ لَوْ كَانُوا يَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾ الَّذِينَ صَبَرُوا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٤٢﴾

النحل : ٤١ ــ ٤٢

وَالَّذِينَ هَاجَرُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ ثُمَّ قُتِلُوا أَوْ مَاتُوا لَيَرْزُقَنَّهُمُ اللَّهُ رِزْقًا حَسَنًا وَإِنَّ اللَّهَ لَهُوَ خَيْرُ الرَّٰزِقِينَ ﴿٥٨﴾ لَيُدْخِلَنَّهُم مُّدْخَلًا يَرْضَوْنَهُ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَلِيمٌ حَلِيمٌ ﴿٥٩﴾ * ذَٰلِكَ وَمَنْ عَاقَبَ بِمِثْلِ مَا عُوقِبَ بِهِ ثُمَّ بُغِيَ عَلَيْهِ لَيَنصُرَنَّهُ اللَّهُ إِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ ﴿٦٠﴾

الحج : ٥٨ ــ ٦٠ .

يَٰعِبَادِيَ الَّذِينَ ءَامَنُوا إِنَّ أَرْضِي وَٰسِعَةٌ فَإِيَّٰيَ فَاعْبُدُونِ ﴿٥٦﴾

العنكبوت : ٥٦ .

قُلْ يَٰعِبَادِ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمْ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ فِى هَٰذِهِ ٱلدُّنْيَا حَسَنَةٌ ۗ وَأَرْضُ ٱللَّهِ وَٰسِعَةٌ ۗ إِنَّمَا يُوَفَّى ٱلصَّٰبِرُونَ أَجْرَهُم بِغَيْرِ حِسَابٍ ﴿١٠﴾

الزمر : ١٠ .

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾ وَٱلَّذِينَ جَآءُو مِنۢ بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا ٱغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَٰنِنَا ٱلَّذِينَ سَبَقُونَا بِٱلْإِيمَٰنِ وَلَا تَجْعَلْ فِى قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ رَبَّنَآ إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾

الحشر : ٨ ــ ١٠ .

الهجرة

(١) دوافع الهجرة :

كان موقف قريش من الدعوة .. وبخاصة بعد وفاة خديجة رضى الله تعالى عنها ، وموت أبى طالب كافل النبى ﷺ وحاميه . كان هذا الموقف قد انتهى إلى تجميد الدعوة فى مكة كلها وما حولها ، وتفننت قريش ، وقست فى إيذاء رسول الله ﷺ فلم تَرع فيه قرابة ، وتخطت حدود الإنسانية .. فبينما النبى ﷺ ساجد ذات يوم فى المسجد وحوله ناس من قريش ، إذ جاءه عقبة بن أبى معيط بسلا[١]جزور ، فقذفه على ظهر النبى ﷺ ، فلم يرفع رأسه ، فجاءت ابنته « فاطمة » (رضى الله تعالى عنها) فأخذته من ظهره ودعت على من صنع هذا ، ودعا عليهم النبى ﷺ[٢] .

هكذا أمعن أهل مكة فى اضطهاد النبى ﷺ والمؤمنين ، وزادوا فى تعذيبهم ، وسدوا عليهم المسالك ، وتأثرت نفسية رسول الهدى ، والآية التالية تصور حزنه العميق لهذه المواقف العنيدة : ﴿ **فلعلك باخع نفسك على آثارهم إن لم يؤمنوا بهذا الحديث أسفا** ﴾[٣] .

وفيما يشبه الإنكار يخاطب الله عز وجل الرسول ﷺ : لعلك قاتل نفسك أسفاً وحزناً عليهم ، إن لم يؤمنوا بهذا القرآن ، وما يستحق هؤلاء أن تحزن عليهن وتأسف .

---

(١) « سلا » : الجلدة الرقيقة يكون فيها الولد من المواشى .

(٢) سيرة ابن هشام بتحقيق مصطفى السقا وزملائه م ١ ، ص ٢٨٩ ط الثانية والبخارى فى باب « ذكر ما لقى النبى ﷺ وأصحابه من المشركين ج ٥ ص ١٣٣ ط ١٩٨٢ م بيروت . والوفا بأحوال المصطفى لابن الجوزى وصححه محمد زهرى النجار ج ١ ص ٣٠٤ ط : السعيدية بالرياض . بتصرف .

(٣) الكهف : ٦٠ .

﴿ **يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون** ﴾[1] .

ويقول ابن كثير : « هذا أمر من الله تعالى لعباده المؤمنين بالهجرة من البلد الذى لا يقدرون فيه على إقامة الدين إلى أرض الله الواسعة حيث يمكن إقامة الدين بأن يوحدوا الله ، ويعبدوه كما أمرهم .. ولهذا قال تعالى : ﴿ **يا عبادى الذين آمنوا إن أرضى واسعة فإياى فاعبدون** ﴾ .

قال الإمام أحمد : حدثنا يزيد بن عبد ربه : حدثنا عقبة بن الوليد : حدثنى جبير بن عمرو القرشى : حدثنى أبو سعيد الأنصارى عن أبى يحيى مولى الزبير بن العوام ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **البلاد بلاد الله ، والعباد عباد الله ، فحيثما أصبت خيراً فأقم** » ..« ولهذا لمَّا ضاق على المستضعفين بمكة مقامهم بها خرجوا مهاجرين إلى أرض الحبشة ليأمنوا على دينهم هناك فوجدوا خير المنزلين »[2] .

(٢) طوالع الهجرة إلى الحبشة :

ولما رأى رسول الله ﷺ ما يصيب أصحابه من البلاء وأنه لا يقدر على أن يمنعهم قال لهم :« **لو خرجتم إلى أرض الحبشة ، فإن بها مَلِكاً لا يظلم عنده أحد ، وهى أرض صدق ، حتى يجعل الله لكم فرجاً مما أنتم فيه** » فخرجت بذلك جماعة من المسلمين إلى أرض الحبشة ، فكانت أول هجرة فى الإسلام ، وكانوا عشرة رجال أمَّر عليهم عثمان بن مظعون ، ثم خرج جعفر بن أبى طالب وتتابع المسلمون ، حتى اجتمعوا بأرض الحبشة .. منهم من خرج بأهله ، ومنهم من خرج بنفسه ، وكان جميع من هاجر إلى أرض الحبشة ثلاثة وثمانين رجلاً[3] .

---

(١) العنكبوت : ٥٦ .
(٢) تفسير ابن كثير ــ ج ٣ ص ٤١٩ ، دار إحياء التراث العربى سنة ١٩٦٩ م .
(٣) سيرة ابن هشام م ١ ص ٣٣٠ .

ولهذه الهجرة أسباب منها :

١ ــ إثارة هزة فى المجتمع المكى بسبب شعورهم بالظلم الواقع على أبناء مكة الكرام ، واضطرارهم إلى ترك أوطانهم مهاجرين فراراً من هذا الظلم تاركين وراءهم كل وشائج القربى فى بيئة قبلية تهزها هذه الهجرة على هذا النحو هزاً .

٢ ــ البحث عن قاعدة حرة آمنة لإيجاد مجتمع إسلامى جديد ، من أجل هذا ضحَّى المسلمون بالوطن والأهل والمال ، وهاجروا إلى الحبشة .

وليست الغاية من الهجرة الخلود إلى الراحة ، وإنما هى خطوة إيجابية لنشر الدعوة وإيجاد المجتمع الجديد ، وليست أرض الحبشة ميداناً لهذا العمل الجليل .. فلابد من البحث عن مكان صالح يلجأ إليه المهاجرون ، ومن ثم كان بحث الرسول ﷺ عن قاعدة أخرى تحمى هذه العقيدة وتنمى البيئة ، وتكون المجتمع النامى المطلوب[١] .

وكان الاتجاه إلى « يثرب » بعد تمحيص دقيق وإعداد محكم ودراسة عن الأجواء والمناخ والنفوس والعادات وقصة ذلك :

أن النبى ﷺ التقى قبل الهجرة بسنتين بجماعة من الخزرج فى موسم الحج .. حيث كان يعرض نفسه ودعوته على الوافدين للحج ، وكان سكان يثرب من « الأوس » و « الخزرج » يسمعون من اليهود المقيمين معهم أن هناك نبياً قد أظل زمانه ، وكانت يهود تستفتح به على العرب ، وإلى ذلك يشير القرآن : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾[٢] .

فلما سمع وفد « الخزرج » قال بعضهم لبعض : « **يا قوم تعلمون**

---

(١) راجع « فى ظلال القرآن » لسيد قطب ج ١ ص ٢٩ ط ١٩٧٣ م ــ دار الشروق .

(٢) البقرة : ٨٩ .

والله إنه للنبى الذى توعدكم به يهود فلا تسبقُنَّكم إليه ، فأجابوه وصدقوه وقالوا : إنا قد تركنا قومنا ، ولا قوم بينهم من العداوة والشر ما بينهم فعسى أن يجمعهم الله بك(١) .

٣ ــ بيعة العقبة الأولى واختيار المدينة داراً للهجرة :

حتى إذا كان العام المقبل ، وافى الموسم من الأنصار ، اثنا عشر رجلًا ، فلقوه بالعقبة الأولى ، فبايعوا رسول الله ﷺ على التوحيد وتجنب السرقة والزنا وقتل الأولاد والطاعة فى المعروف ، فلما هم القوم بالانصراف بعث رسول الله ﷺ معهم « مصعب بن عمير » ، وأمره أن يقرئهم القرآن ويعلمهم الإسلام ويفقههم فى الدين ، فكان يُسمى «المقرىء » بالمدينة ، ونزل على « أسعد بن زرارة » وكان يصلي بهم(٢) .

وكان من حكمة الله تعالى فى اختيار المدينة داراً للهجرة ومكاناً لإيجاد مجتمع جديد ــ عدا ما أراد الله من إكرام أهلها وأسرار لا يعلمها إلا الله ــ أنها امتازت بتحصين حربى طبيعى لا تزاحمها فى ذلك مدينة قريبة فى الجزيرة ، فكانت حرة الوبرة(٣) مطبقة على المدينة من الناحية الغربية ، وحرة واقم مطبقة من الناحية الشرقية . وكانت المنطقة الشمالية من المدينة هى الناحية الوحيدة المكشوفة (وهى التى حصنها رسول الله ﷺ بالخندق سنة خمس فى غزوة الأحزاب)(٤) .

ويظهر من وصف أهل الأخبار ليثرب ، أنها كانت تشبه مدينة (الحيرة) بالعراق من حيث خلوها من سور ومن تكونها من (قصور) . وجو (يثرب) على العموم خير من جو مكة ، فهو ألطف وأفرح (٥) .

ولعل النبى ﷺ قد أشار إلى هذه الحكمة الإلهية فى اختيار المدينة

---

(١) ابن هشام م ١ ص ٤٢٩ .

(٢) المصدر نفسه م ١ ص ٤٣٤ ملخصا .

(٣) الحرة : منطقة سوداء من الحجارة النخرة (ياقوت ٢/٢٥٠) .

(٤) السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ــ ص ١٣٢ ط الثانية ــ دار الشروق .

(٥) المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد على ج ٤ ص ١٣٢ الطبعة الأولى ١٩٧٠ م بيروت .

بقوله : « **وإنى رأيت دار هجرتكم ذات نخل بين لابتين وهما الحرتان** » فهاجر من هاجر من قبل المدينة[1] .

وسميت المدينة « دار الهجرة » لأنها مقر هجرة الرسول ﷺ ، وقد تسمى « الدار » دون إضافة . قال تعالى : ﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان** ﴾[2] .

وتسمى أيضاً « ذات النخل » لأنها معروفة بزراعة النخيل منذ القدم حتى وقتنا الحاضر[3] . وذكر أهل الأخبار أن لها تسعة وعشرين اسماً ، منها (جابرة) و (مسكينة) و (مجبورة) و (يندر الدار) و (دار الهجرة)[4] .

ولقد أفاض المؤرخون فى ذكر أسماء المدينة ، وكان أكثرهم عدداً « السمهودى » والعباسى : أورد الأول ٩٤ اسماً مرتبة على حروف المعجم ، والثانى ٥٤ اسماً ، ونذكر منها بعض ما أشار إليه القرآن : ﴿ **أرض الله** ﴾ : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ ، البلد ، قال تعالى : ﴿ **لا أقسم بهذا البلد** ﴾ ،وقيل : المقصود مكة ، وقيل : المدينة .

المدينة : وهذا الاسم الذى غلب عليها فى صدر الإسلام ، ولا زالت تحتفظ به إلى اليوم ، ويضاف إليه المنورة ، قال تعالى : ﴿ **لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل** ﴾[5] .

وكان أهل المدينة من الأوس والخزرج أصحاب نخوة وإباء

---

(١) دلائل النبوة لابن القيم ص ٢٧٠ ط دار المعرفة بيروت والسيرة لابن هشام م ١ ص ٢٢٣ ، والبخارى باب هجرة النبى ج ٢ ص ٣٤٥ ط ٢ ، ١٩٨٢ م ، بيروت .

(٢) الحشر : ٩ .

(٣) الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة المنورة فى صدر الإسلام نورة بنت عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ ص ٢٣ ط ١ ــ ١٩٨٣ م جدة .

(٤) المفصل لجواد على ج ٤ ص ١٢٩ .

(٥) الحياة الاجتماعية والاقتصادية فى المدينة المنورة فى صدر الإسلام ــ نورة بنت عبد الملك بن إبراهيم آل الشيخ . راجع ص ٢١ إلى ٢٥ ط ١ ــ ١٩٨٣ م ــ جدة .

وفروسية ، وقوة ، وشكيمة ، ألفوا الحرية ، ولم يخضعوا لأحد ، ولم يدفعوا إلى قبيلة أو حكومة أتاوة أو جباية . وجاء فى العقد الفريد : « ومن الأزد الأنصار ، وهم الأوس والخزرج ، وهما ابنا حارثة بن عمرو بن عامر ، وهم أعز الناس أنفساً ، وأشرفهم همما ، ولم يؤدوا إتاوة قط إلى أحد من الملوك »(١) .

وقد جاء ذلك صريحاً فى الكلمة التى قالها « سعد بن معاذ » ـــ سيد الأوس ـــ لرسول الله ﷺ : قد كنا نحن وهؤلاء القوم على الشرك بالله وعبادة الأوثان ، لا نعبد الله ولا نعرفه ، وهم لا يطمعون أن يأكلوا منها تمرة إلا قرى أو بيعا(٢) .

والأوس والخزرج من قحطان والمهاجرون ، ومن سبق إلى الإسلام فى مكة وما حولها من عدنان ، ولما هاجر رسول الله ﷺ وقام الأنصار بنصره ، اجتمعت بذلك عدنان وقحطان تحت لواء الإسلام ، وكانوا كجسد واحد ، وكانت بينهما مفاضلة ومسابقة فى الجاهلية ، وبذلك لم يجد الشيطان سبيلًا إلى قلوبهم ، لإثارة الفتنة والتعزى بعزاء الجاهلية باسم الحمية الجاهلية ، فكانت مدينة يثرب لكل ذلك أصلح مكان لهجرة الرسول ﷺ وأصحابه واتخاذهم لها داراً وقراراً ، حتى يقوى الإسلام ويشق طريقه إلى الأمام ويفتح الجزيرة ثم يفتح العالم المتمدن(٣) .

ومن هنا بدأت الآيات البينات تحرض المؤمنين على الهجرة : ﴿ **قل يا عباد الذين آمنوا اتقوا ربكم للذين أحسنوا فى هذه الدنيا حسنة وأرض الله واسعة إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾(٤).

فأرض الله واسعة ، فلا يقعد بكم حب الأرض وإلف المكان وأواصر النسب والقربى والصحبة فى دار عن الهجرة إليها .

---

(١) العقد الفريد ج ٣ ص ٣٣٤ (طبع لجنة التأليف والترجمة والنشر) ـــ القاهرة ، والمفصل للدكتور جواد على ج ٢ ص ١٣٢ .

(٢) سيرة ابن هشام م ٢ ص ٢٢٣ .

(٣) السيرة النبوية لأبى الحسن الندوى ص ١٣٤ ، ط الأولى ١٩٧٧ جدة .

(٤) الزمر : ١٠ .

وأرض الله واسعة ، وقال مجاهد : فهاجروا فيها وجاهدوا ، واعتزلوا الأوثان ، وقال : إذا دعيتم إلى معصية فاهربوا ، ثم قرأ : ﴿ **ألم تكن أرض الله واسعة فتهاجروا فيها** ﴾ وقال الأوزاعى : ليس يوزن لهم ولا يكال إنما يغرف لهم غرفاً(١) .

والله خالق الناس يعلم أن الهجرة من الأرض عسيرة على النفس ، وأن التجرد من تلك الوشائج أمر شاق ، وأن ترك مألوف الحياة ووسائل الرزق واستقبال الحياة فى أرض جديدة ، تكليف صعب على بنى الإنسان ، ومن ثم تشير الآيات البينات فى هذا الموضع إلى الصبر وجزائه المطلق عند الله بلا حساب : ﴿ **إنما يوفى الصابرون أجرهم بغير حساب** ﴾ .

﴿ **ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً** ﴾(٢) .

يهىء الله تعالى هذه القلوب بهذه اللمسات فى موضعها المناسب ، ويعالج ما يشق على تلك القلوب الضعيفة العلاج الشافى ، ويفتح لها أبواب العوض عن الوطن . ويقول ابن كثير : « وهذا تحريض على الهجرة ، وترغيب فى مفارقة المشركين ، وأن المؤمن حيثما ذهب وجد عنهم مندوحة وملجأ يتحصن فيه . وقال ابن عباس : المراغم : التحول من أرض إلى أرض . وقال مجاهد : ﴿ **مراغماً كثيراً** ﴾ : يعنى متزحزحاً عما يكره ، ﴿ **وسعة** ﴾ **يعنى : الرزق ، وقال قتادة : أى من الضلال إلى الهدى** (٣) .

٤ ــ بزوغ فجر الإسلام فى المدينة وبيعة العقبة الثانية :

لقد فشا الإسلام فى المدينة حتى لم يبق فيها بيت لم يدخله الإسلام وقد أخذ المسلمون يهاجرون إلى المدينة تباعاً تاركين وراءهم كل شىء

---

(١) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٧٣ ط الأولى ١٩٨٦ م .
(٢) النساء : ١٠٠ .
(٣) تفسير ابن كثير م ١ ص ٨٢٤ باختصار .

ناجين بعقيدتهم وحدها ، وأسلم سعد بن معاذ — وأسيد بن حضير وهما سيدا قومهما من بنى عبد الأشهل من الأوس ، بحكمة من أسلم قبلهما وتلطفهم وبحسن دعوة مصعب بن عمير — رضى الله عنه ، وأسلم بنو عبد الأشهل عن آخرهم ، ولم تبق دار من دور الأنصار إلا وفيها رجال ونساء مسلمون(١) . ورجع مصعب بن عمير إلى مكة فى العام التالى ، وخرج عدد من المسلمين من الأنصار مع حجاج قومهم من أهل الشرك ، حتى قدموا مكة فوعدوا رسول الله ﷺ العقبة ، فلما فرغوا من الحج ، ومضى ثلث الليل ، اجتمعوا فى الشعب عند العقبة ، وهم ثلاثة وسبعون رجلاً وامرأتان من النساء ، وجاء رسول الله ﷺ ومعه عمه عباس بن عبد المطلب ، وهو يومئذ على دين قومه ، وتلكم رسول الله ﷺ ، وتلا القرآن ، ودعا إلى الله ، ورغَّب فى الإسلام ، ثم قال : « **أبايعكم على أن تمنعونى ما تمنعون منه نساءكم وأبناءكم** » فبايعوه واستوثقوا منه ألا يدعهم ، ويرجع إلى قومه ، فوعد بذلك رسول الله ﷺ ، فقال : « **أنا منكم وأنتم منى ، أحارب من حاربتم ، وأسالم من سالمتم ، واختار رسول الله ﷺ منهم اثنى عشر نقيباً : تسعة من الخزرج ، وثلاثة من الأوس**(٢) .

فكانوا من السابقين إلى الإيمان لحظة عرض عليهم النبى ﷺ الدين والإسلام . يروى البخارى فى صحيحه ، قال : حدثنا أبو اليمان ، قال : أخبرنا شعيب عن الزهرى ، قال : أخبرنى أبو إدريس عائذ الله بن عبد الله أن عبادة بن الصامت رضى الله عنه ، وكان شهد بدرا ، وهو أحد النقباء ليلة العقبة ، أن رسول الله ﷺ قال وحوله عصابة من أصحابه : « بايعونى على أن لا تشركوا بالله شيئاً ، ولا تسرقوا ، ولا تزنوا ، ولا تقتلوا أولادكم ، ولا تأتوا ببهتان تفترونه بين أيديكم وأرجلكم ، ولا تعصوا فى معروف ، فمن وفى منكم فأجره على الله ، ومن أصاب من ذلك شيئاً ثم ستره الله فهو إلى الله ، إن شاء عفا عنه ، وإن شاء عاقبه ، فبايعناه على ذلك (٣) . وكانت المعاهدة الثانية معاهدة استراتيجية ، معاهدة على نصرة هذا الدين وحرب الأسود والأبيض .

(١) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٥٤ — ٤٦٠ مختصرا . ط دار الفكر .
(٢) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٤٦٤ — ٤٦٥ .
(٣) صحيح البخارى ج ٣ ص ١٥٠ ط/ ١٩٨٢ م — بيروت .

٥ ــ الإذن العام بالهجرة إلى المدينة :

لما بايع رسول الله ﷺ هذا الحى من الأنصار على النصرة له ، ولمن اتبعه ، أمر الرسول ﷺ أصحابه ومن معه بمكة من المسلمين بالخروج إلى المدينة والهجرة إليها واللحوق بإخوانهم من الأنصار ، وقال : « **إن الله ــ عز وجل ــ قد جعل لكم إخواناً وداراً تأمنون بها** » فخرجوا أرسالا ، وتسابقوا فى ذلك :

﴿ ومن يهاجر فى سبيل الله يجد فى الأرض مراغماً كثيراً وسعة ومن يخرج من بيته مهاجراً إلى الله ورسوله ثم يدركه الموت فقد وقع أجره على الله وكان الله غفوراً رحيماً ﴾(١) .

انطلق المهاجرون إلى المدينة تباعاً وأهل مكة يضعون العقبات فى الطريق ــ لا حباً ولا إشفاقاً عليهم ــ لكن فتنة وصداً عن سبيل الله ، ولكن المسلمين صمموا على الفرار بدينهم ، مضحين بكل عزيز وغال ، وهاجروا جماعات وفرادى ، ولم يبق فى مكة إلا قلة قليلة من المسلمين يقاسون ظروف مكة .

كانت الفتنة والاضطهاد تزداد يوماً بعد يوم حتى كاد يرتد بعض المسلمين من شدة العذاب ، فنزل فيهم آيات :

﴿ للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون ﴾(٢) .

---

(١) النساء : ١٠٠ .

(٢) الحشر : ٨ .

﴿ ثم إن ربك للذين هاجروا من بعد ما فتنوا ثم جاهدوا وصبروا إن ربك من بعدها لغفور رحيم ﴾(١) . والراجح أن كلمة **﴿ جاهدوا ﴾** لا تعنى فى هذا المقام الحرب ، بل تعنى المجاهدة فى الصبر وتحمل المشاق ، لأن الآية مكية ، نزلت قبل مشروعية الجهاد بالسيف(٢) .

﴿ والذين هاجروا فى الله من بعد ما ظلموا لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾(٣) .

فهؤلاء الذين هاجروا من ديارهم وأموالهم ، ونفروا عما يملكون وعما يحبون وضحوا بدارهم وقرب عشيرتهم والحبيب من ذكرياتهم ، هؤلاء يرجون فى الآخرة عوضاً عن كل ما خلفوا وتركوا ، فتحدث القرآن عنهم ، ورفع معنوياتهم قائلًا : **﴿ لنبوئنهم فى الدنيا حسنة ولنسكننهم خيراً مما فقدوا ولأجر الآخرة أكبر لو كانوا يعلمون ﴾** .

والآيات القرآنية ملأى بتصوير هذه الألوان من الفتن والاضطهاد :

﴿ الم أحسب الناس أن يتركوا أن يقولوا آمنَّا وهم لا يفتنون * ولقد فتنا الذين من قبلهم فليعلمن الله الذين صدقوا وليعلمن الكاذبين ﴾(٤) .

فلا يكفى أن يقول الناس آمنا .. وهم لا يتركون لهذه الدعوى ، حتى يتعرضوا للفتنة فيثبتوا عليها ويخرجوا منها صافية عناصرهم خالصة قلوبهم ، كما يفتن النار الذهب لتفصل بينه وبين العناصر الرخيصة العالقة به .

وفى السورة نفسها آية أخرى ترسم صورة كاملة لنموذج من النفوس

---

(١) النحل : ١١٠ .
(٢) سيرة الرسول : محمد عزت دروزة ج ١ ص ٢٧٥ ط ١٩٦٥ م عيسى البابى الحلبى .
(٣) النحل : ٤٠ .
(٤) العنكبوت : ١ ــ ٣ .

فى استقبال فتنة الإيذاء بالاستخذاء : ﴿ **ومن الناس من يقول آمنا بالله فإذا أوذى فى الله جعل فتنة الناس كعذاب الله ولئن جاء نصر من ربك ليقولن إنا كنا معكم** ﴾[1] .

ذلك النموذج من الناس يعلن كلمة الإيمان فى الرخاء يحسبها خفيفة المحمل هينة المئونة ﴿ **فإذا أوذى فى الله** ﴾ بسبب الكلمة التى قالها وهو آمن معاق ﴿ **جعل فتنة الناس كعذاب الله** ﴾ فاستقبلها فى جزع ، واختلت فى نفسه القيم ، واهتزت فى ضميره العقيدة .

فإذا كتب الله على المؤمنين الفتنة ، وكلفهم أن يجاهدوا أنفسهم لتثبت احتمال المشقة ، فإنما ذلك لإصلاحهم وتحقيق الخير فى الدنيا والآخرة ، ولتستعد النفوس للهجرة فى سبيل الله ، ولإيجاد مجتمع آمن جديد . وهناك آية أخرى تبين تهيئة النفوس للهجرة : ﴿ **واذكروا إذ أنتم قليل مستضعفون فى الأرض تخافون أن يتخطفكم الناس فآواكم وأيدكم بنصره ورزقكم من الطيبات لعلكم تشكرون** ﴾[2] .

هذا كان حال المؤمنين بمكة ، كانوا قليلين مستضعفين مضطهدين ، يخافون أن يتخطفهم الناس من سائر بلاد الله[3] لقلتهم وعدم قوتهم ، فلم يزل ذلك دأبهم حتى أذن الله بالهجرة إلى المدينة ، فآواهم إليها ، وقيّض لهم أهلها : آووا ونصروا وواسوا بأموالهم ، وبذلوا مهجهم فى طاعة الله وطاعة رسوله ﷺ .

وانطلقت الجماعات والشخصيات والأفراد متسللين ومجاهرين شطر « يثرب » ، وكانت حصيلة هذه المدة عقد معاهدتين مع أهل يثرب :

أ ــ المعاهدة الأولى :

يمكن أن نسميها معاهدة « أيديولوجية » لأنها تتضمن قبول أهل

---

(١) العنكبوت : ١٠ .

(٢) الأنفال : ٢٦ .

(٣) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٤٧٣ .

« يثرب » المبادىء والقيم والأسس التى يدعو إليها النبى ﷺ ، وأنهم يقيمون سلوكهم وتصرفاتهم بناء على هذه المبادىء والقيم .

ب ـــ المعاهدة الثانية :

يمكن أن نسميها « استراتيجية » ، لأنها معاهدة على الدفاع عن المبادىء والقيم التى وافقوا عليها ، وآمنوا بها فى المعـــــاهدة الأولى ، وفى ضوء المعاهدة الثانية هاجر مجموعة من الناس ، وبذلك تحقق :

أ ـــ إيجاد بوادر أمة وأفرادها .

ب ـــ وجود أرض محددة .

ج ـــ وجود مبادىء وقيم جديدة كنواة للمجتمع الجديد .

د ـــ وجود تشريع منظم للعلاقات .

فلم يبق إذاً إلا رئيس الدولة(١) .

٦ ـــ موكب الرسول ﷺ فى طريق الهجرة :

وكانت الظروف المحيطة بالرسول ﷺ تزداد سوءًا يوماً بعد يوم كما تصورها الآيات التالية :

﴿ لعلك باخع نفسك ألا يكونوا مؤمنين ﴾(٢) .

﴿ طه ما أنزلنا عليك القرآن لتشقى ﴾(٣) .

﴿ قد نعلم إنه ليحزنك الذى يقولون فإنهم لا يكذبونك ولكن

---

(١) الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى ـــ الدكتور رءوف شلبى ص ١٤ ط الأولى دار القلم ـــ الكويت .

(٢) الشعراء : ٣ .

(٣) طه : ١ ـــ ٢ .

الظالمين بآيات الله يجحدون ﴾[1] .

أما الموقف الخطير الذى كان سبباً مباشراً لهجرة الرسول ﷺ فالتعبير القرآنى يرسم هذا الموقف على طريقة القرآن الفريدة فى التصوير ، فيقول تعالى : **﴿ وإذ يمكر بك الذين كفروا ليثبتوك أو يقتلوك أو يخرجوك ويمكرون ويمكر الله والله خير الماكرين ﴾**[2] .

قال ابن عباس ومجاهد وقتادة : **﴿ يثبتوك ﴾** : ليقيدوك . وقال عطاءوابن زيد : **﴿ ليحبسوك ﴾** . وقال السدى : **الإثبات** هو الحبس والوثاق[3] .

لقد كانوا يمكرون ليوثقوا الرسول ﷺ ويحبسوه حتى يموت ، أو ليقتلوه ويتخلصوا منه ، أو يخرجوه من مكة منفياً مطروداً . (قال ابن إسحق : أتاه جبريل عليه السلام فأمره ألا يبيت فى مكانه الذى كان يبيت فيه ، فدعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب ، فأمره أن يبيت على فراشه ، ويتسجى ببرد له أخضر ، ففعل ، ثم خرج رسول الله ﷺ وهم على بابه ، وخرج معه بحفنة من تراب ، فجعل يذروها على رؤوسهم ، وأخذ الله بأبصارهم عن نبيه ﷺ ، وهو يقرأ : **﴿ يس والقرآن الحكيم ﴾** إلى قوله تعالى : **﴿ فأغشيناهم فهم لا يبصرون ﴾**[4] .

* * *

---

(١) الأنعام : ٣٣ .

(٢) الأنفال : ٣٠ .

(٣) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٤٧٥ .

(٤) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٤٧٧ .

والصورة التى يرسمها قوله تعالى : ﴿ **ويمكرون ويمكر الله** ﴾ صورة عميقة التأثير ، ذلك حين تتراءى للباحث ندوة قريش وهم يتآمرون ويدبرون ويمكرون ، والله من ورائهم محيط يمكر بهم ، ويبطل كيدهم وهم لا يشعرون .

إنها صورة مثيرة تتجلى فيها المحن التى مرت بها قافلة الإيمان ، وفى الوقت ذاته صورة مفزعة تبين الأسباب التى دعت الرسول ﷺ إلى البحث عن قاعدة حرة آمنة لإيجاد مجتمع جديد .

موكب الرسول يتحرك :

وخرج نبى الهدى ﷺ وسط هذه الأجواء الموبوءة وقلبه يخفق بالدعاء : ﴿ **وقال رب أدخلنى مدخل صدق وأخرجنى مخرج صدق واجعل لى من لدنك سلطاناً نصيراً** ﴾(١) . وصاحبه الصديق يمشى ساعة بين يديه وساعة خلفه حتى فطن الرسول ﷺ ،فقال : « **يا أبابكر ، مالك تمشى ساعة خلفى وساعة بين يدى ؟** » فقال : يا رسول الله أذكر الطلب فأمشى خلفك ، ثم اذكر الرصد فأمشى بين يديك(٢) .

ودخل الغار وبينما هما كذلك إذ بعث الله العنكبوت فنسجت ما بين الغار والشجرة التى كانت على وجه الغار ، وسترت رسول الله ﷺ وأبا بكر ، وأمر الله حمامتين وحشيتين فأقبلتا ترفان حتى وقعتا بين العنكبوت والشجرة : ﴿ **ولله جنود السموات والأرض** ﴾(٣) .

واقتفى المشركون أثر الرسول ﷺ ، وكانت أدق لحظة مرت بها الإنسانية فى رحلتها الطويلة ، ولكن الله حال بينهم وبين ذلك ، فاختلط

---

(١) الإسراء : ٨٠ .
(٢) البداية والنهاية : لابن كثير ج ٣ ص ١٨٠ ــ ط ١٩٨٢ ــ مكتبة المعرفة ــ بيروت .
(٣) الفتح : ٤ .

عليهم الأمر ، ورأوا على باب الغار نسج العنكبوت ، وإلى ذلك أشار الله تعالى فى قوله : ﴿ **فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها** ﴾[1] « حتى إذا كانوا من النبى ﷺ على أربعين ذراعاً تعجل بعضهم ينظر فى الغار فلم ير إلا حمامتين وحشيتين بفم الغار فرجع إلى أصحابه »[2] .

٧ ــ عناية الله ترعى الموكب :

وبينما هما فى الغار إذ رأى أبو بكر آثار المشركين ، فقال : يا رسول الله ، لو أن أحدهم رفع قدمه رآنا . قال : « **ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟** »[3] .

وفى ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار إذ يقول لصاحبه لا تحزن إن الله معنا فأنزل الله سكينته عليه وأيده بجنود لم تروها وجعل كلمة الذين كفروا السفلى وكلمة الله هى العليا والله عزيز حكيم** ﴾[4] .

﴿ **إذ هما فى الغار** ﴾ والقوم على إثرهم يتعقبون ، والصديق رضى الله عنه يجزع .. لا على نفسه ولكن على صاحبه أن يطلعوا عليهما ، فيخلصوا إلى صاحبه الحبيب ، يقول له : لو أن أحدهم نظر إلى قدميه لأبصرنا[5] .

ــ وقد أنزل الله سكينته على قلب الرسول ﷺ وهو يهدىء من روعة أبى بكر ويطمئنه فيقول له : « **يا أبا بكر ، ما ظنك باثنين الله ثالثهما ؟** » .

---

(١) التوبة : ٤٠ .

(٢) عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير م ١ص ٢٢١ ط الأولى ١٩٧٧ ودلائل النبوة لأبى نعيم الأصفهانى ط ــ دار المعارف ــ بيروت .

(٣) الجامع الصحيح للبخارى ، باب قوله تعالى : ﴿ ثانى اثنين إذ هما فى الغار ﴾ كتاب التفسير ج ٦ ص ٨٣ ط الشعب ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٧٢ .

(٤) التوبة : ٤٠ .

(٥) الوفا بأحوال المصطفى ج ١ ص ٣٧٤ .

انطلق الركب الميمون فى رعاية الله ، من غار ثور صوب يثرب : طيبة أو المدينة المنورة ، وكانوا أربعة : « أبو بكر الصديق » رضى الله عنه ، و « عامر بن فهيرة » مولى أبى بكر ، و « عبد الله بن أريقط » دليلهما واختفى عن الأنظار(١) .

فشلت محاولات « سراقة » وساخت قوائم فرسه مرات عدة ، وطلب الأمان من سيد الكونين ، وأعطاه الأمان(٢) .

وفى الطريق إلى « طابة » أعوز الركب الماء والتمر والطعام ، فعسكروا إلى قريب من خيمة « أم معبد الخزاعية » يطلبان منها الميرة والطعام ، فكانت دلائل النبوة تبشر أن هذه الهجرة تحفها عناية الله ورعايتها :

جزى الله ربّ الناس خير جزائه رفيقين قالا خيمتي أم معبد
هما نزلاها بالهدى واهتدت به فقد فاز من أمسى رفيق محمد
سلوا أختكم عن شاتها وإنائها فإنكم إن تسألوا الشاة تشهد
دعاها بشاة حائل فتحلبت له بصريح دِرَّة الشاة مزبد(٣) .

وقد أفرد البخارى باباً للهجرة — يقول فيه عن قصة الهجرة مروية عن عائشة رضى الله عنها نذكر منها الجزء الأخير : « ثم مضى رسول الله ﷺ ، قال ابن شهاب : فأخبرنى عروة بن الزبير أن رسول الله ﷺ لقى الزبير فى ركب من المسلمين كانوا تجاراً قافلين من الشام فكسا الزبير رسول الله ﷺ وأبا بكر ثياب بياض ، وسمع المسلمون بالمدينة ، فخرج رسول الله ﷺ من مكة ، فكانوا يغدون كل غداة إلى الحرة فينتظرونه حتى يردهم حر الظهيرة ،

---

(١) السيرة لابن هشام م ١ ص ٤٨٨ — ٤٨٩ ودراسات فى السيرة النبوية — د . عماد الدين خليل ط ١٩٨٦ م .

(٢) عيون الأثر م ١ ص ٢٢٤ ودلائل النبوة ص ٢٧٤ .

(٣) البداية والنهاية لابن كثير ج ٣ ص ١٩٢ — ١٩٣ ط ٤ بيروت ودلائل النبوة لأبى نعيم ص ٢٨٢ — ٢٨٤ ، والروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٧ — ٨ والسيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٢٦٢ تحقيق مصطفى عبد الواحد ط ١٩٧٦ م دار المعرفة بيروت .

فانقلبوا يوماً بعدما أطالوا انتظارهم ، فلما آووا إلى بيوتهم أوفى رجل من يهود على أطم من آطامهم لأمر ينظر إليه ، فبصر برسول الله ﷺ وأصحابه مبيضين يزول بهما السراب ، فلم يملك اليهودى أن قال بأعلى صوته : يا معاشر العرب هذا جدكم الذى تنتظرونه ، فسار المسلمون إلى السلاح ، فتلقوا رسول الله ﷺ بظهر الحرة ، فعدل بهم ذات اليمين حتى نزل بهم فى بنى عمرو بن عوف ، وذلك يوم الإثنين من شهر ربيع الأول ، فقام أبو بكر للناس ، وجلس رسول الله ﷺ صامتاً ، فطفق من جاء من الأنصار ممن لم ير رسول الله ﷺ يحيى أبا بكر حتى أصابت الشمس رسول الله ﷺ ، فأقبل أبو بكر حتى ظلل عليه بردائه ، فعرف الناس رسول الله ﷺ عند ذلك ، فلبث رسول الله ﷺ فى بنى عمرو بن عوف بضع عشرة ليلة ، وأسس المسجد الذى أسس على التقوى ، وصلى فيه رسول الله ﷺ ، ثم ركب راحلته فصار يمشى معه الناس حتى بركت عند مسجد رسول الله ﷺ بالمدينة وهو يصلى فيه يومئذ رجال من المسلمين ، وكان مربداً للتمر لسهيل وسهل غلامين يتيمين فى حجر أسعد بن زرارة ، فقال رسول الله ﷺ حين بركت به راحلته : هذا إن شاء الله المنزل ، ثم دعا رسول الله ﷺ الغلامين وهما بالمربد ليتخذه مسجداً ، « فقالا : لا ، بل نهبه لك يا رسول الله ، ثم بنى مسجداً » وطفق رسول الله ﷺ ينقل معهم اللبنة فى بنيانه ويقول : وهو ينقل اللبنة :

هذا الحِمَالُ لا حِمَالُ خَيْبَرْ   هذا أَبَرُّ ربَّنا وأطْهَرْ

ويقول :

اللَّهُمَّ إنَّ الأَجْرَ أَجْرُ الآخِرَةْ   فارْحَمِ الأنصارَ والمُهَاجِرَةْ

فتمثل بشعر رجل من المسلمين لم يُسم لى ، قال ابن شهاب : ولم يبلغنا فى الأحاديث أن رسول الله ﷺ تمثل ببيت شعر تام غير هذا البيت[١] .

---

(١) صحيح البخارى : ج ٥ ص ٧٨ باب الهجرة . مطبعة الجمهورية العربية بمصر .



الفصل الثانى

ركائز المجتمع الجديد

أ ـــ **الركيزة الأولى**: بناء المسجد :

ــ الآيات تصور المسجد ودوره فى المجتمع الإسلامى .

ــ المسجد أول خطوة لتأسيس المجتمع المدنى .

ب ــ الركيزة الثانية : كتابة الوثيقة :

قيام المجتمع منذ أول نشأته على أسس دستورية .

الآيات تصور العهد والميثاق ودوره فى تنظيم المجتمع .

١ ـــ الوثيقة والصحيفة ودورها فى تطوير المجتمع المدنى .

٢ ـــ معالم تطوير المجتمع فى ضوء الوثيقة .

جـ ــ الركيزة الثالثة : المؤاخاة :

ــ الآيات تسجل معانى الإخاء .

١ ـــ فكرة الإخاء تجربة رائدة .

٢ ـــ تنظيم الأخوة وتعميقها .

٣ ـــ إلغاء التوارث بين المتآخين .

٤ ـــ استمرار المؤاخاة دون التوارث .

٥ ـــ مؤامرة الأعداء ضد الأخوة .

٦ ـــ من مظاهر الأخوة :

(أ) حفاوة الأنصار بالمهاجرين .

(ب) من صور إيثار الأنصار .

(ج) الإيواء « أهل الصفة » .



أ ــ الركيزة الأولى : بناء المسجد

الآيات تصور المسجد ودوره فى المجتمع الإسلامى

يقول الحق عز وجل :

وَمَنْ أَظْلَمُ مِمَّن مَّنَعَ مَسَٰجِدَ ٱللَّهِ أَن يُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ وَسَعَىٰ فِى خَرَابِهَآ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ مَا كَانَ لَهُمْ أَن يَدْخُلُوهَآ إِلَّا خَآئِفِينَ ۚ لَهُمْ فِى ٱلدُّنْيَا خِزْىٌ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١١٤﴾

البقرة : ١١٤ .

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٰٔنَ بَٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

البقرة : ١٨٧ .

قُلْ أَمَرَ رَبِّي بِالْقِسْطِ وَأَقِيمُوا وُجُوهَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَادْعُوهُ مُخْلِصِينَ لَهُ الدِّينَ كَمَا بَدَأَكُمْ تَعُودُونَ ﴿٢٩﴾

الأعراف : ٢٩ .

* يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الأعراف : ٣١ .

مَا كَانَ لِلْمُشْرِكِينَ أَن يَعْمُرُوا مَسَاجِدَ اللَّهِ شَاهِدِينَ عَلَىٰ أَنفُسِهِم بِالْكُفْرِ أُولَٰئِكَ حَبِطَتْ أَعْمَالُهُمْ وَفِي النَّارِ هُمْ خَالِدُونَ ﴿١٧﴾ إِنَّمَا يَعْمُرُ مَسَاجِدَ اللَّهِ مَنْ آمَنَ بِاللَّهِ وَالْيَوْمِ الْآخِرِ وَأَقَامَ الصَّلَاةَ وَآتَى الزَّكَاةَ وَلَمْ يَخْشَ إِلَّا اللَّهَ فَعَسَىٰ أُولَٰئِكَ أَن يَكُونُوا مِنَ الْمُهْتَدِينَ ﴿١٨﴾

التوبة : ١٧ ، ١٨ .

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

التوبة : ١٠٧ ، ١٠٨ .

فِى بُيُوتٍ أَذِنَ ٱللَّهُ أَن تُرْفَعَ وَيُذْكَرَ فِيهَا ٱسْمُهُۥ يُسَبِّحُ لَهُۥ فِيهَا بِٱلْغُدُوِّ وَٱلْـَٔاصَالِ ﴿٣٦﴾ رِجَالٌ لَّا تُلْهِيهِمْ تِجَٰرَةٌ وَلَا بَيْعٌ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَإِقَامِ ٱلصَّلَوٰةِ وَإِيتَآءِ ٱلزَّكَوٰةِ ۙ يَخَافُونَ يَوْمًا تَتَقَلَّبُ فِيهِ ٱلْقُلُوبُ وَٱلْأَبْصَٰرُ ﴿٣٧﴾

النور : ٣٦ ، ٣٧ .

وَأَنَّ ٱلْمَسَٰجِدَ لِلَّهِ فَلَا تَدْعُوا۟ مَعَ ٱللَّهِ أَحَدًا ﴿١٨﴾

الجن : ١٨ .

★ ★ ★

المسجد أول خطوة لتأسيس المجتمع المدنى

رواية البخارى السابقة عن الهجرة تلقى أضواء واضحة على أن أول عمل قام به النبى ﷺ بعد وصوله إلى المدينة هو تأسيس المسجد .

قال تعالى : ﴿ **لمسجد أسس على التقوى من أول يوم أحق أن تقوم فيه * فيه رجال يحبون أن يتطهروا والله يحب المطهرين** ﴾(١) .

واختلف العلماء فى المسجد الذى أسس على التقوى ، فقالت طائفة : هو مسجد « قباء » كما روى ابن عباس والضحاك والحسن البصرى والشعبى وغيرهم . وذهب آخرون إلى أنه مسجد النبى ﷺ : (وأخرج ابن أبى شيبة والطبرانى من طريق عروة بن الزبير عن زيد بن ثابت قال : المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم مسجد النبى ﷺ)(٢) .

وقال الإمام أحمد عن أبى سعيد عن أبيه أنه قال : تمارى رجلان فى المسجد الذى أسس على التقوى من أول يوم ، فقال رجل : هو مسجد قباء ، وقال الآخر : هو مسجد الرسول ﷺ ، فقال رسول الله ﷺ : « **هو مسجدى** »(٣) .

وحدثنا عبد الله بن عامر الأسلمى عن عمران بن أبى أنس عن سهل ابن سعد عن أبى كعب أن النبى ﷺ قال : « **المسجد الذى أسس على التقوى مسجدى هذا** » فهذه طرق متعددة تقرب من إفادة القطع بأنه مسجد الرسول ﷺ(٤) .

---

(١) سورة التوبة : ١٠٨ .
(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٦٠٦ .
(٣) النسائى من باب ما جاء فى المسجد الذى أسس على التقوى ج ٢ ص ٣٦ ط الثانية دار الفكر بيروت . وسنن الترمذى ج ١ ص ٢٠٣ ط دار الفكر بيروت .
(٤) البداية والنهاية لابن كثير ج ٢ ص ٢٢٠ ط ١٩٨٢ م مكتبة المعرفة .

ومهما تكن الروايات فالذى يهمنا أن التعبير القرآنى يسجل أن اللبنة الأولى التى وضعها النبيى ﷺ فى صرح المجتمع الجديد هو المسجد ، وهى صورة حافلة باليمن والبركة ، فإنه ليس مسجداً فقط ، بل مسجد أساسه التقوى وموادُّه الأولية الإيمان ، والأيدى التى ساعدت فى وضع هذه اللبنة أيد طاهرة : ﴿ **فيه رجال يحبون أن يتطهروا** ﴾(١) .

إن مكانة المسجد فى المجتمع الإسلامى تجعله مصدر التوجيه الروحى والمادى فهو ساحة للعبادة ، ومدرسة للعلم ، وندوة للأدب ، وقد ارتبطت بفريضة الصلاة وحقوقها أخلاق وتقاليد ، هى لباب الإسلام(٢) .

والذين يعمرون هذا المسجد معروفون بتضحيتهم وإيمانهم : ﴿ **إنما يعمر مساجد الله من آمن بالله واليوم الآخر** ﴾(٣) .

ولذلك وردت آيات وأحاديث كثيرة تبين أهمية المسجد ومكانته فى المجتمع ، ومن يساهم فى تطوير هذا المجتمع بتعمير المسجد له شرف عند الله وفى اليوم الآخر . روى النسائى عن خالد بن معدان عن كثيب بن مرة عن عمرو بن عبسة أن رسول الله ﷺ قال : « **من بنى مسجداً يذكر الله فيه بنى الله بيتاً فى الجنة** »(٤) .

﴿ **يا بنى آدم خذوا زينتكم عند كل مسجد** ﴾(٥) . فمن الآداب الإسلامية أن يأخذ المؤمن زينته من لباس وعناية بالهندام عند الذهاب إلى المسجد وعند الطواف .

يروى أن العرب كانوا فى جاهليتهم يطوفون عراة فقيل لهم : ﴿ **خذوا زينتكم عند كل مسجد وكلوا واشربوا ولا تسرفوا** ﴾ ولا يكتفى السياق بالدعوة إلى اتخاذ الزينة عند كل مسجد

---

(١) التوبة : ١٠٨ .
(٢) فقه السيرة محمد الغزالى ص ١٧٨ ط دار القلم الأولى ١٩٨٢ م .
(٣) التوبة : ١٧ .
(٤) سنن النسائى ج ٢ ص ٣١ كتاب المساجد .
(٥) الأعراف : ٣١ .

والاستمتاع بالطيب من الطعام والشراب ، بل يستنكر تحريم هذه الزينة التى أخرج الله لعباده : ﴿ **قل من حرم زينة الله التى أخرج لعباده والطيبات من الرزق قل هى للذين آمنوا فى الحياة الدنيا خالصة يوم القيامة** ﴾[1] . ﴿ **قل أمر ربى بالقسط وأقيموا وجوهكم عند كل مسجد وادعوه مخلصين له الدين** ﴾[2] .وسرعان ما غدا المسجد لما يتسم به الإسلام من شمولية وتكافل مركزاً روحياً لممارسة الشعائر وأداء العبادات ، وأصبح تطوراً جديداً فى معنى العبادة ومكان العبادة ، ومفهوماً جديداً لقدسية المكان : ﴿ **ولا تباشروهن وأنتم عاكفون فى المساجد** ﴾[3] .

لأن المسجد مكان الاعتكاف والخلوة إلى الله ، ومن ثم امتنعت فيه المباشرة تحقيقاً لهذا التجرد الكامل الذى تنسلخ فيه النفس من كل شىء ، ويخلص فيه القلب عن كل شاغل علاوة على هذا عرف المجتمع النامى لأول مرة : « أن المسجد مدرسة علمية وتشريعية يجتمع فى ساحاتها أصحاب الرسول ﷺ ، وتدار فى باحاتها الندوات ، وتلقى على منبرها المتواضع التعاليم والكلمات ، ومؤسسة اجتماعية يتعلم المسلمون فيها النظام والمساواة ويمارسون التوحد والإخاء والانضباط » [4] .

وكانت الآيات بين حين وآخر تبين أن المسجد هو مركز الإشعاع الفكرى والروحى : ﴿ **فى بيوت أذن الله أن ترفع ويذكر فيها اسمه يسبح له فيها بالغدو والآصال رجال لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ليجزيهم الله أحسن ما عملوا ويزيدهم من فضله والله يرزق من يشاء بغير**

---

(١) الأعراف : ٣٢ .
(٢) الأعراف : ٢٩ .
(٣) البقرة : ١٨٧ .
(٤) السيرة النبوية : دراسة وتحليل لعماد الدين خليل ص ١٤٩ ط ١٩٨٦ بيروت .

حساب ﴾[1] . فهى مرفوعة وقائمة تنبثق منها مفاهيم المجتمع الجديد وتتسق معها القلوب الوضيئة الطاهرة قلوب الرجال الذين **﴿ لا تلهيهم تجارة ولا بيع عن ذكر الله وإقام الصلاة وإيتاء الزكاة ﴾** هذه مفاهيم الاعتدال والتوازن فى الحياة فالتجارة والبيع لتحسين الكسب والثراء ، ولكنهم مع شغلهم لا يغفلون عن أداء حق الله فى الصلاة ، وأداء حق العبادة فى الزكاة : **﴿ يخافون يوماً تتقلب فيه القلوب والأبصار ﴾** .

كان بناء المسجد هو الخلية الأولى للبناء الاجتماعى بوصفه أداة صهر المؤمنين فى بوتقة الإسلام فى وحدة فكرية واحدة من خلال العلم والقضاء ، والعبادة والبيع الشراء ، وكان منذ أن أسسه الرسول ﷺ النواة التى نمت حولها مشروعات تعمير المدينة : (ولهذا فإن المسجد النبوى خير إحداثية كبداية لتعيين خطط المهاجرين فى المدينة بعد الهجرة والتى كانت فى معظمها عبارة عن قطائع أو خطط تنازل عنها الأنصار للمهاجرين من كل فضل كان فى خططهم ، أو كانت فى عفا من الأرض ليست لأحد فيقطعها الرسول ﷺ لأصحابه) [2] . وقد أصبحت تلك الطريقة سنة متبعة عند تخطيط مدن الأنصار الإسلامية فيما بعد ، (حيث كان أول ما يخط مسجدها ودار إمارتها ، ثم تختط المنازل من المسجد الجامع باعتباره مركزاً لها . ذكر الطبري أن أول شيء خط بالكوفة وبنى حين عزموا على البناء المسجد [3] .

وكان المسجد النبوى أكبر وسيلة للتطور العمرانى والاجتماعى ، فبعد أن كثر عدد المسلمين ، « وبخاصة بعد فتح خيبر (محرم عام ٧ هـ / ٦٢٨ م) وسَّع رسول الله ﷺ المسجد ، بعد أن اشترى عثمان بن عفان الأرض من صاحبها الأنصارى من جهة الغرب ليصبح المسجد بعد ذلك ٩٠×١٠٠ ذراع (٤٥×٥٠ م) ، وجعلت له ثلاثة أروقة لجهة القبلة

---

(١) النور : ٣٦ إلى ٣٨ .

(٢) مجتمع المدينة فى عهد الرسول ﷺ عبد الله عبد العزيز بن إدريس ص ١٦٩ ط ١٩٨٢ م .

(٣) المصدر السابق ص ١٧٨ .

بكل صف منها تسعة أعمدة (أسطوانات) ، وهذا يعنى أن الزيادة كانت من جهة الغرب والشمال . ويرجح أن الصفة قد هدمت أثناء هذه الزيادة ، حيث أصبحت شارعة داخل المسجد ، أو أنها هدمت بعد عصر النبوة على الأكثر ، حيث إنه لم يرد ذكرها عند تجديد أو زيادة المسجد فى الفترات اللاحقة ويعنى الأمر كذلك أن بيوت المهاجرين لم تكن ملاصقة لجدار صحن المسجد وبالذات الجدار الغربى »[1] .

وكان المسجد أول ركيزة فى بناء المجتمع الجديد وذلك للأسباب الآتية :

ــ إن ما يمتاز به هذا الدين الجديد هو نشر الأخوة والمحبة بين المسلمين ، ولكن شيوع هذه الآصرة لا يتم إلا فى المسجد ، حيث يتلاقى المسلمون يومياً عدة مرات يتآلفون ويتفقدون أحوال بعضهم بعضاً .

ــ إن مما يمتاز به هذا الدين تركيزه على نشر روح المساواة والعدل بين المسلمين ، واجتماع المسلمين كل يوم بين يدى الله عز وجل فى بيت من بيوته ، وقد وقفوا على صعيد مشترك من العبودية يعمق معنى المساواة . « وأن من نظام الإسلام وآدابه أن تنصهر أشتات المسلمين فى بوتقة من الوحدة الراسخة يجمعهم عليها حبل الله الذى هو حكمه وشرعه ولكن مالم تقم فى أنحاء المجتمع مساجد يجتمع فيها المسلمون على تعلم حكم الله وشريعته ليتمسكوا بها عن معرفة وعلم ، فإن وحدتهم تؤول إلى شتات ، وسرعان ما تفرقهم عن بعضهم الشهوات والأهواء .

فمن أجل تحقيق هذه المعانى كلها فى مجتمع المسلمين ودولتهم الجديدة ، أسرع رسول الله ﷺ قبل كل شىء فبادر إلى بناء المسجد[2] .

---

(١) المظاهر الحضارية للمدينة المنورة فى عصر النبوة تأليف « خليل إبراهيم السامرائى وثائر حامد محمد » ص ٤١ ط ١٤٠٥ هـ .

(٢) فقه السيرة . د . محمد سعيد رمضان البوطى ط ٧ دار الفكر ص ١٥٣ .

ب – الركيزة الثانية : كتابة الوثيقة

« قيام المجتمع منذ أول نشأته على أسس دستورية »

الآيات تصور العهد والميثاق ودوره فى تنظيم المجتمع

يقول الله عز وجل :

* إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَسْتَحْيِۦٓ أَن يَضْرِبَ مَثَلًا مَّا بَعُوضَةً فَمَا فَوْقَهَا ۚ فَأَمَّا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ فَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۖ وَأَمَّا ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَيَقُولُونَ مَاذَآ أَرَادَ ٱللَّهُ بِهَٰذَا مَثَلًا ۘ يُضِلُّ بِهِۦ كَثِيرًا وَيَهْدِى بِهِۦ كَثِيرًا ۚ وَمَا يُضِلُّ بِهِۦٓ إِلَّا ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٦﴾ ٱلَّذِينَ يَنقُضُونَ عَهْدَ ٱللَّهِ مِنۢ بَعْدِ مِيثَٰقِهِۦ وَيَقْطَعُونَ مَآ أَمَرَ ٱللَّهُ بِهِۦٓ أَن يُوصَلَ وَيُفْسِدُونَ فِى ٱلْأَرْضِ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْخَٰسِرُونَ ﴿٢٧﴾ .

البقرة : ٢٦-٢٧ .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَوْفُوا۟ بِعَهْدِىٓ أُوفِ بِعَهْدِكُمْ وَإِيَّٰىَ فَٱرْهَبُونِ ﴿٤٠﴾

البقرة ٤٠ .

﴿ أَوَكُلَّمَا عَٰهَدُوا۟ عَهْدًا نَّبَذَهُۥ فَرِيقٌ مِّنْهُم ۚ بَلْ أَكْثَرُهُمْ لَا يُؤْمِنُونَ ﴾

البقرة : ١٠٠ .

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَٰبِ وَٱلنَّبِيِّۦنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البقرة : ١٧٧ .

وَإِن نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُم مِّنۢ بَعْدِ عَهْدِهِمْ وَطَعَنُوا۟ فِى دِينِكُمْ فَقَٰتِلُوٓا۟ أَئِمَّةَ ٱلْكُفْرِ ۙ إِنَّهُمْ لَآ أَيْمَٰنَ لَهُمْ لَعَلَّهُمْ يَنتَهُونَ ﴿١٢﴾

التوبة : ١٢ .

★ ★ ★

١ ـ الوثيقة والصحيفة ودورها فى تطوير المجتمع المدنى :

كانت خطوة الرسول ﷺ الثانية فى المدينة المنورة إصدار وثيقة ، نظم بموجبها العلاقات بين المجتمع المسلم الجديد وبين الكتل البشرية التى كانت توجد فى المدينة : عقد أول مقدمهِ المدينة مع اليهود حول المدينة والمشركين عهداً على المسالمة والموادعة والدفاع المشترك عن المدينة مع التسليم بأن السلطة العليا فى المدينة هى سلطة الرسول ﷺ ، والتعهد بالدفاع عن المدينة معه ضد قريش ، والكف عن مناصرة أى مهاجم للمدينة .

روى ابن هشام أن النبى ﷺ ـ لم تمض له سوى مدة قليلة فى المدينة حتى اجتمع له إسلام عامة أهل المدينة من العرب ، ولم يبق دار من دور الأنصار إلا أسلم أهلها عدا أفراد من قبيلة « الأوس » ، فكتب رسول الله ﷺ كتاباً بين المهاجرين والأنصار وادَعَ فيه اليهود وعاهدهم ، وأقرهم على دينهم وأموالهم ، وشرط لهم واشترط عليهم :

(١) ﴿ بسم الله الرحمن الرحيم ﴾ : هذا كتاب من : « محمد » النبى رسول الله ﷺ بين المؤمنين والمسلمين من قريش وأهل يثرب ، ومن تبعهم ولحق بهم وجاهد معهم .

(٢) إنهم أمة واحدة من دون الناس .

(٣) المهاجرون من قريش على ربعَتِهِم[١] يتعاقلون بينهم ، وهم يفدون عانيهم[٢] بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٤) وبنو عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم[٣] الأولى ، كل طائفة تفدى عَانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

---

(١) ربعتهم : أى على استقامتهم أى أمرهم الذى كانوا عليه . ورباعه الرجل شأنه وحالته التى هو رابع عليها .

(٢) العانى : الأسير .

(٣) المعاقل : الديات ، الواحدة معقلة .

(٥) وبنو ساعدة على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٦) وبنو الحارث من الخزرج على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٧) وبنو جشم على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٨) وبنو النجار على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفه منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(٩) وبنو عمرو بن عوف على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٠) وبنو النبيت على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١١) وبنو الأوس على ربعتهم يتعاقلون معاقلهم الأولى ، وكل طائفة منهم تفدى عانيها بالمعروف والقسط بين المؤمنين .

(١٢) وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً(١) بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل وأن لا يحالف مؤمن مولى مؤمن دونه .

(١٣) وإن المؤمنين المتقين على من بغى منهم أو ابتغى دسيعة(٢) ظلم أو إثم أو عدوان أو فساد بين المؤمنين وإن أيديهم عليه جميعاً ولو كان ولد أحدهم .

---

(١) قال ابن هشام : المفرح : المثقل بالدين والكثير العيال . قال الشاعر

إذا أنت لم تبرح تؤدي أمانة

وتحمل أخرى أفرحتك الودائع

هذا البيت من شعر بُيهس العذرى — انظر حاشية سيرة ابن هشام ج ١ ص٤ تحقيق السقا وزملائه .

(٢) الدسيعة : العظيمة .

(١٤) ولا يقتل مؤمن مؤمناً فى كافر ، ولا ينصر كافراً على مؤمن .

(١٥) وإن ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم ، وإن المؤمنين بعضهم موالى بعض دون الناس .

(١٦) وإن من تبعنا من يهود فإن له النصر والأسوة غير مظلومين ولا متناصرين عليهم .

(١٧) وإن سلم المؤمنين واحدة لا يسالم مؤمن دون مؤمن فى قتال فى سبيل الله إلا على سواء وعدل بينهم .

(١٨) وإن كل غازية غزت معنا يعقب بعضها بعضاً .

(١٩) وإن المؤمنين يُبىء[1] بعضهم على بعض بما نال دماءهم فى سبيل الله .

(٢٠) وإن المؤمنين المتقين على أحسن هدى وأقومه ، وإنه لا يجير مشرك مالا لقريش ولا نفساً ، ولا يحول دونه على مؤمن .

(٢١) وإنه من اعتبط[2] مؤمناً قتلًا عن بينة فإنه قود به إلا أن يرضى ولي المقتول ، وإن المؤمنين عليه كافة ، ولا يحل لهم إلا قيام عليه .

(٢٢) وإنه لا يحل لمؤمن أقر بما فى هذه الصحيفة وآمن بالله واليوم الآخر أن ينصر محدثاً ولا يؤويه وأنه من نصره أو آواه ، فإن عليه لعنة الله وغضبه يوم القيامة ولا يؤخذ منه صرف ولا عدل .

(٢٣) وإنكم مهما اختلفتم فيه من شىء فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد ﷺ .

(٢٤) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

---

(١) يبىء : أن يشتركون معاً فى تحمل ما ينال بعضهم من الخسائر .

(٢) اعتبطه : قتله بلا جناية منه توجب القتل .

(٢٥) وإن يهود « بنى عوف » أمة مع المؤمنين ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم : مواليهم وأنفسهم إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتغ[١] إلا نفسه وأهل بيته .

(٢٦) إن ليهود « بنى النجار » مثل ما ليهود « بنى عوف » .

(٢٧) وإن ليهود « بنى الحارث » مثل ما ليهود « بنى عوف » .

(٢٨) وإن ليهود « بنى ساعدة » مثل ما ليهود « بنى عوف » .

(٢٩) وإن ليهود « بنى جشم » مثل ما ليهود « بنى عوف » .

(٣٠) وإن ليهود « بنى الأوس » مثل ما ليهود « بنى عوف » .

(٣١) وإن ليهود « بنى ثعلبة » مثل ما ليهود « بنى عوف » . إلا من ظلم وأثم فإنه لا يوتِغ إلا نفسه وأهل بيته .

(٣٢) وإن « جفنة » بطن من « ثعلبة » كأنفسهم .

(٣٣) وإن لبنى الشْطيبة مثل ما ليهود « بنى عوف » . وإن البر دون الإثم .

(٣٤) وإن موالى « ثعلبة » كأنفسهم .

(٣٥) وإن بطانة[٢] يهود كأنفسهم .

(٣٦) وإنه لا يخرج منهم أحد إلا بإذن محمد ﷺ .

وإنه لاينحجز على ثأر جرح .

وإنه من فتك فبنفسه فتك ، وأهل بيته إلا من ظلم .

---

(١) يوتغ : يهلك .

(٢) بطانة الرجل : خاصته وأهل بيته .

وإن الله على أبر[1] هذا .

(٣٧) وإن على اليهود نفقتهم وعلى المسلمين نفقتهم ، وإن بينهم النصرة على من حارب أهل هذه الصحيفة ، وإن بينهم النصح والنصيحة . والبردون الإثم ، وإنه لم يأثم امرؤ بحليفه ، وإن النصر للمظلوم .

(٣٨) وإن اليهود ينفقون مع المؤمنين ما داموا محاربين .

(٣٩) وإن يثرب حرام جوفها لأهل هذه الصحيفة .

(٤٠) وإن الجار كالنفس غير مضارٍّ ولا آثم .

(٤١) وإنه لاتجار حرمة إلا بإذن أهلها .

(٤٢) وإنه ما كان بين أهل هذه الصحيفة من حدث أو اشتجار يخاف فساده فإن مرده إلى الله عز وجل وإلى محمد رسول الله ﷺ ، وإن الله على أتقى ما فى هذه الصحيفة وأبره .

(٤٣) وإنه لاتجار قريش ولا من نصرها .

(٤٤) وإن بينهم النصر على من دهم يثرب .

(٤٥) وإذا دعوا على صلح يصالحونه ويلبسونه فإنهم يصالحونه ويلبسونه ، وإنهم إذا دعوا إلى مثل ذلك فإن لهم على المؤمنين إلا من حارب فى الدين على كل أناس حصتهم من جانبهم الذى قبلهم .

(٤٦) وإن يهود الأوس ومواليهم وأنفسهم على مثل ما لأهل هذه الصحيفة مع البر المحض من أهل هذه الصحيفة .

قال ابن إسحاق : إن البر دون الإثم لا يكسب كاسب سوى على نفسه ، وإن الله على أصدق ما فى هذه الصحيفة وأبره .

(٤٧) وإنه لا يحول هذا الكتاب دون ظالم أو آثم ، وإن من خرج

---

(١) على أبر هذا : أى على الرضا به .

آمن ، ومن قعد آمن بالمدينة إلا من ظلم أو أثم . وإن الله جار لمن بر واتقى ، ومحمد رسول الله ﷺ(١) .

٢ ـ معالم تطوير المجتمع فى ضوء الوثيقة :

القسم الأول من الوثيقة يتميز بتعميق الأخوة وإذابة الفوارق وإشعارهم أنهم أمة واحدة من دون الناس يتعاطفون بعضهم مع بعض ويتآلفون فى حياتهم ، ويتحمل كل بطن منهم نفقته ومسئولياته المادية والأسرية بما فيه من الدين والدية ، إلا إذا كانت هناك حاجة تستدعى تجمع الأطراف والبطون من المهاجرين والأنصار لإنقاذ أخ لهم . إلى هذا تشير فقرة (١٢):« وإن المؤمنين لا يتركون مفرحاً بينهم أن يعطوه بالمعروف فى فداء أو عقل » .

وفى ذلك دراية بالغة بحال العدو ، حيث وضعه أمام متحدة متكافلة يسعى بذمتهم أدناهم ، وهم يد على من سواهم » .

والفقرة الثانية وضحت حقوق اليهود الداخلية فى المعاهدة وأعلنت أن لا يجوز لهم مساندة بعض المسلمين دون بعض ، لأنهم أمة واحدة ، وأنهم يتحملون بالتساوى ما نزل بهم وقت الحرب فى سبيل الله ، وكذلك بينت أنه لا يجوز لهم أن يجمعوا أحداً من قريش أو يحفظوا له ماله .

وبذلك تكون المعاهدة قد قطعت عليهم الأمل فى تفريق جماعة المسلمين وحالت بينهم وبين موالاة قريش (٢) .

والقسم الثانى من المعاهدة تناول التنظيم الداخلى للأمة بالنسبة للأفراد

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام : تحقيق السقا وزملائه : القسم الأول ط / ٢ سنة ١٩٥٥ م ص ٥٢٧ ـ ٥٣١ ومجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ط / ٣ سنة ١٩٦٩ دار الإرشاد ـ بيروت ص ٤١ ـ ٤٧ . محمد حميد الله . وعيون الأثر م ١ ص ٢٣٨ ـ ٢٤٠ ط /١ سنة ١٩٧٧ م .

(٢) المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى : د . محمد سيد الوكيل ص ٣٩ ط الأولى ١٩٨٦ م .

وتحمل التبعات وإقرار شخصية الأمة ، فأقر حرية الأديان ، لليهود دينهم وللمسلمين دينهم وحملت المعاهدة الأطراف الملتزمين بها نفقات الحرب على حد سواء .. المؤمنين منهم واليهود ، وأما فى حالة السلم فكل طائفة تنفق على نفسها ، وأوجبت النصرة لمن يعتدى عليه من أهل المعاهدة جميعاً ، كما أوجبت عليهم النصح والتناصح فيما بينهم ، وجعلت المدينة حرماً آمناً ، وجعلت اليهود موالين للمسلمين . وبذلك وحدت المعاهدة صفوف الأمة فى مواجهة العدو ، حيث حملت الجميع نفقات الحرب معه .

ثم إن نصوص الصحيفة توافق القرآن الكريم فى المبادىء العامة فيها من حيث : اعتبار المسلمين أمة واحدة من دون الناس(١) ، ومن حيث التراحم والتعاون بينهم ومعاونة بعضهم بعضاً فيما يفدح بعضهم ويثقل كاهله(٢) .

ومن حيث الاحتفاظ برابطة الولاء وما يترتب عليها من حقوق الموالاة(٣) . ثم من حيث مراعاة حقوق القرابة والصحبة والجوار(٤) . كذلك تحديد المسئولية الشخصية (٥) . والبعد عن ثارات الجاهلية وحميتها(٦) .

كذلك وافقت الصحيفة القرآن فى وجوب الخضوع للقانون ورد

---

(١) ﴿ كنتم خير أمة أخرجت للناس تأمرون بالمعروف وتنهون عن المنكر وتؤمنون بالله ﴾ [آل عمران : ١١٠] .

﴿ إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض والذين آمنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم ﴾ [الأنفال : ٧٢ ، ٧٥] .

(٢) ﴿ يسألونك ماذا ينفقون قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل ﴾ [البقرة : ٢١٥] ﴿ إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفى الرقاب والغارمين وفى سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله ﴾ [التوبة : ٦٠] .

(٣) ﴿ ولكل جعلنا موالى مما ترك الوالدان والأقربون ﴾ [النساء : ٣٣] .

(٤) ﴿ وبالوالدين إحساناً وبذى القربى واليتامى والمساكين والجار ذى القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب ﴾ [النساء : ٣٥] .

(٥) ﴿ ومن يكسب إثماً فإنما يكسبه على نفسه ﴾ [النساء : ١١١] . ﴿ من عمل صالحاً فلنفسه ومن أساء فعليها ﴾ [فصلت : ٤٦] .

(٦) ﴿ خذ العفو وأمر بالعرف وأعرض عن الجاهلين ﴾ [الأعراف : ١٩٩] .

الأمر إلى الدولة بأجهزتها للتصرف فى الأمور(1) . وفى شئون الحرب والسلم وأن حرب الأفراد وسلمهم إنما تدخل فى الاختصاص العام فلا تحدث فردياً(2) . كذلك معاونة الدولة فى إقرار النظام والأخذ على يد الظالم وعدم نصر المحدث(3) أو إيوائه »(4) .

وقد تناول الأستاذ « الشريف » المعاهدة بالتحليل الدقيق ، وذكر بعد كتابة المعاهدة : « من كل ذلك يتبين أن الصحيفة التى ذكرها ابن إسحاق صحيحة وأنها وثيقة هامة جداً لفهم تطورات الأمور فى الدولة اليثربية »(5) .

وبدون شك أن لهذه الوثيقة تأثيرات هامة تتعلق بتنظيم المجتمع الجديد وتطويره ، وحسبنا هذا الدستور الذى وضعه رسول الله ﷺ بوحى من ربه ، واستكتبه أصحابه ، ثم جعله الأساس المتفق عليه فيما بين المسلمين وجيرانهم اليهود ، حسبنا ذلك دليلًا على أن المجتمع الإسلامى قام منذ أول نشأته على أسس دستورية تامة .

وتشير هذه الوثيقة أيضاً إلى التطورات الجديدة التى أخذ المجتمع الإسلامى الجديد يتطور من خلالها :

أ ــ ألغى النبى ﷺ الحدود القبلية ، وارتفع السكان عن المستوى القبلى المحدود إلى الأمة ، فدخلت بناءً على هذه القاعدة شعوب كثيرة فى

---

(1) ﴿ يا أيها الذين آمنوا أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم فإن تنازعتم فى شىء فردوه إلى الله والرسول إن كنتم تؤمنون بالله واليوم الآخر ذلك خير وأحسن تأويلا ﴾ [النساء : 59] .

(2) ﴿ يا أيها الذين آمنوا ادخلوا فى السلم كافة ﴾ [البقرة : 208] ﴿ وإن جنحوا للسلم فاجنح لها وتوكل على الله ﴾ [الأنفال : 61] .

(3) ﴿ ولا تزروا وازرة وزر أخرى وإن تدع مثقلة إلى حملها لا يحمل منه شىء ولو كان ذا قربى ﴾ [فاطر : 18] .

(4) دولة الرسول فى المدينة : د . أحمد إبراهيم الشريف . دار البيان ــ الكويت ص 95 : 97 ط 1972 .

(5) المصدر السابق ، ص 98 .

الإســـلام(١) .

(ب) إن هذه الوثيقة تدل على مدى العدالة التى اتسمت بها معاملة النبى ﷺ لليهود وكانت سبباً مباشراً فى تطوير علاقات اليهود بالمسلمين ثم تطهير المدينة منهم .

(ج) الوثيقة تبين أن من أهم سمات المجتمع الإسلامى ظهور معنى التكافل والتضامن(٢) .

(د) الوثيقة تدل على مدى الدقة فى المساواة بين المسلمين بقوله ﷺ : « **ذمة الله واحدة يجير عليهم أدناهم** » ، ومعنى ذلك أن ذمة المسلم أياً كان محترمة ، وجواره محفوظ لا ينبغى أن يجار عليه فيه . وكان هذا تطوراً ملموساً وقفزة كبيرة فى مظهر من مظاهر المجتمع النامى : مظهر العدل والمساواة .

(هـ) الوثيقة تدل على أن الحكم العدل الذى ينبغى للمسلمين أن يهرعوا إليه فى سائر خصوماتهم وخلافاتهم وشئونهم إنما هو شريعة الله تعالى وحكمه ، وهو ما تضمنه كتاب الله وسنة رسوله .

وكانت الوثيقة منطلقاً جديداً لتفهم معانى العهود والمواثيق وإيفاء الوعد ، فبدأت الآيات توجه هذه المفاهيم إلى بني إسرائيل كى يلتزموا بها ويعودوا إلى بجادة الحق :

﴿ يا بنى إسرائيل اذكروا نعمتى التى أنعمت عليكم وأوفوا بعهدى أوف بعهدكم وإياى فارهبون ﴾(٣) .

وتلقى المسلمون مفاهيم جديرة لمعانى البر والعبادة ، وأن الوفاء بالعهد من أجمل أنواع البر : **﴿ والموفون بعهدهم إذا عاهدوا ﴾** . **﴿ يا أيها الذين آمنوا أوفوا بالعقود ﴾** روى عن ابن عباس : أن المراد بالعقود عهود

(١) المصدر السابق : ص ٩٩ .
(٢) فقه السيرة : د . محمد سعيد رمضان البوطى ط ٦ ص ١٦٣ .
(٣) البقرة : ٤٠ .

الله التي عهد بها إلى عباده : أى ما أحل وما حرم ، وما فرض وما حد في القرآن كله لا عذر فيها ولا نكث ، وأساس العقود فى الإسلام هو هذه الجملة ﴿ **أوفوا بالعقود** ﴾ ، أى إنه يجب على كل مؤمن أن يفى بما أقره وارتبط به من قول أو فعل كما أمر الله مالم يحرم حلالاً أو يحلل حراماً كالعقد على أكل شيء من أموال الناس بالباطل كالربا والميسر والرشوة ونحو ذلك(١) .

تلك هى أبرز الأحكام والمفاهيم التى انطوت عليها هذه الوثيقة التي أقام عليها رسول الله ﷺ الدولة الإسلامية بالمدينة المنورة وجعلها منهاجاً لسلوك المسلمين فى مجتمعهم الجديد .

* * *

---

(١) تفسير المراغى : ج ٥ ص ٤٣ ط الخامسة ١٩٧٤ م .

(ج) الركيزة الثالثة : المؤاخاة

الآيات تسجل معاني الإخاء

يقول الحق عز وجل :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَتَّخِذُ مِن دُونِ ٱللَّهِ أَندَادًا يُحِبُّونَهُمْ كَحُبِّ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَشَدُّ حُبًّا لِّلَّهِ ۗ وَلَوْ يَرَى ٱلَّذِينَ ظَلَمُوٓا۟ إِذْ يَرَوْنَ ٱلْعَذَابَ أَنَّ ٱلْقُوَّةَ لِلَّهِ جَمِيعًا وَأَنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعَذَابِ ﴿١٦٥﴾

البقرة : ١٦٥ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِصَاصُ فِى ٱلْقَتْلَى ۖ ٱلْحُرُّ بِٱلْحُرِّ وَٱلْعَبْدُ بِٱلْعَبْدِ وَٱلْأُنثَىٰ بِٱلْأُنثَىٰ ۚ فَمَنْ عُفِىَ لَهُۥ مِنْ أَخِيهِ شَىْءٌ فَٱتِّبَاعٌۢ بِٱلْمَعْرُوفِ وَأَدَآءٌ إِلَيْهِ بِإِحْسَـٰنٍ ۗ ذَٰلِكَ تَخْفِيفٌ مِّن رَّبِّكُمْ وَرَحْمَةٌ ۗ فَمَنِ ٱعْتَدَىٰ بَعْدَ ذَٰلِكَ فَلَهُۥ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿١٧٨﴾

البقرة : ١٧٨ .

فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْـَٔاخِرَةِ ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَـٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ

وَجِهَادٍ فِي سَبِيلِهِۦ فَتَرَبَّصُوا۟ حَتَّىٰ يَأْتِيَ ٱللَّهُ بِأَمْرِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ

لَا يَهْدِي ٱلْقَوْمَ ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٢٤﴾ التوبة : ٢٣ ـ ٢٤ .

مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ البقرة . ٢٢٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا

وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ

وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ

قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ

مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ

لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾ آل عمران : ١٠٢ ـ ١٠٣ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تُحِلُّوا۟

شَعَٰٓئِرَ ٱللَّهِ وَلَا ٱلشَّهْرَ ٱلْحَرَامَ وَلَا ٱلْهَدْيَ وَلَا ٱلْقَلَٰٓئِدَ

وَلَآ ءَآمِّينَ ٱلْبَيْتَ ٱلْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ

وَرِضْوَٰنًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَٱصْطَادُوا۟ ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَـَٔانُ

قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا۟

وَتَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْبِرِّ وَٱلتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا۟ عَلَى ٱلْإِثْمِ

وَٱلْعُدْوَٰنِ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ شَدِيدُ ٱلْعِقَابِ ﴿٢﴾

المائدة : ٢ .

قَالَ رَبِّ ٱغْفِرْ لِي

وَلِأَخِي وَأَدْخِلْنَا فِي رَحْمَتِكَ ۖ وَأَنتَ أَرْحَمُ ٱلرَّٰحِمِينَ ﴿١٥١﴾

الأعراف : ١٥١ .

فَإِن تَابُوا وَأَقَامُوا

ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ ۗ وَنُفَصِّلُ

ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿١١﴾

التوبة : ١١ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ

وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَٰنِ ۚ

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ قُلْ إِن

كَانَ ءَابَآؤُكُمْ وَأَبْنَآؤُكُمْ وَإِخْوَٰنُكُمْ وَأَزْوَٰجُكُمْ

وَعَشِيرَتُكُمْ وَأَمْوَٰلٌ ٱقْتَرَفْتُمُوهَا وَتِجَٰرَةٌ تَخْشَوْنَ كَسَادَهَا

وَمَسَٰكِنُ تَرْضَوْنَهَآ أَحَبَّ إِلَيْكُم مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ

وَٱلْمُؤْمِنُونَ

وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ

وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَيُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَيُؤْتُونَ ٱلزَّكَوٰةَ

وَيُطِيعُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ سَيَرْحَمُهُمُ ٱللَّهُ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ

عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٧١﴾

التوبة : ٧١ .

وَنَزَعْنَا مَا فِي صُدُورِهِم مِّنْ
غِلٍّ إِخْوَٰنًا عَلَىٰ سُرُرٍ مُّتَقَٰبِلِينَ ﴿٤٧﴾

الحجر : ٤٧ .

ٱدْعُوهُمْ لِءَابَآئِهِمْ هُوَ أَقْسَطُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ فَإِن لَّمْ تَعْلَمُوٓا۟
ءَابَآءَهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ فِي ٱلدِّينِ وَمَوَٰلِيكُمْ ۚ وَلَيْسَ عَلَيْكُمْ
جُنَاحٌ فِيمَآ أَخْطَأْتُم بِهِۦ وَلَٰكِن مَّا تَعَمَّدَتْ قُلُوبُكُمْ ۚ
وَكَانَ ٱللَّهُ غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥﴾

الأحزاب : ٥ .

إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ إِخْوَةٌ فَأَصْلِحُوا۟ بَيْنَ
أَخَوَيْكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُرْحَمُونَ ﴿١٠﴾

الحجرات : ١٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا
مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب
بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا
فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

الحجرات : ١٢ .

لَّا تَجِدُ قَوْمًا يُؤْمِنُونَ
بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ يُوَآدُّونَ مَنْ حَآدَّ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَوْ
كَانُوٓا۟ ءَابَآءَهُمْ أَوْ أَبْنَآءَهُمْ أَوْ إِخْوَٰنَهُمْ أَوْ عَشِيرَتَهُمْ ۚ

﴿أُولَٰئِكَ كَتَبَ فِي قُلُوبِهِمُ الْإِيمَانَ وَأَيَّدَهُم بِرُوحٍ مِّنْهُ ۖ وَيُدْخِلُهُمْ جَنَّاتٍ تَجْرِي مِن تَحْتِهَا الْأَنْهَارُ خَالِدِينَ فِيهَا ۚ رَضِيَ اللَّهُ عَنْهُمْ وَرَضُوا عَنْهُ ۚ أُولَٰئِكَ حِزْبُ اللَّهِ ۚ أَلَا إِنَّ حِزْبَ اللَّهِ هُمُ الْمُفْلِحُونَ ﴿٢٢﴾﴾

المجادلة : ٢٢ .

﴿وَالَّذِينَ جَاءُوا مِن بَعْدِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَا اغْفِرْ لَنَا وَلِإِخْوَانِنَا الَّذِينَ سَبَقُونَا بِالْإِيمَانِ وَلَا تَجْعَلْ فِي قُلُوبِنَا غِلًّا لِّلَّذِينَ آمَنُوا رَبَّنَا إِنَّكَ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠﴾﴾

الحشر : ١٠ .

١ ـ فكرة الإخاء تجربة رائدة :

لقد كان الإخاء تجربة رائدة وسط الأجواء المادية ، ضرب الرسول ﷺ فيه مثلًا على مرونة الإسلام وجعله وسيلة لتأليف النفوس وترقيق المشاعر والقلوب ، فكانت بداية لتنظيم علاقاتهم الاجتماعية ريثما يستعيد المهاجرون مقدرتهم المالية والاجتماعية ، ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخوة مسئولية حقيقية تشيع بين هؤلاء الأخوة ، وتتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين .

وهو تطور جديد من العصبية القبلية والأنانية المقيتة إلى الأخوة الحقة ، والمحبة الصادقة. «ومن يرجع إلى الشعر الجاهلى يجد فيه الفخر باليمنية والقحطانية والعدنانية والمضرية ، كما يجد فيه العصبيات مشتعلة بين القبائل على أساس الاشتراك فى الدم وفى أب واحد أو أم واحدة ، ولذلك أهم ما يميز حياة العرب فى الجاهلية أنها كانت حياة حربية تقوم على سفك الدماء : حتى لكأنه أصبح سُنة من سننهم ، فهم دائماً قاتلون أو مقتولون » (١) .

(١) العصر الجاهلى : د. شوقى ضيف ص ٦٢ ط ٨ .

وكان التعاون على الإثم والعدوان أقرب وأرجح من التعاون على البر والتقوى ، لأن الجاهلى على دين قبيلته أكانت ضالة أم راشدة . يقول دريد ابن الصمة :

وما أنا إلا من غزيَّة إن غوت غويت وإن ترشد غزيَّة أرشد

فى وسط هذه العادات والعصبيات المتأصلة فى النفوس — اعتبر الإسلام المؤمنين كلهم أخوة ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ واعتمدها رسول الله ﷺ حجر الزاوية فى بناء هذا المجتمع الجديد .

يشير « البلاذى » إلى أن النبى ﷺ « آخى بين المسلمين فى مكة قبل الهجرة على الحق والمواساة ، فآخى بين حمزة وزيد بن حارثة ، وبين أبي بكر وعمر ، وبين عثمان بن عفان وعبد الرحمن بن عوف ، وبين الزبير بن العوام وعبد الله بن مسعود ، وبين عبيدة بن الحارث وبلال الحبشى ، وبين مصعب بن عمير وسعد بن أبى وقاص ، وبين أبى عبيدة بن الجراح وسالم مولى أبى حذيفة ، وبين سعيد بن زيد بن عمرو بن نفيل وطلحة بن عبيد الله ، وبينه وبين على بن أبى طالب »(١) .

ويعتبر « البلاذري »(ت ٢٧٦ هـ) أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية وقد تابعه فى ذلك « ابن عبد البر » (ت ٤٦٣ هـ) دون أن يصرح بالنقل عنه (٢) .

قال الحافظ فى الفتح : قال ابن عبد البر : كانت المؤاخاة مرتين : مرة بين المهاجرين خاصة وذلك بمكة ، ومرة بين المهاجرين والأنصار على المواساة(٣) .

---

(١) أنساب الأشراف للبلاذري ج ١ ص ٢٧٠ — تحقيق محمد حميد الله ط / ١ دار المعارف بمصر ١٩٥٩ م .

(٢) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ، خصائصه وتنظيماته الأولى : د / أكرم العمرى ص / ٧١ ط ١٩٨٣ م .

(٣) تفسير القرآن الحكيم (تفسير المنار) محمد رشيد رضا : المجلد / ١٠ ص ١٠٦ — ط٢/ دار المعرفة بيروت ، والهجرة النبوية ودورها فى بناء المجتمع الإسلامى : د / سعيد المرصفى / ص : ٢٥٥ ط ١ — الكويت .

ولقد بدأ الإخاء الإسلامى كرابطة بين معتنقى هذا الدين منذ العهد المكى ، فلقد كانت الزكاة مفروضة بلا حد أدنى ، وكانت المشاركة الوجدانية تدفع الأثرياء مثل أبى بكر رضى الله عنه ليحرروا الإماء والرقيق الذى قبل الإسلام ديناً ومحمداً ﷺ نبياً ورسولا . والأخوة التى أشار إليها « البلاذرى » كانت قوة معنوية ومادية ، وكانت هى الصلابة التى تحلت بها الجماعة الإسلامية فى مكة ، وخيبت كل آمال القرشيين وألوان تعذيبهم ، فلما كان العهد المدنى كان لابد من تطوير هذا الإخاء ، وخاصة فى المجتمع الجديد الذى يتألف من غربائهم المهاجرين وأصحاب الديار وهم الأوس والخزرج ، وبقاء الأشخاص هكذا بدون تنظيمهم يشبه القبلية القديمة فلا يعطى المعنى الذى يريده الإسلام ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ فكانت عملية الإخاء الإسلامى :

(أ) لم يعد هناك وصف لجانب من أبناء المجتمع بالأوس أو بالخزرج فسموا جميعاً بالأنصار .

(ب) والمهاجرون لم يعد لهم بقاء مستقل كغرباء ، فدمج الرسول ﷺ المهاجرين مع الأنصار فى صورة أمة ﴿ **ولتكن منكم أمة** ﴾[1] .

بصرف النظر عن اختلاف المؤرخين فى هذه المؤاخاة المبكرة فأرى أنها كانت خطوة أولية وحكيمة لتحطيم عصبيات الجاهلية وإسقاط فوارق النسب واللون والقبلية ، كانت خطوة تربوية رائعة لإيجاد بوادر الهجرة وتهيئة الأجواء للمجتمع الجديد ، وبالذات فى مدينة « يثرب » عاشت حقبة من الزمن بين أجواء العصبية بين الأوس والخزرج من طرف ، وبينهم وبين اليهود من طرف آخر .

كما أن روابط المهاجرين بالمجتمع الجديد كانت حديثة ، فقد ترك المهاجرون أهليهم وأصحابهم بمكة ، وانقطعت صلتهم بأرحامهم وذويهم مما

---

(١) الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى . د . رءوف شلبى . ط الأولى ص ١٠٥ ، ١٠٦ بتصرف واختصار .

وَلَّد إحساساً بالوحشة والحنين إلى بلدتهم « مكة » قال السهيلى : آخى رسول الله ﷺ بين أصحابه حين نزلوا المدينة ليذهب عنهم وحشة الغربة ، ويؤنسهم من مفارقة الأهل والعشيرة ، ويشد أزر بعضهم بعضاً »[1] .

قال ابن اسحاق : وآخى رسول الله ﷺ بين أصحابه من المهاجرين والأنصار ، فقال — فيما بلغنا ، ونعوذ بالله أن نقول عليه مالم يقل : تآخوا فى الله أخوين أخوين ، ثم أخذ بيد على بن أبى طالب فقال : هذا أخى . فكان رسول الله ﷺ سيد المرسلين وإمام المتقين ، ورسول رب العالمين ، الذى ليس له خطير ولا نظير من العبادة ، وعلى بن أبى طالب رضى الله عنه ، أخوين ، وكان حمزة بن عبد المطلب ، أسد الله وأسد رسوله ﷺ ، وعم رسول الله ﷺ وزيد بن حارثة ، مولى رسول الله ﷺ ، أخوين ، وإليه أوصى حمزة يوم أحد حين حضره القتال إن حدث به حادث الموت ، وجعفر بن أبى طالب ذو الجناحين ، الطيار فى الجنة ، ومعاذ بن جبل ، أخو بنى مسلمة ، أخوين .

قال ابن هشام : وكان جعفر بن أبى طالب يومئذ غائباً بأرض الحبشة .

قال ابن اسحاق : وكان أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، ابن أبى قحافة ، وخارجة بن زهير ، أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين ، وعمر بن الخطاب رضى الله عنه ، وعتبان بن مالك ، أخو بنى سالم بن عوف بن عمرو بن عوف بن الخزرج ، أخوين ، وأبو عبيدة بن عبد الله بن الجراح ، واسمه عامر بن عبد الله ، وسعد بن معاذ بن النعمان ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين ، وعبد الرحمن بن عوف ، وسعد بن الربيع ، أخو بلحارث بن الخزرج ، أخوين ، والزبير بن العوام ، وسلامة بن سلامة بن وَقْس ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين ويقال : بل الزبير وعبد الله بن مسعود ، حليف بنى زهرة ، أخوين ، وعثمان بن عفان ، وأوس بن ثابت

---

(1) الروض الأنف ج ٢ ص ٢٥٢ ط شركة الطباعة المتحدة — تعليق طه عبد الرءوف .

ابن المنذر ، أخو بنى النجار ، أخوين ، وطلحة بن عبيد الله ، وكعب بن مالك ، أخو بنى سلمة ، أخوين ، وسعد بن زيد بن عمرو بن نفيل ، وأبى بن كعب ، أخو بنى النجار ، أخوين ، ومصعب بن عمير بن هاشم ، وأبو أيوب خالد بن زيد ، أخو بنى النجار ، أخوين ، وأبو حذيفةبن عتبة بن ربيعة ، وعبّاد بن بشر بن وَقْش ، أخو بنى عبد الأشهل ، أخوين ، وعمار بن ياسر ، حليف بنى مخزوم ، وحذيفة بن اليمان ، أخو بنى عبد عبس ، حليف بنى عبد الأشهل ، أخوين ، ويقال : ثابت بن قيس بن الشماس ، أخو بلحارث بن الخزرج ، خطيب رسول الله ﷺ ، وعمار بن ياسر ، أخوين ، وأبو ذر ، وهو برير بن جنادة الغفارى ، والمنذر بن عمرو ، المُعْنِق ليموت* ، أخو بنى مساعدة بن كعب بن الخزرج : أخوين(١) .

حدثنا محمد بن يوسف حدثنا سفيان عن حميد عن أنس رضى الله عنه قال : قدم عبد الرحمن بن عوف فآخى النبى بينه وبين سعد بن الربيع الأنصارى ، فعرض عليه أن يناصفه أهله وماله ، فقال عبد الرحمن : بارك الله لك فى أهلك ومالك ، دلنى على السوق ، فربح شيئاً من أقط وسمن ، فرآه النبى ﷺ بعد أيام وعليه وضر من صفرة ، فقال النبى ﷺ : مهيم يا عبد الرحمن ؟ قال : يا رسول الله ، تزوجت امرأة من الأنصار . قال : فما سقت فيها ؟ فقال : وزن نواة من ذهب ، فقال النبى ﷺ : « **أَوْلِمْ وَلَوْ بِشَاةٍ** »(٢) .

وكان هذا أول درس مثالى فى مدرسة الأخوة ، فسماحة « سعد » يعدلها نبل « عبد الرحمن » وليس موقف « ابن عوف » فى أنفته وكرم خلقه ، وعدم استغلاله لأخيه بأقل روعة من إيثار « ابن الربيع » فقد

---

* أى إن المنية أسرعت به وساقته للموت .

(١) السيرة النبوية لابن هشام : القسم الأول ص ٥٠٥ — ٥٠٦ (ط / ٢ سنة ١٩٥٥ م) .

(٢) صحيح البخارى ج ٤ باب كيف آخى النبى ﷺ بين أصحابه ص ٨٨ طبع مكتبة الجمهورية العربية بمصر .

تمكن ــ وهو التاجر الماهر ــ من شق طريقه فى الحياة الجديدة وبعد مدة يسيرة تمكن من الزواج ودفع نواة من ذهب ، ثم بورك له فى عمله ونمت ثروته ليصبح من كبار أغنياء المسلمين ، فقد أبى إلا أن يكون صاحب اليد العليا التى تعطى ولا تأخذ(١) .

وهذا الإخاء العملى أكد عليه النص القرآنى فى سورة الحجرات : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة فأصلحوا بين أخويكم** ﴾(٢) . والإخاء الإسلامى هذا له تطبيقات عملية فى تطوير المجتمع النامى تحدد التصرف والتبعة والسلوك فالأخوة الإسلامية عملياً هى :

ــ أخوة تعاون .

ــ أخوة تراحم وتواد وتعاطف .

ــ وأخوة عدم اعتداء وبعد عن الهجر والخصام .

٢ـ تنظيم الأخوة وتعميقها :

وبدأ نبى الهدى ﷺ يعمق هذه المعانى بين حين وآخر ، فقال ﷺ : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً ، ثم شبك بين أصابعه** »(٣) . وكان النبى ﷺ جالساً إذ جاء رجل يسأل أو طالب حاجة أقبل علينا بوجهه ، فقال : « **اشفعوا فلتؤجروا ، وليقض الله على لسان نبيه ما شاء** »(٤) .

هذا عن أخوة التعاون .

وأما أخوة التوادد والتعاطف : فعن النعمان بن بشير قال : قال رسول الله ﷺ :

---

(١) المجتمع المدنى فى عهد النبوة د/ أكرم ضياء العمرى ص ٧٦ .
(٢) الحجرات : ١٠ .
(٣) أخرجه البخارى فى كتاب الصلاة ج ١ ص ٤٥ حاشية السندى ط ــ دار المعرفة بيروت .
(٤) أخرجه البخارى فى باب تعاون المؤمنين ج ٨ ص ١٤ .

« مثل المؤمنين فى توادهم وتراحمهم وتعاطفهم مثل الجسد الواحد إذا اشتكى منه عضو تداعى له سائر الجسد بالسهر والحمى »(١) .

كما يرى الإسلام أنه كلما عمَّق المؤمن أخوته وصدق ذاق حلاوة إيمانه ، يقول النبى ﷺ : **« ثلاث من كن فيه وجد حلاوة الإيمان : أن يكون الله ورسوله أحب إليه مما سواهما ، وأن يحب المرء لا يحبه إلا لله ، وأن يكره أن يعود فى الكفر كما يكره أن يقذف فى النار »**(٢) .

« ما من عبد مسلم يدعو لأخيه بظهر الغيب إلا قال الملك ولك بمثل » (٣) .

وفى الحديث القدسى : **« المتحابون فى جلالى لهم منابر من نور يغبطهم النبيون والشهداء »**(٤) .

ثم هى أخوة أمن وعدم اعتداء وخصام ، ففى السنة الشريفة :

عن أبى هريرة رضى الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ :

« لا تحاسدوا ولا تناجشوا ، ولا تباغضوا ، ولا تدابروا ، ولا يبع بعضكم على بيع بعض وكونوا عباد الله إخواناً . المسلم أخو المسلم لا يظلمه ، ولا يخذله ، ولا يحقره ، التقوى هاهنا ، ويشير إلى صدره ثلاث مرات ، بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه ، كلُّ المسلم على المسلم حرام ، دمه ، وماله ، وعرضه »(٥) .

وفى البخارى بسنده عن أبى أيوب الأنصارى أن رسول الله ﷺ قال :

« لا يحل لرجل أن يهجر أخاه فوق ثلاث ليال ، يلتقيان فيعرض

---

(١) صحيح مسلم باب تراحم المؤمنين وتعاطفهم ج ١٦ ص ١٣٩ شرح النووى ط الثالثة .

(٢) أخرجه البخارى فى باب الإيمان ج ١ ص ١٢ دار المعرفة .

(٣) أخرجه مسلم ج ١٧ ص ٤٩ باب فضل الدعاء للمسلمين بظهر الغيب .

(٤) أخرجه مسلم ج ٨ ص ١٠

(٥) أخرجه الترمذي ج ٤ ص ٥٩٨ باب ما جاء في حب الله ـــ ط الأولى ١٩٦٢ م مصر .

هذا ويعرض هذا ، وخيرهم من يبدأ بالسلام »[1] .

وهذا الحديث نموذج من نماذج تنظيم الأخوة وتيسيرها ، فقد تفتر علاقة بين المسلم وأخيه أو تنقطع ساعة الغضب ، لكن انقطاعها يجب ألا يستمر فوق ثلاث ليال حتى تستمر العلاقات الاجتماعية ، تعطى ثمرتها المرجوة .. وقد بين ﷺ طريقاً لائقاً لإزالة الجفوة روى عن عطاء بن مسلم عبد الله الخراسانى قال : قال رسول الله ﷺ : « **تصافحوا يذهب الغل ، وتهادوا تحابوا وتذهب الشحناء »**[2] .

وقد بلغت أخوة الأنصار مبلغاً عظيماً عندما اقترحوا على الرسول ﷺ أن يقسم نخلهم بينهم ، وبين المهاجرين ، على أن الرسول ﷺ طلب من الأنصار تنظيم هذا الحماس بحيث يقوم الأنصار بإدارة البساتين ويشركون المهاجرين فى التمر ، روى البخارى : « عن أبى هريرة رضى الله عنه ، قال : قالت الأنصار أقسم بيننا وبينهم النخل . قال : لا . قال : تكفونا المؤنة وتشركونا فى التمر ، قالوا : سمعنا وأطعنا »[3] .

كما وهبت الأنصار لرسول الله ﷺ كل فضل فى خططها ، وقالوا له : إن شئت فخذ منا منازلنا . فقال لهم خيراً ، وابتنى لأصحابه فى أراضى وهبتها لهم الأنصار وأراض ليست ملكاً لأحد[4] .

وإذا كان المجتمع الجديد إنما يقوم على أساس من الأخوة والعدالة فى الاستفادة من أسباب الحياة والرزق ، فما الذى يضمن سلامة الأخوة وتطبيقها على خير وجه ؟ .

« المؤمن من أمنه الناس على أموالهم وأنفسهم ، والمهاجر من هجر

---

(١) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٦٢ والترمذى باب ما جاء فى الذب عن المسلم ج ٣ ص ٢١٩ .

(٢) الموطأ للإمام مالك باب ما جاء فى حسن الخلق ص ٦٥٣ ط ٦ عام ١٩٨٢ بيروت .

(٣) صحيح البخارى ج ٥ / ٣٩ ط الشعب ١٣٧٨ هـ .

(٤) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ــ أكرم العمرى ص ٧٤ .

الخطايا والذنوب »[1] .

من أجل هذا ، اتخذ الرسول ﷺ من حقيقة التآخى الذى أقامه بين المهاجرين والأنصار أساساً لمبادىء العدالة الاجتماعية التى قام على تطبيقها أعظم وأروع نظام اجتماعى فى العالم[2] .

ولقد تدرجت وتطورت مبادىء هذه الأخوة والعدالة فيما بعد بشكل أحكام وقوانين شرعية ملزمة ، ولكنها كلها إنما تأسست وقامت على الأرضية الأولى ألا وهى الأخوة الإسلامية .

وهناك آيات بينات ترسم صوراً جميلة لتطوير هذه الأخوة وتنظيمها وتسجل المراحل والأدوار التى مرت بها هذه الفكرة السامية بداية من مكة :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَهَاجَرُواْ وَجَٰهَدُواْ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ
فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَواْ وَّنَصَرُوٓاْ أُوْلَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ
أَوْلِيَآءُ بَعْضٍۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَلَمْ يُهَاجِرُواْ مَا لَكُم مِّن
وَلَٰيَتِهِم مِّن شَيْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُواْۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِي
ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمِۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌۗ
وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

الأنفال : ٧٢ .

---

(١) رواه ابن ماجة بإسناد حسن رقم ٣٩٣٣ ج ٢ ص ١٢٩٨ ط دار الفكر .
(٢) فقه السيرة ــ للبوطى ص ١٥٧

والآيات ترسم أبعاد الأخوة وطبيعة العلاقات فى المجتمع المسلم ، وطبيعة العلاقات بينه وبين المجتمعات الأخرى ، وتبين الأحكام المنظمة لهذه العلاقات ، ومنها نتبين طبيعة المجتمع الجديد ، وتنضح الأسس والمعايير التى يمكن التعامل فى ضوئها . وعلى هذا انقسم المؤمنون إلى ثلاثة أقسام :

« المهاجرون ، والأنصار ، والذين لم يهاجروا » فبدأ بالمهاجرين لأنهم أصل الإسلام ، وقد هجروا الديار والأوطان ابتغاء رضوان الله ، وثنَّى بالأنصار ، لأنهم نصروا الله ورسوله وجاهدوا بالنفس والمال، وجعل بين المهاجرين والأنصار الولاية والنصرة » (١) .

وقد أفاض فى هذا الموضوع صاحب « المنار » ودرسه دراسة علمية دقيقة مبيناً المراحل والأدوار التى مرت بها فكرة الأخوة ، فقال : « كان المؤمنون فى عصر النبى ﷺ أربعة أصناف : (الأول : المهاجرون الأولون أصحاب الهجرة الأولى قبل غزوة بدر ، وربما يمتد حكمها إلى صلح الحديبية سنة ست . (الثانى) : الأنصار . (الثالث) المؤمنون الذين لم يهاجروا . (الرابع) : المؤمنون الذين هاجروا بعد صلح الحديبية .

واستنتج هذه الأقسام الأربعة من خلال الآية المذكورة فقال : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم فى سبيل الله** ﴾ هذا هو الصنف الأول ، وهو الأفضل والأكمل ، قال : ﴿ **والذين آووا ونصروا** ﴾ هذا هو الصنف الثانى فى الفضل بسبب الإيواء والنصرة ، ﴿ **والذين آمنوا ولم يهاجروا مالكم من ولايتهم من شىء حتى يهاجروا** ﴾ وهذا هو الصنف الثالث من أصناف المؤمنين ، وهم المقيمون فى أرض الشرك ، ويجب على المسلمين السعى فى فكاكهم بما يستطيعون من حول وقوة ﴿ **والذين امنوا من بعد وهاجروا وجاهدوا معكم فأولئك منكم** ﴾ هذا هو الصنف الرابع من المؤمنين فى ذلك العهد ، وهم من تأخر إيمانهم وهجرتهم عن الهجرة الأولى ، وحكمهم أنهم يلتحقون بالمهاجرين

---

(١) صفوة التفاسير لمحمد على الصابونى م ١ ص ٥١٦ ط : ١٩٨١ بيروت .

والأنصار . قال ابن جرير : ﴿ **فأولئك منكم** ﴾ يجب عليكم لهم من الحق والنصرة فى الدين(١) .

تلك هى الأخوة الإسلامية التى كانت أقوى ركيزة من ركائز هذا المجتمع الجديد ، ولذلك أدرك اليهود أن إبعاد المجتمع الإسلامى عن الإخاء الإسلامى هو الوسيلة الوحيدة للدسيسة بين المسلمين أو بين مجتمع الإخاء ، فدسوا مكرهم وكيدهم بين الأنصار ، بإيغار صدورهم بالحروب القديمة حتى أججوا فى صدورهم ثأر الذين قتلوا فى الجاهلية بخبث حديثهم ، فتواعدوا إلى الحرة ليكون اللقاء المسلح من جديد ، فنزلت الآيات الربانية تخاطبهم :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ وَٱعْتَصِمُوا۟ بِحَبْلِ ٱللَّهِ جَمِيعًا وَلَا تَفَرَّقُوا۟ ۚ وَٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ كُنتُمْ أَعْدَآءً فَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِكُمْ فَأَصْبَحْتُم بِنِعْمَتِهِۦٓ إِخْوَٰنًا وَكُنتُمْ عَلَىٰ شَفَا حُفْرَةٍ مِّنَ ٱلنَّارِ فَأَنقَذَكُم مِّنْهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ لَعَلَّكُمْ تَهْتَدُونَ ﴿١٠٣﴾

آل عمران : ١٠٢ ، ١٠٣ .

وجاءهم النبى ﷺ ، وتلا عليهم الآيات ، وجعل يقول لهم :

« **أبدعوى الجاهلية وأنا بين أظهركم ؟!** » فرجعت الحياة إلى سيرتها ، وعاد الإخاء العملى إلى طبيعته ، فتصافحوا ، وتعانقوا ، وندموا على ما صدر منهم »(٢) .

هذه القصة تبين أهمية الإخاء وخطورة تطبيقه وضرورته فى المجتمع

---

(١) تفسير القرآن الحكيم الشهير بتفسير المنار تأليف محمد رشيد رضا . ط الثانية ــ دار المعرفة ــ بيروت ج ١٠ ص ١٠٤ : ١١٤ بتصرف واختصار .

(٢) بتصرف عن ابن كثير ج ١ ص ٢٨٩ .

الجديد النامى ، ولذلك كان تركيز النبى ﷺ على تعميق هذه الأخوة وتنظيمها ، فكان أن شرع نظام المؤاخاة ، ويحدد « ابن عبد البر » تاريخ التشريع بعد الهجرة بخمسة أشهر[1] .

أما « ابن سعد » فقد ذكر أن المؤاخاة بعد الهجرة وقبل غزوة بدر الكبرى[2] .

وكان إعلان هذا التشريع فى دار « أنس بن مالك » كما صرحت الروايات[3] .

وقد اشتملت المؤاخاة تسعين رجلًا : خمسة وأربعين من المهاجرين وخمسة وأربعين من الأنصار ، ويقال : إنه لم يبق من المهاجرين أحد إلا آخى بينه وبين أنصارى[4] ذكر « ابن سعد » أن ثمة مؤاخاة بين المهاجرين أنفسهم وقعت فى المدينة إلى جانب المؤاخاة بينهم وبين الأنصار ، كانت هذه أولى خطوات التنظيم .

٣ ـــ إلغاء التوارث بين المتآخين :

لما ألف المهاجرون جو المدينة ، وعرفوا مسالك الرزق ، وتعمقت الأخوة والمحبة ، وتآلفوا فكرياً وجسدياً ، وأصابوا من غنائم بدر الكبرى ، رجع التوارث إلى وضعه الطبيعى على أساس صلة الرحم ، وأبطل التوارث بين المتآخين ، فقال تعالى : ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض فى كتاب الله** ﴾[5] . وكان هذا تطوراً حاسماً فى معانى الأخوة متدرجاً متلائماً مع الفطرة البشرية .

ذكر « ابن عباس » : أن ما ألغى من نظام المؤاخاة هو الإرث ، أما « النصر والرفادة والنصيحة » ، فباقية[6] .

---

(١) ابن عبد البر : الدرر فى اختصار المغازى والسير ص ٩٦ .

(٢) ابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢/٩ ط ـــ بيروت ١٩٥٨ م .

(٣) المصدر السابق .

(٤) أنساب الأشراف للبلاذرى تحقيق محمد حميد الله ط/٢٧٠ ط ـــ ١٩٥٩ م ـــ مصر ، وابن سعد : الطبقات ج ١ قسم ٢/٩ .

(٥) الأحزاب : ٦ .

(٦) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ـــ د . أكرم ضياء ص ٧٧

وإلى هذا ذهب الإمام « النووى » فقال : « أما ما يتعلق بالإرث فيستحب فيه المخالفة عند جماهير العلماء ، أما المؤاخاة فى الإسلام ، والمحالفة على طاعة الله ، والتناصر فى الدين ، والتعاون على البر والتقوى وإقامة الحق ، فباق لم ينسخ »(١) . وينفرد ابن سعد بنقل رواية بإسناده إلى عروة بن الزبير تذكر إن إلغاء التوارث بين المتآخين ونزول الآية ﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض** ﴾ بعد غزوة أحد(٢) . التى وقعت فى شوال سنة ٣ هـ .

وعلى كل فإن هذا التاريخ يؤيد فكرة التطور الطبيعى فى المؤاخاة والحكمة المطلوبة من هذا التطور والتدرج .

٤ ــ استمرار المؤاخاة دون توارث :

واستمر النبى ﷺ يعمق معانى الأخوة ، ويجدد الأواصر الإيمانية بين حين وآخر بالأحاديث وبالوقائع ، لأن الأخوة العمود الفقرى فى جسم الأمة الإسلامية ، فلا بد من الاحتفاظ بها والعناية لها ، فقد وردت أخبار تفيد أنه آخى بين أبى الدرداء وسلمان الفارسى(٣) . مع أن سلمان أسلم بين أحد والخندق ، مما جعل الواقدى والبلاذرى ينكران ذلك(٤) .

وكذلك أنكر « ابن كثير » مؤاخاة جعفر بن أبى طالب ، لأن جعفراً قدم فى فتح خيبر أول سنة ٧ هـ (٥) . وذكر « ابن حجر » قصة المؤاخاة بين الحتات التميمى ومعاوية بن أبى سفيان ، وأن الحتات مات فى خلافة معاوية فورثه بالأخوة مكتفياً فى التعليق على الخبر بإبداء تعجبه ، لأن

---

(١) صحيح مسلم ج ٤ ص ١٩٦ الحاشية .
(٢) راجع فتح القدير للشوكانى ج ٢ ص ٣٣٠ ــ ٣٣١ (ط/ عالم الكتب ــ بيروت) وأنساب الأشراف للبلاذرى ج ٢٧١/١ .
(٣) صحيح البخارى ج ٥ ص ١٧٣ .
(٤) أنساب الأشراف ج ١ ص ٢٧١ .
(٥) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٣٢٦ (ط دار المعرفة ــ بيروت) .

للحتات بنين يرثونه » . وقال « ابن عبد البر » : ذكر ابن إسحاق وابن الكلبى وابن هشام أن النبى ﷺ آخى بين الحتات ومعاوية ، فمات الحتات عند معاوية فى خلافته ، فورثه بالأخوة[1] . « دون أن يشير إلى إبطال التوارث بالمؤاخاة أصلًا منذ السنة الثانية الهجرية ، ولا يصح مثل هذا الخبر إلا أن يكون الحتات قد أوصى لمعاوية بشىء من ميراثه ، لا كله»[2] . وهذه الروايات تؤيد أبعاد معانى الأخوة وأهدافها السامية حيث إنها لم تكن مجرد شعار لكلمة أجراها النبى ﷺ على ألسنتهم ، إنما كانت حقيقة عملية تتصل بواقع الحياة وبكل أوجه العلاقات القائمة بين الأنصار والمهاجرين ، وبين المهاجرين أنفسهم ، وبين الأنصار والأنصار ، ولذلك جعل النبى ﷺ من هذه الأخوة وسيلة ميمونة لتطبيق معانى الاعتصام والتآلف وإدراك المسئولية المتبادلة بين الآخرين ، ولأن فكرة الأخوة كانت جديدة ، وكانت تتطلب تضحية وإيثاراً فى التطبيق ، لذلك جعل الله سبحانه وتعالى حق الميراث منوطاً بهذا التآخى ، فلما استقر أمر المهاجرين فى المدينة ، وتمكن الإسلام فيها غدت الروح الإسلامية هى وحدها العصب الطبيعى للمجتمع الجديد فى المدينة ، وأصبح من المناسب إلغاء التوارث ، وهذا الإلغاء يؤكد لنا أن مناط الأخوة وأساسها إنما هو رابطة الإسلام ، غير أنها كانت تحتاج إلى تدرج وإلى تطور فى الفهم والتطبيق ، وكانت ولا تزال تحتاج إلى التجديد والتعمق .

٥ ــ مؤامرة الأعداء ضد الأخوة :

عرف اليهود والمنافقون أن التآخى والتوادد والأخوة الإيمانية الحقة لعبت دورها الأساسى فى تعميق وتطبيق معانى الإسلام وأفكاره الجديدة فى هذا المجتمع الجديد ، ولذلك كانوا حريصين على تقويض مبادىء الأخوة وأساسها . روى الترمذى بإسناد قال عنه : حسن صحيح : « حدثنا ابن أبى عمر ، أخبرنا سفيان عن عمرو بن دينار ، سمع جابر بن عبد الله يقول :

---

(١) ابن حجر : الإصابة ج ١ ص ٣١١ ط الأولى سنة ١٣٢٨ هـ مصر .
(٢) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص ٧٨ .

كنا فى غزاة ، قال سفيان: يرون أنها غزاة بنى المصطلق ، فكسع رجل من المهاجرين رجلًا من الأنصار ، وفيه : فسمع ذلك عبد الله بن أبي بن السلول فقال : أوقد فعلوها ؟ والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل(١) .

وقد كان عبد الله بن عبد الله بن أبى باراً بأبيه هياباً له ، لكن مصلحة الأخوة هى المعتبرة عنده اولا ، فلما رأى أباه يخدش وجه الأخوة عرض على النبى ﷺ أن يقتله ويأتيه برأسه(٢) .

إلى هذا تشير الآية : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾(٣) .

وكانت هذه الحادثة وأمثالها تجد بين الحين والآخر ، مما يعكر صفو الأخوة ، وكان بسبب اختلاط المسلمين باليهود والمنافقين ، وإدراكهم خطورة الأخوة وأهميتها فى سبيل تطوير هذا المجتمع النامى ، ولذلك تطورت الأخوة إلى خطوة أخرى ودخلت فى مرحلة الموالاة والمعاداة(٤) .

لقد حصر الإسلام الأخوة والموالاة فى المؤمنين فقط ، فقال تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾(٥) . وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين من المشركين واليهود والنصارى ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا آباءكم وأبناءكم أولياء إن استحبوا الكفر على الإيمان ومن يتولهم منكم فأولئك هم الظالمون** ﴾(٦) .

---

(١) البداية والنهاية لابن كثير ج ٤ ص ١٥٧ ط الرابعة ـــ بيروت .
(٢) تهذيب سيرة النبى ابن هشام . عبد السلام هارون ص ٢٤٠ .
(٣) المنافقون : ٨ .
(٤) انظر الموالاة والمعاداة لحماس الجلعود ط ـــ الأولى ١٩٨٧م ـــ الرياض .
(٥) الحجرات : ١٠ .
(٦) التوبة : ٢٣ .

﴿ يا أيها الذين آمنوا إن تطيعوا الذين كفروا يردوكم على أعقابكم فتنقلبوا خاسرين ﴾[1] .

لأن الأخوة الجديدة وثمراتها اليانعة كانت تؤرق هذه الفئة فئة اليهود والمنافقين ، فجندوا أتباعهم ليعملوا على تقويض أركان هذه الأخوة ، (لأن الموالاة والطاعات للأعداء لابد أن تسبقها محبة لهم ولما يصدر عنهم ، وهذا ما حذرنا الله تعالى فى الآيات المذكورة)[2] .

من مظاهر الأخوة :

(أ) حفاوة الأنصار بالمهاجرين :

استقبل الأنصار موكب الهجرة بقلوب ملؤها السعادة ونفوس ملؤها الحبور ، وكان لموكب النبى ﷺ وصاحبه الصديق تأثير . وتقول الروايات : إنه استقبلها زهاء خمسمائة من الأنصار ، فخرج أهل المدينة ، حتى إن العواتق يتراءينه من فوق البيوت ويقلن : أيهم هو ؟ فيقول أنس رضى الله عنه : فما رأينا منظراً شبيهاً به[3] .

وخرج الناس حين قدما المدينة فى الطرق وعلى البيوت والخدم يقولون : الله أكبر جاء رسول الله ، الله أكبر جاء محمد ، الله أكبر جاء رسول الله . ويقول البراء بن عازب ــ وكان حديث السن : قدم النبى ﷺ ، فما رأيت أهل المدينة فرحوا بشىء كفرحهم بقدوم رسول الله ﷺ[4] .

كبَّر المسلمون فرحاً بقدومه ، وكانت المدينة باسمه الثغر ، ترفل فى

---

(١) آل عمران : ١٤٩ .

(٢) الموالاة والمعاداة فى الشريعة الإسلامية محماس عبد الله الجلعود ص ٧٥ .

(٣) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ١٩٧ .

(٤) الجامع الصحيح للبخارى ــ باب مقدم النبى ﷺ وأصحابه إلى المدينة ج ٥ ص ١٦٧ ط بيروت . والسيرة الحلبية ، لعلي بن برهان الحلبي ج ٢ ــ ص : ٢٣٤ ــ ط ١٩٨٠ م ــ بيروت .

حلل الفخر والزينة ، وكان بنات الأنصار ينشدن فى سرور ونشوة(1) :

طلع البدر علينا من ثنيات الوداع
وجب الشكر علينا ما دعا لله داع
أيها المبعوث فينا جئت بالأمر المطاع

ويقول أنس بن مالك الأنصارى — وهو غلام — شهدت رسول الله ﷺ دخل المدينة ، فما رأيت يوماً قط كان أحسن ولا أضوى من يوم دخل المدينة علينا(2) .

وقد أشار القرآن الكريم إلى هذه الحفاوة وإلى هذا الترحيب الأخوى ، وما تتمتع به هذه الأخوة المتآلفة حظوة وقبولًا عند الله : ﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان رضى الله عنهم ورضوا عنه وأعد لهم جنات تجرى تحتها الأنهار** ﴾(3) .

واستقبل الأنصار رسول الله ﷺ وصاحبه ومن قبلهم المهاجرين من المسلمين بالحفاوة والتكريم ، وحلّوهم من أنفسهم محل التبجيل والتوقير وآثروهم على أنفسهم ، وقاسموهم لقمة العيش ، وعوضوهم عما فقدوا برًّا ومحبة وإخلاصاً(4) .

وقد أشار إلى هذه الحفاوة أكثر من عالم (أما أهل المدينة الذين آووهم فى بيوتهم ونصروهم فقد قدموا المثل الصادق للأخوة الإسلامية والمحبة فى الله عز وجل)(5) .

---

(1) السيرة النبوية للندوى ص ١٥٢ .
(2) السيرة النبوية للندوى ص ١٥٢ .
(3) التوبة : ١٠٠ .
(4) المدينة المنورة عاصمة الإسلام الأولى د . محمد السيد الوكيل ط الأولى ١٩٨٦ م .
(5) فقه السيرة للبوطى ص ١٣٨ .

يقول الله عز وجل :

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَهَاجَرُوا۟ وَجَٰهَدُوا۟ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلَّذِينَ ءَاوَوا۟ وَّنَصَرُوٓا۟ أُو۟لَٰٓئِكَ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَلَمْ يُهَاجِرُوا۟ مَا لَكُم مِّن وَلَٰيَتِهِم مِّن شَىْءٍ حَتَّىٰ يُهَاجِرُوا۟ ۚ وَإِنِ ٱسْتَنصَرُوكُمْ فِى ٱلدِّينِ فَعَلَيْكُمُ ٱلنَّصْرُ إِلَّا عَلَىٰ قَوْمٍۭ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُم مِّيثَٰقٌ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٧٢﴾

الأنفال : ٧٢ .

وهناك أكثر من رواية تصور مدى المحبة الشديدة التى كانت تفيض بها أفئدة الأنصار من أهل المدينة رجالًا ونساءً وأطفالًا ، لقد كانوا يخرجون كل يوم إلى ظاهر المدينة ينتظرون تحت لفح الشمس وصول الموكب النبوى حتى إذا ذهب النهار عادوا أدراجهم ليعودوا إلى الانتظار صباح اليوم الثانى(١) ، فلما طلع الرسول ﷺ عليهم جاشت العواطف فى صدورهم ، وانطلقت ألسنتهم تهتف بالقصائد والأهازيج فرحاً لمرآه عليه الصلاة والسلام ومقدمه عليهم .

وكانت هذه الحفاوة من الأنصار قد لعبت دورها العميق فى تأييد المهاجرين وتثبيت قلوبهم وتأليف نفوسهم ، وإلى هذا تشير الآية :

وَإِن يُرِيدُوٓا۟ أَن يَخْدَعُوكَ فَإِنَّ حَسْبَكَ ٱللَّهُ ۚ هُوَ ٱلَّذِىٓ أَيَّدَكَ بِنَصْرِهِۦ وَبِٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٢﴾ وَأَلَّفَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ ۚ لَوْ أَنفَقْتَ مَا فِى ٱلْأَرْضِ جَمِيعًا مَّآ

---

(١) الروض الأنف للسهيلى ج ٢ ص ٢٢٦ مطبعة عبد السلام شقرون .

أَلَّفْتَ بَيْنَ قُلُوبِهِمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ أَلَّفَ بَيْنَهُمْ إِنَّهُۥ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٦٣﴾

الأنفال : ٦٢ ، ٦٣ .

وقد أشاد القرآن بهذه الحفاوة وبهذا الترحاب من الأنصار للمهاجرين ، فقال تعالى :

وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

الحشر : ٩

والقرآن يشير إلى العناصر الأساسية لهذا المجتمع الجديد بقوله :

﴿ **والسابقون الأولون من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بإحسان** ﴾ (١) . كانت تؤلف القاعدة الصلبة لهذا المجتمع الجديد ، ولقد وردت أقوال متعددة فى اعتبار من هم السابقون الأولون من المهاجرين والأنصار ، ولكن الذى يهمنى هنا إشادة القرآن بهؤلاء ، وشعورى أن هذه الفئات كانت من الركائز الأساسية لهذا المجتمع الجديد ، أما العناصر التى لم تحتمل مشقات الطريق وقد فتنت عن دينها وارتدت إلى الجاهلية مرة أخرى ، وكان هذا النوع قليلًا ، ولكن من بينهم اختار الله السابقين من الأولين من تلك العناصر الفريدة النادرة : « ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين فى مكة » ثم ليكونوا هم القاعدة الصلبة لهذا الدين بعد ذلك فى المدينة مع السابقين من الأنصار الذين — وإن كانوا لم يصطلوها فى أول الأمر كما اصطلاها المهاجرون ، إلا أن بيعتهم لرسول الله ﷺ (بيعة العقبة) قد دلت على أن عنصرهم ذو طبيعة أصيلة قريبة لطبيعة هذا الدين » (٢) .

---

(١) التوبة : ١٠٠ .

(٢) فى ظلال القرآن لسيد قطب مجلد ٣ ص ١٧٠٣ ، ١٧٠٤ دار الشروق .

من هذه الآيات البينات يتضح لنا مركز السابقين الأولين من المهاجرين والأنصار والذين اتبعوهم بعد ذلك بإحسان ، وندرك مدى حفاوة الأنصار ودورهم البناء فى تطوير هذا المجتمع الجديد ، وترجمة هذا الدين إلى واقع عملى يبقى مؤثراً فى التاريخ البشرى كله ، كما نستشف حقيقته من قول الله سبحانه وتعالى فيهم : ﴿ **رضى الله عنهم ورضوا عنه** ﴾ ، ﴿ **رضى الله عنهم** ﴾ ، هو الرضى الذى تتبعه المثوبة ، وهو فى ذاته أعلى وأكرم مثوبة ، ورضاهم على الله هو الاطمئنان إليه سبحانه ، والثقة بقدره ، وحسن الظن بقضائه ، والشكر على نعمائه ، والصبر على بلوائه ، ولكن التعبير بالرضا هنا وهناك يشيع جو الرضا الشامل ، الغامر ، المتبادل ، الوافر ، الوارد ، الصادر من الله سبحانه ، وهذا الصنف المختار من عباده ، ويرفع من شأن هذه الصفوة من البشر حتى ليبادلون ربهم الرضا وهو ربهم الأعلى ، وهم عبيده المخلوقون ، وهو حال وشان وجو لا تملك الألفاظ البشرية أن تعبر عنه ، ولكن يتنسم ويستشرف ويستجلى من خلال النص القرآنى بالروح المتطلع والقلب المستفتح والحس الموصول ! »(١) . وكان نبى الهدى ﷺ فى يقظة دائمة لاستثمار هذه الأخوة وتعميقها وتنظيمها ، لتكون وسيلة ميمونة فعالة فى تطوير هذا المجتمع وتأصيلها ، ولتكون الأخوة نبراساً للأمة وأساساً قوياً للحياة الاجتماعية والاقتصادية وعلاجاً ناجعاً لجمع شمل الأمة ومعالجة القضايا الفكرية .

وفى غزوة بنى النضير كانت أموال اليهود فيئاً خالصاً لله وللرسول ، فقسمها الرسول ﷺ على المهاجرين خاصة دون الأنصار عدا رجلين من الأنصار فقيرين ، وهما « سهل بن حنيف » وأبو دجانة :«سماك بن خرشه » وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذى تركوه فى مكة ، وتجردوا منه كله لعقيدتهم ، وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم فى أريحية عالية وأخوة صادقة وإيثار عجيب ، فلما واتت هذه الفرصة سارع رسول الله ﷺ لإقامة الأوضاع الطبيعية فى المجتمع الإسلامى المتطور

---

(١) فى ظلال القرآن م ٣ ص ١٧٠٥ ، ١٧٠٦ .

كى يكون للفقراء مال خاص ، وكى لا يكون المال متداولًا فى الأغنياء وحدهم ، ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما .

روى الإمام أحمد عن عمر رضى الله عنه ، قال : كانت أموال بنى النضير مما أفاء الله على رسوله مما لم يوجف المسلمون عليه بخيل ولا ركاب ، فكانت لرسول الله ﷺ خالصة ، فكان ينفق على أهله منها نفقة سنته ، وما بقى جعله فى الكراع والسلاح فى سبيل الله عز وجل . وقوله تعالى : ﴿ **كيلا يكون دولة بين الأغنياء منكم** ﴾ أى جعلنا هذه المصارف لمال الفىء ، كيلا يبقى مأكلة يتغلب عليها الأغنياء ، ويتصرفون فيها بمحض الشهوات والآراء ، ولا يصرفون منه شيئاً إلى الفقراء[1] .

وقال رسول الله ﷺ للأنصار : « **إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شىء من الغنيمة** » **فقالت الأنصار** :

« بل نقسم من أموالنا وديارنا ، ونؤثرهم بالغنيمة [2] ولا نشاركهم فيها » وفى هذا نزل قوله تعالى :

لِلْفُقَرَآءِ ٱلْمُهَٰجِرِينَ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِمْ وَأَمْوَٰلِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ ٱللَّهِ وَرِضْوَٰنًا وَيَنصُرُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ أُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلصَّٰدِقُونَ ﴿٨﴾ وَٱلَّذِينَ تَبَوَّءُو ٱلدَّارَ وَٱلْإِيمَٰنَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِى صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّآ أُوتُوا۟ وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

الحشر : ٨ ، ٩

(١) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٥٢٣ باختصار يسير ــ ط ١٩٨٦ م ضبط حسين زهران .

(٢) فتح القدير للشوكانى ج ٥ ص ٢٠١ دار المعرفة ببيروت .

وهى صورة صادقة تبرز فيها أهم الملامح المميزة للمهاجرين : أخرجوا أخراجاً من ديارهم وأموالهم ، أكرههم على الخروج الأذى والاضطهاد والتنكر من قرابتهم وعشيرتهم فى مكة ، لا لذنب إلا أن يقولوا : ربنا الله ، وقد خرجوا تاركين ديارهم وأموالهم : ﴿ **يبتغون فضلًا من الله ورضواناً** ﴾ ، وهذه الآيات كذلك صورة وضيئة صادقة تبرز أهم الملامح المميزة للأنصار ، وتسجل أجمل صورة لحفاوتهم واستقبالهم لهذه الفئة « الصادقة » .

﴿ **والذين تبوءوا الدار والإيمان من قبلهم** ﴾ أى دار الهجرة « يثرب » مدينة الرسول ﷺ ، وقد تبوأ الأنصار قبل المهاجرين كما تبوأ فيها الإيمان وكأنه منزل لهم ودار ، وهو تعبير ذو ظلال وهو أقرب ما يصور موقف الأنصار من الإيمان .

﴿ **يحبون من هاجر إليهم ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ ولم يعرف تاريخ البشرية كله حادثاً جماعياً كحادث استقبال الأنصار للمهاجرين بهذا الحب الكريم ، وبهذا البذل السخى ، وبهذه المشاركة الوضيئة ، وبهذا التسابق إلى الإيواء واحتمال الأعباء ، حتى ليروى أنه لم ينزل مهاجرى فى دار أنصارى إلا بقرعة ، لأن عدد الراغبين فى الإيواء المتزاحمين عليه أكثر من عدد المهاجرين ﴿ **ولا يجدون فى صدورهم حاجة مما أوتوا** ﴾ (١) .

﴿ **يحبون من هاجر إليهم** ﴾ أى من كرمهم وشرف أنفسهم ، يحبون المهاجرين ويواسونهم بأموالهم . وروى الإمام أحمد عن أنس قال : قال المهاجرون : يا رسول الله ، ما رأينا مثل قوم قدمنا عليهم ، أحسن مواساة فى قليل ، ولا أحسن بذلا فى كثير ، لقد كفونا المؤونة وأشركونا فى المهنأ ، حتى لقد خشينا أن يذهبوا بالأجر كله ، قال : « **لا ، ما أثنيتم عليهم ودعوتم الله لهم** »(٢) .

---

(١) الظلال : المجلد السادس ص ٣٥٢٦ .
(٢) عيون الأثر م ــ ١ ص ٢٤٢ والسيرة النبوية ــ لابن كثير ج ٢ ص ٣٢٨ .

(ب) صورة من صور إيثار الأنصار :

وقال البخارى عن أبى هريرة ، قال : أتى رجل رسول الله ﷺ فقال النبى ﷺ : « **ألا رجل يضيف هذه الليلة رحمه الله** » . فقام رجل من الأنصار فقال : أنا يا رسول الله ، فذهب إلى أهله ، فقال لامرأته : هذا ضيف رسول الله ﷺ لا تدخريه شيئاً ، فقالت : والله ما عندى إلا قوت الصبية ، قال : فإذا أراد الصبية العشاء فنوميهم ، وتعالى فأطفئي السراج ، نطوى بطوننا الليلة ، ففعلت ، ثم غدا الرجل على رسول الله ﷺ ، فقال : « **لقد عجب الله عز وجل ــ أو ضحك ــ من فلان وفلانه ، وأنزل الله تعالى :**

﴿ **ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة** ﴾[1] . وفى رواية مسلم تسمية هذا الأنصارى بأبى طلحة رضى الله عنه[2] .

(ج) الإيواء أهل الصفة :

الأخوة وسيلة من وسائل الإيواء وإيجاد الحل الاقتصادى ومظهر من مظاهر التعاطف :

استمر تدفق المهاجرين إلى المدينة فكان هؤلاء الغرباء فى حاجة إلى مأوى دائم أو مدة إقامتهم .

وحانت الفرصة عندما تم تحويل القبلة من بيت المقدس إلى الكعبة المشرفة ، وذلك بعد ستة عشر شهراً من هجرته ﷺ إلى المدينة ، حيث بقى حائط القبلة الأولى فى مؤخرة المسجد النبوى ، فأمر النبى ﷺ ، فظلل أو سقف وأطلق عليه اسم الصفة أو الظلة ، ولم يكن لها ما يستر جوانبها[3] .

---

(١) أخرجه البخارى : باب ﴿ ويؤثرون على أنفسهم ولو كان بهم خصاصة ﴾ ج ٥. ص ٤٣ ط مكتبة الجمهورية العربية بمصر .

(٢) تفسير ابن كثير : م ٤ ص ٥٢٨ .

(٣) السمهودى : وفاء الوفاء ج ١ص ٣٢١ ط ١٩٥٥ م .

وخصص النبى ﷺ هذا المكان لفقراء المهاجرين وبعض الأنصار ، (وإلى جانب المهاجرين والغرباء نزل بعض الأنصار فى الصفة حباً لحياة الزهد والفقر رغم استغنائهم عن ذلك ووجود دار لهم فى المدينة ، وبينهم كعب بن مالك الأنصارى ، وحنظلة بن عامر « غسيل الملائكة » ، وحارث بن النعمان الأنصارى وغيرهم)[١] .

مدرسة أهل الصفة :

ينقطع أهل الصفة للعلم ، ويعتكفون فى المسجد للعبادة ، ويألفون الفقر والزهد ، فكانوا فى خلوتهم يصلون ، ويقرءون القرآن ، ويتدارسون آياته ، ويذكرون الله تعالى ، واشتهر بعضهم بالعلم وحفظ الحديث عن النبى ﷺ مثل أبى هريرة رضى الله عنه ، وحذيفة بن اليمان الذى اهتم بأحاديث الفتن .

ولكن انقطاع أهل الصفة للعلم والعبادة لم يعزلهم عن المشاركة الإيجابية فى تطوير المجتمع وفى المساهمة الإيجابية فى الجهاد ، لأن الإسلام دين ودولة ومصحف وسيف ، فكان منهم المجاهدون والشهداء .. مثل صفوان ابن بيضاء ، وزيد بن الخطاب ، وحزيم بن فاتك الأسدى [٢] وخبيب بن إساف .. أما سالم بن عمير ، وحارثة بن النعمان الأنصارى فقد شهدا بدراً ولم يستشهدا [٣] ، ومنهم من استشهد بأحد مثل حنظلة الغسيل ، ومنهم من شهد الحديبية [٤] .

وكان أبو هريرة (رضى الله عنه) يصرع بين المنبر وحجرة عائشة (رضى الله عنها) لما به من الجوع [٥] ، ولكن قلة طعامهم ما كانت لتؤدى

(١) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص ٩١ .
(٢) ذكر البخارى أنه شهد بدراً هو وأخوه سبرة وصحح ابن سيد الناس شهوده بدراً وإن كان ابن هشام لا يذكره فيهم .
(٣) ابن هشام ٦٨٩/١ ، ٧٠٢/١ .
(٤) المجتمع المدنى فى عهد النبوة ص ٩٦ ، ٩٧ .
(٥) الحلية : ٣٣٩/١ .

بهم إلى الشدة والمغالبة على الطعام واستشراف نفس ، بل كانت حقوق الأخوة وآدابها تحكم علاقاتهم بعضهم ببعضٍ ، ويصور القرآن سموهم وأخوتهم : ﴿ **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله لا يستطيعون ضرباً فى الأرض يحسبهم الجاهل أغنياء من التعفف تعرفهم بسيماهم لا يسألون الناس إلحافاً وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم** ﴾[1] .

وقوله تعالى : ﴿ **للفقراء الذين أحصروا فى سبيل الله** ﴾يعنى المهاجرين الذين قد انقطعوا لله ولرسوله وسكنوا المدينة ، وليس لهم سبب يردون به على أنفسهم ما يغنيهم[2] .

وقد ذكر ابن سعد بسنده إلى ابن كعب القرظى ، قال : هم أصحاب الصفة[3] .

وعن البراء (رضى الله عنه) : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ قال : نزلت فينا،كنا أصحاب نخل ، فكان الرجل يأتى من نخله بقدر كثرته وقلته ، فيأتى الرجل بالقنو فيعلقه فى المسجد ، وكان أهل الصفة ليس لهم طعام ، فكان أحدهم إذا جاع جاء فضربه بعصاه ، فسقط منه البسر ، فنزلت : ﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه** ﴾ قال : لو أن أحدكم أهدي له مثل ما أعطى ما أخذ إلا على إغماض وحياء ، فكنا بعد ذلك يجيء الرجل منا بصالح ما عنده[4] ﴿ **يا أيها الذين آمنوا أنفقوا من طيبات ما كسبتم ومما أخرجنا لكم من الأرض ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون ولستم بآخذيه إلا أن تغمضوا فيه واعلموا أن الله غنى حميد** ﴾[5] .

---

(١) البقرة : ٢٧٣ .
(٢) تفسير ابن كثير : م ١ ص ٤٨٤ .
(٣) الطبقات الكبرى ٢٥٥/١ .
(٤) تفسير ابن كثير م ١ ص ٤٧٨ ، ٤٧٩ باختصار .
(٥) البقرة : ٢٦٧ .

نزلت هذه الآية فى الأنصار ، كانت تخرج ـ إذا كان جذاذ النخل ـ من خيطانها أقناء من التمر والبسر .. فيأكل منه فقراء المهاجرين ، وكان الرجل يعمد فيدخل قنو الحشف وهو يظن أنه جائز عنه فى كثرة ما يوضع من الأقناء ، فنزل فيمن فعل ذلك :﴿ **ولا تيمموا الخبيث منه تنفقون** ﴾ يعنى القنو الذى فيه حشف ولو أهدى إليكم ما قبلتموه [1] .

وهكذا أعطى القرآن مفهوماً واضحاً للأخوة الحقة ، وبدَّد ما علق فى أذهان بعض المسلمين عندما خيل إليهم أن يتبرعوا إلى إخوتهم فى الله ببعض الهدايا العادية والمأكولات غير المفضلة من أقناء البسر والتمر الردىء ، فكانت أخوة حقة منظمة من الله (سبحانه) مصقولة من القرآن ، وفكرة جديدة ومبتكرة لهذا المجتمع الجديد المتطور ، وأصبحت ركيزة من ركائزه لنشر المحبة والتآلف والانسجام ، وكان أهل الصفة خير نموذج لفهم قوله تعالى : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ .

* * *

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدى ص ٨٢ تحقيق السيد / أحمد صقر ـ ط ـ ١٩٨٤ م .

الفصل الثالث

الجهاد والسرايا والغزوات الأولى

أ ـ تشريع الجهاد :

● آيات الجهاد .

١ ـ● تربية الجماعة على الجهاد وإعدادها للغزوات .

٢ ـ● تبلور مفهوم الجهاد .

٣ ـ● المرحلة الأولى من الجهاد .

٤ ـ● حكم الجهـــاد .

٥ ـ● السرايا الأولى .

٦ ـ● المنجزات التى حققها الرسول ﷺ بسراياه الأولى .

(ب) غزوة بدر

- الآيات تصور المعركة .
- ظروف المعركة وأحداثها .

(جـ) غزوة أحد

- الآيات تصور المعركة .

١ — • ظروف المعركة ومنحنياتها .

٢ — • أسس لتطوير المجتمع المدنى من خلال الغزوة .

(أ) تشريع الجهاد

آيات الجهاد :

وَلَئِن قُتِلْتُمْ فِي سَبِيلِ
ٱللَّهِ أَوْ مُتُّمْ لَمَغْفِرَةٌ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَحْمَةٌ خَيْرٌ مِّمَّا يَجْمَعُونَ ﴿١٥٧﴾
وَلَئِن مُّتُّمْ أَوْ قُتِلْتُمْ لَإِلَى ٱللَّهِ تُحْشَرُونَ ﴿١٥٨﴾

آل عمران : ١٥٧ ــ ١٥٨

وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ
قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ
مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ ۗ
وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟
لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن
كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ
أَمْوَٰتًا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾

آل عمران : ١٦٧ ــ ١٦٩

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ خُذُواْ حِذْرَكُمْ

فَٱنفِرُواْ ثُبَاتٍ أَوِ ٱنفِرُواْ جَمِيعًا ﴿٧١﴾ وَإِنَّ مِنكُمْ لَمَن

لَّيُبَطِّئَنَّ فَإِنْ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ قَالَ قَدْ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيَّ إِذْ لَمْ

أَكُن مَّعَهُمْ شَهِيدًا ﴿٧٢﴾ وَلَئِنْ أَصَٰبَكُمْ فَضْلٌ مِّنَ ٱللَّهِ

لَيَقُولَنَّ كَأَن لَّمْ تَكُنۢ بَيْنَكُمْ وَبَيْنَهُۥ مَوَدَّةٌ يَٰلَيْتَنِي كُنتُ

مَعَهُمْ فَأَفُوزَ فَوْزًا عَظِيمًا ﴿٧٣﴾ * فَلْيُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ

ٱلَّذِينَ يَشْرُونَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَمَن يُقَٰتِلْ فِي سَبِيلِ

ٱللَّهِ فَيُقْتَلْ أَوْ يَغْلِبْ فَسَوْفَ نُؤْتِيهِ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٧٤﴾

وَمَا لَكُمْ لَا تُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ

ٱلرِّجَالِ وَٱلنِّسَآءِ وَٱلْوِلْدَٰنِ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَخْرِجْنَا مِنْ

هَٰذِهِ ٱلْقَرْيَةِ ٱلظَّالِمِ أَهْلُهَا وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ وَلِيًّا

وَٱجْعَل لَّنَا مِن لَّدُنكَ نَصِيرًا ﴿٧٥﴾ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ يُقَٰتِلُونَ

فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يُقَٰتِلُونَ فِي سَبِيلِ ٱلطَّٰغُوتِ

فَقَٰتِلُوٓاْ أَوْلِيَآءَ ٱلشَّيْطَٰنِ ۖ إِنَّ كَيْدَ ٱلشَّيْطَٰنِ كَانَ ضَعِيفًا ﴿٧٦﴾

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓاْ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُواْ ٱلصَّلَوٰةَ

وَءَاتُواْ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ

يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُواْ رَبَّنَا لِمَ

كُتِبَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ أَيْنَمَا تَكُونُوا۟ يُدْرِككُّمُ ٱلْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِى بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا۟ هَٰذِهِۦ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰٓؤُلَآءِ ٱلْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾

النساء : ٧٢ ــ ٧٨ .

وَقَٰتِلُوهُمْ حَتَّىٰ لَا تَكُونَ فِتْنَةٌ وَيَكُونَ ٱلدِّينُ كُلُّهُۥ لِلَّهِ ۚ فَإِنِ ٱنتَهَوْا۟ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِمَا يَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٣٩﴾

الأنفال : ٣٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا لَقِيتُمْ فِئَةً فَٱثْبُتُوا۟ وَٱذْكُرُوا۟ ٱللَّهَ كَثِيرًا لَّعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٤٥﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَلَا تَنَٰزَعُوا۟ فَتَفْشَلُوا۟ وَتَذْهَبَ رِيحُكُمْ ۖ وَٱصْبِرُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَ ٱلصَّٰبِرِينَ ﴿٤٦﴾

الأنفال : ٤٥ ــ ٤٦ .

أَلَا تُقَٰتِلُونَ قَوْمًا نَّكَثُوٓا۟ أَيْمَٰنَهُمْ وَهَمُّوا۟ بِإِخْرَاجِ ٱلرَّسُولِ وَهُم بَدَءُوكُمْ أَوَّلَ

مَرَّةٍۚ أَتَخۡشَوۡنَهُمۡۚ فَٱللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخۡشَوۡهُ إِن كُنتُم مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٣﴾
قَٰتِلُوهُمۡ يُعَذِّبۡهُمُ ٱللَّهُ بِأَيۡدِيكُمۡ وَيُخۡزِهِمۡ وَيَنصُرۡكُمۡ عَلَيۡهِمۡ
وَيَشۡفِ صُدُورَ قَوۡمٖ مُّؤۡمِنِينَ ﴿١٤﴾

التوبة : ١٣ ــ ١٤ .

قَٰتِلُواْ
ٱلَّذِينَ لَا يُؤۡمِنُونَ بِٱللَّهِ وَلَا بِٱلۡيَوۡمِ ٱلۡأٓخِرِ وَلَا يُحَرِّمُونَ
مَا حَرَّمَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ وَلَا يَدِينُونَ دِينَ ٱلۡحَقِّ مِنَ ٱلَّذِينَ
أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حَتَّىٰ يُعۡطُواْ ٱلۡجِزۡيَةَ عَن يَدٖ وَهُمۡ
صَٰغِرُونَ ﴿٢٩﴾

التوبة : ٢٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ مَا لَكُمۡ
إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلۡتُمۡ إِلَى ٱلۡأَرۡضِۚ
أَرَضِيتُم بِٱلۡحَيَوٰةِ ٱلدُّنۡيَا مِنَ ٱلۡأٓخِرَةِۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلۡحَيَوٰةِ
ٱلدُّنۡيَا فِي ٱلۡأٓخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُواْ يُعَذِّبۡكُمۡ
عَذَابًا أَلِيمٗا وَيَسۡتَبۡدِلۡ قَوۡمًا غَيۡرَكُمۡ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيۡـٔٗاۗ
وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيۡءٖ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

التوبة : ٣٨ ــ ٣٩ .

ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

التوبة : ٤١ .

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾

التوبة : ١١١ .

أُذِنَ لِلَّذِينَ يُقَٰتَلُونَ بِأَنَّهُمْ ظُلِمُوا۟ ۚ وَإِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ نَصْرِهِمْ لَقَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ ٱلَّذِينَ أُخْرِجُوا۟ مِن دِيَٰرِهِم بِغَيْرِ حَقٍّ إِلَّآ أَن يَقُولُوا۟ رَبُّنَا ٱللَّهُ ۗ وَلَوْلَا دَفْعُ ٱللَّهِ ٱلنَّاسَ بَعْضَهُم بِبَعْضٍ لَّهُدِّمَتْ صَوَٰمِعُ وَبِيَعٌ وَصَلَوَٰتٌ وَمَسَٰجِدُ يُذْكَرُ فِيهَا ٱسْمُ ٱللَّهِ كَثِيرًا ۗ وَلَيَنصُرَنَّ ٱللَّهُ مَن يَنصُرُهُۥٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَقَوِىٌّ عَزِيزٌ ﴿٤٠﴾

الحج : ٣٩ ـ ٤٠ .

﴿مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾﴾

الأحزاب : ٢٣ .

﴿فَإِذَا لَقِيتُمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَضَرْبَ ٱلرِّقَابِ حَتَّىٰٓ إِذَآ أَثْخَنتُمُوهُمْ فَشُدُّوا۟ ٱلْوَثَاقَ فَإِمَّا مَنًّۢا بَعْدُ وَإِمَّا فِدَآءً حَتَّىٰ تَضَعَ ٱلْحَرْبُ أَوْزَارَهَا ۚ ذَٰلِكَ وَلَوْ يَشَآءُ ٱللَّهُ لَٱنتَصَرَ مِنْهُمْ وَلَٰكِن لِّيَبْلُوَا۟ بَعْضَكُم بِبَعْضٍ ۗ وَٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَلَن يُضِلَّ أَعْمَٰلَهُمْ ﴿٤﴾﴾

محمد : ٤ .

﴿إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلَّذِينَ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِهِۦ صَفًّا كَأَنَّهُم بُنْيَٰنٌ مَّرْصُوصٌ ﴿٤﴾﴾

الصف : ٤ .

﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ جَٰهِدِ ٱلْكُفَّارَ وَٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱغْلُظْ عَلَيْهِمْ ۚ وَمَأْوَىٰهُمْ جَهَنَّمُ ۖ وَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٩﴾﴾

التحريم : ٩ .

(١) تربية الجماعة على الجهاد
وإعدادها للغزوات

إن القتال فى سبيل الله فريضة شاقة ذات أعباء باهظة لا ينهض بها إلا من روض نفسه على الطاعة والتضحية ، وقد سجلت هذه الحقيقة الآية الكريمة :

﴿كُتِبَ عَلَيْكُمُ الْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تَكْرَهُوا شَيْئًا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰ أَن تُحِبُّوا شَيْئًا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَاللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾﴾ (١)

وقال الألوسى : وكون القتال مكروهاً لا ينافى الإيمان لأن تلك الكراهية طبيعة لما فيه من القتل والأسر ، وإفناء البدن وتلف المال(٢) .

والإسلام يحسب حساب الفطرة ويأخذها بعين الاعتبار فلا ينكر على النفس إحساسها الفطرى لكراهيتها وثقلها ، ولكن القرآن يعالج هذه الناحية بالمناقشة والمنطق والعقل : ﴿ **وما كان لنفس أن تموت إلا بإذن الله كتاباً مؤجلًا** ﴾(٣) .

قال ابن جرير : « الله المعجل الموت لمن يشاء من حيث يشاء ، والمميت من يشاء كلما شاء دون غيره من سائر خلقه ، هذا من الله عز وجل ترغيب لعباده المؤمنين على جهاد عدوه ، والصبر على قتالهم ، وإخراج هيبتهم من صدورهم وإن قل عددهم وكثر عدد أعدائهم ، وإعلام منه أن الإماتة والإحياء بيده ، وأنه لن يموت أحد ولا يقتل إلا بعد فناء أجله الذى كتب له »(٤) .

---

(١) البقرة : ٢١٦ .
(٢) روح المعانى ج ٢ ص ١٠٦ ط دار الفكر ١٩٨٣ .
(٣) آل عمران : ١٤٥ .
(٤) تفسير الطبرى ج ٤ ص ١٤٨ .

ويوجه الله النفس الإنسانية إلى تفهم معانى الجهاد والموت فيقول :

أَيْنَمَا تَكُونُوا يُدْرِككُّمُ الْمَوْتُ وَلَوْ كُنتُمْ فِي بُرُوجٍ مُّشَيَّدَةٍ ۗ وَإِن تُصِبْهُمْ حَسَنَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِ اللَّهِ ۖ وَإِن تُصِبْهُمْ سَيِّئَةٌ يَقُولُوا هَٰذِهِ مِنْ عِندِكَ ۚ قُلْ كُلٌّ مِّنْ عِندِ اللَّهِ ۖ فَمَالِ هَٰؤُلَاءِ الْقَوْمِ لَا يَكَادُونَ يَفْقَهُونَ حَدِيثًا ﴿٧٨﴾ النساء آية : ٧٨ .

نرى أن هذه الآيات البينات وأمثالها تلمس موطن الخوف ، فإذا كان لكل نفس أجل ولن تموت حتى تستوفيه ، فلم الخوف والهلع والحرص والتخلف من الإقدام ؟! والقرآن يربى النفس الإنسانية بضرب الأمثال والقصص كى تتحرر من الخوف والفزع .

ضرب الله لها مثلًا بجماعة خرجوا من ديارهم ألوفاً حذر الموت فلم ينفعهم فرارهم وحذرهم شيئاً فأدركهم قدر الله الذى خرجوا حذراً منه :

قُلْ إِنَّ الْمَوْتَ الَّذِي تَفِرُّونَ مِنْهُ فَإِنَّهُ مُلَاقِيكُمْ ۖ ثُمَّ تُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿٨﴾ الجمعة آية : ٨ .

* أَلَمْ تَرَ إِلَى الَّذِينَ خَرَجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَهُمْ أُلُوفٌ حَذَرَ الْمَوْتِ فَقَالَ لَهُمُ اللَّهُ مُوتُوا ثُمَّ أَحْيَاهُمْ ۚ إِنَّ اللَّهَ لَذُو فَضْلٍ عَلَى النَّاسِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَشْكُرُونَ ﴿٢٤٣﴾ وَقَاتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ وَاعْلَمُوا أَنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٤٤﴾ البقرة : ٢٤٣ ، ٢٤٤ .

ويقول صاحب المنار : « إن الفائدة فى إيراد قصتهم أنه لا مفر من الموت »[1] ، وفى القصة حث للمسلمين على الجهاد والتعرض للشهادة ، ولهذا أتبعت بقوله تعالى : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله** ﴾ وهذا أمر فيه ترغيب وإرهاب كيلا ينكص على عقبيه محب الحياة بسبب خوف الموت (٢) .

وهناك آيات أخرى كثيرة تدل على أن القرآن بدأ يعد النفوس ويرتقى بمعانى القتال إلى الغزو والجهاد ، كما يتراءى لنا خلال هذه القصة . والآيات السابقة قد أنزلت قبل غزوة بدر وذلك لأن الله كان يربى الجماعة المسلمة ويعدها للحرب الشاملة بين الحق والباطل ، وأن المؤمنين سيواجهون الجماعة الكثيرة . والقرآن يفسر بعضه بعضاً فيقول : ﴿ **وقاتلوا فى سبيل الله واعلموا أن الله سميع عليم** ﴾[3] .

وهنا ندرك طرفاً من حكمة الله فى سوق هذه التجربة ، ألا يقعدن بكم حب الحياة وحذر الموت ، عن الجهاد فى سبيل الله ، فالموت والحياة بيد الله ، قاتلوا فى سبيل الله لافى سبيل غاية أخرى وتحت راية الله لا تحت راية أخرى ﴿ **قاتلوا فى سبيل الله** ﴾[4] .

فى هذه الآيات تشجيع قوى نافذ إلى أعماق النفس من شأنه أن يدفع المؤمن إلى التضحية بنفسه فى القتال راضياً مطمئناً إلى ربه العظيم وفوزه بالجنة التى باع نفسه من أجلها .

تصور جديد للموت والحياة :

هكذا ظل القرآن يعالج قضية الجهاد والغزو بشتى الأساليب ، فيصور حقيقة حياة الشهداء :

وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَن يُقْتَلُ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتٌۢ ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ وَلَٰكِن لَّا تَشْعُرُونَ ﴿١٥٤﴾ البقرة : ١٥٤ .

---

(١) تفسير المنار م ٢ ص ٤٤٠ ط الثانية بيروت .

(٢) غرائب القرآن ج ٢ ص ٣ حاشية الطبرى ط ١٩٧٨ .

(٣) الظلال م ١ ص ٢٦٥ . (٤) آيات الجهاد ــ د / كامل الدقس ص ٦٧ ط أولى .

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَمْوَٰتًۢا ۚ بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾

آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

فهم ليسوا أمواتاً بل أحياء عند ربهم يرزقون ، ولم ينقطعوا عن حياة الجماعة المسلمة من بعدهم ولا عن أحداثها ، فهم يتأثرون بها .

إن جلاء هذه الحقيقة الكبيرة ذو قيمة ضخمة فى تصور الأمور والأفكار فى المجتمع المدنى المتطور المتجدد ، فليس الموت والحياة نهاية المطاف « فهذه النظرة الجديدة تعديل لمفهوم الموت والحياة ، حتى كان فى سبيل الله وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم ، وفى النفوس التى يخلفونها من ورائهم »(١) .

٢ ــ تبلور مفهوم الجهاد :

« الجهاد هو بذل الجهد والطاقة فى محاربة العدو والجهاد فى سبيل الله بذل وتضحية ، وبذل المال والإنفاق فى سبيل الله يقترن غالباً بذكر الجهاد والقتال ، وبخاصة فى تلك الفترة حيث كان الجهاد تطوعاً ، والمجاهد ينفق على نفسه . ولذلك كثيراً ما تقترن آيات الجهاد بالإنفاق والمال ، واستمر الحث على الإنفاق لتيسير الطريق للمجاهدين فى سبيل الله وبأجمل الكلمات وأكثرها تأثيراً : **﴿ من ذا الذى يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافاً كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾** البقرة : ٢٤٥ .

كان العربى يقاتل ليكسب مالًا وسمعة ، وأصبح الآن يقاتل بنفسه وماله : **﴿ يا أيها الذين آمنوا هل أدلكم على تجارة تنجيكم من عذاب أليم . تؤمنون بالله ورسوله وتجاهدون فى سبيل الله بأموالكم وأنفسكم ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾** الصف : ١٠ ــ ١١ .

(١) آيات الجهاد فى القرآن . د كامل الدقس ص ٦٧ .

٣ ـــ المرحلة الأولى من الجهاد :

وبرغم أن أتباع الرسول ﷺ قد مارسوا القتال فى جاهليتهم وعرفوا كيف يحملون السلاح ويستخدمونه فى ظروف لا يبقى فيها من لا يحمل سلاحاً إلا أنهم لما أمروا بالقتال تقاعس بعض منهم :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ قِيلَ لَهُمْ كُفُّوٓا۟ أَيْدِيَكُمْ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ إِذَا فَرِيقٌ مِّنْهُمْ يَخْشَوْنَ ٱلنَّاسَ كَخَشْيَةِ ٱللَّهِ أَوْ أَشَدَّ خَشْيَةً ۚ وَقَالُوا۟ رَبَّنَا لِمَ كَتَبْتَ عَلَيْنَا ٱلْقِتَالَ لَوْلَآ أَخَّرْتَنَآ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ ۗ قُلْ مَتَٰعُ ٱلدُّنْيَا قَلِيلٌ وَٱلْءَاخِرَةُ خَيْرٌ لِّمَنِ ٱتَّقَىٰ وَلَا تُظْلَمُونَ فَتِيلًا ﴿٧٧﴾ النساء : ٧٧ .

حينئذ بدأت الآيات توجه المؤمنين نحو القتال بالتدريج وترفع معنوياتهم وتملؤهم أملا ويقيناً بالصبر وبشرى بالجنة :

إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة : ١١٢ .

ومنذ تلك اللحظات وفيما بعد ظل هذا الأمل يحدو الجندى المسلم فى ساحات القتال :

وَلَا تَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ قُتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ

أَمْوَٰتًا بَلْ أَحْيَآءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟ بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾

آل عمران : ١٦٩ ، ١٧٠ .

كذلك آية فى سورة البقرة تصور نفسية المقاتل فى المرحلة الأولى من الجهاد والقتال وكيف أن هذه النفسية كانت فى حاجة إلى التدرج فى التربية والتطور فى القتال بالحكمة والموعظة الحسنة :

كُتِبَ عَلَيْكُمُ ٱلْقِتَالُ وَهُوَ كُرْهٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تَكْرَهُوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۖ وَعَسَىٰٓ أَن تُحِبُّوا۟ شَيْـًٔا وَهُوَ شَرٌّ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢١٦﴾

البقرة : ٢١٦ .

والآيات البينات ترفع معنوية المجاهد وتؤهله من الناحية العقلية والمنطقية حتى يقتنع بهذا الجهاد :

﴿ أينما تكونوا يدرككم الموت ولو كنتم فى بروج مشيدة ﴾ النساء : ٧٨ .

كما أن الآيات تعالج القتال من الناحية الروحية والقلبية فتقول :

لَّا يَسْتَوِى ٱلْقَٰعِدُونَ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ غَيْرُ أُو۟لِى ٱلضَّرَرِ وَٱلْمُجَٰهِدُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ ۚ فَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ بِأَمْوَٰلِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ دَرَجَةً ۚ وَكُلًّا وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْحُسْنَىٰ ۚ وَفَضَّلَ ٱللَّهُ ٱلْمُجَٰهِدِينَ عَلَى ٱلْقَٰعِدِينَ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿٩٥﴾

النساء : ٩٥ .

لأن الجهاد ليس ملابسة طارئة من ملابسات تلك الفترة ، إنما هو ضرورة لإيجاد المجتمعات الإسلامية ضرورة مستمرة لركب الدعوة ، ولو كان الجهاد ملابسة طارئة ما قال رسول الله ﷺ تلك الكلمة الشاملة لكل مسلم إلى قيام الساعة : « **من مات ولم يغز ولم يحدث نفسه بغزو مات على شعبة من نفاق** » (١) . ومن ثم لابد من الجهاد ، ولابد أن يبدأ المؤمن بجهاد النفس والقلب ويبدأ فى عالم الضمير ثم يظهر فيشمل عالم الحقيقة والواقع ، ولابد من بذل الأموال والأنفس كما طلب الله من المؤمنين وكما اشترى منهم أنفسهم وأموالهم بأن لهم الجنة .

« فالجهاد كلمة جامعة تشمل جميع أنواع السعى وبذل الجهد . إن تغيير وجهات أنظار الناس وتبديل ميولهم ونزعاتهم وإحداث انقلاب عقلى وفكرى .. نوع من أنواع الجهاد »(٢) .

٤ ــ حكم الجهاد :

وفى المغنى لابن قدامة : « الجهاد فرض على الكفاية إذا قام به قوم سقط عن الباقين ويتعين فى ثلاثة مواضع :

(١) إذا التقى الزحفان وتقابل الصفان .

(٢) إذا نزل الكفار ببلدة تعين على أهلها قتالهم ودفعهم .

(٣) إذا استنفر الإمام قوماً لزمهم النفير(٣) .

فأصبح الجهاد ركناً مهماً لتوطيد دعائم الدولة الفتية والمجتمع المتطور للأسباب الآتية :

أولا : ليدفع عن المؤمنين الأذى، والفتنة التى كانوا يسامونها ، وليكفل لهم

---

(١) عون المعبود شرح سنن أبى داود ج ٧ ص ١٨١ باب كراهية ترك الغزو ط ١٩٧٩ م بيروت .

(٢) الجهاد فى سبيل الله ــ أبو الأعلى المودودى وحسن البنا وسيد قطب ص ١٥ ــ ١٦ . ط الثانية ــ ١٩٧٠ م

(٣) راجع المغنى ج ٨ ص ٣٤٦ ، ٣٤٧ ط دار الإفتاء الرياض والكافى لابن قدامة ج ٤ ص ٢٥٣ ــ ٢٥٤ ط الرابعة .

الأمن على أنفسهم وأموالهم وعقيدتهم : ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾[1] . فاعتبر الاعتداء على العقيدة والإيذاء بسببها وفتنة أهلها عنها أشد من الاعتداء على الحياة ذاتها ، فالعقيدة أعظم قيمة من الحياة وفق هذا المبدأ العظيم ، وإذا كان المؤمن مأذوناً فى القتال ليدفع عن ماله وحياته فهو من باب أولى مأذون فى القتال ليدفع عن عقيدته ودينه .

ثانياً : أهمية الجهاد تتركز لتقدير حرية العقيدة ، فقد جاء الإسلام بأكمل تصور للوجود والحياة والإنسان ، فمن شاء بعد البيان والبلاغ فليؤمن ومن شاء فليكفر ، ولا إكراه فى الدين ، ولكن ينبغى قبل ذلك أن تزول العقبات من طريق إبلاغ هذا الخير للناس كافة ، وأن تزول الحواجز التى تمنع الناس أن يسمعوا وأن يقتنعوا وأن ينضموا إلى موكب الهدى إذا أرادوا ، ومن هذه الحواجز أن تكون هناك نظم طاغية فى الأرض تصد الناس عن الاستماع إلى الهدى ، فجاء الإسلام ليحطم هذه النظم الطاغية وليقيم مكانها نظاماً عادلا يكفل حرية الدعوة وحرية الدعاة ، وما يزال هذا الهدف قائماً ولا يزال الجهاد مفروضاً على المسلمين .

ثالثاً : جاءت فريضة الجهاد ليقام فى الأرض مجتمع متآلف متجانس يقرر حرية الإنسان تجاه أخيه الإنسان ويقيم نظاما ملؤه الخير والسعادة .

رابعاً : ظروف الدولة الجديدة فى المدينة كانت تتطلب فى أول العهد بالهجرة التريث والإعداد ، وذلك :

---

(١) معالم فى الطريق لسيد قطب ص ٩٧ ــ ٩٨ .

(١) لأنه كان هناك مجال للتبليغ والبيان لا تقف له سلطة سياسية تخدمه وتحول بين الناس وبينه .

(٢) أن الرسول ﷺ كان يريد التفرغ — فى هذه لمرحلة — لقريش التى تقوم معارضتها لهذا الدين حجر عثرة فى وجه القبائل الأخرى الواقفة فى حالة الانتظار لما ينتهى إليه الأمر بين قريش وبين بعضها(١) .

٥ — السرايا الأولى :

بدأ الرسول ﷺ فور تثبيت أسس دولته الفتية فى المدينة فى إعداد النفوس وتربية الجنود والتشبع بمعانى الجندية والقيادة ومعالجة القضايا السياسية والاقتصادية ، فبدأ فى إرسال السرايا التى استهدفت إرباك قريش وتحطيم معنوياتهم وضرب اقتصادهم ، وكانت المجموعة الأولى من السرايا قد انطلقت منذ منتصف السنة الأولى من الهجرة ، انطلق « حمزة » رضى الله عنه فى رمضان من تلك السنة على رأس ثلاثين رجلا من المهاجرين ليعترض قافلة قريش عند ساحل البحر ، وفى شوال انطلق « عبيد بن الحارث » على رأس ستين رجلا من المهاجرين يحمل أمر رسول الله ﷺ بالمسير إلى بطن رابغ فالتقوا بمائتين من المشركين ، وكانت أول مناوشة بينهم بالسهام ، وفى ذى القعدة خرج « سعد بن أبى وقاص » فى عشرين رجلا مشياً على الأقدام ، فكانوا يكمنون نهاراً ويسيرون ليلا(٢) .

كانت أشبه بمناورة حية يتحسس فيها المقاتل المسلم تحركات عدوه ، وفى صفر من السنة الثانية خرج الرسول ﷺ بنفسه على رأس عدد من أصحابه مستهدفاً قريشاً حتى بلغ (ودان) فوادعه بنو ضمرة ثم قفل عائداً إلى المدينة ولم يلق كيداً ، وبعد أيام معدودة من عودة الرسول ﷺ من غزوة العشيرة قام كرز بن جابر الفهرى بغارة على مواشى المدينة ، فلاحقه

---

(١) راجع معالم فى الطريق لسيد قطب ص ٩٧ — ٩٨ والظلال م ٣ ص ١٤٤١ — ١٤٤٨ .

(٢) تاريخ الأمم والملوك . للطبرى م ١ ص ٢٥٩ ط دار الفكر .

الرسول ﷺ بنفسه حتى بلغ وادى (سنوان) قريباً من « بدر » وسميت هذه المطاردة باسم (بدر الأولى)[1] .

وقصة كرز بن جابر الفهرى تصور مدى الفوائد وبعد النظر والأهداف العلمية التى كانت تشتمل عليها السرايا فكانت رادعة للصوص الصحراء وأشباههم ممن لا يبالون — لولا هذه السرايا — الهجوم على المدينة واستباحة حماها .

وقد كانت من الجائز أن تتكرر حادثة (كرز بن جابر) السابقة ، ويتجرأ البدو على تهديد المدينة حيناً بعد حين غير أن هذه السرايا الزاحفة قتلت نيات الطمع وحفظت هيبة المسلمين [2] .

ولذلك لما رجع الرسول ﷺ بعد هذه المطاردة — وكان ذلك فى رجب من السنة الثانية يبعث رسول الله ﷺ عبد الله بن جحش فى ثمانية رهط من المهاجرين وكتب له كتاباً وأمره ألا ينظر فيه حتى يسير يومين ثم ينظر فيه فيمضى لما أمره به ولا يستكره من أصحابه أحداً . فلما سار عبد الله بن جحش يومين فتح الكتاب فنظر فيه فإذا فيه : فإذا نظرت فى كتابى هذا فامض حتى تنزل نخلة بين مكة والطائف فترصد بها قريشاً وتعلم لنا من أخبارهم[3] . فلما نظر عبد الله بن جحش فى الكتاب قال : سمعاً وطاعة ، ثم قال لأصحابه : قد أمرنى رسول الله ﷺ أن أمضى إلى نخلة أرصد بها قريشاً ، حتى آتيه منهم بخبر ، وقد نهانى أن أستكره أحدكم ، فمن كان منكم يريد الشهادة ويرغب فيها فلينطلق ، ومن كره ذلك فليرجع ، فأما أنا فماض لأمر رسول الله ﷺ ، فمضى ومضى معه أصحابه لم يتخلف عنه منهم أحد[4] .

---

(١) تاريخ الأمم والملوك . م ١ ص ٢٥٩ ودراسة فى السيرة . د / عماد الدين خليل ص ١٧٢ .

(٢) فقه السيرة للغزالى ص ٢١٤ .

(٣) مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة د / محمد حميد الله ط الثالثة ص ٤٩ .

(٤) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وزملائه م ١ — ٢ ص ٦٠١ .

مضوا حتى نزلوا بنخلة فمرت بهم قافلة لقريش تحمل تجارة لمكة ، فهاجموها وقتلوا أحد أفرادها وهو عمرو بن الحضرمى ، وأسروا اثنين آخرين ، وقفلوا عائدين بالبضائع والأسيرين إلى المدينة ، وعندما أبلغوا الرسول ﷺ تفاصيل الحادث قال لهم : ما أمرتكم بقتال فى الأشهر الحرم ، وأوقف التصرف فى الأموال والأسيرين ، وأبى أن يأخذ من ذلك شيئاً ، وقالت قريش : قد استحل محمد وأصحابه الشهر الحرام ، وسفكوا فيه الدم ، وغنموا الأموال ، وأسروا الرجال ، لكن آيات القرآن الكريم سرعان ما تنزلت لتحدد الموقف وتعلل لهذا الحادث وتبرر لهذا العمل :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلشَّهْرِ ٱلْحَرَامِ قِتَالٍ فِيهِ ۖ قُلْ قِتَالٌ فِيهِ كَبِيرٌ ۖ وَصَدٌّ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ وَكُفْرٌۢ بِهِۦ وَٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ وَإِخْرَاجُ أَهْلِهِۦ مِنْهُ أَكْبَرُ عِندَ ٱللَّهِ ۚ وَٱلْفِتْنَةُ أَكْبَرُ مِنَ ٱلْقَتْلِ ۗ وَلَا يَزَالُونَ يُقَـٰتِلُونَكُمْ حَتَّىٰ يَرُدُّوكُمْ عَن دِينِكُمْ إِنِ ٱسْتَطَـٰعُوا۟ ۚ (١) **البقرة : ٢١٧ .**

وهذه الآيات البينات موجهة إلى القيادة الكافرة فى مكة ، فقد سبق أن انتهكت الأشهر الحرم وضايقت المسلمين وعذبتهم وفتنتهم عن دينهم ، وأنه قد آن للمسلمين أن يردوا على هذا الانتهاك ، وإلى هذا تشير الآية :

﴿ **والفتنة أكبر من القتل** ﴾ وأن هذه السرايا والتحركات كانت عملية حربية مهمة ، لأن العدو كان شرساً : ﴿ **ولا يزالون يقاتلونكم حتى يردوكم عن دينكم إن استطاعوا** ﴾ .

﴿ **وإخراج أهله منه أكبر عند الله** ﴾ ، أكبر من القتال فى الشهر الحرام ، وفتنة الناس عن دينهم أكبر عند الله من القتل ، وقد ارتكب المشركون هاتين الكبيرتين فسقطت حجتهم بالتحرز بحرمة البيت الحرام وحرمة الشهر الحرام ووضح موقف المسلمين فى دفع هؤلاء المعتدين على الحرمات .

---

(١) ابن هشام ص ١٤٥ ــ ١٤٧ وتاريخ الطبرى ج ٤١٠/٢ ــ ٤١٥ والآية من سورة

سرية عبد الله بن جحش والرسالة السرية :

يمكن اعتبار سرية عبد الله بن جحش خير وسيلة لتربية المجاهد وغرس معانى السمع والطاعة فى نفسه وتنمية قدرات القتال والجهاد لديه ، والقصة تتطلب دراسة عسكرية :

* فالسرية تشتمل على ثمانية رهط من المهاجرين ليس فيهم من الأنصار أحد .
* والمطلوب من القائد أن لا ينظر فى الكتاب إلا بعد مسيرة يومين . وهذا الطلب فيه معانى التربية والابتكار والأساليب الجديدة لمعانى القيادة والجندية والتدريب على تحمل التكاليف ووعثاء الطريق والتشجيع على تطبيق الأوامر والأحكام .
* تكلف هذه السرية المختصرة أن تشق طريقها فى أخطر نقطة (نخلة) بين مكة والطائف .
* الكتمان : ابتكر الرسول ﷺ أسلوب الرسائل المكتوبة للمحافظة على الكتابة وحرمان العدو من الحصول على المعلومات التى تفيده عن تحركات المسلمين ، والكتابة أكبر عامل من عوامل مبدأ المباغتة وهى أهم مبدأ من مبادىء الحرب ، وقد سبق المسلمون غيرهم فى ابتكار هذا الأسلوب الدقيق .
* ثبوت المجموعة ككل على الأمر بعد مفاجأتهم به واستمرارهم نحو الهدف مع القائد : « فمضى ومضى معه أصحابه ، لم يتخلف عنه منهم أحد » .

فلما تجلى عبد الله بن جحش وأصحابه ما كانوا فيه من قيل وقال وانتظار للحكم من السماء ونزل القرآن فطمعوا فى الأجر ، فقالوا : يا رسول الله ، أنطمع أن تكون لنا غزوة نعطى فيها أجر المجاهدين ، فأنزل الله عز وجل فيهم : **﴿ إن الذين آمنوا والذين هاجروا وجاهدوا فى سبيل الله أولئك يرجون رحمة الله والله غفور رحيم ﴾**[1] .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام تحقيق مصطفى السقا وزملائه م ١ ص ٦٠٥ والآية من سورة البقرة : ٢١٨ .

فكانت نزول هذه الآيات بعد أداء الدور الرائع نحو الخطاب السرى والرحلة الشاقة كان لنزول هذه الآيات على قلب عبد الله بن جحش كقطرات الندى فتفتحت قريحته وتجلت مواهبه تنظم هذه الأبيات :

تعدون قتلا فى الحرام عظيمة
وأعظم منه لو يرى الرشد راشد

صدودكم عما يقول « محمد »
وكفر به والله راءٍ وشاهد

وإخراجكم من مسجد الله أهله
لئلا يرى لله فى البيت ساجد

فإنا وإن عيرتمونا بقتله
وأرجف بالإسلام باغ وحاسد

سقينا من ابن الحضرمىّ رماحنا
بنخلة لما أوقد الحرب واقدُ

دماً وابنُ عبدِ الله عثمان بيننا
ينازعه غل من القد عائد(١)

٦ ـ المنجزات التى حققها الرسول ﷺ بسراياه الأولى :

حقق الرسول ﷺ بسراياه الأولى منجزات هامة منها :

١ ـ الاستطلاع : استطاع المسلمون التعرف على الطرق المحيطة بالمدينة والمؤدية إلى مكة خاصة على الطرق التجارية الحيوية ، كما استطاعوا التعرف على قبائل المنطقة وموادعة بعضها .

٢ ـ التدريب على القتال والجهاد : فسرية عبد الله بن جحش قد أدت مهمتها بصورة موفقة ، وتأييد القرآن لتحركات هذه السرية وتصرفاتها ونتائج السرايا الأخرى أثبتت أن المسلمين أقوياء يستطيعون الدفاع عن أنفسهم وعقيدتهم تجاه المشركين من قريش . كما تحالف المسلمون مع بعض القبائل المجاورة لتأمين الحدود .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام . تحقيق السقا وزملائه م ١ ـ ٢ ص ٦٠٥ .

٣ ــ الحصار الاقتصادى : « هدد المسلمون أهم طريق تجارية بين مكة والشام فأصبحت قوافل قريش غير آمنة حين تسلك هذا الطريق »[١] .

لقد لخص الإمام « ابن القيم » سياق الجهاد فى الإسلام فى « زاد المعاد » من حين بعث محمد ﷺ إلى حين لقى الله عز وجل :

أول ما أوحى إليه ربه تبارك وتعالى : أن يقرأ باسم ربه الذى خلق وذلك من أول نبوته . فأمره أن يقرأ فى نفسه ولم يأمره إذ ذاك بتبليغ ، ثم أنزل عليه : ﴿ **يا أيها المدثر . قم فأنذر** ﴾ فنبأه بقوله : ﴿ **اقرأ** ﴾ وأرسله بـ ﴿ **يا أيها المدثر** ﴾ . ثم أمره أن ينذر عشيرته الأقربين . ثم أنذر قومه ، ثم أنذر من حولهم من العرب . ثم أنذر العرب قاطبة . ثم أنذر العالمين . فأقام بضع عشرة سنة بعد نبوته ينذر بالدعوة بغير قتال ولا جزية ، ويأمر بالكف والصبر والصفح ، ثم أذن له فى الهجرة ، وأذن له فى القتال . ثم أمره أن يقاتل من قاتله ، ويكف عمن اعتزله ولم يقاتله . ثم أمره بقتال المشركين حتى يكون الدين كله لله . ثم كان الكفار معه بعد الأمر بالجهاد ثلاثة أقسام : أهل صلح وهدنة ، وأهل حرب ، وأهل ذمة . فأمر بأن يتم لأهل العهد والصلح عهدهم ، وأن يوفى لهم به ما استقاموا على العهد ، فإن خاف منهم خيانة نبذ إليهم عهدهم ولم يقاتلهم حتى يعلمهم بنقض العهد ، وأمر أن يقاتل من نقض عهده ..

ولما نزلت سورة ﴿ **براءة** ﴾ نزلت ببيان حكم هذه الأقسام كلها : فأمر أن يقاتل عدوه من أهل الكتاب حتى يعطوا الجزية أو يدخلوا فى الإسلام ، وأمره فيها بجهاد الكفار والمنافقين والغلظة عليهم . فجاهد الكفار بالسيف والنسان ، والمنافقين بالحجة واللسان ، وأمره فيها بالبراءة من عهود الكفار ونبذ عهودهم إليهم ، وجعل أهل العهد فى ذلك ثلاثة أقسام :

---

(١) دراسة فى السيرة ــ د . عماد الدين خليل ص ١٧٢ ط مؤسسة الرسالة .

ـ قسماً أمره بقتالهم وهم الذين نقضوا عهده ، ولم يستقيموا له ، فحاربهم وظهر عليهم ..

ـ وقسماً لهم عهد مؤقت لم ينقضوه ولم يظاهروا عليه ، فأمره أن يتم لهم عهدهم إلى مدتهم ..

ـ وقسماً لم يكن لهم عهد ولم يحاربوه ، أو كان لهم عهد مطلق ، فأمر أن يؤجلهم أربعة أشهر ، فإذا انسلخت قاتلهم .. فقتل الناقض لعهده ، وأجل من لا عهد له ، أوله عهد مطلق ، أربعة أشهر ، وأمره أن يتم للموفى بعهده عهده إلى مدته ، فأسلم هؤلاء كلهم ولم يقيموا على كفرهم إلى مدتهم وضرب على أهل الذمة الجزية .. فاستقر أمر الكفار معه بعد نزول براءة على ثلاثة أقسام : محاربين له ، وأهل عهد ، وأهل ذمة ، ثم آلت حال أهل العهد والصلح إلى الإسلام فصاروا معه قسمين : محاربين وأهل ذمة . والمحاربون له خائفون منه . فصار أهل الأرض معه ثلاثة أقسام : مسلم مؤمن به ، ومسالم له آمن ، وخائف محارب .

وأما سيرته فى المنافقين فإنه أمر أن يقبل منهم علانيتهم ، ويكل سرائرهم إلى الله ، وأن يجاهدهم بالعلم والحجة ، وأمر أن يعرض عنهم ، ويغلظ عليهم ، وأن يبلغ بالقول البليغ إلى نفوسهم ، ونهى أن يصلى عليهم ، وأن يقوم على قبورهم ، وأخبر أنه إن استغفر لهم فلن يغفر الله لهم .. فهذه سيرته فى أعدائه من الكفار والمنافقين »[1] .

★ ★ ★

---

(1) زاد المعاد فى هدى خير العباد . للإمام ابن قيم الجوزية . ج ٢ ص ٨١ ، ٨٢ بتصرف يسير ـ المطبعة المصرية ومكتبتها .

غزوة بدر الكبرى :

الآيات تصور المعركة

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾ إِذْ تَسْتَغِيثُونَ رَبَّكُمْ فَٱسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ ٱللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِۦ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا ٱلنَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ ٱللَّهِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ ٱلنُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ ٱلسَّمَآءِ مَآءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِۦ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ ٱلشَّيْطَٰنِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ ٱلْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى ٱلْمَلَٰٓئِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلرُّعْبَ فَٱضْرِبُوا۟ فَوْقَ ٱلْأَعْنَاقِ وَٱضْرِبُوا۟ مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾

الأنفال : ٧ ـــ ١٢ .

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾

الأنفال ١٧

إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ
حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ
فِى مَنَامِكَ قَلِيلًا ۖ وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ
فِى ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ ۗ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾
وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِىٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ
فِىٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِىَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا ۗ وَإِلَى ٱللَّهِ
تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

الأنفال : ٤٢ ـ ٤٤

ظروف المعركة وأحداثها ..

وفى رمضان من السنة الثانية من الهجرة كانت غزوة بدر الكبرى والتى يشير إليها القرآن فى قوله : ﴿ **إن كنتم آمنتم بالله وما أنزلنا على عبدنا يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾(١) .

فلما سمع رسول الله ﷺ بأبى سفيان مقبلًا من الشام على رأس قافلة تجارية ندب ﷺ الناس للخروج إليها وقال : « **هذه عير قريش فيها أموالهم فاخرجوا إليها لعل الله ينفلكموها** » .

وبلغ أبا سفيان مخرج رسول الله ﷺ فأرسل إلى مكة مستصرخاً لقريش فجد جدهم وحشدوا من حولهم من قبائل العرب وجاءوا على حمية وغضب وحنق .

ولما بلغ رسول الله ﷺ خروج قريش استشار أصحابه فتكلم المهاجرون فأحسنوا ، ثم استشارهم ثانياً فتكلموا فأحسنوا ، ثم استشارهم ثالثاً ، ففهمت الأنصار أنه يعنيهم فبادر سعد بن معاذ فقال : يا رسول الله كأنك تعرض بنا فإنى أقول عن الأنصار : خذ من أموالنا ما شئت ، وأعطنا ما شئت ، فوالله لئن سرت حتى تبلغ البرك من غمدان لنسيرن معك ، والله لئن استعرضت بنا هذا البحر خضناه معك .

وقال له المقداد : لا نقول كما قال قوم موسى لموسى : ﴿ **اذهب أنت وربك فقاتلا إنا ههنا قاعدون** ﴾ ولكنا نقاتل عن يمينك وعن شمالك ومن بين يديك ومن خلفك .. فلما سمع رسول الله ﷺ أشرق وجهه . وقال لأصحابه : « **سيروا وأبشروا فإن الله قد وعدنى إحدى الطائفتين ، والله لكأنى أنظر إلى مصارع القوم** » (٢) .

---

(١) الأنفال : ٤١ .

(٢) زاد المعاد ط ١ ص٣٤٣،٣٤٢ وابن هشام ج ١ ــ ٢ ص ١٥٤ ، ١٥٥ ورواه البخارى مختصراً فى باب قوله تعالى : ﴿ إذ تستغيثون ربكم ﴾ ج ٥ ص ٢٧٩ ــ ط عالم الكتب ببيروت .

وتقدم بأصحابه حتى إذا جاء أدنى ماء من بدر نزل به فسأله الحباب بن المنذر : يا رسول الله أرأيت هذا المنزل ؟ أمنزلا ، أنزلك الله ليس لنا أن نتقدمه ولا نتأخر عنه ؟ أم هو الرأى والحرب والمكيدة ؟ فقال : بل هو الرأى والحرب والمكيدة . فقال الحباب : يا رسول الله فإن هذا ليس بمنزل ، فأنهض بالناس حتى نأتى أدنى الماء من القوم فننزله ، ثم نغور ما وراءه ، ثم نبني عليها حوضاً فنملؤه ماء ثم نقاتل القوم فنشرب ولا يشربون فقال الرسول ﷺ : « **لقد أشرت بالرأى** » ، ثم أمر بتنفيذ خطته . وعرض عليه سعد بن معاذ أن يقام له عريش يتولى منه قيادة المعركة فنفذ الرسول ﷺ رأيه ، وما لبثت السماء أن أمطرت مطراً خفيفاً فلبدت أرض الصحراء بما يتيح للمسلمين الحركة السريعة فوقها وراح الرسول ﷺ يدعو الله : « **اللهم هذى قريش قد أقبلت بخيلائها وفخرها تجادل وتكذب رسولك ، اللهم نصرك الذى وعدتنى** » وعندما حل الفجر صلى بالمسلمين وراح ينظم الصفوف ويحرضهم على القتال (1) .

وتشير الآيات إلى هذا المطر المبارك : ﴿ **وينزل عليكم من السماء ماءً ليطهركم به ويذهب عنكم رجز الشيطان وليربط على قلوبكم ويثبت به الأقدام** ﴾ (2) .

ولما رأى رسول الله ﷺ كفة المسلمين وكفة المشركين استغاث بالله الذي لا معقب لحكمه ولا راد لقضائه : ﴿ **وما النصر إلا من عند الله العزيز الحكيم** ﴾ وقال : « **اللهم إن تهلك هذه العصبة لن تعبد بعدها فى الأرض** » وجعل يهتف بربه عز وجل ويقول : « **اللهم أنجزنى ما وعدتنى اللهم نصرك** » ويرفع يديه إلى السماء حتى سقط الرداء عن منكبيه ، وجعل أبو بكر (رضى الله عنه) يسليه ويشفق عليه من كثرة الابتهال(3) .

---

(1) ابن هشام ج ١ ــ ٢ ص ٦٢١ ــ ٦٢٧ وتاريخ الطبرى : ج ٤٢٥/٢ ، ٤٤٠ ــ ٤٤١ .

(2) الأنفال : ١١ .

(3) راجع « زاد المعاد » ، وكتب السيرة ، ورواه البخارى فى كتاب الجهاد والسير عن عمر بن الخطاب ــ رضى الله عنه ــ قال : « لما كان يوم بدر نزل رسول الله ﷺ وأصحابه ثلاث مائة وتسعة عشر رجلا ، فاستقبل نبى الله ﷺ ــ القبلة ثم مد يديه ، فجعل يهتف =

وأمر رسول الله ﷺ فأخذ كفاً من الحصى بيده ، ثم خرج فاستقبل القوم فقال : « **شاهدت الوجوه** » ثم نفحهم بها ثم قال لأصحابه : « **احملوا** » . فلم تكن إلا الهزيمة فقتل الله من قتل من صناديدهم وأسر من أسر منهم (١) .

هذه إشارات إلى بعض الوقائع لغزوة بدر ، وقد نزلت سورة الأنفال وآياتها تعطينا أفكاراً نيرة عن وقائع التطور فى الأخلاق ، فى المعاملات ، فى التأثير النفسي ومدى تأثر أهل المدينة بهذه الوقائع — نرى كل هذا بلغة القرآن الفريدة وبأسلوبه المعجز . وهناك حادث بعينه فى الغزوة يلقى ضوءًا على أن هذه المعركة كانت لها دورها فى صقل النفوس وإعطاء قيم ومفاهيم لهذا المجتمع المدنى النامى ذلك هو ما رواه ابن هشام عن عبادة بن الصامت رضى الله عنه قال :« فينا أصحاب بدر نزلت حين اختلفنا فى النفل وساءت فيها أخلاقنا فنزعه الله من أيدينا فجعله إلى رسول الله ﷺ فقسمه بين المسلمين عن بواء . يقول : عن سواء »(٢) .

وأراد الله تعالى أن يعلم هذا الجيش ، جيش المجاهدين المؤمنين أن أمر هذه الوقعة أكبر كثيراً من أمر الغنائم التى يختلفون عليها فسمى يومها : ﴿ **يوم الفرقان يوم التقى الجمعان** ﴾ .

وأراد أن يعلمهم أن هذا الأمر العظيم إنما تم بتدبير الله وقدره فى كل خطوة وفى كل حركة ، ليقضى من ورائه أمراً أراده ، فلم يكن لهم فى هذا النصر وما وراءه من عظائم الأمور يد ولا تدبير ، سواء غنائمه الصغيرة وآثاره الكبيرة فكلها من فعل الله وتدبيره ، إنما أبلاهم به بلاء حسناً من فضله .

= بربه : « اللهم أنجزنى ما وعدتنى ، اللهم إن تهلك هذه العصابة من أهل الإسلام لا تعبد فى الأرض » (باب الإمداد بالملائكة فى غزوة بدر) ج ٥ ص ٩٣ مكتبة الجمهورية العربية — مصر .

(١) السيرة النبوية — لابن كثير ج ٢ ص ٤٣٥ — دار المعرفة بيروت وزاد المسير لابن الجوزى ج ٣ ص ٣٣٢ — ط ١٩٦٥ دمشق .

(٢) السيرة النبوية لابن كثير ج ٢ ص ٤٦٦ ، ٤٦٧ دار المعرفة بيروت . وسيرة ابن هشام ٦٦٧/١ .

لقد بدأت الصورة بتسجيل سؤال عن الأنفال ، ورسم للمؤمنين صورة مُوحية تجف لها القلوب :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ فَاتَّقُوا اللَّهَ وَأَصْلِحُوا ذَاتَ بَيْنِكُمْ وَأَطِيعُوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ اللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ آيَاتُهُ زَادَتْهُمْ إِيمَانًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ الَّذِينَ يُقِيمُونَ الصَّلَاةَ وَمِمَّا رَزَقْنَاهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾ أُولَٰئِكَ هُمُ الْمُؤْمِنُونَ حَقًّا لَّهُمْ دَرَجَاتٌ عِندَ رَبِّهِمْ وَمَغْفِرَةٌ وَرِزْقٌ كَرِيمٌ ﴿٤﴾ الأنفال : ١ ــ ٤ .

ثم جعل يذكرهم بأمره وتدبيرهم لأنفسهم وتدبير الله لهم ومدى ما يرونه من واقع الأرض ومدى قدرة الله من ورائهم :

كَمَا أَخْرَجَكَ رَبُّكَ مِن بَيْتِكَ بِالْحَقِّ وَإِنَّ فَرِيقًا مِّنَ الْمُؤْمِنِينَ لَكَارِهُونَ ﴿٥﴾ يُجَادِلُونَكَ فِي الْحَقِّ بَعْدَ مَا تَبَيَّنَ كَأَنَّمَا يُسَاقُونَ إِلَى الْمَوْتِ وَهُمْ يَنظُرُونَ ﴿٦﴾ وَإِذْ يَعِدُكُمُ اللَّهُ إِحْدَى الطَّائِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ الشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ اللَّهُ أَن يُحِقَّ الْحَقَّ بِكَلِمَاتِهِ وَيَقْطَعَ دَابِرَ الْكَافِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ الْحَقَّ وَيُبْطِلَ الْبَاطِلَ وَلَوْ كَرِهَ الْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الأنفال : ٥ ــ ٨ .

ثم ذكرهم بما أمدهم من العون ، وما يسر لهم من النصر ، وما كتب لهم بفضله من الأجر :

إذ تستغيثون
رَبَّكُمْ فَاسْتَجَابَ لَكُمْ أَنِّي مُمِدُّكُم بِأَلْفٍ مِّنَ الْمَلَائِكَةِ مُرْدِفِينَ ﴿٩﴾ وَمَا جَعَلَهُ اللَّهُ إِلَّا بُشْرَىٰ وَلِتَطْمَئِنَّ بِهِ قُلُوبُكُمْ ۚ وَمَا النَّصْرُ إِلَّا مِنْ عِندِ اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿١٠﴾ إِذْ يُغَشِّيكُمُ النُّعَاسَ أَمَنَةً مِّنْهُ وَيُنَزِّلُ عَلَيْكُم مِّنَ السَّمَاءِ مَاءً لِّيُطَهِّرَكُم بِهِ وَيُذْهِبَ عَنكُمْ رِجْزَ الشَّيْطَانِ وَلِيَرْبِطَ عَلَىٰ قُلُوبِكُمْ وَيُثَبِّتَ بِهِ الْأَقْدَامَ ﴿١١﴾ إِذْ يُوحِي رَبُّكَ إِلَى الْمَلَائِكَةِ أَنِّي مَعَكُمْ فَثَبِّتُوا الَّذِينَ آمَنُوا ۚ سَأُلْقِي فِي قُلُوبِ الَّذِينَ كَفَرُوا الرُّعْبَ فَاضْرِبُوا فَوْقَ الْأَعْنَاقِ وَاضْرِبُوا مِنْهُمْ كُلَّ بَنَانٍ ﴿١٢﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ شَاقُّوا اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ وَمَن يُشَاقِقِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَإِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿١٣﴾ ذَٰلِكُمْ فَذُوقُوهُ وَأَنَّ لِلْكَافِرِينَ عَذَابَ النَّارِ ﴿١٤﴾

الأنفال : ٩ — ١٤ .

والآيات تسجل أن المعركة بجملتها من صنع الله وتدبيره بقيادته وتوجيهه ، بعونه ومدده ، بفعله وقدره ، له وفى سبيله ، ومن ثم تجريد المقاتلين ابتداء من الأنفال وتقرير أنها لله ولرسوله حتى إذا ردّها ، ردها الله عليهم وكان ذلك منًّا منه وفضلا ، وكذلك يجردهم من كل مطمع فيها ومن كل مغنم ليكون جهادهم فى سبيله خالصاً له وحده فترد أمثال هذه النصوص :

فَلَمْ تَقْتُلُوهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ قَتَلَهُمْ ۚ وَمَا رَمَيْتَ إِذْ رَمَيْتَ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ رَمَىٰ ۚ وَلِيُبْلِيَ ٱلْمُؤْمِنِينَ مِنْهُ بَلَآءً حَسَنًا ۚ إِنَّ
ٱللَّهَ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٧﴾ ذَٰلِكُمْ وَأَنَّ ٱللَّهَ مُوهِنُ كَيْدِ
ٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٨﴾

الأنفال : ١٧ ــ ١٨

وَٱذْكُرُوٓا۟ إِذْ أَنتُمْ قَلِيلٌ مُّسْتَضْعَفُونَ فِى ٱلْأَرْضِ تَخَافُونَ
أَن يَتَخَطَّفَكُمُ ٱلنَّاسُ فَـَٔاوَىٰكُمْ وَأَيَّدَكُم بِنَصْرِهِۦ وَرَزَقَكُم
مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَشْكُرُونَ ﴿٢٦﴾

الأنفال : ٢٦ .

* وَٱعْلَمُوٓا۟
أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى
ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ
ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾ إِذْ أَنتُم بِٱلْعُدْوَةِ
ٱلدُّنْيَا وَهُم بِٱلْعُدْوَةِ ٱلْقُصْوَىٰ وَٱلرَّكْبُ أَسْفَلَ مِنكُمْ ۚ
وَلَوْ تَوَاعَدتُّمْ لَٱخْتَلَفْتُمْ فِى ٱلْمِيعَٰدِ ۙ وَلَٰكِن لِّيَقْضِىَ ٱللَّهُ
أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا لِّيَهْلِكَ مَنْ هَلَكَ عَنۢ بَيِّنَةٍ وَيَحْيَىٰ مَنْ
حَىَّ عَنۢ بَيِّنَةٍ ۗ وَإِنَّ ٱللَّهَ لَسَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٤٢﴾ إِذْ يُرِيكَهُمُ ٱللَّهُ

فِي مَنَامِكَ قَلِيلًا وَلَوْ أَرَىٰكَهُمْ كَثِيرًا لَّفَشِلْتُمْ وَلَتَنَٰزَعْتُمْ فِي ٱلْأَمْرِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ سَلَّمَ إِنَّهُۥ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿٤٣﴾ وَإِذْ يُرِيكُمُوهُمْ إِذِ ٱلْتَقَيْتُمْ فِيٓ أَعْيُنِكُمْ قَلِيلًا وَيُقَلِّلُكُمْ فِيٓ أَعْيُنِهِمْ لِيَقْضِيَ ٱللَّهُ أَمْرًا كَانَ مَفْعُولًا وَإِلَى ٱللَّهِ تُرْجَعُ ٱلْأُمُورُ ﴿٤٤﴾

الأنفال : ٤١ — ٤٤ .

★ ★ ★

ج ــ غزوة أحد :

الآيات تصور المعركة

وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ الْمُؤْمِنِينَ مَقَاعِدَ لِلْقِتَالِ وَاللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّائِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَاللَّهُ وَلِيُّهُمَا وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ آل عمران : ١٢١ ــ ١٢٢

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ اللَّهُ وَعْدَهُ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِ حَتَّىٰ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَازَعْتُمْ فِي الْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّن بَعْدِ مَا أَرَاكُم مَّا تُحِبُّونَ مِنكُم مَّن يُرِيدُ الدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ الْآخِرَةَ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ وَاللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ * إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُونَ عَلَىٰ أَحَدٍ وَالرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِي أُخْرَاكُمْ فَأَثَابَكُمْ غَمًّا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَا أَصَابَكُمْ وَاللَّهُ خَبِيرٌ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٥٣﴾ آل عمران : ١٥٢ ــ ١٥٣ .

إِنَّ الَّذِينَ تَوَلَّوْا مِنكُمْ يَوْمَ الْتَقَى الْجَمْعَانِ إِنَّمَا اسْتَزَلَّهُمُ الشَّيْطَانُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا وَلَقَدْ عَفَا اللَّهُ عَنْهُمْ إِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿١٥٥﴾ آل عمران : ١٥٥ .

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ
قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾ وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾

آل عمران : ١٦٥ ــ ١٦٦ .

فَرِحِينَ بِمَآ
ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِٱلَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا۟
بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾
* يَسْتَبْشِرُونَ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ وَأَنَّ ٱللَّهَ لَا يُضِيعُ
أَجْرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٧١﴾ ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ
مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ
عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾

آل عمران : ١٧٠ ــ ١٧٢ .

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ
ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ
وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ
وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

آل عمران : ١٧٩ .

١ ــ ظروف المعركة ومنحنياتها :

لما أصيب صناديد قريش يوم بدر ورجعوا كلهم إلى مكة ، مشى رجال أصيب آباؤهم وأبناؤهم فكلموا أبا سفيان ، وأخذ أبو سفيان بن حرب يؤلب المشركين على المسلمين لأخذ الثأر وجمع قريباً من ثلاثة آلاف من قريش وأحلافهم والأحابيش ، وخرج بهم فى شوال من السنة الثالثة للهجرة ، وجاءوا معهم بنسائهم ، ثم أقبل بهم نحو المدينة فنزل قريباً من جيل أحد(١) .

واستشار رسول الله ﷺ أيخرج إليهم أم يمكث فى المدينة ؟ وكان رأيه أن لا يخرجوا من المدينة ، فوافقه على هذا الرأى عبد الله بن أبى رأس المنافقين ، فبادرت جماعة كبيرة من الصحابة معظمهم من الشبان ممن فاتهم يوم بدر ، فأشاروا عليه بالخروج وألحوا عليه فى ذلك ، فنهض ﷺ ودخل بيته ، فلبس لأمته فقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد فقال رسول الله ﷺ : « **ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** »(٢) .

وكان هذا درساً فى تحديد أبعاد الشورى ، فللشورى وقتها حتى إذا جاء وقت العزم والتوكل على الله لم يعد هناك مجال للتردد .

وخرج رسول الله ﷺ فى ألف من أصحابه ، فلما كان بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عبد الله بن أبى بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى(٣) . وسأله قوم من الأنصار أن يستعيضوا بحلفائهم من يهود ، فأبى ﷺ .

ومضى رسول الله ﷺ حتى نزل الشعب من أحد وجعل ظهره

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٦٠ ــ ٦٢ . تحقيق السقا وزملائه .
(٢) المصدر السابق ص ٦٣ .
(٣) ابن هشام ج ٣ ص ٦٣ .

وعسكره إلى أحد (١) وقال : « **لا يقاتلن أحد منكم حتى نأمره بالقتال** » ، وتعبأ رسول الله ﷺ للقتال وهو فى سبعمائة رجل ، وأمَّرَ على الرماة عبد الله بن جبير وهم خمسون رجلا ، فقال : « **ادفع الخيل عنا بالنبل ، لا يأتوننا من خلفنا إن كانت لنا أو علينا** » (٢) وأمرهم بأن يلزموا مركزهم وأن لا يفارقوه ولو رأوا الطير تتخطف العسكر (٣) وتعبأت قريش للقتال وهم فى ثلاثة آلاف بينهم مائتا فارس وجعلوا على ميمنتهم خالد بن الوليد وعلى ميسرتهم عكرمة بن أبى جهل ، وكانت الدولة أولا للمسلمين على الكفار ، فقاتل أبو دجانة الذى أخذ سيفاً من رسول الله ﷺ ووعده بأن يأخذه بحقه ، وقاتل حمزة بن عبد المطلب قتالا شديداً ، وحمل وحشى على حمزة بحربتة فوقع شهيداً(٤) وقاتل مصعب بن عمير دون رسول الله ﷺ حتى استشهد ، وأبلى المسلمون بلاء حسنا(٥) .

وأنزل الله تعالى نصره عليهم وصدقهم وعده حتى كشفوا المشركين عن العسكر وكانت الهزيمة لاشك فيها ، وولت النساء مشمرات هوارب(٦) .

فلما رأى الرماة ذلك مالوا إلى العسكر وهم موقنون بالفتح ، وقالوا : يا قوم الغنيمة الغنيمة ، فذكرهم أميرهم عهد رسول الله ﷺ فلم يسمعوا(٧) .

عندئذ أدركها خالد ووجد الثغر خالياً فاحتله وأغار على المسلمين من خلف ظهورهم وانقلبت المعركة ودارت الدائرة على المسلمين ، ووقع الهرج والمرج وفى وسط هذا الهذل المحيط بالمسلمين صاح صائح أن محمداً

---

(١) المصدر نفسه ج ٢ ص ٦٣ .
(٢) صحيح البخارى ج ٥ ص ٣١٤ .
(٣) زاد المعاد ج ١ ص ٣٤٩ .
(٤) سيرة ابن هشام ج ٢ ص ٦٨ ، ٦٩ .
(٥) ابن هشام ج ٢ ص ٧٣ .
(٦) ابن هشام ج ٢ ص ٧٧ .
(٧) زاد المعاد ج ١ص ٣٥٠ .

قتل ، فتراجع المسلمون وكر المشركون كرة وانتهزوا الفرصة وكان يوم بلاء ومحيص ، وخلص العدو إلى رسول الله ﷺ وأصابته الحجارة حتى وقع لشقه وأصيبت رباعيته وشج فى رأسه وجرحت شفته ﷺ وجعل الدم يسيل على وجهه ، فيمسحه ويقول : « **كيف يفلح قوم خضبوا وجه نبيهم وهو يدعوهم إلى ربهم** » (١) .

وما أصاب المسلمين من نكسة ومحنة إنما كان نتيجة زلة للرماة وعدم تمسكهم بتعليمات رسول الله ﷺ ، كما يسجل ذلك القرآن :

وَلَقَدْ صَدَقَكُمُ ٱللَّهُ وَعْدَهُۥٓ إِذْ تَحُسُّونَهُم بِإِذْنِهِۦ ۖ حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾ آل عمران : ١٥٢ .

هذا والمسلمون مثخنون بالجراح فلما كان الغد من يوم أحد ، أذن مؤذن رسول الله فى الناس بالخروج فى طلب العدو ، فلم يتخلف منهم أحد ، ثم رجعوا على المدينة(٢) وقد أثنى الله تعالى على ذلك وخلد ذكره فقال :

ٱلَّذِينَ ٱسْتَجَابُوا۟ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ مِنۢ بَعْدِ مَآ أَصَابَهُمُ ٱلْقَرْحُ ۚ لِلَّذِينَ أَحْسَنُوا۟ مِنْهُمْ وَٱتَّقَوْا۟ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٢﴾ ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ

---

(١) ابن هشام ج ٢ ص ٧٨ — ٨٠ .

(٢) سيرة ابن كثير — ج ٣ ص ٩٧ .

﴿فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾
فَٱنقَلَبُوا۟ بِنِعْمَةٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَفَضْلٍ لَّمْ يَمْسَسْهُمْ سُوٓءٌ وَٱتَّبَعُوا۟
رِضْوَٰنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَظِيمٍ ﴿١٧٤﴾ إِنَّمَا ذَٰلِكُمُ
ٱلشَّيْطَٰنُ يُخَوِّفُ أَوْلِيَآءَهُۥ فَلَا تَخَافُوهُمْ وَخَافُونِ إِن كُنتُم
مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧٥﴾﴾ آل عمران : ١٧٢ ، ١٧٥ .

نعرض هنا لبعض اللقطات من تلك المعركة التى تجاوز فيها النصر والهزيمة ، وقد عالج القرآن الكريم هذا الموقف بطريقته المعجزة فى قوله تعالى : ﴿ **وإذ غدوت من أهلك تبوىء المؤمنين مقاعد للقتال** ﴾(١) تسجل هذه الآية المشهد بكل حرارته وتستحضره بكل حيويته ، وهى الوسيلة التى يستخدمها القرآن للتربية وتعميق المفاهيم فى المجتمع الإسلامى .

كما تشير الآية ﴿ **وإذ غدوت من أهلك** ﴾ إلى غدو النبى ﷺ من بيت عائشة رضى الله عنها بعد أن لبس لأمته بعد التشاور .

ثم تشير هذه الآية إلى ما حدث بين المسلمين خلال المعركة فى قوله تعالى : ﴿ **إذ همت طائفتان منكم أن تفشلا** ﴾ وهما بنو حارثة وبنو سلمة أرادتا أن تنسحب من المعركة ، قال عمر رضى الله عنه : « سمعت جابر ابن عبد الله يقول : فينا نزلت ، وما يسرنى أنها لم تنزل لقوله سبحانه وتعالى: ﴿ **والله وليهما** ﴾ (٢) .

﴿ **أو لما أصابتكم مصيبة قد أصبتم مثليها قلتم أنى هذا قل هو من عند أنفسكم إن الله على كل شىء قدير** ﴾(٣) .

---

(١) آل عمران : ١٢١ .
(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير م ١ ص ٥٩٩ ــ ط الأولى ١٩٨٦ بيروت وصحيح البخارى ج ٥ ص ٢١٧ .
(٣) آل عمران : ١٦٥ .

وقد هيأ الله نفوس المسلمين فى هذه المعركة لتتلقى نبأ وفاة رسول الله ﷺ فقال تعالى : ﴿ **وما محمد إلا رسول قد خلت من قبله الرسل أفإن مات أو قتل انقلبتم على أعقابكم ومن ينقلب على عقبيه فلن يضر الله شيئاً وسيجزى الله الشاكرين** ﴾ آل عمران : ١٤٤ .

وقد كان ما أصاب المسلمين فى أحد شديد الوقع على نفوسهم فقد فقدوا سبعين شهيداً غير ما أصيبوا به من جراح وحل بهم من آلام عانوا منها فى هذا اليوم المرير ، وقد عز عليهم أن يصيبهم ما أصابهم وهم المسلمون الذين يجاهدون فى سبيل الله أمام أعدائهم من المشركين أعداء الله .

إن ما وقع فى أحد من محنة للمسلمين كان تمحيصاً وتربية لهم وإلى هذا يشير القرآن فى قوله تعالى : ﴿ ... **فأثابكم غما بغم لكيلا تحزنوا على ما فاتكم ولا ما أصابكم والله خبير بما تعملون** ﴾ آل عمران : ١٥٣ .

وقبل أن تهجس فى أنفسهم هذه الخواطر يذكرهم الله هذا كله : ﴿ **قل هو من عند أنفسكم** ﴾ أنفسكم هى التى تخلخلت وفشلت وتنازعت فى الأمر ، وأنفسكم هى التى تخلت عن شرط الله وشرط رسوله ﷺ ، وأنفسكم هى التى خالجتها الأطماع والحوادث ، ومع ذلك تستنكرون ما وقع لكم وتقولون : كيف ذلك ؟ هو من عند أنفسكم : ﴿ **إن الله على كل شىء قدير** ﴾ . ومع هذا فقد كان قدر الله من وراء الأمر كله من حكمة يراها : ﴿ **وما أصابكم يوم التقى الجمعان فبإذن الله** ﴾ .

قد عرّف الله المسلمين سنته وشرطه فى النصر والهزيمة فخالفوه عن سنته وشرطه فتعرضوا للألم والقرح الذى تعرضوا له ، فقد كان وراء المخالفة والألم تحقيق قدر الله فى تمييز المؤمنين من المنافقين فى الضعف :

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى
ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ
نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ

﴿ قَالُوا لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّاتَّبَعْنَاكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَانِ يَقُولُونَ بِأَفْوَاهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَاللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ﴾ آل عمران : ١٦٦ ــ ١٦٧

وهو يشير فى هذه الآية إلى موقف عبد الله بن أبى بن سلول ومن معه ويسميهم الذين نافقوا[(١)] .

ثم مضى القرآن يبين مواقف المنافقين فى محاولة خلخلة الصفوف والنفوس : **﴿ الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا ﴾** .

هكذا راحوا يثيرون الزلزلة والحسرة فى قلوب أهل الشهداء ، والقرآن يرد عليهم من طرف ويصحح التصور الإسلامى ويجلو عنه الغبش من طرف آخر :

﴿ قُلْ فَادْرَءُوا عَنْ أَنفُسِكُمُ الْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَادِقِينَ ﴿١٦٨﴾ ﴾ آل عمران : ١٦٨ .

ويرفع معنويات المسلمين قائلاً :

﴿ وَلَا تَحْسَبَنَّ الَّذِينَ قُتِلُوا فِي سَبِيلِ اللَّهِ أَمْوَاتًا بَلْ أَحْيَاءٌ عِندَ رَبِّهِمْ يُرْزَقُونَ ﴿١٦٩﴾ فَرِحِينَ بِمَا آتَاهُمُ اللَّهُ مِن فَضْلِهِ وَيَسْتَبْشِرُونَ بِالَّذِينَ لَمْ يَلْحَقُوا بِهِم مِّنْ خَلْفِهِمْ أَلَّا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٧٠﴾ ﴾ آل عمران : ١٦٩ ــ ١٧٠

إنه تطوير كامل لمفهوم الموت ــ متى كان فى سبيل الله ــ وللمشاعر المصاحبة له فى نفوس المجاهدين أنفسهم .

ووفقاً لهذا المفهوم الجديد الذى أقامته هذه الآية ونظائرها من القرآن الكريم فى قلوب المسلمين صارت خطى المجاهدين الكرام فى طلب الشهادة فى سبيل الله .

---

(١) فى ظلال القرآن م ١ ص ٥١٤ .

(٢) أسس لتطوير المجتمع المدنى من خلال الغزوة :

لقد تمخضت المعركة عن حقيقة أساسية كبيرة فى طبيعة هذا الدين ، لهذا المجتمع الجديد ، وهى أنه بقدر ما تبذل من الجهد ، وبقدر ما تتخذ من الأساليب العملية ، وبقدر ما توفق فى اختيار هذه الأساليب ، وبقدر ما تتجرد الجنود ، تحرز الانتصارات ، وحينما قصَّر المسلمون فى اتخاذ الوسائل العملية فى بعض مواقفها ، وحينما غفلت الجماعة عن تلك الحقيقة الأولية ، وفهمت أنه بمقتضى كونها مسلمة أن تنتصر حتماً بغض النظر عن تصورها وتصرفها ، حينئذ تركها الله تلاقى الهزيمة :

أَوَلَمَّآ أَصَٰبَتْكُم مُّصِيبَةٌ
قَدْ أَصَبْتُم مِّثْلَيْهَا قُلْتُمْ أَنَّىٰ هَٰذَا ۖ قُلْ هُوَ مِنْ عِندِ أَنفُسِكُمْ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٦٥﴾

آل عمران : ١٦٥ .

وتمخضت المعركة عن تصوير المجتمع المدنى الجديد المتكون من عناصر جديدة ، ومدى تلاؤم هذه العناصر بعضها ببعض ، ومدى ما يمكن أن يبلغه فى تحقيق المبدأ الإلهى . ها نحن أولاء نرى قطاعاً من قطاعات البشرية ــ كما هو وعلى الطبيعة ــ ممثلا فى الجماعة التى تمثل قمة الأمة : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ وهم أصحاب محمد ﷺ المثل الكامل للنفس البشرية على الإطلاق ، فماذا نرى ؟ نرى مجموعة من البشر ، فيهم الضعف ، وفيهم النقص ، وفيهم من يبلغ أن يقول الله عنهم :

إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْا۟ مِنكُمْ يَوْمَ
ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَٰنُ بِبَعْضِ مَا كَسَبُوا۟ ۖ
وَلَقَدْ عَفَا ٱللَّهُ عَنْهُمْ ۗ

آل عمران : ١٥٥ .

ومن يبلغ أن يقول الله عنه : ﴿إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾﴾ آل عمران : ١٢٢ .

﴿حَتَّىٰٓ إِذَا فَشِلْتُمْ وَتَنَٰزَعْتُمْ فِى ٱلْأَمْرِ وَعَصَيْتُم مِّنۢ بَعْدِ مَآ أَرَىٰكُم مَّا تُحِبُّونَ ۚ مِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلدُّنْيَا وَمِنكُم مَّن يُرِيدُ ٱلْءَاخِرَةَ ۚ ثُمَّ صَرَفَكُمْ عَنْهُمْ لِيَبْتَلِيَكُمْ ۖ وَلَقَدْ عَفَا عَنكُمْ ۗ وَٱللَّهُ ذُو فَضْلٍ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٥٢﴾﴾ آل عمران : ١٥٢ .

﴿* إِذْ تُصْعِدُونَ وَلَا تَلْوُۥنَ عَلَىٰٓ أَحَدٍ وَٱلرَّسُولُ يَدْعُوكُمْ فِىٓ أُخْرَىٰكُمْ فَأَثَٰبَكُمْ غَمًّۢا بِغَمٍّ لِّكَيْلَا تَحْزَنُوا۟ عَلَىٰ مَا فَاتَكُمْ وَلَا مَآ أَصَٰبَكُمْ﴾ آل عمران : ١٥٣ .

كل هؤلاء من المهاجرين والأنصار ولكنهم كانوا نواة لهذا المجتمع ، وكانوا فى طور التربية والتكوين ولكنهم كانوا جادين فى الأخذ بهذا الأمر ، ومن ثم أمر الله نبيه ﷺ أن يعفو عنهم ويستغفر لهم وأمره أن يشاورهم فى الأمر لأنها خطوات مهمة فى تطوير المجتمع (١) .

ثم وصلوا فى النهاية ، وإذا هم فى اليوم التالى للهزيمة والقرح يخرجون مع الرسول ﷺ غير هيابين :

﴿ٱلَّذِينَ قَالَ لَهُمُ ٱلنَّاسُ إِنَّ ٱلنَّاسَ قَدْ جَمَعُوا۟ لَكُمْ فَٱخْشَوْهُمْ فَزَادَهُمْ إِيمَٰنًا وَقَالُوا۟ حَسْبُنَا ٱللَّهُ وَنِعْمَ ٱلْوَكِيلُ ﴿١٧٣﴾﴾ آل عمران : ١٧٣ .

ولما كبروا بعد ذلك وتطورت البيئة شيئاً فشيئاً ، تغيرت معاملاتهم وحوسبوا كما يحاسب الرجال الكبار .. والذى يراجع غزوة تبوك فى سورة

(١) راجع « فى ظلال القرآن » م ١ ص ٥٢٩ .

براءة ومؤاخذة الله ورسوله للنفر القلائل المتخلفين يجد الفرق واضحاً فى المعاملة ، ويجد تطوراً واضحاً فى البيئة .

وقد تمخضت المعركة عن حقيقة أخرى وهى حقيقة الارتباط الوثيق فى منهج الله بين واقع النفس المسلمة والجماعة المسلمة ، وبين كل معركة تخوضها مع أعدائها فى أى ميدان بين العقيدة والتصور والخلق والسلوك والتنظيم السياسى والاقتصادى والاجتماعى وبين النصر أو الهزيمة فى كل معركة ، فكل هذه عوامل أساسية فيما يصيبها من نصر أو هزيمة ، فهو يقرر أن الهزيمة كانت موصولة بالشيطان الذى استغل ضعف الذين تولوا بسبب ما كسبوا : ﴿ **إن الذين تولوا منكم يوم التقى الجمعان إنما استزلهم الشيطان ببعض ما كسبوا** ﴾[1] .

وفى الآيات المتعلقة بالمعركة نجد الحديث عن الخطيئة والتوبة ، كما نجد الكلام عن التقوى وتصوير حالات المتقين ، كما نجد الدعوة إلى ترك الربا وإلى طاعة الله ورسوله وإلى العفو عن الناس ، وكظم الغيظ والإحسان . وكلها تطهير للنفس وأسس جديدة للحياة وللأوضاع الاجتماعية . وكانت الهزيمة مادة ملائمة لتنقية القلب وتزكية النفس من أدران المادية والأنانية ومن أوضار الربا .

وحقيقة رابعة عن طبيعة منهج المجتمع الجديد فهو يأخذ الجماعة ، ويكون البيئة بالأحداث وما تخلقه فى النفوس من مشاعر وانفعالات واستجابات ، ونجد التحليل الدقيق الشامل للأسباب والنتائج والعوامل المتعددة الفاعلة فى الموقف ، المسيرة للحادث كما نجد الحيوية فى التصوير والإيقاع والإيحاء بحيث تتماذج المشاعر مع التعبير والتصوير فإذا هو وصف حى يستحضر المشاهد ، فنرى لوحات من المجتمع متنوعة كما لو كانت تتحرك .

---

(١) آل عمران : ١٥٥ . وراجع الظلال م ١١ ص ٥٣١ .

ولم تكن غزوة أحد معركة فى الميدان وحده ، وإنما كانت معركة فى الضمير كذلك ، كان النصر أولا وكانت الهزيمة ثانيا ، وتمحيص النفوس وتمييز الصفوف وانطلاق الجماعة المسلمة بعد ذلك متحررة من كثير من غبش التصوير بتمييز المنافقين والتزام الطاعة والاتباع ورد الأمر إلى الله وحده فى الهزيمة والنصر ، فى الموت والحياة ، وكانت هذه الحصيلة الضخمة التى استقرت فى جنبات المجتمع الجديد من وراء الأحداث ومن وراء التوجيهات القرآنية ، وهى تعتبر أكبر وأخطر من حصيلة النصر والهزيمة(١) .

وفعلا كانت معركة فى ميدان النفس البشرية ، لذا ارتبطت فى السياق القرآنى بالحديث عن الربا وعن الإنفاق فى السراء والضراء، فحض الله — سبحانه وتعالى — عليه ، وفى مثل هذه الظروف يجدد التذكير بمعانى طاعة الله ورسوله ويجعلها مناط الرحمة .

إن النص القرآنى لا يتتبع أحداث المعركة على الأرض فحسب ولكنه يتتبع آثارها وانعكاساتها فى دخائل النفوس وأعماق القلوب ، كما يتخذ من الأحداث مادة تنبيه وتنوير ويعرضها للعبرة والتربية وتزكية النفوس وتنقية القلوب :

﴿ وَإِذْ غَدَوْتَ مِنْ أَهْلِكَ تُبَوِّئُ ٱلْمُؤْمِنِينَ مَقَٰعِدَ لِلْقِتَالِ ۗ وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿١٢١﴾ إِذْ هَمَّت طَّآئِفَتَانِ مِنكُمْ أَن تَفْشَلَا وَٱللَّهُ وَلِيُّهُمَا ۗ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١٢٢﴾ ﴾

آل عمران : ١٢١ — ١٢٢

وقد أشار القرآن الكريم إلى الموقف الحكيم الذى وقفه النبى ﷺ فى هذه المعركة من الذين عصوه وخالفوا أمره فتسببوا فى هزيمة جيش المسلمين بعد أن أرى النصر بعينه .

---

(١) الظلال م ١ ص ٤٥٤ — ٤٧٥ (باختصار وتصرف) .

وكذلك الذين تركوا ساحة المعركة بعد الانتكاسة التى حلت بالمسلمين ، وكيف أن الله تعالى وفق الرسول ﷺ ، وهو القائد الأعلى للجيش فى ذلك الظرف العصيب فلم يتشدد فى عتب ولا توبيخ ، فضلا عن العقوبة ، فعامل المخالفين معاملة لين ورحمة كانت من أسباب تأليف الجند والتفاهم حول قائدهم النبى الحكيم[1] ، فقال تعالى :

فَبِمَا رَحْمَةٍ مِّنَ اللَّهِ لِنتَ لَهُمْ ۖ وَلَوْ كُنتَ فَظًّا غَلِيظَ الْقَلْبِ لَانفَضُّوا مِنْ حَوْلِكَ ۖ فَاعْفُ عَنْهُمْ وَاسْتَغْفِرْ لَهُمْ وَشَاوِرْهُمْ فِي الْأَمْرِ ۖ فَإِذَا عَزَمْتَ فَتَوَكَّلْ عَلَى اللَّهِ ۚ إِنَّ اللَّهَ يُحِبُّ الْمُتَوَكِّلِينَ ﴿١٥٩﴾

آل عمران : ١٥٩ .

ثم عقب القرآن الكريم على ما أصاب المسلمين فى معركة أحد من بلاء ومصائب ، وأشار إلى أن ذلك إنما هو بمثابة اختبار وامتحان تميز به الخبيث من الطيب ، والمؤمن من المنافق ، وتبين من خلاله المؤمن القوى من المؤمن الضعيف[2] ، فقال تعالى :

مَّا كَانَ اللَّهُ لِيَذَرَ الْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَا أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ الْخَبِيثَ مِنَ الطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ اللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى الْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ اللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِ مَن يَشَاءُ ۖ فَآمِنُوا بِاللَّهِ وَرُسُلِهِ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا وَتَتَّقُوا فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

آل عمران : ١٧٩ .

---

(١) غزوة أحد محمد أحمد باشميل ص ٢٩١ .

(٢) المصدر السابق ص ٢٨٧ .



الباب الثاني

المجتمع المدني في مرحلة التطوير

الفصل الأول :

أساسيات تطوير المجتمع : (الوسائل النظرية)

الفصل الثاني :

التربية بالأحداث (الوسائل العملية)



الفصل الأول

أساسيات تطوير المجتمع (الوسائل النظرية)

(١) ـ التربية الفردية .

(٢) ـ التربية الجماعية .

(٣) ـ وسائل التربية الجماعية .

أ ـ التربية بالقدوة والقيادة .

ب ـ التربية بالموعظة .

ج ـ التربية بالعقوبة .



الآيات تضع أسس ومفاهيم التربية الشاملة للفرد والجماعة

وَاسْتَعِينُوا بِالصَّبْرِ وَالصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى الْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ الَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُوا رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

البقرة ٤٥ ـ ٤٦

* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْأَهِلَّةِ ۖ قُلْ هِيَ مَوَٰقِيتُ لِلنَّاسِ وَالْحَجِّ ۗ وَلَيْسَ الْبِرُّ بِأَن تَأْتُوا الْبُيُوتَ مِن ظُهُورِهَا وَلَٰكِنَّ الْبِرَّ مَنِ اتَّقَىٰ ۗ وَأْتُوا الْبُيُوتَ مِنْ أَبْوَٰبِهَا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٨٩﴾

البقرة : ١٨٩

* يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَٰفِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَٰتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾

البقرة : ٢١٩ .

إِنَّ الدِّينَ عِندَ اللَّهِ الْإِسْلَٰمُ ۗ وَمَا اخْتَلَفَ الَّذِينَ أُوتُوا الْكِتَٰبَ إِلَّا مِنۢ بَعْدِ مَا جَاءَهُمُ الْعِلْمُ بَغْيًۢا بَيْنَهُمْ ۗ وَمَن يَكْفُرْ بِـَٔايَٰتِ اللَّهِ فَإِنَّ اللَّهَ سَرِيعُ الْحِسَابِ ﴿١٩﴾

آل عمران : ١٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ حَقَّ تُقَاتِهِۦ وَلَا تَمُوتُنَّ إِلَّا وَأَنتُم مُّسْلِمُونَ ﴿١٠٢﴾ آل عمران : ١٠٢ .

وَلْتَكُن مِّنكُمْ أُمَّةٌ يَدْعُونَ إِلَى ٱلْخَيْرِ وَيَأْمُرُونَ بِٱلْمَعْرُوفِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿١٠٤﴾ آل عمران : ١٠٤ .

هَٰذَا بَيَانٌ لِّلنَّاسِ وَهُدًى وَمَوْعِظَةٌ لِّلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٨﴾ آل عمران : ١٣٨ .

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ ٱللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلدُّنْيَا نُؤْتِهِۦ مِنْهَا وَمَن يُرِدْ ثَوَابَ ٱلْءَاخِرَةِ نُؤْتِهِۦ مِنْهَا ۚ وَسَنَجْزِى ٱلشَّٰكِرِينَ ﴿١٤٥﴾

آل عمران : ١٤٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ النساء : ١

* وَٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا۟ بِهِۦ شَيْـًٔا ۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ

ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

النساء : ٣٦ .

* إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ سَمِيعًۢا بَصِيرًا ﴿٥٨﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَأُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَـٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾ أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ أَن يَتَحَاكَمُوٓا۟ إِلَى ٱلطَّـٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓا۟ أَن يَكْفُرُوا۟ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَـٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

النساء : ٥٨ — ٦١ .

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ إِذ ظَّلَمُوٓا۟ أَنفُسَهُمْ جَآءُوكَ فَٱسْتَغْفَرُوا۟ ٱللَّهَ

وَاسْتَغْفَرَ لَهُمُ الرَّسُولُ لَوَجَدُوا اللَّهَ تَوَّابًا رَحِيمًا ﴿٦٤﴾ فَلَا
وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا
فِي أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾

النساء : ٦٤ ــ ٦٥ .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِي النِّسَاءِ ۖ قُلِ اللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ
عَلَيْكُمْ فِي الْكِتَابِ فِي يَتَامَى النِّسَاءِ اللَّاتِي لَا تُؤْتُونَهُنَّ
مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَالْمُسْتَضْعَفِينَ
مِنَ الْوِلْدَانِ وَأَن تَقُومُوا لِلْيَتَامَىٰ بِالْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ
خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ كَانَ بِهِ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

النساء : ١٢٧

يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا لَا تُحِلُّوا
شَعَائِرَ اللَّهِ وَلَا الشَّهْرَ الْحَرَامَ وَلَا الْهَدْيَ وَلَا الْقَلَائِدَ
وَلَا آمِّينَ الْبَيْتَ الْحَرَامَ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّن رَّبِّهِمْ
وَرِضْوَانًا ۚ وَإِذَا حَلَلْتُمْ فَاصْطَادُوا ۚ وَلَا يَجْرِمَنَّكُمْ شَنَآنُ
قَوْمٍ أَن صَدُّوكُمْ عَنِ الْمَسْجِدِ الْحَرَامِ أَن تَعْتَدُوا
وَتَعَاوَنُوا عَلَى الْبِرِّ وَالتَّقْوَىٰ ۖ وَلَا تَعَاوَنُوا عَلَى الْإِثْمِ
وَالْعُدْوَانِ ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٢﴾

المائدة : ٢ .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ

لَهُمْ ۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُ ۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ

مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُ ۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ

عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ

سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾

المائدة : ٤ .

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُا۟ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ

وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓا۟ أَوْ يُصَلَّبُوٓا۟ أَوْ تُقَطَّعَ

أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْا۟ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ

لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْءَاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓا۟ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا

مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

المائدة : ٣٣ : ٣٨ .

وَأَنْ أَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ

وَٱتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ ٱلَّذِىٓ إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾

الأنعام : ٧٢ .

* يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟

وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الأعراف : ٣١ .

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

الأعراف : ١٨٧

إِنَّ ٱلَّذِينَ ٱتَّقَوْا۟ إِذَا مَسَّهُمْ طَـٰٓئِفٌ مِّنَ ٱلشَّيْطَـٰنِ تَذَكَّرُوا۟ فَإِذَا هُم مُّبْصِرُونَ ﴿٢٠١﴾

الأعراف : ٢٠١

وَإِذْ يَعِدُكُمُ ٱللَّهُ إِحْدَى ٱلطَّآئِفَتَيْنِ أَنَّهَا لَكُمْ وَتَوَدُّونَ أَنَّ غَيْرَ ذَاتِ ٱلشَّوْكَةِ تَكُونُ لَكُمْ وَيُرِيدُ ٱللَّهُ أَن يُحِقَّ ٱلْحَقَّ بِكَلِمَـٰتِهِۦ وَيَقْطَعَ دَابِرَ ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٧﴾ لِيُحِقَّ ٱلْحَقَّ وَيُبْطِلَ ٱلْبَـٰطِلَ وَلَوْ كَرِهَ ٱلْمُجْرِمُونَ ﴿٨﴾

الأنفال : ٧ — ٨ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ

عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْئًا ۗ

وَاللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَيْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾

التوبة : ٣٨ – ٣٩ .

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ

اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَانَا ۚ وَعَلَى اللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ الْمُؤْمِنُونَ ﴿٥١﴾

التوبة : ٥١ .

فَلَا تُعْجِبْكَ أَمْوَالُهُمْ وَلَا أَوْلَادُهُمْ ۚ

إِنَّمَا يُرِيدُ اللَّهُ لِيُعَذِّبَهُم بِهَا فِي الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَتَزْهَقَ أَنفُسُهُمْ

وَهُمْ كَافِرُونَ ﴿٥٥﴾

التوبة : ٥٥ .

وَقُلِ اعْمَلُوا فَسَيَرَى اللَّهُ عَمَلَكُمْ وَرَسُولُهُ

وَالْمُؤْمِنُونَ ۖ وَسَتُرَدُّونَ إِلَىٰ عَالِمِ الْغَيْبِ وَالشَّهَادَةِ

فَيُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٠٥﴾

التوبة : ١٠٥ .

وَأَقِمِ الصَّلَاةَ طَرَفَيِ النَّهَارِ وَزُلَفًا مِّنَ اللَّيْلِ ۚ إِنَّ الْحَسَنَاتِ

يُذْهِبْنَ السَّيِّئَاتِ ۚ ذَٰلِكَ ذِكْرَىٰ لِلذَّاكِرِينَ ﴿١١٤﴾

هود : ١١٤ .

ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ ۖ

وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن

ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾

النحل : ١٢٥ .

لَّا تَجْعَلْ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ فَتَقْعُدَ مَذْمُومًا مَّخْذُولًا ﴿٢٢﴾

۞ وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوٓا۟ إِلَّآ إِيَّاهُ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَـٰنًا ۚ

إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ ٱلْكِبَرَ أَحَدُهُمَآ أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل

لَّهُمَآ أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾

وَٱخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ ٱلذُّلِّ مِنَ ٱلرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ٱرْحَمْهُمَا

كَمَا رَبَّيَانِى صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِى نُفُوسِكُمْ ۚ

إِن تَكُونُوا۟ صَـٰلِحِينَ فَإِنَّهُۥ كَانَ لِلْأَوَّٰبِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾

وَءَاتِ ذَا ٱلْقُرْبَىٰ حَقَّهُۥ وَٱلْمِسْكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ

تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾ إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَـٰطِينِ ۖ وَكَانَ

ٱلشَّيْطَـٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ وَإِمَّا تُعْرِضَنَّ عَنْهُمُ ٱبْتِغَآءَ

رَحْمَةٍ مِّن رَّبِّكَ تَرْجُوهَا فَقُل لَّهُمْ قَوْلًا مَّيْسُورًا ﴿٢٨﴾

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ

ٱلْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾ إِنَّ رَبَّكَ يَبْسُطُ ٱلرِّزْقَ

لِمَن يَشَآءُ وَيَقْدِرُ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ بِعِبَادِهِۦ خَبِيرًۢا بَصِيرًا ﴿٣٠﴾

وَلَا تَقْتُلُوٓا۟ أَوْلَـٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَـٰقٍ ۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْ ۚ

إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ

كَانَ فَـٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُوا۟ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى

حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ ۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ
سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾
وَلَا تَقْرَبُوا۟ مَالَ ٱلْيَتِيمِ إِلَّا بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ حَتَّىٰ يَبْلُغَ
أَشُدَّهُۥ ۚ وَأَوْفُوا۟ بِٱلْعَهْدِ ۖ إِنَّ ٱلْعَهْدَ كَانَ مَسْـُٔولًا ﴿٣٤﴾
وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ
خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾ وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ
عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ
مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّكَ لَن تَخْرِقَ
ٱلْأَرْضَ وَلَن تَبْلُغَ ٱلْجِبَالَ طُولًا ﴿٣٧﴾ كُلُّ ذَٰلِكَ كَانَ
سَيِّئُهُۥ عِندَ رَبِّكَ مَكْرُوهًا ﴿٣٨﴾

الإسراء ٢٢ ـ ٣٨

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ
ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾

الإسراء : ٨٥ .

وَٱصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ ٱلَّذِينَ
يَدْعُونَ رَبَّهُم بِٱلْغَدَوٰةِ وَٱلْعَشِىِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ
عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ
أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَٱتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾

الكهف : ٢٨ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَن ذِى ٱلْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُوا۟ عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ الكهف : ٨٣ .

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ طه : ١٣١ .

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ النور : ١٤ ــ ١٧ .

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾ الفرقان : ٦٨ ، ٦٩

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ وَأَحْسِن كَمَآ أَحْسَنَ ٱللَّهُ إِلَيْكَ ۖ وَلَا تَبْغِ ٱلْفَسَادَ فِى ٱلْأَرْضِ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْمُفْسِدِينَ ﴿٧٧﴾

القصص : ٧٧

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِ ۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾ وَإِن جَٰهَدَاكَ عَلَىٰٓ أَن تُشْرِكَ بِى مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ فَلَا تُطِعْهُمَا ۖ وَصَاحِبْهُمَا فِى ٱلدُّنْيَا مَعْرُوفًا ۖ وَٱتَّبِعْ سَبِيلَ مَنْ أَنَابَ إِلَىَّ ۚ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأُنَبِّئُكُم بِمَا كُنتُمْ تَعْمَلُونَ ﴿١٥﴾ يَٰبُنَىَّ إِنَّهَآ إِن تَكُ مِثْقَالَ حَبَّةٍ مِّنْ خَرْدَلٍ فَتَكُن فِى صَخْرَةٍ أَوْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ أَوْ فِى ٱلْأَرْضِ يَأْتِ بِهَا ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَطِيفٌ خَبِيرٌ ﴿١٦﴾ يَٰبُنَىَّ أَقِمِ ٱلصَّلَوٰةَ وَأْمُرْ بِٱلْمَعْرُوفِ وَٱنْهَ عَنِ ٱلْمُنكَرِ وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَآ أَصَابَكَ ۖ إِنَّ ذَٰلِكَ مِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿١٧﴾ وَلَا تُصَعِّرْ خَدَّكَ لِلنَّاسِ وَلَا تَمْشِ فِى ٱلْأَرْضِ مَرَحًا ۖ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ كُلَّ مُخْتَالٍ فَخُورٍ ﴿١٨﴾ وَٱقْصِدْ فِى مَشْيِكَ

وَٱغْضُضْ مِن صَوْتِكَ إِنَّ أَنكَرَ ٱلْأَصْوَٰتِ لَصَوْتُ

ٱلْحَمِيرِ ﴿١٩﴾ لقمان : ١٣ — ١٩ .

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُواْ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْءَاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

الأحزاب : ٢١ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَرْسَلْنَٰكَ شَٰهِدًا وَمُبَشِّرًا وَنَذِيرًا ﴿٤٥﴾

وَدَاعِيًا إِلَى ٱللَّهِ بِإِذْنِهِۦ وَسِرَاجًا مُّنِيرًا ﴿٤٦﴾ الأحزاب : ٤٥ — ٤٦ .

يَعْلَمُ خَآئِنَةَ ٱلْأَعْيُنِ وَمَا تُخْفِى ٱلصُّدُورُ ﴿١٩﴾ غافر : ١٩ .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَآ

إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِى مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ فصلت : ٣٣

وَلَمَن صَبَرَ وَغَفَرَ إِنَّ ذَٰلِكَ لَمِنْ عَزْمِ ٱلْأُمُورِ ﴿٤٣﴾ الشورى : ٤٣ .

إِنَّ ٱلَّذِينَ قَالُواْ رَبُّنَا ٱللَّهُ ثُمَّ ٱسْتَقَٰمُواْ

فَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١٣﴾ أُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ

ٱلْجَنَّةِ خَٰلِدِينَ فِيهَا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿١٤﴾

الأحقاف : ١٣ — ١٤ .

يَٰٓأَيُّهَا

ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَٰكُمْ شُعُوبًا

وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓاْ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾

الحجرات : ١٣ .

أَمْ لَمْ يُنَبَّأْ بِمَا فِى صُحُفِ مُوسَىٰ ﴿٣٦﴾ وَإِبْرَٰهِيمَ ٱلَّذِى وَفَّىٰٓ ﴿٣٧﴾ أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَٰنِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُۥ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَىٰهُ ٱلْجَزَآءَ ٱلْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾

النجم : ٣٦ ــ ٤١ .

هُوَ ٱلَّذِى خَلَقَ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضَ فِى سِتَّةِ أَيَّامٍ ثُمَّ ٱسْتَوَىٰ عَلَى ٱلْعَرْشِ ۚ يَعْلَمُ مَا يَلِجُ فِى ٱلْأَرْضِ وَمَا يَخْرُجُ مِنْهَا وَمَا يَنزِلُ مِنَ ٱلسَّمَآءِ وَمَا يَعْرُجُ فِيهَا ۖ وَهُوَ مَعَكُمْ أَيْنَ مَا كُنتُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٤﴾

الحديد : ٤ .

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُواْ كَٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾

الحديد : ١٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ تُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ تَوْبَةً نَّصُوحًا عَسَىٰ رَبُّكُمْ أَن يُكَفِّرَ عَنكُمْ سَيِّـَٔاتِكُمْ وَيُدْخِلَكُمْ جَنَّٰتٍ تَجْرِى مِن تَحْتِهَا ٱلْأَنْهَٰرُ يَوْمَ لَا يُخْزِى ٱللَّهُ ٱلنَّبِىَّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَعَهُۥ ۖ نُورُهُمْ يَسْعَىٰ بَيْنَ أَيْدِيهِمْ وَبِأَيْمَٰنِهِمْ يَقُولُونَ رَبَّنَآ أَتْمِمْ لَنَا نُورَنَا وَٱغْفِرْ لَنَآ ۖ إِنَّكَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٨﴾ التحريم : ٨ .

خُذُوهُ فَغُلُّوهُ ﴿٣٠﴾ ثُمَّ ٱلْجَحِيمَ صَلُّوهُ ﴿٣١﴾ ثُمَّ فِى سِلْسِلَةٍ ذَرْعُهَا سَبْعُونَ ذِرَاعًا فَٱسْلُكُوهُ ﴿٣٢﴾ إِنَّهُۥ كَانَ لَا يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ ٱلْعَظِيمِ ﴿٣٣﴾ وَلَا يَحُضُّ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلْمِسْكِينِ ﴿٣٤﴾ فَلَيْسَ لَهُ ٱلْيَوْمَ هَٰهُنَا حَمِيمٌ ﴿٣٥﴾ وَلَا طَعَامٌ إِلَّا مِنْ غِسْلِينٍ ﴿٣٦﴾ لَّا يَأْكُلُهُۥٓ إِلَّا ٱلْخَٰطِـُٔونَ ﴿٣٧﴾ الحاقة : ٣٠ ــ ٣٧ .

إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ خُلِقَ هَلُوعًا ﴿١٩﴾
إِذَا مَسَّهُ ٱلشَّرُّ جَزُوعًا ﴿٢٠﴾ وَإِذَا مَسَّهُ ٱلْخَيْرُ مَنُوعًا ﴿٢١﴾
المعارج : ١٩ ــ ٢١ .

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ المزمل : ١٠ .

كُلُّ نَفْسٍۭ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾ المدثر : ٣٨ .

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾
وَءَاثَرَ ٱلۡحَيَوٰةَ ٱلدُّنۡيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلۡجَحِيمَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنۡ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفۡسَ عَنِ ٱلۡهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلۡجَنَّةَ هِيَ ٱلۡمَأۡوَىٰ ﴿٤١﴾

النازعات : ٣٧ ــ ٤١ .

فَلۡيَنظُرِ ٱلۡإِنسَٰنُ مِمَّ خُلِقَ ﴿٥﴾ خُلِقَ مِن مَّآءٖ دَافِقٖ ﴿٦﴾
يَخۡرُجُ مِنۢ بَيۡنِ ٱلصُّلۡبِ وَٱلتَّرَآئِبِ ﴿٧﴾

الطارق : ٥ ــ ٧ .

وَنَفۡسٖ وَمَا
سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلۡهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقۡوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدۡ أَفۡلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدۡ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

الشمس : ٧ ــ ١٠ .

* * *

(١) التربية الفردية :

المجتمع بناء بشرى لبناته الأفراد الذين تتألف من ترابطهم الاجتماعى عناصره الحية التى يتهيأ بها للمجتمع أن يتبوأ مكانة فى الحياة بقدر ما فى تلك العناصر من قوة وحيوية وخصوبة فى التفكير .

التربية السلوكية :

ولهذا نجد الآيات القرآنية تولى الفرد عناية بالغة فى التربية السلوكية التى تعده إعداداً روحياً وعقلياً ، ومادياً ليستقيم له بهذا الإعداد التربوى فى السلوك استقلاله الذاتى ، الذى تتجلى فيه إرادته الحرة ، ومشيئته القادرة فيما يصدر عنه من فعل أو رأى .

إن أول ما يتطلبه الإسلام من المسلم أن يكون مؤمناً بالله ، وثيق الصلة به ، دائم الذكر له والتوكل عليه ، يرى آثار قدرته فى كل ومضة من ومضات الحياة وفى كل مشهد من مشاهد الكون ، فيزداد إيماناً به وذكراً له ، وتوكلًا عليه :

إِنَّ فِي خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَٱخْتِلَٰفِ ٱلَّيْلِ وَٱلنَّهَارِ لَءَايَٰتٍ لِّأُو۟لِى ٱلْأَلْبَٰبِ ﴿١٩٠﴾ ٱلَّذِينَ يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ قِيَٰمًا وَقُعُودًا وَعَلَىٰ جُنُوبِهِمْ وَيَتَفَكَّرُونَ فِى خَلْقِ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ رَبَّنَا مَا خَلَقْتَ هَٰذَا بَٰطِلًا سُبْحَٰنَكَ فَقِنَا عَذَابَ ٱلنَّارِ ﴿١٩١﴾ آل عمران : ١٩٠ ، ١٩١ .

والتربية السلوكية تتجلى فى الامتثال لأمر الله ورسوله من غير تحفظ ولا احتراس :

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ النساء : ٦٥ .

وقد تغشى نفس المؤمن آثار غفلة ، فتزل به القدم ، ولكنه سرعان ما يتذكر ويؤوب إلى ربه نادماً مستغفراً : ﴿ **إن الذين اتقوا إذا مسهم طائف من الشيطان تذكروا فإذا هم مبصرون** ﴾ (١) .

دور الصلاة فى تربية الفرد :

الصلاة أكبر وسيلة للتربية الفردية ، لأنها المورد الثري الذى يتزود منه المسلم بتقواه ، ولأنها المنهل العذب الذى يغسل فيه أوضار خطاياه .

وعن ابن مسعود رضى الله عنه أن رجلًا أصاب من امرأة قبلة ، فأتى النبى ﷺ فأخبره ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وأقم الصلاة طرفى النهار وزلفاً من الليل إن الحسنات يذهبن السيئات** ﴾(٢) . فقال الرجل :ألِيَ هذا ؟ قال : لجميع أمتى كلهم (٣) .

ومن هنا كان المصلون الصادقون الخاشعون فى حمى الله الآمن ، وفى رعايته الشاملة ، لا يجزعون إذا مسهم شر ، ولا يمنعون إذا غمرهم خير : ﴿ **إن الإنسان خلق هلوعاً * إذا مسه الشر جزوعاً * وإذا مسه الخير منوعاً إلا المصلين ..** ﴾(٤) .

ومجمل القول أن الصلاة تنمي إيمان المؤمن بالغيب ، وتزيد خشيته من الله ، فيتقى عذابه بالتواضع لأمره واجتناب نواهيه ، ولذلك اقترن ذكر الصلاة فى القرآن بالإيمان بلقاء الله والخوف من عذابه :

وَٱسْتَعِينُواْ بِٱلصَّبْرِ وَٱلصَّلَوٰةِ ۚ وَإِنَّهَا لَكَبِيرَةٌ إِلَّا عَلَى ٱلْخَٰشِعِينَ ﴿٤٥﴾ ٱلَّذِينَ يَظُنُّونَ أَنَّهُم مُّلَٰقُواْ رَبِّهِمْ وَأَنَّهُمْ إِلَيْهِ رَٰجِعُونَ ﴿٤٦﴾

البقرة : ٤٥ ــ ٤٦ .

---

(١) الأعراف : ٢٠١ .
(٢) هود : ١١٤ .
(٣) تفسير ابن كثير ج ٢ ص ٧١٥ ط الأولى ١٩٨٦ م .
(٤) المعارج : ١٩ ــ ٢٢ .

وَأَنْ أَقِيمُوا الصَّلَوٰةَ

وَاتَّقُوهُ ۚ وَهُوَ الَّذِي إِلَيْهِ تُحْشَرُونَ ﴿٧٢﴾ الأنعام : ٧٢ .

والصلاة وسيلة من وسائل تربية الإنسان ، فإذا تحرر الوجدان من شعور المهانة ، لا يخالجه قلق أو خوف على الرزق ، ولا ينتابه شعور المهابة والخضوع لغير الله ، وامتلأ بالشعور بأنه على اتصال كامل بالله ، لم يتأثر بشعور الخوف على الحياة أو الخوف على الرزق :

وَمَا كَانَ لِنَفْسٍ أَن تَمُوتَ إِلَّا بِإِذْنِ اللَّهِ كِتَٰبًا مُّؤَجَّلًا ۗ آل عمران : ١٤٥ .

قُل لَّن يُصِيبَنَا إِلَّا مَا كَتَبَ اللَّهُ لَنَا هُوَ مَوْلَىٰنَا ۚ التوبة : ٥١ .

اللَّهُ يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ وَيَقْدِرُ ۚ الرعد : ٢٦ .

ويعمل الإسلام على التقليل من شأن الدنيا لدى المؤمن بالتدريج ، ليشعر الناس أن الدنيا والمال إنما هما فتنة وابتلاء واختبار :

وَلَا تَمُدَّنَّ عَيْنَيْكَ إِلَىٰ مَا مَتَّعْنَا بِهِۦٓ أَزْوَٰجًا مِّنْهُمْ زَهْرَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا لِنَفْتِنَهُمْ فِيهِ ۚ وَرِزْقُ رَبِّكَ خَيْرٌ وَأَبْقَىٰ ﴿١٣١﴾ طه : ١٣١ .

وإنما جاءت هذه الآية وأمثالها لرد اعتبار القيم الإنسانية ، ولإنقاذ أنفس الفقراء مما يلحقها من ضعف أو انكسار أمام القيم المادية البحتة من مال ومتاع .

ولذلك أمر الله سبحانه نبيه ﷺ بألا يقيم وزناً لهذه القيم ، وألا يرتب اعتبارات الناس عليها :

وَاصْبِرْ نَفْسَكَ مَعَ الَّذِينَ يَدْعُونَ رَبَّهُم بِالْغَدَوٰةِ وَالْعَشِيِّ يُرِيدُونَ وَجْهَهُۥ ۖ وَلَا تَعْدُ عَيْنَاكَ عَنْهُمْ تُرِيدُ زِينَةَ الْحَيَوٰةِ الدُّنْيَا ۖ وَلَا تُطِعْ مَنْ أَغْفَلْنَا قَلْبَهُۥ عَن ذِكْرِنَا وَاتَّبَعَ هَوَىٰهُ وَكَانَ أَمْرُهُۥ فُرُطًا ﴿٢٨﴾ الكهف : ٢٨ .

ويمضى القرآن فى تربية الفرد وبيان حقيقته فيقول : ﴿ **فلينظر الإنسان مم خلق * خلق من ماء دافق * يخرج من بين الصلب والترائب** ﴾ الطارق : ٥ ــ ٧ .

ويمضى القرآن يكرر هذا المعنى فى مواضع كثيرة ليقر فى خلد « الإنسان » وحدة أصله ونشأته ، الجنس كله من تراب ، والفرد ــ كل فرد ــ من ماء مهين : ﴿ **ومن آياته أن خلقكم من تراب ثم إذا أنتم بشر تنتشرون** ﴾ الروم : ٢٠ .

فإذا انتفى أن يكون فرد أفضل بطبيعته من فرد ، فليس هنالك من جنس ، وليس هنالك من شعب ، هو بنشأته وعنصره أفضل :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ النساء : ١ .

واستمر الإسلام يربى أفراده على الابتعاد عن العصبية القبلية والعنصرية إلى جانب ابتعاده عن عصبية النسب والأسرة :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ إِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن ذَكَرٍ وَأُنثَىٰ وَجَعَلْنَـٰكُمْ شُعُوبًا وَقَبَآئِلَ لِتَعَارَفُوٓا۟ ۚ إِنَّ أَكْرَمَكُمْ عِندَ ٱللَّهِ أَتْقَىٰكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلِيمٌ خَبِيرٌ ﴿١٣﴾ الحجرات : ١٣ .

هكذا كانت التربية الفردية تشمل كل ناحية من حياة الناس الوجدانية والاجتماعية .

وهناك تكافل بين الفرد وذاته ، فهو مكلف أن ينهى نفسه عن شهواتها ، وأن يزكيها ويطهرها ويسلك بها طريق الصلاح والنجاة ، وألا يلقى بها إلى التهلكة :

فَأَمَّا مَن طَغَىٰ ﴿٣٧﴾

وَءَاثَرَ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا ﴿٣٨﴾ فَإِنَّ ٱلْجَحِيمَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٣٩﴾
وَأَمَّا مَنْ خَافَ مَقَامَ رَبِّهِۦ وَنَهَى ٱلنَّفْسَ عَنِ ٱلْهَوَىٰ ﴿٤٠﴾
فَإِنَّ ٱلْجَنَّةَ هِىَ ٱلْمَأْوَىٰ ﴿٤١﴾

النازعات : ٣٧ — ٤١ .

وَٱلشَّمْسِ وَضُحَىٰهَا ﴿١﴾ وَٱلْقَمَرِ إِذَا تَلَىٰهَا ﴿٢﴾ وَٱلنَّهَارِ
إِذَا جَلَّىٰهَا ﴿٣﴾ وَٱلَّيْلِ إِذَا يَغْشَىٰهَا ﴿٤﴾ وَٱلسَّمَآءِ
وَمَا بَنَىٰهَا ﴿٥﴾ وَٱلْأَرْضِ وَمَا طَحَىٰهَا ﴿٦﴾ وَنَفْسٍ وَمَا
سَوَّىٰهَا ﴿٧﴾ فَأَلْهَمَهَا فُجُورَهَا وَتَقْوَىٰهَا ﴿٨﴾ قَدْ أَفْلَحَ
مَن زَكَّىٰهَا ﴿٩﴾ وَقَدْ خَابَ مَن دَسَّىٰهَا ﴿١٠﴾

الشمس : ٧ — ١٠ .

والفرد المؤمن مكلف فى الوقت ذاته أن يمتع نفسه فى الحدود التى لا تفسد فطرتها ، وأن يمنحها حقها من العمل والراحة فلا ينهكها ولا يضعفها :

وَٱبْتَغِ فِيمَآ ءَاتَىٰكَ ٱللَّهُ ٱلدَّارَ ٱلْءَاخِرَةَ ۖ وَلَا تَنسَ نَصِيبَكَ
مِنَ ٱلدُّنْيَا ۖ

القصص : ٧٧ .

* يَٰبَنِىٓ ءَادَمَ خُذُوا۟ زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا۟
وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الأعراف : ٣١ .

والتبعة الفردية كاملة ، فكل إنسان وعمله ، وما يكسب لنفسه من خير أو شر ، ومن حسنة أو سيئة ، ولن يجزىء عنه عهد فى الدنيا ولا فى الآخرة :

﴿كُلُّ نَفْسٍ بِمَا كَسَبَتْ رَهِينَةٌ ﴿٣٨﴾﴾ المدثر : ٣٨ .

﴿أَلَّا تَزِرُ وَازِرَةٌ وِزْرَ أُخْرَىٰ ﴿٣٨﴾ وَأَن لَّيْسَ لِلْإِنسَانِ إِلَّا مَا سَعَىٰ ﴿٣٩﴾ وَأَنَّ سَعْيَهُ سَوْفَ يُرَىٰ ﴿٤٠﴾ ثُمَّ يُجْزَاهُ الْجَزَاءَ الْأَوْفَىٰ ﴿٤١﴾﴾ النجم : ٣٨ ــ ٤١ .

وهناك أحاديث كثيرة توضح المسئولية الفردية ، فيقول ﷺ **« يافاطمة بنت محمد ، سليني ما شئت من مالى ، لا أغنى عنك من الله شيئاً »**(١) .

« لا تزول قدما عبد حتى يسأل عن عمره فيما أفناه ، وعن عمله فيما فعل فيه ، وعن ماله من أين اكتسبه وفيما أنفقه ، وعن جسمه فيما أبلاه » . رواه الترمذى (٢) .

لقد سلك القرآن لتربية الفرد ومعالجة أمراضه وسائل وطرقاً كانت جديدة وغير معهودة فى هذا المجتمع منها :

التوبة : **﴿ يا أيها الذين آمنوا توبوا إلى الله توبة نصوحاً ﴾** التحريم : ٨ .

ومنها الصبر والعفو : **﴿ ولمن صبر وغفر إن ذلك لمن عزم الأمور ﴾** الشورى : ٤٣ .

ومنها التقوى ومراقبة الله : **﴿ وهو معكم أينما كنتم ﴾**(٣) **﴿ يعلم**

---

(١) صحيح البخارى ج ٤ ص ٨ باب الوصايا .

(٢) سنن الترمذى ج ٤ ص ٦١٢ حديث رقم ٢٤١٧ ط مصطفى البابى الحلبى وأولاده تحقيق إبراهيم عطوة .

(٣) الحديد : ٤ .

خائنة الأعين وما تخفى الصدور ﴾ (١) . **﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله حق تقاته ﴾** (٢) .

ومنها الاستقامة : **﴿ فاستقم كما أمرت ﴾** (٣) ، **﴿ إن الذين قالوا ربنا الله ثم استقاموا فلا خوف عليهم ولاهم يحزنون * أولئك أصحاب الجنة خالدين فيها جزاء بما كانوا يعملون ﴾** (٤) .

وفى هذه الآيات البينات جمع الأسلوب البيانى خلاصة الطرق القرآنية فى التربية السلوكية ، وكيف يتحمل الفرد المسئولية فيما يصدر من عمل بالجوارح أو بالضمير والقلب أو العقل والروح ، وكيف يكون هذا الفرد لبنة صالحة فى بناء المجتمع الجديد المتطور .

وتمثل هذه الآيات البينات رياضة روحية ونفسية من شأنها أن تؤسس لمجتمع جديد ، وترهص بأنماط أصيلة من الأخلاق والسلوك والنظم والعادات التى يقتضى تشكيل المجتمع الإسلامى إرساء دعائمها على أنقاض القديم .

* * *

---

(١) غافر : ١٩ .
(٢) آل عمران : ١٠٢ .
(٣) هود : ١١٢ .
(٤) الأحقاف : ١٣ ــ ١٤ .

(٢) التربية الجماعية :

إن الأساس الأول لبناء المجتمع هو تربية الفرد المؤمن ليكون لبنة صالحة فى بناء المجتمع ، ولتكوين رأى عام راشد .. والأساس الثانى هو إيجاد التآلف والترابط والتكافل بين الفرد والجماعة ، وبين الجماعة والفرد ، يوجب على كل منهما تبعات ويرتب لكل منها حقوقاً .

فكل فرد مكلف أولا أن يحسن عمله الخاص ، وإحسان العمل عبادة لله ، لأن ثمرة العمل الخاص ملك للجماعة وعائدة عليها فى النهاية : ﴿ **وقل اعملوا فسيرى الله عملكم ورسوله والمؤمنون** ﴾[١] .

وكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها ، موكل بها .. والحياة سفينة فى خضم ، والراكبون فيها جميعاً مسئولون عن سلامتها ، وليس لأحد منهم أن يخرق موضعه منها باسم الحرية الفردية : « **مثل القائم على حدود الله والواقع فيها كمثل قوم استهموا فى سفينة ، فأصاب بعضهم أعلاها وبعضهم أسفلها ، فكان الذين فى أسفلها ، إذا استقوا مروا على من فوقهم ، فقالوا : لو أنا خرقنا فى نصيبنا خرقاً ولم نؤذ من فوقنا ! فإن تركوهم وما أرادوا هلكوا جميعاً ، وإن أخذوا على أيديهم نجوا ونجوا جميعاً** »[٢] .

وهو تصوير بديع لتشابك المصالح وتواشجها ، بإزاء التفكير الفردى الذى يأخذ بظاهر المعانى النظرية ، ولا يفكر فى أفكار الوقائع العملية .

ورسم أنيق لواجب الجماعة فى مثل هذه الأحوال ، وليس هناك فرد معفى من رعاية المصالح العامة ، فكل فرد راع ورعيته فى المجتمع : « **كلكم راع وكلكم مسئول عن رعيته** »[٣] .

والتعاون بين جميع الأفراد واجب لمصلحة الجماعة فى حدود البر

---

(١) التوبة : ١٠٥ .
(٢) البخارى ج ٣ ص ٢٧٨ باب هل يقرع فى القسمة والاستهام فيه .
(٣) البخارى ج ٢ ص ٣٣ باب الجمعة فى القرى والمدن .

والمعروف : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾(١) .

وبعد هذه المرحلة من مراحل التربية كانت الدعوة أحد الوسائل الفعالة لتطوير المجتمع ولتقوية الصلة بين الفرد والجماعة : ﴿ **ولتكن منكم أمة يدعون إلى الخير ويأمرون بالمعروف وينهون عن المنكر** ﴾(٢) .

وكل فرد مسئول بذاته عن الأمر بالمعروف ، فإن لم يفعل فهو آثم يعاقب على إثمه : ﴿ **خذوه فغلوه * ثم الجحيم صلوه * ثم فى سلسلة ذرعها سبعون ذراعاً فاسلكوه * إنه كان لا يؤمن بالله العظيم * ولا يحض على طعام المسكين** ﴾(٣) .

وكل فرد مكلف أن يزيل المنكر الذى يراه : « **من رأى منكم منكراً فاستطاع أن يغيره بيده فليغيره بيده ، فإن لم يستطع فبلسانه ، فإن لم يستطع فبقلبه وذلك أضعف الإيمان** »(٤) .

وهكذا يصبح كل فرد مسئول عن كل منكر يقع فى هذه البيئة ولو لم يكن شريكاً فيه ، فالأمة واحدة ، والمنكر يؤذيها ، وعلى كل فرد أن يسهم فى تطوير هذا المجتمع وتطهيره .

فالضبط الاجتماعى للأخلاقيات والسلوك مسئولية كل الجماعة المسلمة . والذين يُجاهرون بالمعاصى ، يجب أن يعاقبوا عقاباً رادعاً ، كذلك الذين يحبون أن تشيع الفاحشة ، فالكل مسئول عن عملية الضبط داخل المجتمع فيما يتعلق بمكارم الأخلاق انتشاراً أو حفاظاً حتى لا تشيع الفاحشة فى القول والفعل .

---

(١) المائدة : ٢ .

(٢) آل عمران : ١٠٤ .

(٣) الحاقة : ٣٠ ــ ٣٦ .

(٤) سنن ابن ماجه ج ٢ ص ١٣٣٠ باب الأمر بالمعروف والنهى عن المنكر .

٣ ـ وسائل التربية الجماعية :

سلك القرآن للتربية الجماعية وسائل متعددة :

- **التربية بالقدوة والقيادة .**
- **التربية بالموعظة .**
- **التربية بالعقوبة .**

(أ) التربية بالقدوة والقيادة :

لقد بعث الله محمداً ﷺ ـ ليكون قدوة للناس : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة لمن كان يرجو الله واليوم الآخر** ﴾(١) ووضع فى شخصه ﷺ معالم نيرة للمجتمع الجديد . سئلت عائشة رضى الله عنها عن خلق رسول الله ﷺ فقالت : « كان خلقه القرآن » (٢) ، كانت ترجمة حية لروح القرآن وحقائقه وتوجيهاته .

﴿ **يا أيها النبى إنا أرسلناك شاهداً ومبشراً ونذيراً . وداعياً إلى الله بإذنه وسراجاً منيراً** ﴾(٣) .

لقد فاض هذا النور فى الوجوه ، وفاض فى الوجود ، وكشف الطريق للناس لإيجاد مجتمع مثالى جديد ، لقد كان قدوة فى كل ناحية من نواحى المجتمع فهو : رجل حرب يضع الخطط ويجهز الجيش ويحارب وينتصر ، وهو أب وزوج ورب أسرة كثير النفقات ، وهو قائد وصاحب للناس تشغله همومهم ، وتملأ نفسه مشاعرهم ، وهو عابد متحنث لربه كرجل منقطع للعبادة ، متخصص لأدائها(٤) .

---

(١) الأحزاب : ٢١ .

(٢) مسند الإمام أحمد بن حنبل م ٦ ص ٢١٦ ـ المكتب الإسلامى ـ دار صادر ـ بيروت .

(٣) الأحزاب : ٤٥ ـ ٤٦ .

(٤) راجع منهج التربية الإسلامية محمد قطب ص ١٨٠ ـ ١٨٨ ج ١ ط السابعة والعشرون .

كل هذه الصفات مجموعة فى شخصه ، مجموعة على تناسق وتوافق واتزان . كان قدوة للناس فى واقع الأرض ، يرونه وهو يمشى بينهم فتتحرك له نفوسهم .

التشبع بمعانى القدوة ثم الطاعة :

وعندما تشبع المسلمون بمعانى القدوة بدأت تنمو فيهم روح الطاعة للقيادة ، وكانت هذه نقلة مباركة فحين ننظر إلى الشعر الجاهلى — والنتف الأخرى من المأثورات الجاهلية — وهو ديوان العرب الذى تضمن أغلى وأخلد ما كان للعرب من نظرة للحياة والوجود والكون والإنسان والخلق والسلوك — نرى كيف كان الالتزام الأول والأخير هو الولاء للقبيلة كما يقول الشاعر دريد بن الصمة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

فى ظل هذه التصورات الجاهلية يتبين الفرق ويرى الإنسان كيف أنشأ القرآن هذه الأمة فى وسط هذه البيئة ، وكيف نفخ فيه روح الطاعة للقدوة الميمونة ، وكيف فهم معنى : ﴿ **لقد كان لكم فى رسول الله أسوة حسنة** ﴾ ،وكيف تولى القرآن تحديد معانى القيادة وتحديد الجهة التى تتلقى منها الأمة المسلمة منهج حياتها ، إن القرآن يقول للأمة المسلمة : إن الرسل أرسلت لتطاع بإذن الله لا لمجرد الإبلاغ والإقناع :

وَمَآ أَرْسَلْنَا مِن رَّسُولٍ إِلَّا لِيُطَاعَ بِإِذْنِ ٱللَّهِ ۚ النساء : ٦٤ .

فَلَا وَرَبِّكَ لَا يُؤْمِنُونَ حَتَّىٰ يُحَكِّمُوكَ فِيمَا شَجَرَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ لَا يَجِدُوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ حَرَجًا مِّمَّا قَضَيْتَ وَيُسَلِّمُوا۟ تَسْلِيمًا ﴿٦٥﴾ النساء : ٦٥ .

فبدأت الآيات توضح مفاهيم القيادة ، وتزيل الغبش من أذهان الناس ، فتقول :

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ يَزْعُمُونَ أَنَّهُمْ ءَامَنُوا۟ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ يُرِيدُونَ

أَن يَتَحَاكَمُوٓاْ إِلَى ٱلطَّٰغُوتِ وَقَدْ أُمِرُوٓاْ أَن يَكْفُرُواْ بِهِۦ وَيُرِيدُ ٱلشَّيْطَٰنُ أَن يُضِلَّهُمْ ضَلَٰلًۢا بَعِيدًا ﴿٦٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ إِلَىٰ مَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ وَإِلَى ٱلرَّسُولِ رَأَيْتَ ٱلْمُنَٰفِقِينَ يَصُدُّونَ عَنكَ صُدُودًا ﴿٦١﴾

النساء : ٦٠ـ٦١ .

ويقول لها : إن منهجها الإيمانى ونظامها الأساسى أن تطيع الله عز وجل فى هذا المجتمع ، وأن تطيع رسول الله ﷺ فى قدوته ، وأولى الأمر من المؤمنين الداخلين فى شرط الإيمان .

حوادث ووقائع تساعد على تطبيق معانى القيادة :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ أَطِيعُواْ ٱللَّهَ وَأَطِيعُواْ ٱلرَّسُولَ وَأُوْلِى ٱلْأَمْرِ مِنكُمْ ۖ فَإِن تَنَٰزَعْتُمْ فِى شَىْءٍ فَرُدُّوهُ إِلَى ٱللَّهِ وَٱلرَّسُولِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٥٩﴾

النساء : ٥٩ .

روى البخارى ، عن ابن عباس :﴿ **أطيعوا الله وأطيعوا الرسول وأولى الأمر منكم** ﴾ قال : نزلت فى عبد الله بن حذافة بن قيس بن عدى إذ بعثه رسول الله ﷺ فى سرية ، وقال الإمام أحمد عن على قال : بعث رسول الله ﷺ سرية ، واستعمل لهم رجلا من الأنصار ، فلما خرجوا وجد عليهم فى شيء ، فقال لهم : أليس قد أمركم رسول الله ﷺ أن تطيعونى ؟ قالوا : بلى . قال : فاجمعوا لى حطباً ، ثم دعا بنار فأضرمها بنفسه ، ثم قال : عزمت عليكم لتدخلنها . وقال لهم شاب منهم : إنما فررتم إلى رسول الله ﷺ من النار فلا تعجلوا حتى تلقوا رسول الله ﷺ فإن أمركم أن تدخلوها فادخلوها ، قال : فرجعوا إلى رسول الله ﷺ فأخبروه ، فقال لهم : « **لو دخلتموها ما خرجتم منها أبداً ، إنما الطاعة فى المعروف** » .

هكذا بدأ القرآن يعطى معانى القيادة ويوصل مفهوم الطاعة لله وللرسول ، وعن عبد الله بن عمر عن رسول الله ﷺ قال : « **السمع والطاعة على المرء المسلم فيما أحب وكره ، ما لم يؤمر بمعصية ، فإذا أمر بمعصية فلا سمع ولا طاعة**[1] .

وهكذا بدأ التدريب فى هذا المجتمع الجديد على الخضوع لمعانى القيادة . هذه القصة تصور لمحة من هذا المجتمع الجديد الذى ما زال يتفهم معانى القيادة ، روى البخارى : عن عروة قال : خاصم الزبير رجلا فى شراج الحرة ، فقال النبى ﷺ : « **اسق يا زبير ثم أرسل الماء إلى جارك** » ، **فقال الأنصارى** : يا رسول الله : أن كان ابن عمتك ؟ **فتلون** وجه رسول الله ﷺ ثم قال : « **اسق يا زبير ثم احبس الماء حتى يرجع إلى الجذر** ، **ثم أرسل الماء إلى جارك** » ، فاستوعى النبى ﷺ للزبير حقه فى صريح الحكم حين أحفظه الأنصارى ، وكان أشار عليهما ﷺ بأمر لهما فيه سعة ، قال الزبير : فما أحسب هذه الآية إلا نزلت فى ذلك : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾[2] .

وهناك آيات كثيرة فى سور متعددة تعطى نفس المفهوم ، وتبين أنه على الذين آمنوا أن يطيعوا الله ورسوله الذى أرسله لهذه الشريعة .

والقرآن شجع المسلمين ورباهم على ذلك بأساليب متعددة ومن أجملها :

وَمَن يُطِعِ ٱللَّهَ وَٱلرَّسُولَ فَأُوْلَٰٓئِكَ مَعَ ٱلَّذِينَ أَنْعَمَ ٱللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ ٱلنَّبِيِّـۧنَ وَٱلصِّدِّيقِينَ وَٱلشُّهَدَآءِ وَٱلصَّٰلِحِينَ ۚ وَحَسُنَ أُوْلَٰٓئِكَ رَفِيقًا ﴿٦٩﴾ ذَٰلِكَ ٱلْفَضْلُ مِنَ ٱللَّهِ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ عَلِيمًا ﴿٧٠﴾ النساء : ٦٩ .

---

(١) مجمع التفاسير ج ٢ ص ١٠٣ ط ـ الثانية دار الدعوة وتفسير ابن كثير م ١ ص ٧٨٣ .

(٢) تفسير ابن كثير م ١ ص ٧٨٧ والآية من النساء : ٦٥ .

إنها اللمسة التى تستجيش مشاعر كل قلب فيه بذرة من خير ، وبذرة من صلاح ، وفيه من التطلع إلى مقام كريم فى صحبة كريمة ، وفيه طاعة لهذه القدوة الميمونة ، وكانت من نتيجة هذه التربية أنه جاء رجل من الأنصار إلى نبي الله ﷺ وهو محزون فقال له النبي ﷺ : « **يا فلان ما لى أراك محزوناً** » ؟ فقال : يا نبى الله ، شيء فكرت فيه ، فقال : « **وما هو ؟** » قال : نحن نغدو عليك ونروح ننظر إلى وجهك ونجالسك ، وغداً ترفع مع النبيين فلا نصل إليك ، فلم يرد عليهم رسول الله ﷺ شيئاً ، فأتاه جبريل بهذه الآية : ﴿ **من يطع الله والرسول فأولئك مع الذين أنعم الله عليهم من النبيين** ... ﴾ الآية . فبعث النبى ﷺ إليه فبشره(١) .

بعد هذه الخطوة التربوية والنقلة الجميلة والتطور الرائع الذى ظهر خلال الروايات المذكورة ، ظهرت فى هذا المجتمع الجديد ظاهرة الأسئلة ، وهى ظواهر مبتكرة فى هذه البيئة المتطورة تطالعنا فى صورة مواقف يسأل فيها المسلمون نبيهم ﷺ عن شئون شتى هى الشئون التى تصادفهم فى حياتهم الجديدة ، ويريدون أن يعرفوا كيف يسلكون فيها وفق تصورهم الجديد ووفق نظامهم الجديد .. وعن الظواهر التى تلفت حسهم الذى استيقظ تجاه الكون الذي يعيشون فيه : ﴿ **يسألونك عن الأهلة قل هى مواقيت للناس والحج وليس البر بأن تأتوا البيوت من ظهورها ولكن البر من اتقى وأتوا البيوت من أبوابها واتقوا الله لعلكم تفلحون** ﴾ (٢) .

قال معاذ بن جبل : يا رسول الله ، إن اليهود تغشانا ويكثرون مسألتنا عن الأهلة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية .

وقال الكلبى : نزلت فى معاذ بن جبل وثعلبة بن غنيمة وهما رجلان من الأنصار قالا : يا رسول الله ، ما بال الهلال يبدو فيطلع دقيقاً مثل الخيط ثم يزيد حتى يعظم ويستوى ويستدير ثم لا يزال ينتقص ويدق حتى يكون كما كان لا يكون على حال واحدة ، وكانت الأنصار إذا حجوا لا يدخلون

---

(١) مختصر ابن كثير م ١ ص ٤١١ ومجمع التفاسير ج ٢ ص ١٠٩ .
(٢) البقرة : ١٨٩ .

من أبواب بيوتهم ، فجاء رجل فدخل من قبل باب ، فكأنه عُيِّر بذلك فنزلت هذه الآية [1]

﴿ يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴾ ﴿٢١٥﴾ البقرة : ٢١٥

لقد وردت آيات كثيرة فى الإنفاق ، سابقة على هذا السؤال ، فالإنفاق فى مثل هذه الظروف التى نشأ فيها هذا المجتمع الجديد ضرورة فى وجه تلك الصعاب والمشاق التى كانت تواجه هذا التطور السريع ، ثم هو ضرورة من ناحية التضامن والتكامل بين أفراد هذا المجتمع الجديد ، وهنا يسأل بعض المسلمين : ﴿ **ماذا ينفقون ؟** ﴾فجاءهم الجواب مبيناً صفة الإنفاق ، ويحدد مصارفها : ﴿ **قل ما أنفقتم من خير ...** ﴾.

قال ابن عباس فى رواية أبى صالح : نزلت فى عمرو بن الجموح الأنصارى — وكان شيخاً كبيراً ذا مال كثير — فقال : يا رسول الله ، بماذا نتصدق ؟ وعلى من ننفق ؟ فنزلت هذه الآية [2] .

ويسألون عن القتال فى الشهر الحرام وعند المسجد الحرام ، هل يجوز ؟ نزلت فى سرية عبد الله بن جحش ومعه نفر من المهاجرين[3] .
ويسألونك عن المحيض ، إن اليهود إذا حاضت منهم امرأة أخرجوها من البيت فلم يؤاكلوها ولم يشاربوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسأل رسول الله ﷺ فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى ..** ﴾ويسألونك عن اليتامى : لما أنزل الله عز وجل : ﴿ **ولا تقربوا مال اليتيم إلا بالتى هى أحسن** ﴾ ، ﴿ **إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلما** ﴾انطلق من كان عنده مال يتيم عزل طعامه من طعامه وشرابه من

(١) أسباب نزول القرآن : أبى الحسن على بن الواحدى تحقيق سيد أحمد صقر ص ٤٨ .

(٢) أسباب النزول للواحدى ص ٦٠ .

(٣) نفس المصدر ص ٦١ ، ٦٢

شرابه ، وجعل يفصل الشيء من طعامه ينحبس له حتى يأكل أو يفسد ، واشتد ذلك عليهم فذكروا ذلك لرسول الله ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ يسألونك عن اليتامى قل إصلاح لهم خير وإن تخالطوهم.﴾ [1] .

ظاهرة الأسئلة تطور فى مفهوم القيادة والطاعة :

وهذه الظاهرة الجديدة دليل على تطور ونماء فى صور الحياة وعلاقاتها ، وبروز أوضاع جديدة فى المجتمع الذى جعل يأخذ شخصيته الخاصة ويتعلق به الأفراد تعلقاً وتمتعاً ، فلم يعودوا أولئك الأفراد المبعثرين ولا تلك القبائل المتناثرة إنما عادوا أمة لها كيان ونظام ، ويهم كلَّ فرد فيه أن يعرف خطوطه وارتباطاته فى هذا المجتمع الجديد ، وهى حالة جديدة أنشأها الإسلام فى معانى القيادة الجديدة حالة نماء اجتماعى وفكرى لم يعرفها المجتمع قبل ذلك .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَآ أُحِلَّ لَهُمْۖ قُلْ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۙ وَمَا عَلَّمْتُم مِّنَ ٱلْجَوَارِحِ مُكَلِّبِينَ تُعَلِّمُونَهُنَّ مِمَّا عَلَّمَكُمُ ٱللَّهُۖ فَكُلُوا۟ مِمَّآ أَمْسَكْنَ عَلَيْكُمْ وَٱذْكُرُوا۟ ٱسْمَ ٱللَّهِ عَلَيْهِۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿٤﴾ المائدة : ٤ .

والناظر فى تاريخ هذه الحقبة يلمس التغيير العميق الذى أحدثه الإسلام فى هذا المجتمع المتطور ، لقد هزه هزاً عنيفاً نفض عنها كل رواسب الجاهلية . لقد أشعر المسلمين ــ الذين التقطهم من سفح الجاهلية ليرتفع بهم إلى القمة السامقة ــ إنهم يولدون من جديد ، وينشأون من جديد ، كما جعلهم يحسون إحساساً عميقاً بفخامة النقلة ، وعظمة الوثبة ، وجلال المرتقى ، وجزالة النعمة ، فأصبح همهم أن يتكيفوا وفق هذا المنهج الربانى الذى لمسوا بركته عليهم .. وكان التحرج والتوجس من كل ما ألفوه فى الجاهلية هو ثمرة هذا الشعور العميق ، وثمرة تلك الهزة العنيفة .

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٦٥ .

ولذلك راحوا يسألون الرسول ﷺ — بعد ما سمعوا آيات التحريم : ﴿ ماذا أحل لهم ؟ ﴾ ليكونوا على يقين من حِلّه قبل أن يقربوه ، وجاءهم الجواب : ﴿ قل أحِل لكم الطيبات ﴾ فلم يحرم عليهم إلا الخبائث كالميتة والدم ولحم الخنزير(١) .

وجاء فى سورة الأعراف فى صفة محمد ﷺ أنه يحل لهم الطيبات ويحرم عليهم الخبائث ، عن عدى بن أبى حاتم وزيد بن مهلهل الطائيين سألا رسول الله ﷺ : يا رسول الله ، قد حرم الله الميتة فماذا يحل لنا منها ؟ فنزلت : ﴿ يسألونك ماذا أحل لهم قل أحل لكم الطيبات ﴾ (٢) .

إن هذا السؤال من الذين آمنوا يصور حالة نفسية لتلك البيئة الجديدة التى سعدت بخطاب الله لها أول مرة ، ومن ثم توالت الأسئلة :

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾ النساء : ١٢٧ .

قالت عائشة : هو الرجل تكون عنده اليتيمة هو وليها ووارثها فأشركته فى ماله حتى فى العذق ، فيرغب أن ينكحها ، ويكره أن يزوجها رجلا ، فيشركه فى ماله بما شركته ، فنزلت هذه الآية .

لقد أثارت الآيات التى نزلت فى أوائل السورة من النساء أسئلة واستفتاءات فى بعض شأنهن .. وظاهرة سؤال المسلمين واستفتائهم فى بعض الأحكام ، ظاهرة لها دلالتها فى المجتمع المتطور الجديد وفى رغبة

---

(١) الظلال ج ٢ ص ٨٤٦ بتصرف .

(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٢٤ .

المسلمين فى معرفة أحكام دينهم فيما يتعلق بشؤون حياتهم مخافة أن يكون الإسلام قد نسخه أو عدله .

لقد كان بالقوم حاجة إلى معرفة أحكام دينهم ، لأنها هى التى تُكوِّن نظام حياتهم الجديدة ، مع شدة إحساسهم بقيمة هذا التغير الكامل الذى أنشأه الإسلام فى حياتهم — وهنا نجد جزاء تطلعهم معه وصدق عزيمتهم على الأتباع بأنه سبحانه — بذاته العلية — يتولى إفتاءهم فيما يستفتون فيه : ﴿ **يستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن ..** ﴾ .

« وظاهر من هذه النصوص ، ومن النص القرآنى ما كان عليه الحال فى الجاهلية فيما يختص بالفتيات اليتيمات . فقد كانت اليتيمات تلقى من وليها الطمع والغبن : الطمع فى مالها ، والغبن فى مهرها ، إن هو تزوجها ، فيأكل مهرها ، ويأكل مالها ، والغبن إن لم يتزوجها كراهية لها ، لأنها دميمة ، ومنعها أن تتزوج حتى لا يشاركه زوجها فيما تحت يده من مالها ، وكذلك الحال فى الولدان الصغار والنساء ، إذ كن يحرمن من الميراث ، لأنهن لا يملكن قوة أو أنهن غير محاربين ، فالنقلة من إقامة حقوق الإرث والملك على أساس حق المحارب إلى إقامتها على أساس الحق الإنسانى وإعطاء الطفل واليتيمة والمرأة حقوقهم لصفتهم الإنسانية لا بصفتهم محاربين .. هذه النقلة ظاهرة علمية جديدة لتطوير المجتمع الجديد ، وقد وردت أسئلة أخرى فى موضوعات متنوعة فى سور أخرى من القرآن ، وهذه الأسئلة ذات دلالات شتى فهى :

أولا : دليل تفتح وحيوية ونمو فى صور الحياة المختلفة ، وهى :

ثانياً : دليل على يقظة الحس الدينى وتغلغل العقيدة الجديدة وسيطرتها على النفوس مما يجعل كل أحد يتحرج أن يأتى أمراً فى حياته اليومية قبل أن يستوثق من رأس العقيدة والقيادة النبوية :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا
عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ

حَفِيٌّ عَنْهَا قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ اللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ النَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ الأعراف : ١٨٧ .

قال ابن عباس : لما سأل النبي ﷺ عن الساعة سألوه سؤال قوم كأنهم يرون أن محمداً حفي بهم ، فأوحى الله إليه إنما علمها عنده استأثر به فلم يطلع الله عليها ملكاً مقرباً ولا رسولًا (٢) .

وتوالت الأسئلة وتنوعت :

يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْأَنفَالِ ۖ قُلِ الْأَنفَالُ لِلَّهِ وَالرَّسُولِ ۖ الأنفال : ١ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَنِ الرُّوحِ ۖ قُلِ الرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّي الإسراء : ٨٥ .

وَيَسْأَلُونَكَ عَن ذِي الْقَرْنَيْنِ ۖ قُلْ سَأَتْلُو عَلَيْكُم مِّنْهُ ذِكْرًا ﴿٨٣﴾ الكهف : ٨٣ .

۞ يَسْأَلُونَكَ عَنِ الْخَمْرِ وَالْمَيْسِرِ ۖ قُلْ فِيهِمَا إِثْمٌ كَبِيرٌ وَمَنَافِعُ لِلنَّاسِ وَإِثْمُهُمَا أَكْبَرُ مِن نَّفْعِهِمَا ۗ وَيَسْأَلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلِ الْعَفْوَ ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ اللَّهُ لَكُمُ الْآيَاتِ لَعَلَّكُمْ تَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١٩﴾ البقرة : ٢١٩

وظاهرة الأسئلة تدل على الحالة الشعورية الجديدة التى منشؤها الإيمان الحق ، عندئذ تتجرد النفس من كل مقرراتها السابقة وكل مألوفاتها ، وتقف موقف الحذر من كل ما كانت تأتيه من جاهليتها ، ويكون المجتمع على قدم الاستعداد لتلقى كل توجيه من العقيدة الجديدة ليصوغ حياته الجديدة على

(١) راجع الظلال م ٢ ص ٧٦٦ ، ٧٦٧

(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٤٢٩ .

أساسها مبرأة من كل شائبة ، فإذا تلقى من العقيدة الجديدة توجيهاً يقر بعض جزئيات من عاداتهم القديمة تلقاه جديداً مرتبطاً بالتصور الجديد ، كما صنع الإسلام بشعائر الحج ، فقد أصبحت تنبثق من التصور الإسلامى الصحيح ، كالوقوف بعرفة ، والسعي بين الصفا والمروة ، والطواف بالبيت العتيق . كل هذه الأحكام تلقتها الأمة مرتبطة بالتصور الجديد ، وأصبح شعاراً جديداً وعبادة محببة فى ضوء المفاهيم الربانية المباركة (١) .

من هنا يتبدى للباحث المدقق ملمح مهم يتعلق بهذه الظاهرة الفكرية والأسلوبية تبرز مدى تفاعل المسلم مع الرسالة الجديدة التى زلزلت كثيراً من التصورات القديمة وغيبتها وأصبحت مهيأة تماماً لاستيعاب المفاهيم والقيم والتوجيهات التى من شأنها أن تعيد صياغة هذا المجتمع وفق تصور جديد ينبثق من صميم البنية التكوينية المثالية التى تسعى الرسالة إلى ترسيخها وإرساء دعائمها .

(ب) التربية بالموعظــة :

لقد سلك الإسلام للتربية الجماعية طرقاً عديدة منها الموعظة ، لأنها تفتح طريقها على النفس مباشرة عن طريق الوجدان ، والموعظة الحسنة تتجاوب مع القلب والنفس إذا كان بجانبها القدوة والمجتمع الذى يسمح باحتذاء القدوة ، ويشجع على الأسوة بها ، فالقدوة الملموسة هى التى تعلق المشاعر ولا تتركها تهبط إلى القاع ، تسكن بلا حراك ، والآيات القرآنية مليئة بالمواعظ والتوجيهات الحسنة :

* ﴿إِنَّ ٱللَّهَ يَأْمُرُكُمْ أَن تُؤَدُّوا۟ ٱلْأَمَـٰنَـٰتِ إِلَىٰٓ أَهْلِهَا وَإِذَا حَكَمْتُم بَيْنَ ٱلنَّاسِ أَن تَحْكُمُوا۟ بِٱلْعَدْلِ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ نِعِمَّا يَعِظُكُم بِهِۦٓ﴾ النساء : ٥٨ .

(١) الظلال م ١ ص ١٧٩ ــ باختصار وتصرف .

* وَٱعْبُدُواْ ٱللَّهَ وَلَا تُشْرِكُواْ بِهِۦ شَيْـًٔاۖ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَٰنًا وَبِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱلْجَارِ ذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْجَارِ ٱلْجُنُبِ وَٱلصَّاحِبِ بِٱلْجَنۢبِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

النساء : ٣٦ .

وَإِذْ قَالَ لُقْمَٰنُ لِٱبْنِهِۦ وَهُوَ يَعِظُهُۥ يَٰبُنَىَّ لَا تُشْرِكْ بِٱللَّهِۖ إِنَّ ٱلشِّرْكَ لَظُلْمٌ عَظِيمٌ ﴿١٣﴾ وَوَصَّيْنَا ٱلْإِنسَٰنَ بِوَٰلِدَيْهِ حَمَلَتْهُ أُمُّهُۥ وَهْنًا عَلَىٰ وَهْنٍ وَفِصَٰلُهُۥ فِى عَامَيْنِ أَنِ ٱشْكُرْ لِى وَلِوَٰلِدَيْكَ إِلَىَّ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٤﴾

لقمان : ١٣ ــ ١٤ .

وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَوْلَٰدَكُمْ خَشْيَةَ إِمْلَٰقٍۖ نَّحْنُ نَرْزُقُهُمْ وَإِيَّاكُمْۚ إِنَّ قَتْلَهُمْ كَانَ خِطْـًٔا كَبِيرًا ﴿٣١﴾ وَلَا تَقْرَبُواْ ٱلزِّنَىٰٓۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ وَلَا تَقْتُلُواْ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِى حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّۗ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِۦ سُلْطَٰنًا فَلَا يُسْرِف فِّى ٱلْقَتْلِۖ إِنَّهُۥ كَانَ مَنصُورًا ﴿٣٣﴾

الإسراء : ٣١ ــ ٣٣ .

وهذه مجرد نماذج من الوعظ .. وإلا فالقرآن كله موعظة للمتقين(١) . ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾(٢) .

(ج) التربية بالعقوبة :

التربية بالموعظة وبالقدوة وبالحكمة مطلوبة ومحببة وهى الخطوة الأولى والوسيلة المثلى التى اختار الله تعالى لهذا المجتمع المدنى الجديد ، ولكن حين لا تفلح القدوة ولا تفلح الموعظة ، فلا بد إذاً من علاج حاسم وهو العقوبة .

وَمَنْ أَحْسَنُ قَوْلًا مِّمَّن دَعَا إِلَى ٱللَّهِ وَعَمِلَ صَٰلِحًا وَقَالَ إِنَّنِي مِنَ ٱلْمُسْلِمِينَ ﴿٣٣﴾ وَلَا تَسْتَوِى ٱلْحَسَنَةُ وَلَا ٱلسَّيِّئَةُ ۚ ٱدْفَعْ بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ فَإِذَا ٱلَّذِى بَيْنَكَ وَبَيْنَهُۥ عَدَٰوَةٌ كَأَنَّهُۥ وَلِىٌّ حَمِيمٌ ﴿٣٤﴾ فصلت : ٣٣ ـ ٣٤ .

ٱدْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِٱلْحِكْمَةِ وَٱلْمَوْعِظَةِ ٱلْحَسَنَةِ ۖ وَجَٰدِلْهُم بِٱلَّتِى هِىَ أَحْسَنُ ۚ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِۦ ۖ وَهُوَ أَعْلَمُ بِٱلْمُهْتَدِينَ ﴿١٢٥﴾ النحل : ١٢٥

وَٱصْبِرْ عَلَىٰ مَا يَقُولُونَ وَٱهْجُرْهُمْ هَجْرًا جَمِيلًا ﴿١٠﴾ المزمل : ١٠

والإسلام يتبع جميع وسائل التربية ، فلا يترك منفذاً فى النفس لا يصل إليه ، إنه يستخدم القدوة والموعظة والترغيب والثواب ، ولكنه كذلك يستخدم التخويف والترهيب متدرجاً مراعياً ظروف التطور .

---

(١) منهج التربية الإسلامية محمد قطب ص ٢٣٠ ـ ٢٣١ ، ٢٣٢ بتصرف .
(٢) آل عمران : ١٣٨ .

التهديد :

المرحلة الأولى يهدد بعدم رضى الله ، وذلك أيسر التهديد :

* أَلَمْ يَأْنِ لِلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَن تَخْشَعَ قُلُوبُهُمْ لِذِكْرِ ٱللَّهِ وَمَا نَزَلَ مِنَ ٱلْحَقِّ وَلَا يَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ مِن قَبْلُ فَطَالَ عَلَيْهِمُ ٱلْأَمَدُ فَقَسَتْ قُلُوبُهُمْ ۖ وَكَثِيرٌ مِّنْهُمْ فَٰسِقُونَ ﴿١٦﴾ الحديد ١٦

وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ النور : ١٤ ــ ١٧ .

وهذا تهديد خفيف ، وإن كان فعله شديداً فى نفوس المؤمنين ، ولكن الخطوة الثانية تشمل التهديد بغضب الله صراحة :

عقاب الآخرة :

والخطوة التى بعدها تشمل التهديد بعقاب الآخرة :

وَٱلَّذِينَ لَا يَدْعُونَ مَعَ ٱللَّهِ إِلَـٰهًا ءَاخَرَ وَلَا يَقْتُلُونَ ٱلنَّفْسَ ٱلَّتِي حَرَّمَ ٱللَّهُ إِلَّا بِٱلْحَقِّ وَلَا يَزْنُونَ ۚ وَمَن يَفْعَلْ ذَٰلِكَ يَلْقَ أَثَامًا ﴿٦٨﴾ يُضَٰعَفْ لَهُ ٱلْعَذَابُ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ وَيَخْلُدْ فِيهِۦ مُهَانًا ﴿٦٩﴾

الفرقان ٦٨ ــ ٦٩

عقاب الدنيا :

ثم يهدد بالعقاب فى الدنيا : ﴿ **إلا تنفروا يعذبكم عذاباً أليماً ويستبدل قوماً غيركم** ﴾ التوبة : ٣٩

﴿ إنما يريد الله ليعذبهم بها فى الحياة الدنيا ﴾ التوبة : ٥٥

العقاب والقصاص :

إِنَّمَا جَزَٰٓؤُاْ ٱلَّذِينَ يُحَارِبُونَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ وَيَسْعَوْنَ فِى ٱلْأَرْضِ فَسَادًا أَن يُقَتَّلُوٓاْ أَوْ يُصَلَّبُوٓاْ أَوْ تُقَطَّعَ أَيْدِيهِمْ وَأَرْجُلُهُم مِّنْ خِلَٰفٍ أَوْ يُنفَوْاْ مِنَ ٱلْأَرْضِ ۚ ذَٰلِكَ لَهُمْ خِزْىٌ فِى ٱلدُّنْيَا ۖ وَلَهُمْ فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿٣٣﴾

المائدة : ٣٣

وَٱلسَّارِقُ وَٱلسَّارِقَةُ فَٱقْطَعُوٓاْ أَيْدِيَهُمَا جَزَآءًۢ بِمَا كَسَبَا نَكَٰلًا مِّنَ ٱللَّهِ ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٣٨﴾

المائدة : ٣٨

لقد صان الإسلام بتشريعه الخـــالد كرامة الإنسان وجعل الاعتداء على النفس أو المال أو العرض جريمة خطيرة ، تستوجب أشد أنواع

العقوبات ، فالبغى فى الأرض بالقتل والسلب والاعتداء على الآمنين بسرقة الأموال ، كل هذه جرائم ينبغى معالجتها بشدة وصرامة حتى لا يكون هناك ما يخل بأمن الأفراد والمجتمعات(١) .

وهذه العقوبات المذكورة تعتبر بحق رادعة زاجرة ، تقتلع الشر من جذوره ، وتقضى على الجريمة فى مهدها ، وتجعل الناس فى أمن وطمأنينة .

روى أن ناساً من « عرينة » قدموا المدينة فاجتووها . فبعثهم رسول الله ﷺ إلى إبل الصدقة ، وأمرهم أن يشربوا من ألبانها وأبوالها ، ففعلوا ، فصحوا ، وارتدوا عن الإسلام ، وقتلوا الراعى ، واستاقوا الإبل ، فأرسل رسول الله ﷺ فى آثارهم ، فجىء بهم ، فقطع أيديهم وأرجلهم من خلاف ، وسمل أعينهم ، وألقاهم بالحرة ، حتى ماتوا ، فنزلت هذه الآية :
﴿ **إنما جزاء لذين يحاربون الله ورسوله** ... ﴾(٢) .

وهكذا كانت تتفاوت العقوبة بين موقف وآخر بحيث تكون متسقة مع نوع الجريمة المرتكبة منسجمة مع مقتضيات الدلالة المرادة والهدف المقصود ، فالأمر يتعلق بالبناء والتأسيس وإعادة الصياغة والتشكيل ، فيوزن بميزان العدل والحكمة ردعاً للمعتدى ، والذى يوشك أن يقوض الدعائم التى جهدت الرسالة فى إقامتها وتشييدها ، فالحسم شأن من شئون الدعوات الكبرى ، والحزم ظاهرة ملازمة لكل تحول على هذا المستوى العظيم الذى تنعطف فيه تواريخ الأمم ، وتتحدد مساراتها فى مسالك جديدة .

وقد كان حرص الإسلام شديداً على وضع خطة بينة محكمة تتلافى الثغرات ، وتتفادى النقص عبر توجه تربوى مدروس يأخذ بعين الاعتبار نوازع الفطرة ، وجموح النزوة ، وتمرد الغرائز ، فأقام الضوابط ، وحدد العقوبات ، وأبان الجادة فى غير لبس ولا مظنة ولا تفريط ، فكان لذلك كله أثره العميق فى صياغة المجتمع المنتظر الجديد .

---

(١) روائع البيان ــ لمحمد على الصابونى ج ١ ص ٥٥٦ .
(٢) روائع البيان لمحمد على الصابونى ج ١ ص ٥٤٨ .

الفصل الثانى

التربية بالأحداث (الوسائل العملية)

١ — تقسيم الغنائم (تطوره وتنظيمه) .

٢ — غزوة الأحزاب وأثرها فى تربية الشخصية الإسلامية .

٣ — حادثة زواج زينب بنت جحش وإبطال عادة جاهلية .

٤ — حادثة الظهار وإبطال عادة جاهلية .

٥ — حد القذف وحكم اللعان وحماية العلاقات الزوجية .

٦ — حادثة الإفك واهتزاز المجتمع المدنى بأسره . ومنهج القرآن فى مواجهة الشائعات .

٧ — غزوة تبوك وحادثة الثلاثة الذين خُلِّفوا .

* * *



(الآيات تتحدث عن التطور والتنظيم فى تقسيم الغنائم)

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْأَنفَالِ ۖ قُلِ ٱلْأَنفَالُ لِلَّهِ وَٱلرَّسُولِ ۖ فَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَأَصْلِحُوا۟ ذَاتَ بَيْنِكُمْ ۖ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١﴾ إِنَّمَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلَّذِينَ إِذَا ذُكِرَ ٱللَّهُ وَجِلَتْ قُلُوبُهُمْ وَإِذَا تُلِيَتْ عَلَيْهِمْ ءَايَٰتُهُۥ زَادَتْهُمْ إِيمَٰنًا وَعَلَىٰ رَبِّهِمْ يَتَوَكَّلُونَ ﴿٢﴾ ٱلَّذِينَ يُقِيمُونَ ٱلصَّلَوٰةَ وَمِمَّا رَزَقْنَٰهُمْ يُنفِقُونَ ﴿٣﴾

الأنفال : ١ ــ ٣

* وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ إِن كُنتُمْ ءَامَنتُم بِٱللَّهِ وَمَآ أَنزَلْنَا عَلَىٰ عَبْدِنَا يَوْمَ ٱلْفُرْقَانِ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٤١﴾

الأنفال : ٤١

وَمَآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْهُمْ فَمَآ أَوْجَفْتُمْ عَلَيْهِ مِنْ خَيْلٍ وَلَا رِكَابٍ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُسَلِّطُ رُسُلَهُۥ عَلَىٰ مَن يَشَآءُ ۚ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٦﴾ مَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَىٰ رَسُولِهِۦ مِنْ أَهْلِ ٱلْقُرَىٰ فَلِلَّهِ وَلِلرَّسُولِ وَلِذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ

كَيْ لَا يَكُونَ دُولَةً بَيْنَ الْأَغْنِيَاءِ مِنكُمْ ۚ وَمَا آتَاكُمُ الرَّسُولُ فَخُذُوهُ وَمَا نَهَاكُمْ عَنْهُ فَانتَهُوا ۚ وَاتَّقُوا اللَّهَ ۖ إِنَّ اللَّهَ شَدِيدُ الْعِقَابِ ﴿٧﴾ لِلْفُقَرَاءِ الْمُهَاجِرِينَ الَّذِينَ أُخْرِجُوا مِن دِيَارِهِمْ وَأَمْوَالِهِمْ يَبْتَغُونَ فَضْلًا مِّنَ اللَّهِ وَرِضْوَانًا وَيَنصُرُونَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ ۚ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿٨﴾

الحشر : ٦ ــ ٨ .

* * *

(١) تقسيم الغنائم (تطوره وتنظيمه) :

﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول فاتقوا الله وأصلحوا ذات بينكم وأطيعوا الله ورسوله إن كنتم مؤمنين** ﴾(١) قال الإمام أحمد : عن عبادة بن الصامت قال : خرجنا مع رسول الله ﷺ فشهدت معه بدراً ، فالتقى الناس ، فهزم الله تعالى العدو ، فانطلقت طائفة فى آثارهم يهزمون ويقتلون ، وأقبلت طائفة على العسكر يحوزونه ويجمعونه ، وأحدقت طائفة برسول الله ﷺ لا يصيب العدو منه غرة حتى إذا كان الليل وفاء الناس بعضهم إلى بعض ، قال الذين جمعوا الغنائم : نحن حويناها فليس لأحد منها نصيب ، وقال الذين خرجوا فى طلب العدو : لستم بأحق منا ، نحن منعنا عن العدو وهزمناهم ، وقال الذين أحدقوا برسول الله ﷺ : خفنا أن يصيب العدو منه غرة فاشتغلنا به ، فنزلت : ﴿ **يسألونك عن الأنفال قل الأنفال لله والرسول** ..... ﴾ فقسمها يوم بدر على ما أراه الله من غير أن يخمسها فذلك النفل الذى أحله الله للمؤمنين من أموال عدوهم(٢) .

وقد كانت الغنائم محرمة على الأمم السابقة ، فأحلها الله لهذه الأمة رحمة بها وتيسيراً عليها ، وعوناً لها على الجهاد فى سبيل الله . وقد قال ﷺ : « **أحلت لى الغنائم ولم تحل لأحد قبلى** » فلا تختلفوا أيها المؤمنون فى شأنها ولا تتنازعوا فى أمرها وأطيعوا الله ورسوله (٣) .

والذى يهمنا هنا هو ظاهرة التطور فى تقسيم الغنائم وما طرأ على الأفق الاجتماعى من مظاهر التربية من خلال الأحداث . لقد كانت الأنفال

---

(١) الأنفال : ١ .

(٢) تفسير القرآن العظيم لابن كثير م ٢ ص ٤٤٩ ـــ ط ١٩٨٦ تخريج حسين بن إبراهيم زهراني .

(٣) روائع البيان لمحمد على الصابونى ج ١ ص ٥٩ .

مرتبطة فى الوقت ذاته بحسن البلاء فى المعركة وكانت بذلك شهادة على حسن البلاء ، وكان الناس يومئذ حريصينَ على هذه الشهادة من رسول الله ﷺ ومن الله سبحانه وتعالى ، ولقد غطى هذا الحرص وغلب على أمر آخر نسيه من تكلموا فى الأنفال حتى ذكَّرهم الله سبحانه به ، وكانت خطوة أولى فى هذا المجال بالتربية الربانية قولا وعملا نزع أمر الأنفال كله منهم ورده إلى رسول الله ﷺ حتى أنزل حكمه فى قسمة الغنائم بجملتها ، فلم يعد الأمر حقاً لهم يتنازعون عليه ، إنما أصبح فضلا من الله عليهم يقسمه رسول الله ﷺ بينهم كما علَّمه ربه ليخلص الأمر كله لله ورسوله ، وليتجرد المجاهدون من كل ملابسة من ملابسات الأرض ، وليسلموا أمرهم كله أوله وآخره لله ربهم وللرسول قائدهم ، وليخوضوا المعركة لله وفى سبيل الله (١) .

خطوة أخرى فى مسألة الغنائم :

ثم حدث تطور جديد بعد غزوة بدر فى مسألة الغنائم ارتبط بوقعة بنى النضير فى أوائل السنة الرابعة من الهجرة بعد غزوة أحد وقبل غزوة الأحزاب . أما ابن إسحاق فقد ذكر أنها فى سنة أربع من الهجرة (٢) .

ومما يذكر عنها أن رسول الله ﷺ ذهب مع عشرة من كبار أصحابه منهم أبو بكر وعمر وعلى رضى الله عنهم فى محلة بنى النضير يطلب منهم المشاركة فى أداء دية قتيلين بحكم ما كان بينهم وبينه من عهد فى أول مقدمه على المدينة ، فاستقبله يهود بنى النضير بالبشر والترحاب ، ووعدوا بأداء ما عليهم ، بينما كانوا يدبرون أمراً لاغتيال رسول الله ﷺ ومن معه ، وكان ﷺ جالساً إلى جدار من بيوتهم فقال بعضهم لبعض : أفمن رجل يعلو هذا البيت فيلقى عليه صخرة فيريحنا منه ؟ فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعاً إلى المدينة . وأمر رسول الله ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم لظهور الخيانة منهم ونقض عهد الإيمان

(١) ظلال القرآن م ٣ ص ١٥٣٠ .
(٢) السيرة لابن هشام ج ٣ ص ٦٨٣ .

الذى بينه وبينهم (١) وفق القاعدة القرآنية : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ (٢) فتجهز رسول الله ﷺ وحاصر محلة بنى النضير ، وقد صح أن رسول الله ﷺ جاهدهم بالكتائب وقال لهم :« **إنكم لا تأمنون عندى إلا بعهد تعاهدوننى عليه**»، فأبوا أن يعطوه عهداً ، فقاتلهم يومهم ذلك هو والمسلمون ، وقذف الله فى قلوبهم الرعب ، وسألوا رسول الله ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت من أموالهم إلا الحلقة (*) ، ففعل ، فاحتملوا من أموالهم ما استقلت به الإبل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف (*) بابه ويضعه على ظهر بعيره ليخرجوا إلى خيبر ، ومنهم من سار إلى الشام (٣) .

وكانت أموال بنى النضير فيئاً خالصاً لله وللرسول لأن ديارهم فُتحت صلحاً ولم يوجف المسلمون عليها بخيل ولا إبل ، فقسمها رسول الله ﷺ على المهاجرين خاصة دون الأنصار (٤) عدا رجلين من الأنصار فقيرين هما سهل بن حنيف وأبو دجانة سماك بن خرشة ، وذلك أن المهاجرين لم يكن لهم مال بعد الذى تركوه فى مكة ، وتجردوا منه لعقيدتهم وكان الأنصار قد أنزلوهم دورهم وشاركوهم مالهم فى أريحية عالية وأخوة صادقة وإيثار عجيب ، فلما حانت هذه الفرصة قسم النبى ﷺ الأموال بين المهاجرين ليرفع بذلك مؤنتهم عن الأنصار (٥) كى يكون للفقراء مال خاص ، وكى لا يكون المال متداولا بين الأغنياء وحدهم ، (ولم يعط من الأنصار إلا الفقيرين اللذين يستحقان لفقرهما) .

---

(١) عيون الأثر م ٢ ص ٦٧ ط الأولى ، والروض الأنف ج ٣ ص ٢٤٠ تحقيق طه عبد الرؤوف .

(٢) الأنفال : ٨ .

(*) الحلقة : السلاح كله وجمعه حلق : الدروع .

(*) النّجاف : عتبة العتبة .

(٣) الروض الأنف : ج ٣ ص ٢٤١ .

(٤) عيون الأثر م ٢ ص ٧٠ والروض الأنف ج ٣ ص ٢٤١ .

(٥) الروض الأنف ج ٢ ص ٢٥٠ .

وتكلم فى أموال بنى النضير بعض من تكلم فقال تعالى : ﴿ **وما أفاء الله على رسوله منهم فما أوجفتم عليه من خيل ولا ركاب ولكن الله يسلط رسله على من يشاء والله على كل شيء قدير** ﴾ (١) . وقال رسول الله ﷺ للأنصار : « **إن شئتم قسمتم للمهاجرين من أموالكم ودياركم وشاركتموهم فى هذه الغنيمة ، وإن شئتم كانت لكم دياركم وأموالكم ولم يقسم لكم شيء من الغنيمة . فقالت الأنصار : بل نقسم من أموالنا وديارنا ونؤثرهم بالغنيمة ولا نشاركهم فيها** » (٢) . وفى هذا نزل قوله تعالى : ﴿ **للفقراء المهاجرين الذين أخرجوا من ديارهم وأموالهم يبتغون فضلًا من الله ورضواناً وينصرون الله ورسوله أولئك هم الصادقون** ﴾ (٣) .

وقد ذكر القرطبى أقوالا عديدة على لسان المفسرين تبين تقسيم الفيء وتطوره وتبين أحقية المهاجرين وأفضليتهم فى هذا المجال ، فقال : « الفيء والغنائم للفقراء المهاجرين » ، وقيل : « كى لا يكون دولة بين الأغنياء ولكن يكون « للفقراء » .

قال قتادة : هؤلاء المهاجرون الذين تركوا الديار والأموال والأهلين والأوطان حباً لله ولرسوله ، حتى إن الرجل منهم كان يعصب الحجر على بطنه ليقيم به صلبه من الجوع ، وكان الرجل يتخذ الحفيرة فى الشتاء ماله دثار غيرها . وقال عبد الرحمن بن أبزى وسعيد بن جبير : كان ناس من المهاجرين لأحدهم العبد والزوجة والدار والناقة يحج عليها ويغزو ، فنسبهم الله إلى الفقر وجعل لهم سهماً فى الزكاة .

وروي أن عمر بن الخطاب خطب بالجابية فقال : من أراد أن يسأل عن المال فليأتني ، فإن الله تعالى جعلنى له خازناً وقاسماً . ألا وإنى بادٍ

---

(١) الحشر : ٦ .

(٢) الظلال م ٦ ص ٣٥٢٠ .

(٣) الحشر : ٨ .

بأزواج النبى ﷺ فمعطيهن ، ثم المهاجرين الأولين ، أنا وأصحابى أخرجنا من مكة من ديارنا وأموالنا (١) .

وفى مسألة الغنائم هذه ما يشير إلى تطور جديد فى تشكيل المجتمع على المستوى الاقتصادى والمستوى التربوى ، ويبين النظرة الشاملة المتوازنة التى نظر بها الإسلام إلى هذه الناحية ، ففى إيثار المهاجرين بالغنائم ما يوحى بالنزعة العملية المدروسة فى معالجة الأمور ، وأخذ المشكلات التى يفرزها الواقع بعين الاعتبار عند التقرير أو التوجيه أو التنفيذ وفى ذلك ما يومىء إلى سد الذرائع التى يمكن أن يلجأ إليها المنافقون أو توسوس به هواجسهم عن سبب هذا الإيثار ، فإبراز الجانب العملى الذى تضمنته أحاديث الرسول والآيات الكريمة التى جاءت مؤيدة لها بهذا الصدد ما يؤكد عمق النظرة ودقتها وواقعيتها ، وما يبرز الدور الجليل الذى أدته الآيات القرآنية الكريمة المتعلقة بهذه المناسبة فى تكوين مجتمع متوازن تختفى فيه الفوارق الطبقية ، وترتفع فيه العلاقات الاجتماعية عن مظنة التواكل والاستسلام لمعطيات المرحلة الاستثنائية التى مر بها المهاجرون الذين يشكلون شريحة هامة وقائدة لا يتناسب دورها القيادى وما قدمته من تضحية فى سبيل الدعوة مع بقائها عالة على غيرها من الأنصار فهيأ لها الله من الأسباب ما حفظ لها مكانتها ورسَّخ زعامتها وأبرز القيمة الرفيعة التى تجلت فى التكافل بين المهاجرين والأنصار على أنها مرهونة بظرف طارىء ما لبث أن زال .

* * *

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٨ ص ٢١ ، ٢٢ ط ١٩٦٧ م ـــ القاهرة .

(٢) غزوة الأحزاب شوال سنة خمس
وأثرها فى تربية الشخصية الإسلامية

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟

ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَةَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ جَآءَتْكُمْ جُنُودٌ فَأَرْسَلْنَا عَلَيْهِمْ

رِيحًا وَجُنُودًا لَّمْ تَرَوْهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرًا ﴿٩﴾

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ

ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ

ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا

شَدِيدًا ﴿١١﴾ وَإِذْ يَقُولُ ٱلْمُنَـٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥٓ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت

طَّآئِفَةٌ مِّنْهُمْ يَـٰٓأَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَٱرْجِعُوا۟ ۚ

وَيَسْتَـْٔذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ ٱلنَّبِىَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا

هِىَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾ الأحزاب : ٩ ـــ ١٣

لَّقَدْ كَانَ لَكُمْ فِى رَسُولِ ٱللَّهِ أُسْوَةٌ حَسَنَةٌ

لِّمَن كَانَ يَرْجُوا۟ ٱللَّهَ وَٱلْيَوْمَ ٱلْـَٔاخِرَ وَذَكَرَ ٱللَّهَ كَثِيرًا ﴿٢١﴾

وَلَمَّا رَءَا ٱلْمُؤْمِنُونَ ٱلْأَحْزَابَ قَالُوا۟ هَـٰذَا مَا وَعَدَنَا ٱللَّهُ

وَرَسُولُهُۥ وَصَدَقَ ٱللَّهُ وَرَسُولُهُۥ ۚ وَمَا زَادَهُمْ إِلَّآ إِيمَـٰنًا

وَتَسْلِيمًا ﴿٢٢﴾ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ رِجَالٌ صَدَقُوا۟ مَا عَٰهَدُوا۟ ٱللَّهَ عَلَيْهِ ۖ فَمِنْهُم مَّن قَضَىٰ نَحْبَهُۥ وَمِنْهُم مَّن يَنتَظِرُ ۖ وَمَا بَدَّلُوا۟ تَبْدِيلًا ﴿٢٣﴾ الأحزاب : ٢١ — ٢٣ .

غزوة الأحزاب حادثة حيوية تلقى أضواء كاشفه على جنبات المجتمع المدنى وتبين مواقف الكفار والمنافقين واليهود الذين بدأوا يشكلون أقلية خطيرة فى هذا المجتمع المدنى النامى ، كما تبين دسائسهم وكيدهم للمسلمين والتأثير فى أخلاقهم وآدابهم وبيوتهم ونسائهم ، وسعي هذه الفئات لإيقاع الاضطراب فى صفوف هذا المجتمع سواء عن طريق الهجوم الحربى والإرجاف فى الصفوف والدعوة إلى الهزيمة ، أو عن طريق خلخلة الأوضاع الاجتماعية والآداب الخلقية .

« أقبلت قوات الأحزاب — وكانت تبلغ حوالى عشرة آلاف مقاتل — وعسكرت قريباً من المدينة فى الجهات الممتدة شمالا » (١) ولم يكن هذا العدد وحصار المشركين وحده هو الذى يضيق الخناق على المسلمين ، بل كان هناك فى الداخل ما يزيدهم إرهاقاً وخوفاً ، الأقوات القليلة المتناقصة يوماً بعد يوم والبرد القارس فى ليالى الشتاء الطويلة (٢) . والحرب النفسية العاتية التى شنتها جيوب المنافقين فى صفوف المسلمين مخذلة معوقة مخوفة والسهر القاسى فى الليالى الطويلة ثم جاء انتقاض بنى قريظة علامة خطر فعظم البلاء واشتد الخوف ، حتى إن الرسول ﷺ لم يكن يسمح لأحد من أصحابه بالتوجه إلى داخل المدينة إلا وهو يحمل سلاحه حذراً من غدر بنى قريظة (٣) .

إن طريقة القرآن الكريم فى مثل هذه الأحداث والوقائع التى يتخذ منها وسيلة لبناء النفوس وتزكيتها وتقرير القيم ووضع الموازين ، وإنشاء التصورات والمفاهيم التى يريد لها أن تسود فى هذا المجتمع النامى أن يرسم الحركة التى وقعت ، ويرسم معها المشاعر الظاهرة والباطنة ، ويسلط عليها الأضواء التى

---

(١) دراسة فى السيرة لعماد الدين خليل ص ٢١٢ .
(٢) انظر الواقدى ٤٦٣/٢ ، ٤٧٥ ، ٤٧٦ .
(٣) انظر الواقدى ٤٧٤/٢ .

تكشف زواياها وخباياها ، ثم يعلن للمؤمنين حكمه على ما وقع وتقويمه لما كان من خطأ أو عوج ، وثناؤه على ما نبت أو رسخ من صواب واستقامة ، وتوجيهه لتدارك الخطأ والانحراف ، وربط هذا كله بقدر الله وإرادته ، وبفطرة النفس ونواميس الوجود .

تبدأ الآيات بتذكير المؤمنين بنعمة الله تعالى عليهم أن ردَّ عنهم الجيش الذى همَّ أن يستأصلهم ، لولا عون الله وتدبيره اللطيف ، ومن ثمَّ يجمل فى الآية الأولى طبيعة ذلك الحادث وبدايته ونهايته ، لاستحضار نعمة الله فى وعيهم وخلدهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ جاءتكم جنود فأرسلنا عليهم ريحاً وجنوداً لم تروها وكان الله بما تعملون بصيراً** ﴾ الاحزاب : ٩ .

هكذا يرسم القرآن الكريم بداية المعركة والعناصر الحاسمة فيها .. ثم يأخذ بعد هذا الإجمال فى التفصيل والتصوير .

﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر وتظنون بالله الظنونا . هنالك ابتلى المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً .وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبى يقولون إن بيوتنا عورة وما هى بعورة إن يريدون إلا فراراً** ﴾ [١] .

﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ : ظن بعض من كان مع رسول الله ـــ ﷺ ـــ أن الدائرة على المؤمنين قال محمد بن إسحاق : ظن المؤمنون كل ظن ، ونجم النفاق حتى قال « معتب بن قشير أخو بنى عمرو بن عوف : « كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط »[٢] .

---

(١) الأحزاب : ١٠ ـــ ١٣ .
(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٧٥٣ .

إنها صورة الهول الذى روع المدينة والكرب الذى شملها ، والذى لم ينج منه أحد من أهلها وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بنى قريظة من كل جانب من أعلاها وأسفلها وكأننا نلمس هذا الموقف من خلال الآيات : ﴿ **إذ جاءوكم من فوقكم ومن أسفل منكم** ﴾ ثم نلمس أثر هذا الحدث فى النفوس : ﴿ **وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ وهو تجسيد لحالة الخوف والكرب يرسمها بملامح الوجوه وحركات القلوب ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ ثم تزيد سمات الموقف بروزاً وتزيد خصائص الهول فيه وضوحاً .. ﴿ **هنالك ابتلي المؤمنون وزلزلوا زلزالا شديداً** ﴾ .

عن أبى سعيد ـــ رضى الله عنه ـــ قال : قلنا يوم الخندق يا رسول الله هل من شىء نقول ، فقد بلغت القلوب الحناجر ؟ قال ﷺ : نعم قولوا : « **اللهم استر عوراتنا وآمن روعاتنا** » . قال : فضرب وجوه أعدائه بالريح فهزمهم بالريح (١) .

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق ، ذلك الذى كان يأتيهم من انقضاض بنى قريظة عليهم من خلفهم ، فلم يكونوا يأمنون فى أية لحظة أن ينقض عليهم المشركون فى الخندق ، وأن تميل عليهم يهود وهم قلة بين هؤلاء الجموع ، ذلك كله إلى ما كان من كيد المنافقين والمرجفين فى المدينة : ﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين فى قلوبهم مرض ما وعدنا الله ورسوله إلا غروراً** ﴾ فقد وجد هؤلاء فى الكرب والشدة فرصة للكشف عن نفوسهم الخبيثة : ﴿ **وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا** ﴾ فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبى** ﴾ ، قال ابن عباس رضى الله عنهما : هم بنو حارثة ، قالوا : إن بيوتنا نخاف عليها السراق ، يعنى اعتذروا فى الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة (٢) .

---

(١) البداية والنهاية ج ٤ ص ١١١ ط ١٩٨٢ ، بيروت .
(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٧٥٤ بتصرف .

ووسط هذه الأحداث واستجاشة النفوس يقرر القرآن إحدى القيم التى يجب أن تغرس فى النفوس ، ويصحح التصور الذى يدعوهم إلى نقض العهد والفرار : ﴿ **قل لن ينفعكم الفرار إن فررتم من الموت أو القتل وإذاً لا تمتعون إلا قليلا قل من ذا الذى يعصمكم من الله إن أراد بكم سوءاً أو أراد بكم رحمة ولا يجدون لهم من دون الله ولياً ولا نصيراً** ﴾ .

إن قدر الله هو المسيطر على الأحداث والمصائر والموت أو القتل ، قدر لا مفر من لقائه ولن ينفع الفرار فى دفع القدر ولا عاصم من الله .

★ ★ ★

(٣) حادثة زواج زيد بزينب بنت جحش وإبطال عادة جاهلية ..

﴿وَمَا كَانَ لِمُؤْمِنٍ وَلَا مُؤْمِنَةٍ إِذَا قَضَى اللَّهُ وَرَسُولُهُ أَمْرًا أَن يَكُونَ لَهُمُ الْخِيَرَةُ مِنْ أَمْرِهِمْ وَمَن يَعْصِ اللَّهَ وَرَسُولَهُ فَقَدْ ضَلَّ ضَلَالًا مُّبِينًا ﴿٣٦﴾ وَإِذْ تَقُولُ لِلَّذِي أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِ وَأَنْعَمْتَ عَلَيْهِ أَمْسِكْ عَلَيْكَ زَوْجَكَ وَاتَّقِ اللَّهَ وَتُخْفِي فِي نَفْسِكَ مَا اللَّهُ مُبْدِيهِ وَتَخْشَى النَّاسَ وَاللَّهُ أَحَقُّ أَن تَخْشَاهُ فَلَمَّا قَضَى زَيْدٌ مِّنْهَا وَطَرًا زَوَّجْنَاكَهَا لِكَيْ لَا يَكُونَ عَلَى الْمُؤْمِنِينَ حَرَجٌ فِي أَزْوَاجِ أَدْعِيَائِهِمْ إِذَا قَضَوْا مِنْهُنَّ وَطَرًا وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ مَفْعُولًا ﴿٣٧﴾ مَّا كَانَ عَلَى النَّبِيِّ مِنْ حَرَجٍ فِيمَا فَرَضَ اللَّهُ لَهُ سُنَّةَ اللَّهِ فِي الَّذِينَ خَلَوْا مِن قَبْلُ وَكَانَ أَمْرُ اللَّهِ قَدَرًا مَّقْدُورًا ﴿٣٨﴾﴾

الأحزاب : ٣٦ ــ ٣٨ .

عن ابن عباس رضى الله عنه قال : خطب رسول الله ﷺ زينب بنت جحش لزيد بن حارثة رضى الله عنه ، فأستنكفت منه ، فقالت : أنا خير منه حسباً ، وكانت امرأة فيها حدة . فأنزل الله تعالى : ﴿ **وما كان لمؤمن ولا مؤمنة إذا قضى الله ورسوله أمراً أن يكون لهم الخيرة من أمرهم ومن يعص الله ورسوله فقد ضل ضلالا مبيناً** ﴾ الأحزاب : ٣٦ .

« روى قتادة وابن عباس ومجاهد فى سبب نزول هذه الآية ، أن رسول الله ﷺ خطب زينب بنت جحش وكانت بنت عمته فظنت أن

الخطبة لنفسه فلما تبين أنه يريدها لزيد كرهت وأبت وامتنعت ، فنزلت الآية فأذعنت زينب حينئذ وتزوجته » (١) .

وكانت حادثة بعيدة الأثر فى هذا المجتمع الغارق فى الطبقية ، وخطوة حاسمة لتحطيم الفوارق الموروثة والقديمة فى هذا المجتمع العريق ، وفكرة جديدة لتطبيق معانى المساواة « لا فضل لأحد على أحد إلا بالتقوى » .

لقد كانت الموالى طبقة مستضعفة تعيش على هامش المجتمع الجاهلى ، ومن هؤلاء كان زيد بن حارثة مَوْلى رسول الله ﷺ ، فأراد الرسول ﷺ أن يطبق المساواة بتزويجه من شريفة من بنى هاشم قريبته ﷺ زينب بنت جحش ليقضى على تلك الفوارق الطبقية بنفسه وفى أسرته . وكانت هذه الفوارق من العمق والعنف بحيث لا يحطمها إلا فكرة تطبيقية من القائد المربى لتكون أسوة حية فى هذا المجتمع النامى . ولتغلغل هذه العادة فى البيئة العربية ولصعوبة إبطالها وإحداث تغيير فيها تحمل نبى الهدى ﷺ وقع الابتلاء وليحملها فيما يحمل من أعباء التنظيمات الاجتماعية الجديدة المخالفة لمألوف الحياة فى الجاهلية .

ثم شاء الله أن يحمل نبيه بعد ذلك — فيما يتحمل من أعباء التطور والتربية وإزالة رواسب البيئة — مؤونة إزالة آثار نظام التبنى بأبعاده الواسعة ، وحدث أن جاء زيد يشكو إلى رسول الله ﷺ اضطراب حياته الزوجية قائلا : إن زينب تؤذينى بلسانها وتفعل وتفعل ! وإنى أريد أن أطلقها فقال له : « **أمسك عليك زوجك واتق الله** » (٢) .

والرسول ﷺ على شجاعته ومميزاته التى خصه الله بها يحس ثقل التبعة من أمر زينب ، ويتردد فى مواجهة القوم فى تحطيم ذلك التقليد العميق ﴿ **وتخفى فى نفسك ما الله مبديه** ﴾ ويوضح الشيخ المراغى هذا الإخفاء قائلا : آى وأنت تعلم أن الطلاق لابد منه بما ألهمك الله أن تتمثل أمره بنفسك لتكون أسوة لمن معك ولمن يأتى بعدك ، وإنما غلبك فى ذلك الحياء وخشية أن يقولوا : تزوج محمد مطلقة متبناه (٣) : ﴿ **وإذ تقول للذى**

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبى ج ١٤ ص ١٨٦ ط ١٩٦٧ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن ج ١٤ ص ١٨٩ .

(٣) تفسير المراغى ج ٢ ص ١٤ .

أنعم الله عليه وأنعمت عليه أمسك عليك زوجك واتق الله وتخفي في نفسك ما الله مبديه وتخشى الناس والله أحق أن تخشاه فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولا ﴾ الأحزاب : ٣٧

وهذا الذي أخفاه النبي ﷺ في نفسه وهو يعلم أن الله مبديه ، هو ما ألهمه الله أن سيفعله ولم يكن أمراً صريحاً من الله وإلا ما تردد فيه ولا أخّره ولا حاول تأجيله . ولكنه ﷺ كان أمام إلهام يجده في نفسه ويتوجس في الوقت ذاته من مواجهته ومواجهة الناس به ، حتى أذن الله بكونه فطلق زيد زوجه في النهاية وهو لا يفكر لا هو ولا زينب فيما سيكون بعد (١) .

وإنما جرت هذه الأمور لحكمة يريدها الله عز وجل ليكون ذلك تشريعاً للأمة في إنهاء حكم التبني كما يظهر من النص ﴿ **فلما قضى زيد منها وطراً زوجناكها لكي لا يكون على المؤمنين حرج في أزواج أدعيائهم إذا قضوا منهن وطراً وكان أمر الله مفعولاً** ﴾ فالله هو الذي تولى تزويجها ، بمعنى أنه أوحى إليه أن يدخل عليها بلا ولىّ ولا عقد ولا مهر ولا شهود من البشر ، وهناك أكثر من رواية تصور قصة زواجه ﷺ بزينب ، وروى الإمام جعفر بن محمد عن آبائه عن النبي ﷺ ﴿ **وطراً زوجناكها** ﴾ .ولما أعلمه الله بذلك دخل عليها بغير إذن ، ولا تجديد عقد ولا تقرير صداق ، ولا شيء مما يكون شرطاً في حقوقنا ومشروعاً لنا . وهذا من خصوصياته ﷺ ، التي لا يشاركه فيها أحد بإجماع من المسلمين . ولهذا كانت زينب تفاخر نساء النبي ﷺ وتقول : زوجكن آباؤكن وزوجني الله تعالى . أخرجه النسائي عن أنس بن مالك قال : كانت زينب تفخر على نساء النبي ﷺ تقول : إن الله عز وجل أنكحني من السماء (٢) .

وكان هذا من تدبير الله تعالى لا دخل لأحد : ﴿ **وكان أمر الله مفعولا** ﴾ لا مرد له ولا مفر منه واقعاً محققاً لا سبيل إلى تخلفه ولا إلى

---

(١) الظلال م ٥ ص ٢٨٦٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي ج ١٤ ص ١٩٣ .

الحيدة عنه « وإنما يعنى بذلك أن قضاء الله فى زينب أن يتزوجها رسول الله ﷺ كان ماضياً ومفعولا كائناً » (١) .

وكانت تربية شاملة خلال حدث زواج زيد وزينب فوجىء به المجتمع المدنى وانطلقت ألسنة المنافقين تقول : تزوج حليلة ابنه ، والمجتمع المدنى يتابع الحدث بكل انتباه وأحاسيس ومشاعر ، ويمضى القرآن يؤكد هذا الأمر ويزيل عنصر الغرابة فيه : ﴿ **ما كان على النبى من حرج فيما فرض الله له سنة الله فى الذين خلوا من قبل وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ (٢) .

« وهذا رد من توهم من المنافقين نقصاً فى تزويجه امرأة زيد مولاه ودعيه الذى كان قد تبناه : ﴿ **وكان أمر الله قدراً مقدوراً** ﴾ أى وكان أمره الذى بقدره كائناً لا محالة وواقعاً لا محيد عنه ولا معدل ، فما شاء كان وما لم يشأ لم يكن » (٣) .

وخطورة هذه الحادثة تتمثل فى أنها أحدثت تحولا محسوساً فى العلاقات الاجتماعية ، ومست تقليداً راسخاً من التقاليد السائدة فى هذا المجتمع لم يكن من الممكن أن يناط بغير الرسول ﷺ وبغير أمر الله سبحانه وتعالى ، وفضلا عن ذلك فإن ما يتوارى خلف الدلالة الظاهرة والتصريح المعلن فى الآيات الكريمة شديد المساس ببنية المجتمع ومعتقداته وفلسفته وهو النظرة الطبقية المترفعة ، فزواج الرسول ﷺ من زينب بنت جحش بعد زيد بن حارثة المولى المستضعف فى مجتمع لا يقيم وزناً للموالى يعتبر بادرة خطيرة انعطفت بالمجتمع الجديد إلى وجهة جديدة تداعت على أثرها دعوى العصبية والعنصرية لتحل محلها قيم المساواة بين السيد والمولى والحر والعبد ، ولتقمع فى نفوس الآخرين نزعة الترفع ، كذلك فإن الحكمة من زواج زينب بزيد (رضى الله عنه) تكمن فى ترويض النفس الشموسة على التسليم بأوامر الله سبحانه وتعالى وطلاقها منه ، ثم زواجها بالرسول ﷺ إنصافاً لها وعزوفاً عن إرغامها على ما تكره ، على أن تكون نموذجاً لا يتقيد

---

(١) جامع البيان للطبرى ج ٢٢ ص ١٤ .

(٢) الأحزاب : ٣٨ .

(٣) تفسير القرآن العظيم لابن كثير م ٣ ص ٧٨٣ ط ١٩٨٦ تخريج حسين بن إبراهيم زهران .

بحدود الحادثة الفردية ، ولكن كمثال يشير إلى منهج تربوى متكامل ينطلق من الخاص إلى العام يرسم الطريق ويحدد معالمها أمام الجماعة الإسلامية الناشئة ، وهذا ضرب من المعالجة النفسية التى تغوص فى الدخائل الباطنة ولا تتوقف عند الحدود الظاهرة ، وهذا شأن الدعوات العظيمة والرسالات السماوية الفاصلة .

* * *

(٤) حادثة الظهار وإبطال عادة جاهلية :

﴿مَّا جَعَلَ اللَّهُ لِرَجُلٍ مِّن قَلْبَيْنِ فِي جَوْفِهِ ۚ وَمَا جَعَلَ أَزْوَاجَكُمُ اللَّائِي تُظَاهِرُونَ مِنْهُنَّ أُمَّهَاتِكُمْ ۚ وَمَا جَعَلَ أَدْعِيَاءَكُمْ أَبْنَاءَكُمْ ۚ ذَٰلِكُمْ قَوْلُكُم بِأَفْوَاهِكُمْ ۖ وَاللَّهُ يَقُولُ الْحَقَّ وَهُوَ يَهْدِي السَّبِيلَ (٤)﴾

الأحزاب : ٤ .

﴿قَدْ سَمِعَ اللَّهُ قَوْلَ الَّتِي تُجَادِلُكَ فِي زَوْجِهَا وَتَشْتَكِي إِلَى اللَّهِ وَاللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَا ۚ إِنَّ اللَّهَ سَمِيعٌ بَصِيرٌ (١) الَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِنكُم مِّن نِّسَائِهِم مَّا هُنَّ أُمَّهَاتِهِمْ ۖ إِنْ أُمَّهَاتُهُمْ إِلَّا اللَّائِي وَلَدْنَهُمْ ۚ وَإِنَّهُمْ لَيَقُولُونَ مُنكَرًا مِّنَ الْقَوْلِ وَزُورًا ۚ وَإِنَّ اللَّهَ لَعَفُوٌّ غَفُورٌ (٢) وَالَّذِينَ يُظَاهِرُونَ مِن نِّسَائِهِمْ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا قَالُوا فَتَحْرِيرُ رَقَبَةٍ مِّن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۚ ذَٰلِكُمْ تُوعَظُونَ بِهِ ۚ وَاللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ (٣) فَمَن لَّمْ يَجِدْ فَصِيَامُ شَهْرَيْنِ مُتَتَابِعَيْنِ مِن قَبْلِ أَن يَتَمَاسَّا ۖ فَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ فَإِطْعَامُ سِتِّينَ مِسْكِينًا ۚ ذَٰلِكَ لِتُؤْمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ۚ وَتِلْكَ حُدُودُ اللَّهِ ۗ وَلِلْكَافِرِينَ عَذَابٌ أَلِيمٌ (٤)﴾

المجادلة : ١ — ٤ .

كما أبطل الإسلام التبنى وجعله محرماً فى الشريعة الإسلامية أبطل الظهار ، كواحد من ضلالات الجاهلية .

وأصل الظهار مشتق من الظهر ، وذلك أنهم فى الجاهلية كان الرجل إذا ما غضب من امرأته قال لها : أنت عليّ كظهر أمى ، فتحرم عليه ، ولا تطلق منه ، وتبقى هكذا : لا هى حلّ له ، فتقوم بينهما صلات الزوجية ، ولا هى مطلقة منه ، فتجد لها طريقاً آخر ، وكان هذا من أشد أنواع العنت الذى تلاقيه المرأة فى الجاهلية [1] .

فلما جاء الإسلام وقعت حادثة سجلتها وقررت حكم الإسلام فيها آيات بينات استفتحت بها سورة المجادلة :

﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير . الذين يظاهرون منكم من نسائهم ما هن أمهاتهم إن أمهاتهم إلا اللائى ولدنهم وإنهم ليقولون منكراً من القول وزوراً وإن الله لعفو غفور ﴾ المجادلة : ١ ، ٢ .

روى أن هذه الآيات نزلت عندما ظاهر « أوس بن الصامت » من زوجه « خولة بنت ثعلبة » فجاءت إلى رسول الله ﷺ تشكو ، تقول : يا رسول الله ، أكل مالى ، وأفنى شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبرت سنى ، وانقطع ولدى ظاهر منى .

وعن عائشة قالت : الحمد لله الذى وسع سمعه الأصوات ، لقد جاءت المجادلة إلى رسول الله ﷺ — وأنا فى ناحية البيت تشكو زوجها ، ما أسمع ما تقول ، فأنزل الله عز وجل : **﴿ قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله .. ﴾** إلى آخر الآية .

وفى رواية عنها أنها قالت : تبارك الذى وسع سمعه كل شىء ، إنى لأسمع كلام « خولة ابنة ثعلبة » ويخفى علي بعضه ، وهى تشتكى زوجها إلى رسول الله ﷺ ، وهى تقول : يا رسول الله ، أكل شبابى ، ونثرت له بطنى ، حتى إذا كبر سنى ، وانقطع ولدى ظاهر منى ، اللهم إنى أشكو

---

(١) تفسير ابن كثير : تحقيق حسين زهران م ٤ ص ٤٩٩ .

إليك ، قال : فما برحت حتى نزل جبريل عليه السلام بهذه الآيات : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها** ﴾ قال : زوجها أوس بن الصامت (١) .

قال الإمام أحمد : حدثنا سعد بن إبراهيم ويعقوب قالا : حدثنا أبى ، حدثنا محمد بن إسحاق حدثنى معمر بن عبد الله بن حنظلة عن يوسف بن عبد الله بن سلام ، عن خويلة بنت ثعلبة ، قالت : فِىّ والله وفى أوس بن الصامت أنزل الله صدر سورة المجادلة قالت : كنت عنده وكان شيخاً كبيراً ساء خلقه ، قالت : فدخل علىّ يوماً فراجعته بشىء فغضب فقال : أنتِ علىّ كظهر أمى ، قالت : ثم خرج فجلس فى نادى قومه ساعة ثم دخل علىّ ، فإذا هو يريدنى عن نفسى ، قالت : قلت : كلا والذى نفس خويلة بيده لا تخلص إلىّ وقد قلت ما قلت حتى يحكم الله ورسوله فينا بحكمه . قالت : فواثبنى ، فامتنعت منه فغلبته بما تغلب به المرأة الشيخ الضعيف ، فألقيته عنى ، قالت : ثم خرجت إلى بعض جاراتى ، فاستعرت منها ثياباً ، ثم خرجت حتى جئت إلى رسول الله ﷺ ، فجلست بين يديه ، فذكرت له ما لقيت منه ، وجعلت أشكو إليه ما ألقى من سوء خلقه . قالت : فجعل رسول الله ﷺ يقول : « **يا خويلة ، ابن عمك شيخ كبير ، فاتقى الله فيه** » قالت : فوالله ما برحت حتى نزل فىّ قرآن فتغشى رسول الله ﷺ ما كان يتغشاه ، ثم سرى عنه ، فقال فىّ : « **يا خويلة قد أنزل الله فيك وفى صاحبك قرآناً** » ثم قرأ علىّ : ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ . إلى قوله تعالى : ﴿ **وللكافرين عذاب أليم** ﴾ . قالت : فقال رسول الله ﷺ « **مريه فليعتق رقبة** » قالت : فقلت : يا رسول الله ، ما عنده ما يعتق . قال : « **فليصم شهرين متتابعين** » . قالت : فقلت : والله إنه لشيخ كبير ما به من صيام . قال : « **فليطعم ستين مسكيناً وسقاً من تمر** » قالت : فقلت : والله يا رسول الله ما ذاك عنده قالت : فقال رسول الله ﷺ : « **فإنا سنعينه بفرق من تمر** » قالت : فقلت : يا رسول الله ، وأنا سأعينه بفرق آخر قال : « **قد أصبتِ وأحسنتِ** ،

---

(١) جامع البيان للطبرى ج ٢٨ ص ٥ ، ٦ .

فاذهبى فتصدق به عنه ، ثم استوصى بابن عمك خيراً » قالت : ففعلت (١) .

هذا الذى كان من « أوس » حين قال لزوجه أنت علىّ كظهر أمى لا خلاف فى كونه ظهاراً عند علماء الشريعة ، ولكنهم يختلفون فيما إذا قال رجل لزوجه أنت علىّ كظهر ابنتى أو أختى أو غير ذلك من ذوات المحارم ، فذهب جماعة منهم « أبو حنيفة » و « مالك » إلى أنه ظهار (٢) .

وقال سعيد بن جبير كان الإيلاء والظهار من طلاق الجاهلية فوقت الإيلاء أربعة أشهر وجعل فى الظهار الكفارة (٣) .

وهذا الحدث الذى سمع الله فيه ما دار بين امرأة وبين نبيه تجادله إنما كان حدثاً عظيماً ذا أثر بالغ فى بناء هذا المجتمع المتنامى ، فقد كشف الله به للأمة أنه ينزل من فوق سبع سموات آيات تتلى لتنصف امرأة ، وتعطيها حقها ، لأن إحقاق الحقوق جزء رئيسى من بناء هذا المجتمع ، ومعلم من معالم المنهاج والصراط المستقيم الذى يسير عليه هذا المجتمع فى مثل هذه المشكلة العائلية .

ونجد فى هذا الحادث عناصر التأثير والإيحاء والتطور والتربية تسير جنباً إلى جنب ﴿ **قد سمع الله قول التى تجادلك فى زوجها وتشتكى إلى الله والله يسمع تحاوركما إن الله سميع بصير** ﴾ لقد سمع قول المرأة ، تجادلك فى زوجها ، وتشتكى إلى الله ، وعلم القصة كلها ، وهو يعلم تحاوركما ، وما كان فيه ، إن الله سميع بصير ، يسمع ويرى ، هذا شأنه ، وهذه صورة منه فى الحادث ، وكان درساً تطبيقياً لفهم الآية : ﴿ **ولقد خلقنا الإنسان ونعلم ما توسوس به نفسه ونحن أقرب إليه من حبل**

---

(١) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٤٩٧ .
(٢) فتح القدير للشوكانى م ٥ ص ١٨٢ .
(٣) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٥٠٠ .

الوريد ﴾ [1] وكلها إيقاعات ولمسات تهز هذا المجتمع الجديد ، وتثير الانتباه إلى هذه الدروس التطبيقية التى تشهدها جنبات هذا المجتمع المدنى من حين لآخر .

ومن خلال الأحداث تستخرج أنظمة ومفاهيم جديدة :

إذا ظاهر الرجل من امرأته ترتب عليه أمران :

(١) حرمة إتيان الزوجة حتى يكفر كفارة الظهار ، لقوله تعالى : **﴿ فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا .. ﴾** إلخ .

(٢) وجوب الكفارة بالعودة لقوله تعالى : **﴿ والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة مؤمنة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير ﴾** .

والحادث يشير إلى هذه المفاهيم الخيرة :

(١) استجابة الله دعاء الشاكى الصادق إذا أخلص الدعاء .

(٢) عدم جواز تشبيه الزوجة بمحرم من المحرمات على التأبيد .

(٣) عدم جواز مس الزوجة قبل أداء كفارة الظهار .

(٤) حدود الله يجب التزامها ، ولا يجوز تعديها [2] .

* * *

---

(١) سورة ق : ١٦ .

(٢) آيات الأحكام للصابونى ج ٢ ص ٥٣٤ .

(٥) حد القذف ، وحكم اللعان ، وحماية العلاقات الزوجية :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِنْ بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُنْ لَهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنْفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِنْ كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَنْ تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِنْ كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

النور : ٤ ــ ٩

وردت روايات صحيحة فى سبب نزول هذا الحكم ، وهى تصور صورة حية للمجتمع المدنى فى تطوره السريع وما يصاحب هذا التطور من انفعال ومتابعة وإثارة ، فقد قال الإمام أحمد عن ابن عباس قال : لما نزلت : **﴿ والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبداً ﴾** ، قال سعد بن عبادة وهو سيد الأنصار رضي الله عنه : أهكذا أنزلت يا رسول الله ؟ فقال رسول الله ﷺ : **« يا معشر الأنصار ألا تسمعون ما يقول سيدكم ؟ »** فقالوا : يا رسول الله لا تلمه ، فإنه رجل غيور ، والله ما تزوج امرأة قط إلا بكراً ، وما طلق امرأة قط فاجترأ رجل منا أن يتزوجها من شدة غيرته . فقال سعد : والله يا رسول الله إني لأعلم أنها حق وأنها من الله ، ولكن قد تعجبت أني لو وجدت لكاعاً

قد تفخذها رجل لم يكن لى أن أهيجه ولا أحركه حتى آتى بأربعة شهداء ، فوالله إنى لا آتى بهم حتى يقضى حاجته ـ قال : فما لبثوا إلا يسيراً حتى جاء هلال بن أمية ـ وهو أحد الثلاثة الذين تيب عليهم ـ فجاء من أرضه عشاء ، فوجد عند أهله رجلا ، فرأى بعينيه ، وسمع بأذنيه ، فلم يهجه حتى أصبح ، فغدا على رسول الله ﷺ فقال : يا رسول الله إنى جئت على أهلى عشاء ، فوجدت عندها رجلا ، فرأيت بعينى وسمعت بأذنى ، فكره رسول الله ﷺ ما جاء به ، واشتد عليه ، واجتمعت عليه الأنصار ، وقالو : قد ابتلينا بما قال سعد بن عبادة ، الآن يضرب رسول الله ﷺ هلال بن أمية ، ويبطل شهادته فى الناس . فقال هلال : والله إنى لأرجو أن يجعل الله منها مخرجاً . وقال هلال : يا رسول الله فإنى قد أرى ما اشتدِ عليك مما جئت به ، والله يعلم إنى لصادق .. فوالله إن رسول الله ﷺ ـ يريد أن يأمر بضربه إذ أنـزل الله على رسول الله ﷺ الوحى وكان إذا أنـزل عليه الوحى عرفوا ذلك فى تربد وجهه (يعنى فأمسكوا عنه حتى فرغ من الوحى) فنزلت :

﴿ **والذين يرمون أزواجهم ولم يكن لهم شهداء إلا أنفسهم فشهادة أحدهم أربع شهادات بالله** .. ﴾ الآية .. فسرى عن رسول الله ﷺ ، فقال : « **أبشر يا هلال قد جعل الله لك فرجاً ومخرجاً** » . فقال هلال : قد كنت أرجو ذلك من ربى عز وجل . فقال رسول الله ﷺ : « **أرسلوا إليها** » ، فأرسلوا إليها ، فجاءت ، فتلاها رسول الله ﷺ عليهما ، فذكرهما وأخبرهما أن عذاب الآخرة أشد من عذاب الدنيا ، فقال هلال : والله يا رسول الله لقد صدقت عليها ، فقالت : كذب ، فقال رسول الله ﷺ : « **لاعنوا بينهما** ». فقيل لهلال : اشهد ، فشهد أربع شهادات بالله إنه لمن الصادقين ، فلما كانت الخامسة قيل : يا هلال اتق الله ، فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب ، فقال : والله لا يعذبنى الله عليها كما لم يجلدنى عليها ، فشهد الخامسة أن لعنة الله عليه إن كان من الكاذبين ، ثم قيل للمرأة : اشهدى أربع شهادات بالله إنه لمن الكاذبين ، وقيل لها عند الخامسة : اتقى الله فإن عذاب الدنيا أهون من عذاب الآخرة ، وإن هذه الموجبة التى توجب عليك العذاب فتلكأت ساعة وهمت بالاعتراف ، ثم قالت : والله لا أفضح

قومى ، فشهدت فى الخامسة أن غضب الله عليها إن كان من الصادقين ، ففرّق الرسول ﷺ بينهما وقضى ألا يدعى ولدها لأب ، ولا يرمى ولدها ، ومن رماها أو رمى ولدها فعليه الحد ، وقضى أن لا بيت لها عليه ، ولا قوت لها من أجل أنهما يفترقان من غير طلاق ولا متوفى عنها .

وقال:« **إن جاءت به أصيهب** (*) **أريسح** (*) **حمش الساقين** (*) **فهو لهلال . وإن جاءت به أورق** (*) **جعداً جمالياً** (*) **خدلج الساقين** (*) **سابغ الإليتين** (*) **فهو الذى رميت به** ».

فجاءت به أورق ، جعداً ، جمالياً ، خدلج الساقين ، سابغ الإليتين فقال رسول الله ﷺ : « **لولا الأيمان لكان لى ولها شأن** » (١) .

عالج القرآن قضية هامة من أخطر القضايا التى يمكن أن يجابهها الإنسان فى حياته الواقعية ، حين يبصر بعينيه جريمة الزنا ترتكب فى أهل بيته ، فلا يستطيع أن يتكلم ، لأنه ليس لديه بينة تثبت ذلك فيعانى من الضيق النفسى والقلق ، وتشاء حكمة الله أن تقع مثل هذه الحوادث فى عصر النبوة ، وبين أظهر القوم والقرآن ينزل والوحى يتلى ، لكى يكون درساً عملياً تربوياً يتلقاه المسلمون خلال حادث تطبيقى عظيم يثير انتباه المجتمع .

وكان موقفاً مثيراً وخطيراً وفريداً من نوعه فى تربية رسول الله ﷺ للناس من خلال الأحداث ، وتطوير هذا المجتمع وتنظيمه بتشريعات ربانية فريدة ، فقد عرف المجتمع الإسلامى لأول مرة قضية اللّعان وما يتعلق بها من أحكام منها :

(*) أصيهب : تصغير ـــ أصهب ، وهو الذى فى شعره حمرة .

(*) أريسح : تصغير أرسح ، والرسح هو خفة الإليتين أو قلة لحم الوركين ويقال للذئب أرسح لذلك .

(*) حمش الساقين : دقيقهما .

(*) أورق : أسمر .

(*) جعد : الذى شعره غير سبط .

(*) جمالى : الضخم الأعضاء التام الأوصال .

(*) خدلج الساقين : عظيمهما .

(*) سابغ الإليتين : تامهما وعظيمهما .

(١) تفسير ابن كثير : ج ٣ ص ٤٢٦ ـــ ٤٢٧ تخريج حسين بن إبراهيم زهران ، وتفسير آيات الأحكام للصابونى ج ٢ ص ٧٩ .

١ ــ لا يجرى اللعان فى اتهام غير الزوجة من المحصنات لأنه خاص بالزوجين .

٢ ــ تشريع اللعان لمصلحة الزوجين يبرىء الزوج من (حد القذف) والزوجة من (حد الزنى) .

٣ ــ لابد فى الملاعنة أن تكون خمس مرات بالصيغة المذكورة فى القرآن الكريم .

٤ ــ اللعان يوجب (الحرمة المؤبدة) بين الزوجين فلا ترجع للزوج بحال من الأحوال .

٥ ــ تخصيص الرجل باللعنة وتخصيص المرأة بالغضب للتفريق بين نفسية الزوجين (١) .

وقد ذكر القرطبى أن اللعان يفتقر إلى أربعة أشياء :

(١) عدد الألفاظ ــ وهو أربع شهادات .

(٢) والمكان ــ وهو أن يقصد به أشرف البقاع بالبلدان ، إن كان بمكة فعند الركن والمقام ، وإن كان بالمدينة فعند المنبر ، وإن كان ببيت المقدس فعند الصخرة ، وإن كان فى سائر البلدان ففى مساجدها ، وإن كانا كافرين بعث بهما إلى الموضع الذى يعتقدان تعظيمه .

(٣) والوقت ــ وذلك بعد صلاة العصر .

(٤) وجمع الناس ــ وذلك أن يكون هناك أربعة أنفس فصاعداً ، فاللفظ وجمع الناس مشروطان ، والزمان والمكان مستحبان (٢) .

---

(١) آيات الأحكام للصابونى ج ٢ ص ٩٦ .

(٢) القرطبى م ١٢ ص ١٩٥ .

حادثة الإفك ..

الآيات تصور حادثة الإفك ..

يقول الحق عز وعلا :

إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ
لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم
مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ
عَظِيمٌ ﴿١١﴾ لَّوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ ظَنَّ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتُ
بِأَنفُسِهِمْ خَيْرًا وَقَالُوا۟ هَٰذَآ إِفْكٌ مُّبِينٌ ﴿١٢﴾ لَّوْلَا جَآءُو
عَلَيْهِ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ ۚ فَإِذْ لَمْ يَأْتُوا۟ بِٱلشُّهَدَآءِ فَأُو۟لَٰٓئِكَ
عِندَ ٱللَّهِ هُمُ ٱلْكَٰذِبُونَ ﴿١٣﴾ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ
وَرَحْمَتُهُۥ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْآخِرَةِ لَمَسَّكُمْ فِى مَآ أَفَضْتُمْ فِيهِ
عَذَابٌ عَظِيمٌ ﴿١٤﴾ إِذْ تَلَقَّوْنَهُۥ بِأَلْسِنَتِكُمْ وَتَقُولُونَ
بِأَفْوَاهِكُم مَّا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ وَتَحْسَبُونَهُۥ هَيِّنًا وَهُوَ عِندَ
ٱللَّهِ عَظِيمٌ ﴿١٥﴾ وَلَوْلَآ إِذْ سَمِعْتُمُوهُ قُلْتُم مَّا يَكُونُ لَنَآ أَن
نَّتَكَلَّمَ بِهَٰذَا سُبْحَٰنَكَ هَٰذَا بُهْتَٰنٌ عَظِيمٌ ﴿١٦﴾ يَعِظُكُمُ
ٱللَّهُ أَن تَعُودُوا۟ لِمِثْلِهِۦٓ أَبَدًا إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿١٧﴾ وَيُبَيِّنُ
ٱللَّهُ لَكُمُ ٱلْآيَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٨﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ

يُحِبُّونَ أَن تَشِيعَ ٱلْفَٰحِشَةُ فِى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَهُمْ عَذَابٌ
أَلِيمٌ فِى ٱلدُّنْيَا وَٱلْءَاخِرَةِ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿١٩﴾
وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ وَأَنَّ ٱللَّهَ رَءُوفٌ
رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾ * يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّبِعُوا۟ خُطُوَٰتِ
ٱلشَّيْطَٰنِ ۚ وَمَن يَتَّبِعْ خُطُوَٰتِ ٱلشَّيْطَٰنِ فَإِنَّهُۥ يَأْمُرُ
بِٱلْفَحْشَآءِ وَٱلْمُنكَرِ ۚ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ
مَا زَكَىٰ مِنكُم مِّنْ أَحَدٍ أَبَدًا وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يُزَكِّى مَن يَشَآءُ ۗ
وَٱللَّهُ سَمِيعٌ عَلِيمٌ ﴿٢١﴾ وَلَا يَأْتَلِ أُو۟لُوا۟ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ
وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓا۟ أُو۟لِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ
فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُوا۟ وَلْيَصْفَحُوٓا۟ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ
ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

النور : ١١ ــ ٢٢

(٦) حادثة الإفك واهتزاز المجتمع المدنى بأسره ومنهج القرآن فى مواجهة الشائعات

كانت حادثة الإفك سبباً من أسباب تنظيم المجتمع وتطهيره من رواسب الجاهلية ، لأن القرآن أورد بعد ذلك مباشرة نموذجاً من القذف يكشف عن شناعة الجرم وبشاعته ، ويتناول بيت النبوة الطاهر وعرض رسول الله ﷺ ، أكرم إنسان على الله ، وعرض صديقه الصديق أبى بكر رضى الله عنه ، أكرم إنسان على رسول الله ﷺ ، وعرض رجل من الصحابة وهو صفوان بن المعطل رضى الله عنه الصحابى الجليل الذى شهد له رسول الله ﷺ أنه لم يعرف عليه إلا خيراً ، وقد ظلت هذه الحادثة حديث الناس فى المجتمع المدنى شهراً من الزمان : ﴿ **إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم** .. ﴾ إلخ .

هز حادث الإفك المجتمع المدنى هزاً عنيفاً ، وكلّف أطهر النفوس فى تاريخ البشرية آلاماً لا تطاق ، وكلّف أفراد المجتمع كله تجربة من أشهر التجارب فى تاريخها الطويل ، وعلّق قلب رسول الله ﷺ وقلب زوجه عائشة التى يحبها وقلب أبى بكر الصديق وزوجه ، وقلب صفوان بن المعطل شهراً كاملا ، عقلها بحبال القلق والألم الذى لا يطاق (١) .

تروى عائشة رضى الله عنها قصة هذا الألم ، وتكشف عن سر هذه الآيات فى حديث يرويه البخارى : قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ إذا أراد سفراً أقرع بين أزواجه ، فأيتهن خرج سهمها خرج بها رسول الله ﷺ معه . قالت عائشة : فأقرع بيننا فى غزوة غزاها ، فخرج فيها سهمى ، فخرجت مع رسول الله ﷺ بعد ما أنزل الحجاب ، فكنت أحمل فى هودجى وأنزل فيه ، فسرنا حتى إذا فرغ رسول الله ﷺ من غزوته تلك وقفل ، دنونا من المدينة قافلين ، آذن ليلة بالرحيل ، فقمت حين آذنوا بالرحيل ، فمشيت حتى جاوزت الجيش ، فلما قضيت شأنى ،

---

(١) الظلال م ٥ ص ٢٤٩٥ بتصرف .

أقبلت إلى رحلى ، فلمست صدرى ، فإذا عقد لى من جزع ظفار قد انقطع ، فرجعت فالتمست عقدى ، فحبسنى ابتغاؤه . قالت : وأقبل الرهط الذين كانوا يرحلونى ، فاحتملوا هودجى فرحلوه على بعيرى الذى كنت أركب عليه ، وهم يحسبون أنى فيه ، وكان النساء إذ ذاك خفافاً لم يهبلن ولم يغشهن اللحم ، إنما يأكلن العلقة من الطعام ، فلم يستنكر القوم خفة الهودج حين رفعوه وحملوه ، وكنت جارية حديثة السن ، فبعثوا الجمل ، فساروا ، ووجدت عقدى بعد ما استمر الجيش ، فجئت منازلهم وليس بها منهم داع ولا مجيب ، فتيممت منزلى الذى كنت به وظننت أنهم سيفقدوننى فيرجعون إلىّ ، فبينا أنا جالسة فى منزلى غلبتنى عينى فنمت ، وكان صفوان بن المعطل السلمى ثم الذكواني من وراء الجيش فأصبح عند منزلى ، فرأى سواد إنسان نائم ، فعرفنى حين رآنى ، وكان رآنى قبل الحجاب ، فاستيقظت باسترجاعه حين عرفنى ، فخمرت وجهى بجلبابى ، ووالله ما تكلمنا بكلمة ولاسمعت منه كلمة غير استرجاعه وهوى حتى أناخ راحلته ، فوطىء على يدها ، فقمت إليها فركبتها ، فانطلق يقود لى الراحلة حتى أتينا الجيش موغرين فى نحر الظهيرة وهم نزول ، قالت : فهلك من هلك ، وكان الذى تولى كبر الإفك عبد الله بن أبى بن سلول . قال عروة : أخبرت أنه كان يشاع ويتحدث به عنده ، فيقره ويستمعه ويستوشيه ، وقال عروة أيضاً : لم يسم من أهل الإفك أيضاً إلا حسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش فى ناس آخرين ، لا علم لى بهم ، غير أنهم عصبة كما قال الله تعالى وإن كبر ذلك ، يقال عبد الله بن أبى سلول قال عروة : كانت عائشة تكره أن يسب عندها حسان ، وتقول إنه الذى قال :

فإن أبى ووالده وعرضى   لعرض محمد منكم وقاء

قالت عائشة : فقدمنا المدينة ، فاشتكيت حين قدمت شهراً ، والناس يفيضون فى قول أصحاب الإفك لا أشعر بشىء من ذلك ، وهو يريبنى فى وجعى أنى لا أعرف من رسول الله ﷺ اللطف الذى كنت أرى منه حين أشتكى ، إنما يدخل علىّ رسول الله ﷺ فيسلم ثم يقول : **كيف تيكم** ، ثم

ينصرف ، فذلك يريبني ، ولا أشعر بالشر حتى خرجت حين **نقهت** ، فخرجت مع أم مسطح قبل المناصع ، وكان متبرزنا وكنا لا نخرج إلا ليلا إلى ليل ، وذلك قبل أن نتخذ الكنف قريباً من بيوتنا . قالت : وأمرنا أمر العرب الأول فى البرية قبل الغائط ، وكنا نتأذى بالكنف أن نتخذها عند بيوتنا ، قالت : فانطلقت أنا وأم مسطح وهى ابنة أبى رهم بن عبد المطلب ابن عبد مناف ، وأمها بنت صخر بن عامر خالة أبى بكر الصديق ، وابنها مسطح بن أثاثة بن عباد بن عبد المطلب ، فأقبلت أنا وأم مسطح قبل بيتى حين فرغنا من شأننا ، فعثرت أم مسطح فى مرطها ، فقالت : تعس مسطح ، فقلت لها : بئس ما قلت ، أتسبين رجلا شهد بدراً ، فقالت : أى هنتاه ، ولم تسمعى ما قال ؟ قالت : قلت : ما قال ؟ فأخبرتنى بقول أهل الإفك ، قالت : فازددت مرضاً على مرضى ، فلما رجعت إلى بيتى دخل علىّ رسول الله ﷺ ثم قال : **كيف تيكم** ؟ فقلت له : أتأذن لى أن آتى أبوى ؟ قالت : وأريد أن أستيقن الخبر من قبلهما . قالت : فأذن لى رسول الله ﷺ ، فقلت لأمى : يا أماه ، ماذا يتحدث الناس ؟ قالت : يا بنية ، هونى عليك ، فوالله لقلما كانت امرأة قط وضيئة عند رجل يحبها لها ضرائر إلا كثرن عليها . قالت : فقلت : سبحان الله ، أوَ لقد تحدث الناس بهذا ؟ قالت : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكى . قالت : ودعا رسول الله ﷺ على بن أبى طالب وأسامة بن زيد ، حين استلبث الوحى يسألهما ويستشيرهما فى فراق أهله . قالت : فأما أسامة ، فأشار على رسول الله ﷺ بالذى يعلم من براءة أهله ، وبالذى يعلم لهم فى نفسه ، فقال أسامة : أهلك ولا نعلم إلا خيراً . وأما علىّ فقال : يا رسول الله ، لم يضيق الله عليك ، والنساء سواها كثير ، وسل الجارية تصدقك . قالت : فدعا رسول الله ﷺ بريرة ، فقال : **أى بريرة ، هل رأيت من شىء يريبك** ؟ قالت له بريرة : والذى بعثك بالحق ما رأيت عليها أمراً قط أغمصه ، غير أنها جارية حديثة السن ، تنام عن عجين أهلها ، فتأتى الداجن فتأكله ، قالت : فقام رسول الله ﷺ من يومه ، فاستعذر من عبد الله بن أبى وهو على المنبر ، فقال : **يا معشر المسلمين ، من يعذرنى من رجل قد بلغنى عنه أذاه فى أهلى ،**

والله ما علمت على أهلي إلا خيراً ، ولقد ذكروا رجلا ما علمت عليه إلا خيراً وما يدخل على أهلي إلا معي .

قالت : فقام سعد بن معاذ أخو بنى عبد الأشهل ، فقال : أنا يا رسول الله أعذرك ، فإن كان من الأوس ضربت عنقه ، وإن كان من إخواننا من الخزرج ، أمرتنا ففعلنا أمرك ، قالت : فقام رجل من الخزرج ، وكانت أم حسان بنت عمه من فخذه ، وهو سعد بن عبادة ، وهو سيد الخزرج ، قالت : وكان قبل ذلك رجلا صالحاً ، ولكن احتملته الحمية ، فقال لسعد : كذبت لعمر الله لا تقتله ولا تقدر على قتله ، ولو كان من رهطك ما أحببت أن يقتل ، فقام أسيد بن حضير وهو ابن عم سعد فقال لسعد بن عبادة : كذبت لعمر الله لنقتلنه ، فإنك منافق تجادل عن المنافقين ، قالت : فثار الحيان الأوس والخزرج ، حتى هموا أن يقتتلوا ، ورسول الله ﷺ قائم على المنبر ، قالت : فلم يزل رسول الله ﷺ يخفضهم ، حتى سكتوا وسكت . قالت : فبكيت يومى ذلك كله لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم . قالت : وأصبح أبواى عندى ، وقد بكيت ليلتين ويوماً لا يرقأ لى دمع ولا أكتحل بنوم ، حتى إنى لأظن أن البكاء فالق كبدى ، فبينا أبواى جالسان عندى وأنا أبكى ، فاستأذنت عليَّ امرأة من الأنصار ، فأذنت لها ، فجلست تبكى معى ، قالت : فبينا نحن على ذلك دخل رسول الله ﷺ علينا ، فسلم ثم جلس ، قالت : ولم يجلس عندى منذ قيل ما قيل قبلها ، وقد لبث شهراً لا يوحى إليه فى شأنى بشيء ، قالت : فتشهد رسول الله ﷺ حين جلس ، ثم قال **أما بعد : يا عائشة إنه بلغنى عنك كذا وكذا فإن كنت بريئة ، فسيبرئك الله ، وإن كنت ألممت بذنب فاستغفرى الله وتوبى إليه ، فإن العبد إذا اعترف ، ثم تاب ، تاب الله عليه** ، قالت : فلما قضى رسول الله ﷺ مقالته قلص دمعى حتى ما أحس منه قطرة ، فقلت لأبى : أجب رسول الله ﷺ عنى فيما قال ، فقال أبى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ . فقلت لأمى : أجيبى رسول الله ﷺ فيما قال ، قالت أمى : والله ما أدرى ما أقول لرسول الله ﷺ فقلت وأنا جارية حديثة السن لا أقرأ من القرآن كثيراً : إنى والله لقد علمت لقد سمعتم هذا الحديث حتى استقر فى أنفسكم

وصدقتم به ، فلئن قلت لكم إنى بريئة لا تصدقونى ، ولئن اعترفت لكم بأمر والله يعلم أنى منه بريئة لتصدقنى ، فوالله لا أجد لى ولكم مثلا إلا أبا يوسف حين قال : فصبر جميل والله المستعان على ما تصفون . ثم تحولت واضطجعت على فراشى ، والله يعلم أنى حينئذ بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءتى ، ولكن والله ما كنت أظن أن الله منزل فى شأنى وحيا يتلى ، لشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فو الله ما رام رسول الله ﷺ مجلسه ولاخرج أحد من أهل البيت حتى أنزل عليه ، فأخذه ما كان يأخذه من البرحاء حتى إنه ليتحدر منه من العرق مثل الجمان وهو فى يوم شات من ثقل القول الذى أنزل عليه . قالت : فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكانت أول كلمة تكلم بها أن قال : **يا عائشة ، أما الله فقد برأك** . قالت : فقالت لى أمى : قومى إليه . فقلت : والله لا أقوم إليه ، فإنى لا أحمد إلا الله عز وجل . قالت : وأنزل الله تعالى : ﴿ **إن الذين جاؤوا بالإفك** ﴾ العشر الآيات ثم أنزل الله هذا فى براءتى . قال أبو بكر الصديق وكان ينفق على مسطح بن أثاثة لقرابته منه وفقره : والله لا أنفق على مسطح شيئاً أبداً بعد الذى قال لعائشة ما قال . فأنزل الله : ﴿ **ولا يأتل أولوا الفضل منكم** ﴾ .. إلى قوله : ﴿ **غفور رحيم** ﴾ .قال أبو بكر الصديق : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى ، فرجع إلى مسطح النفقة التى كان ينفق عليه ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً ، قالت عائشة : وكان رسول الله ﷺ سأل زينب بنت جحش عن أمرى ، فقال لزينب : ماذا علمت أو رأيت ؟ فقالت : يا رسول الله ، أحمى سمعى وبصرى ، والله ما علمت إلا خيراً ، قالت عائشة وهى التى كانت تساميني من أزواج النبى ﷺ فعصمها الله بالورع قالت : وطفقت أختها حمنة تحارب لها ، فهلكت فيمن هلك . قال ابن شهاب : فهذا الذى بلغنى من حديث هؤلاء الرهط ، ثم قال عروة : قالت عائشة : والله إن الرجل الذي قيل له ما قيل ليقول سبحان الله ، فو الذى نفسى بيده ما كشفت من كنف أنثى قط ، قالت : ثم قتل بعد ذلك فى سبيل الله(١) .

---

(١) صحيح البخارى م ٢ ج ٥ ص ١٤٨ إلى ص ١٥٤ .

هذه الآيات البينات ، وحديث السيدة عائشة عن حادثة الإفك ، تلقى أضواء نيرة على كثير من العادات فى المجتمع المدنى ورواسب الجاهلية التى استمرت حتى السنة السادسة من الهجرة .

وقد كان هناك من يتلذذ بنشر الأخبار الصحيحة وغير الصحيحة ، وهناك من كانت هوايته رمى المحصنات ، فكاد المجتمع يغمره موج من العواطف الشهوانية (١) فى مثل هذا راجت فرية ساقطة كهذه فى جو الجماعة المسلمة ، مما يدل على أن المجتمع كان فى حاجة ماسة إلى التطوير والتطهير ، وتحمل عبء ذلك التطوير والتطهير رسول الله ﷺ وأهل بيته وأبو بكر رضى الله عنه وأهل بيته ، وصفوان بن المعطل ، الصحابى الجليل ، تحملوا جميعاً هذا الشهر كله فى مثل هذا الجو الخانق ، فى وهج تلك الآلام القاهرة ، بسبب حديث الإفك الذى نزلت فيه تلك الآيات البينات ، التى تصور المجتمع المدنى تصويراً دقيقاً من جوانب شتى .

والذى تولى كبره وقاد حملته رأس النفاق : عبد الله بن أبى بن سلول ، وزيد بن رفاعة ، وحسان بن ثابت ، ومسطح بن أثاثة ، وحمنة بنت جحش ومن ساعدهم (٢) فكان ابن أبى وزيد بن رفاعة من المنافقين ، وكان مسطح وحسان وحمنة من المسلمين لكنهم انخدعوا لمكائد رأس النفاق وصاحبه زيد بن رفاعة ، فخاضوا فى حديث الإفك على خطأ منهم وضعف (٣) .

ولنا أن نقتطف من حديث الطاهرة المبرأة عائشة ، تعبيرات تصور هول الموقف والاضطراب ، والجو الخانق الذى عاشه المجتمع المدنى ، وما أحدثته فيه تلك العصابة المذكورة من بلبلة وحيرة ، فعندما أخبرت أم مسطح عائشة بقول أهل الإفك ، ازدادت عائشة مرضاً إلى مرض ، فتسأل أمها فى أسى : سبحان الله ، أو قد تحدث الناس بهذا ؟ !! وقد علم أبى ؟!!

---

(١) تفسير سورة النور للمودودى ص ٨٩ ط الاعتصام .
(٢) الكشاف للزمخشرى ج ٣ ص ٥٢ ط دار المعارف ببيروت .
(٣) تفسير سورة النور للمودودى ص ١٢٣ ط الاعتصام .

فتجيب أمها فى أسى بالغ : نعم ! ، فتقول : ورسول الله ﷺ ؟!! فتجيب أمها كذلك : نعم ! قالت عائشة : فبكيت تلك الليلة حتى أصبحت لا يرقأ لى دمع ، ولا أكتحل بنوم ، ثم أصبحت أبكي .

والله عز وجل يريد لحكمة يراها أن يدع هذا الأمر شهراً كاملًا لا يبين فيه بياناً ، والنبى ﷺ يعانى ما يعانيه الإنسان فى هذا الموقف الأليم ، ومع وجود قرائن كثيرة على براءة أهله ، لكنه لا يطمئن تماماً إلى هذه القرائن ، ويتطلع فى شغف بالغ إلى أن ينزل من عند الله ما يقطع بأمر ، ويعالج ويقوم عوجاً فيطهر المجتمع ويطوره وينميه .

والفرية تفوح فى جنبات وردهات المدينة ، والألسنة المريضة تلوك بلذة هذه الفرية والألسنة الطاهرة تدفع تلك دفعاً ، وأراد النبى ﷺ أن يطرد الشك ، فيبعث إلى أسامة بن زيد ، وعلى بن أبى طالب يستشيرهما فى خاصة أمره ، ليستمد من حديث أسامة ، ومن شهادة الجارية مدداً وقوة يواجه بها القوم فى المسجد .

وعندما تصل الآلام إلى ذروتها على هذا النحو تنفرج الأزمات ، فينزل القرآن الكريم ببراءة عائشة ، ويعرى المنافقين الذين حاكوا هذا الإفك ، ويرسم الطريق المستقيم للمجتمع فى مواجهة مثل هذا الشأن العظيم (١) ولقد قالت عائشة — رضى الله عنها — عن هذا القرآن الذى نزل : « وأنا والله أعلم حينئذ أنى بريئة ، وأن الله مبرئى ببراءة ، ولكنى والله ماكنت أظن أن ينـزل الله تعـالى فى شأنى وحيـاً يتلى ، ولشأنى فى نفسى كان أحقر من أن يتكلم الله فىّ بأمر يتلى ، ولكن كنت أرجو أن يرى رسول الله ﷺ فى النوم رؤيا يبرئنى الله بها ، فو الله ما راح رسول الله ﷺ ولا خرج من أهل البيت أحد حتى أنزل الله تعالى على نبيه ، فسرى عن رسول الله ﷺ وهو يضحك ، فكان أول كلمة تكلم بها أن قال : « **أبشرى يا عائشة ، أما الله — عز وجل — فقد برأك** » (٢) .

---

(١) فى ظلال القرآن م ٤ ص ٢٤٩٩ — ٢٥٠٠ (باختصار وتصرف) .

(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٤٣٢ .

وتناول القرآن الكريم المعركة الدائرة فى جنبات المجتمع المدنى ضد الإسلام ورسوله ، وكشف عن الحكمة العليا وراء ذلك كله :

﴿ إن الذين جاءوا بالإفك عصبة منكم لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم لكل امرىء منهم ما اكتسب من الإثم والذى تولى كبره منهم له عذاب عظيم ﴾ (١) .

ويلاحظ أن الله تعالى قد أنزل من أحكام الزنى والقذف واللعان فى عشر آيات هى صدر سورة « النور » من قبل تنزيله براءة عائشة — رضى الله عنها — وفى ذلك تنبيه للمسلمين إلى أن حقيقة الأمر على أنه ليست الرمية لأحد بالزنى بأمر هين يتلاعب به الناس ، ويتناقلونه فى مجالسهم ومحافلهم ، بل هو قول فى غاية من الثقل يحمل صاحبه تبعة كبرى (٢) .

﴿ لا تحسبوه شراً لكم بل هو خير لكم ﴾ .

تأتى هذه الآية بعد المعاناة النفسية العميقة ، وفى وسط الأحداث والبيئة ما تزال تتحدث فى هذا الحدث العظيم ، فأى خير هذا ؟! .

هو خير للبيئة الجديدة النامية ، وخير لحفظ شرف الجماعة ، لأنه أنشأ نظام القذف ، وبين مدى الأخطار التى تحيق بالمجتمع لو أطلقت فيه الألسنة تقذف المحصنات المؤمنات الغافلات ، فهى عندئذ لا تقف عند حد وإنما تسىء إلى المجتمع ، وتشيع فيه البلبلة ، وتتطاول إلى أشرف البيوت .

وهو خير أن يكشف الله لهذا المجتمع عن المنهج القويم والأنظمة الصارمة فى مواجهة مثل هذا الأمر العظيم .

وهذه الأنظمة الجديدة التى تلقاها المسلمون هى من الدقة والإحكام بحيث لو طبقت لعاش المجتمع فى أمن وسلام ، وسلم من نشوء

---

(١) النور : ١١ .

(٢) تفسير سورة النور للمودودى ص ١٢٢ (باختصار وتصرف) .

المنكرات والفواحش ومن السهل تداركها إذا نشأت (١) .

موقف المؤمن نحو الشائعات :

هذا المجتمع المدنى الذى تمثل حقيقة واقعة فى فترة من فترات التاريخ لم ينبت فجأة ولم يوجد مصادفة بل نما نمواً طبيعياً كما تنمو الشجرة الباسقة العميقة الجذور ، وأخذ الزمن اللازم لاستكمال نموه بأبعاده الخلقية والفكرية والاجتماعية ، كما أخذ الجهد الموصول المضطرد لهذا النمو ، واحتاج إلى العناية الساهرة والصبر الطويل والتقوية والتثبت فى الأمور كلها : **﴿ يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين ﴾** .

ومن ثم جاء هذا النداء للمؤمنين كيف يتلقون الأنباء وكيف يتصرفون بها وكيف يقف المؤمن نحو الشائعات .

وتخصص الآية الفاسق لأنه مظنة الكذب وحتى لا يشيع شك فى المجتمع فى كل ما ينقل أفراده من أنباء .

وقد ذكر المؤرخون والمفسرون أكثر من رواية بسبب نزول الآية المذكورة والتى نزلت عندما انصرف رسول الله ﷺ من غزوة بنى المصطلق .

قال ابن إسحاق : وحدثنى يزيد بن رومان : أن رسول الله ﷺ بعث إليهم بعد إسلامهم الوليد بن عقبة بن أبى معيط ، فلما سمعوا به ركبوا إليه ، فلما سمع بهم هابهم ، فرجع إلى رسول الله ﷺ ، فأخبره أن القوم قد هموا بقتله ، ومنعوه ما قبلهم من صدقتهم ، فأكثر المسلمون فى ذكر غزوهم ، حتى همَّ رسول الله ﷺ بأن يغزوهم ، فبينا هم على ذلك قدم وفدهم على رسول الله ﷺ ، فقالوا : يا رسول الله سمعنا برسولك حين بعثته إلينا ،

---

(١) المصدر السابق ص ١٢٥ ، الظلال م ٤ ص ٢٥٠٠ (باختصار وتصرف) .

فخرجنا إليه لنكرمه ، ونؤدى ما قبلنا من الصدقة ، فانشمر راجعاً ، فبلغنا أنه زعم لرسول الله ﷺ أنا خرجنا إليه لنقتله ، ووالله ما جئنا لذلك ، فأنزل الله تعالى فيه وفيهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوماً بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين . وأعلموا أن فيكم رسول الله لو يطيعكم فى كثير من الأمر لعنتم** ﴾ إلى آخر الآيات (١) .

يوجه القرآن الكريم المسلمين إلى الصراط المستقيم إذا ما رأوا الشائعات تنتشر ، ويتناقلها الناس ، ويبين لهم المنهج فى مواجهة الأمور بوصفه أول خطوة فى الحكم عليها : ﴿ **لولا إذ سمعتموه ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً وقالوا هذا إفك مبين** ﴾ هذا الموقف وهذه الخطوة الأولى فى مثل هذه القضايا أن يظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً ، وأن يستبعدوا سقوط أنفسهم فى مثل هذه الحمأة .

وكذلك تصرف الصحابى الجليل أبو أيوب خالد بن زيد الأنصارى تصرف المؤمن الحذر عندما سألته زوجته أم أيوب فى مناقشة ومدارسة هادئة ، قالت له : « يا أبا أيوب ، أما تسمع ما يقول الناس فى عائشة رضى الله عنها ؟ قال : نعم ، وذلك الكذب ، أكنت فاعلة ذلك يا أم أيوب ؟ قالت:لاوالله ما كنت لأفعله . قال : فعائشة والله خير منك (٢) .

والرواية تدل على أن مجموعة من المؤمنين الطيبين رجعت إلى نفسها ، واستفتت قلبها ، فاستبعدت أن يقع ما نسب إلى عائشة وما نسب إلى رجل من المسلمين : ﴿ **ظن المؤمنون والمؤمنات بأنفسهم خيراً** ﴾ .

هذه هى الخطوة الأولى فى المنهج الذى يفرضه القرآن على المؤمنين لمواجهة هذه الأمور ــ والآية تتضمن قاعدة كلية من قواعد الحياة الاجتماعية ، وهى أنه ينبغى أن يكون الأساس للروابط الاجتماعية فى المجتمع المسلم حسن الظن ، ولا ينبغى أن يظن بعضهم ببعض سوءاً إلا إذا كان له أساس إيجابى قاطع ، فالمبدأ الذى يقوم عليه المجتمع الإسلامى هو أن كل أحد برىء لا إثم عليه ما لم يكن ثمة أساس قوى معقول لكونه مجرماً أو للشك فى جريمته على الأقل (٣) .

---

(١) الروض الأنف ج ٤ ص ٩ مكتبة ومطبعة عباس عبد السلام شقرون ، تفسير ابن كثير م ٤ ص ٣٢٢ باختلاف يسير .

(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٤ ط دار الفكر ١٩٨٠ م .

(٣) تفسير سورة النور ص ١٣٢ .

والخطوة الثانية فى المنهج : طلب الدليل والبرهان الواقعى : ﴿ **لولا جاءوا عليه بأربعة شهداء فإذ لم يأتوا بالشهداء فأولئك عند الله هم الكاذبون** ﴾ .

وقد يعجز الرجل عن إقامة البينة وهو صادق فى قذفه ، لكنه فى حكم الشرع وظاهر الأمر كاذب لا فى علم الله تعالى .

ويوضح هذا المفهوم ويقوى هذا المعنى ما أخرجه البخارى عن عمر ابن الخطاب رضى الله عنه أنه قال : « أيها الناس إن الوحى قد انقطع ، وإنما نأخذكم الآن بما ظهر لنا من أعمالكم ، فمن أظهر لنا خيراً أمناه وقربناه ، وليس لنا من سريرته شيء ، الله يحاسبه فى سريرته ، ومن أظهر لنا سوءاً لم نؤمنه ولم نصدقه ، وإن قال : إن سريرته حسنة » (١) .

هاتان الخطوتان : خطوة عرض الأمر على القلب واستفتاء الضمير ، وخطوة التثبت بالنية والدليل ، غفل عنها بعض المؤمنين فى حادثة **الإفك** ، وتركوا الألسن تلوك عرض رسول الله ﷺ ، والله يحذرهم أن يعودوا لمثله : ﴿ **ولولا فضل الله عليكم ورحمته فى الدنيا والآخرة لمسكم فيما أفضتم فيه عذاب عظيم** ﴾ (٢) .

والقرآن يرسم صوراً لأطراف المجتمع المدنى وبيوتها ونواديها ، صوراً لتلك الفترة التى أفلت فيها الزمام ، واختلت فيها المقاييس ، واضطربت فيها القيم : ﴿ **إذ تلقونه بألسنتكم وتقولون بأفواهكم ما ليس لكم به علم وتحسبونه هيناً وهو عند الله عظيم** ﴾ (تلقونه) : يأخذه بعضكم من بعض يقال : تلقى القول وتلقنه وتلقفه (٣) . لسان يتلقى عن لسان بلا تدبر ولا ترو ، وهذا **الإفك** ليس إلا قولًا يجرى على ألسنتكم ، ويدور فى أفواهكم من غير ترجمة عن علم به فى القلب ، وذلك أن الرجل كان يلقى

---

(١) تفسير القرطبى ج ١٢ ص ٢٠٣ .

(٢) الظلال م ٤ ص ٢٥٠٢ .

(٣) الكشاف للزمخشرى م ٣ ص ٥٤ .

الرجل فيقول له : ما وراءك ؟ فيحدثه بحديث الإفك حتى شاع وانتشر فلم يبق بيت ولا ناد إلا طار فيه (١) .

الكلمات والروايات تصور مشهد تلقى هذا الحادث وسط النوادى والبيوت ، وتناقلها بين الناس بيسر وبدون عناء حتى إن القرآن يصور فيقول : ﴿ **وتحسبونه هيناً** ﴾ ، ومن الغريب أن يخوض فى مثل هذه الأمور أفراد مجتمع المدينة ، وتصل الأخبار إلى أسماع نبى الهدى ﷺ ، والألم يعصر قلبه وقلب زوجه وأهله : ﴿ **وهو عند الله عظيم** ﴾ .

ولقد كان ينبغى أن تجفل القلوب من مجرد سماعه ، وأن تقذف بهذا الإفك بعيداً عن ذلك الجو الطاهر الكريم : ﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا سبحانك هذا بهتان عظيم . يعظكم الله أن تعودوا لمثله أبداً إن كنتم مؤمنين** ﴾ .

هكذا يرشد القرآن المجتمع المدنى ، ويبين له سبل التصرف فى مثل هذه الحوادث .

ويعبر ابن كثير عن رأيه فيقول : « هذا تأديب آخر بعد الأول الآمر بظن الخير ، أى إذا ذكر مالا يليق من القول فى شأن الخيرة ، فأولى ينبغى الظن بهم خيراً ، وألا يشعر نفسه سوى ذلك ثم إن علق بنفسه شىء من ذلك وسوسة أو خيالاً ، فلا ينبغى أن يتكلم به ، فإن رسول الله ﷺ قال : « **إن الله تعالى تجاوز لأمتى عما حدثت به أنفسها مالم تقل أو تعمل** » أخرجاه فى الصحيحين ، وقال الله تعالى : ﴿ **ولولا إذ سمعتموه قلتم ما يكون لنا أن نتكلم بهذا** ﴾ أى ما ينبغى لنا أن نتفوه بهذا الكلام ولا نذكره لأحد : ﴿ **سبحانك هذا بهتان عظيم** ﴾ ، أى سبحان الله أن يقال هذا الكلام على زوجة رسوله وحليلة خليله » (٢) .

ويمضى القرآن فى التعقيب على حديث الإفك وما تخلف عنه من آثار مكرراً التحذير من مثله متوعداً من يرمون المحصنات الغافلات المؤمنات

---

(١) المصدر نفسه ص ٥٤ .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٧٤ .

بعذاب الله فى الآخرة : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون.ولولا فضل الله عليكم ورحمته وأن الله رؤوف رحيم** ﴾ (١) .

والمفهوم المباشر لهذه الآيات باعتبار سياقها ، هو أن الذين يختلقون مثل هذه الاتهامات الكاذبة ، ويعملون بنشرها على إشاعة الفاحشة فى المجتمع ، وتحطيم أخلاق الأمة المسلمة يستحقون العقاب ،.إلا أن ألفاظ القرآن شاملة لجميع صور إشاعة الفاحشة والانحلال الخلقى (٢) .

وذلك جانب من منهج التربية ، وإجراء من إجراءات الوقاية ، يقوم على خبرة بالنفس البشرية ، ومعرفة بطريقة تكيف مشاعرهم ، ومن ثم تعقب بقوله : ﴿ **والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ (٣) .

وقد سلك القرآن مسلكاً مباركاً فى اتخاذ هذا الحدث منهجاً للتربية ، وأصولا ثابتة لحماية المجتمع من انتشار الفحشاء والمنكر ، واعتبره نزعة شيطانية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتبعوا خطوات الشيطان ومن يتبع خطوات الشيطان فإنه يأمر بالفحشاء والمنكر ولولا فضل الله ورحمته ما زكى منكم من أحد أبداً** ﴾ .

وإنها لصورة مستنكرة ، أن يخطو الشيطان فيتبع المؤمنون خطاه ، وحديث الإفك نموذج من هذا المنكر الذى خاض فيه بعض أفراد المجتمع .

وهناك نموذج آخر مشرق ، تمخض من خلال التربية وسط الأحداث وقصة ذلك أنه لما نزلت آيات البراءة فى شأن عائشة رضى الله عنها ، اتخذ الرسول ﷺ الإجراءات ضد من اتهم فى حديث الإفك ، ومنهم مسطح ابن أثاثه رضى الله عنه ، وكان بدوياً مهاجراً ، وكان ابن خالة أبى بكر الصديق وكان مسكيناً لا مال له إلا ما ينفقه عليه أبو بكر الصديق رضى الله عنه ، فتأثر الصديق رضى الله عنه بهذا الحادث ، وحلف ألا ينفق على

---

(١) النور : ١٩ ، ٢٠ .
(٢) تفسير سورة النور للمودودى ص ١٣٢ .
(٣) الظلال م ٤ ص ٢٥٠٣ باختصار وتصرف .

مسطح لخوضه فى شأن عائشة ، فوجه الله تعالى أفراد هذا المجتمع مشيراً إلى ذلك الحادث قائلا :

وَلَا يَأْتَلِ أُوْلُواْ ٱلْفَضْلِ مِنكُمْ وَٱلسَّعَةِ أَن يُؤْتُوٓاْ أُوْلِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينَ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ وَلْيَعْفُواْ وَلْيَصْفَحُوٓاْ ۗ أَلَا تُحِبُّونَ أَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٢﴾

النور : ٢٢ .

« فعند ذلك قال الصديق : بلى والله نحب أن تغفر لنا ياربنا . ثم رجع إلى مسطح ما كان يصله من النفقة ، وقال : والله لا أنزعها منه أبداً فى مقابل ما كان قال » (١) .

صورة جميلة من صور التطوير ، تطوير القلوب وتطهير النفوس التى تطهرت بنور الله ، صورة لفرد تربى وسط الأحداث وبين أحضان النبوة ، فهذا هو أبو بكر الذى مسه حديث الإفك فى أعماق قلبه ، والذى احتمل مرارة الاتهام لبيته وعرضه ، فما يكاد يسمع دعوة ربه إلى العفو ، وما يكاد يلمس وجدانه ذلك السؤال الموحى : « **ألا تحبون أن يغفر الله لكم** » حتى يرتفع عن الآلام ويرتفع على مشاعر الإنسان ، ويرتفع على منطق البيئة ، ويقول فى صدق وطمأنينة : بلى والله إنى لأحب أن يغفر الله لى (٢) .

عقب هذا الحدث العظيم تلقى المجتمع المدنى كثيراً من المفاهيم والمعايير والأنظمة الجديدة منها :

١ ــ أمرت أزواج النبى ﷺ أن يلزمن بيوتهن ولا يخرجن منها :

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص : ٢٧٧ ط الأولى .

(٢) الظلال م ٤ ص ٢٥٠٥ بتصرف .

﴿ ... الزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

الأحزاب : ٣٣ .

٢ ــ منع الرجال أن يدخلوا بيوت النبى ﷺ إلا أن يؤذن لهم : **﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوت النبى إلا أن يؤذن لكم إلى طعام غير ناظرين إناه .. ﴾** .

٢ ــ قيل للمؤمنين : إن أزواج النبى ﷺ أمهاتهم ، وإن حرمتهم عليهم أبدية .. **﴿ وأزواجه أمهاتهم .. ﴾ ﴿ ... وما كان لكم أن تؤذوا رسول الله ولا أن تنكحوا أزواجه من بعده أبداً إن ذلكم كان عند الله عظيماً ﴾** .

٤ ــ كشف القرآن الكريم المروجين للشائعات ، وحذر المؤمنين من الخوض معهم **﴿ إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون ﴾** .

٥ ــ أمر أفراد المجتمع المدنى بالغض من أبصارهم **﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ﴾** (١) .

ويتضح من ذلك أن الابتلاء والامتحان ، ليس وقفاً على طائفة دون أخرى ، فها هو ذا الرسول ﷺ يُبتلى بهذه المحنة ، ويحتملها صابراً ، ويسلك فيها ما ينبغى له أن يسلك من تحر دقيق لجلية الأمر واستيثاق للحقيقة ، فلا يقطع بالشبهة ، ولا يسلم بالاتهام ، ولا ينكره أو يرفضه رفضاً تاماً ، بل يتوخى سبل البحث والتحرى ، ثم الانتظار لأمر الله سبحانه وتعالى . وهذا منهج جديد استنه التوجيه القرآنى بادئاً بالرسول الأعظم كنموذج يحتذى ومثال يقتدى .

---

(١) راجع تفسير سورة النور للمودودى ص ٢٤ ــ ٢٦ .

غــزوة تبــوك ..

الآيات تتحدث عن غزوة تبوك

يقول الحق عز وعلا :

﴿ أَمْ حَسِبْتُمْ أَن تُتْرَكُوا۟ وَلَمَّا يَعْلَمِ ٱللَّهُ ٱلَّذِينَ جَٰهَدُوا۟ مِنكُمْ وَلَمْ يَتَّخِذُوا۟ مِن دُونِ ٱللَّهِ وَلَا رَسُولِهِۦ وَلَا ٱلْمُؤْمِنِينَ وَلِيجَةً ۚ وَٱللَّهُ خَبِيرٌۢ بِمَا تَعْمَلُونَ ﴿١٦﴾ ﴾ التوبة : ١٦ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ

حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ انفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

التوبة : ٣٨ ــ ٤١ .

وَمِنْهُم مَّن يَقُولُ ٱئْذَن لِّى وَلَا تَفْتِنِّىٓ ۚ أَلَا فِى ٱلْفِتْنَةِ سَقَطُوا۟ ۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةٌۢ بِٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

التوبة : ٤٩ .

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾

التوبة : ٩٠ ــ ٩٢ .

وَءَاخَرُونَ ٱعْتَرَفُوا۟ بِذُنُوبِهِمْ خَلَطُوا۟ عَمَلًا صَـٰلِحًا وَءَاخَرَ سَيِّئًا عَسَى ٱللَّهُ أَن يَتُوبَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿١٠٢﴾

التوبة : ١٠٢ .

وَءَاخَرُونَ مُرْجَوْنَ لِأَمْرِ ٱللَّهِ إِمَّا يُعَذِّبُهُمْ وَإِمَّا يَتُوبُ عَلَيْهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١٠٦﴾

التوبة : ١٠٦

لَّقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ وَكُونُوا۟ مَعَ ٱلصَّٰدِقِينَ ﴿١١٩﴾

التوبة : ١١٧ — ١١٩

★ ★ ★

(٧) غزوة تبوك وحادثة الثلاثة الذين خلّفوا ..

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْـَٔاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَـٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْـَٔاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴿٣٨﴾ إِلَّا تَنفِرُوا۟ يُعَذِّبْكُمْ عَذَابًا أَلِيمًا وَيَسْتَبْدِلْ قَوْمًا غَيْرَكُمْ وَلَا تَضُرُّوهُ شَيْـًٔا ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٣٩﴾ إِلَّا تَنصُرُوهُ فَقَدْ نَصَرَهُ ٱللَّهُ إِذْ أَخْرَجَهُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ثَانِىَ ٱثْنَيْنِ إِذْ هُمَا فِى ٱلْغَارِ إِذْ يَقُولُ لِصَـٰحِبِهِۦ لَا تَحْزَنْ إِنَّ ٱللَّهَ مَعَنَا ۖ فَأَنزَلَ ٱللَّهُ سَكِينَتَهُۥ عَلَيْهِ وَأَيَّدَهُۥ بِجُنُودٍ لَّمْ تَرَوْهَا وَجَعَلَ كَلِمَةَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ ٱلسُّفْلَىٰ ۗ وَكَلِمَةُ ٱللَّهِ هِىَ ٱلْعُلْيَا ۗ وَٱللَّهُ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٠﴾ ٱنفِرُوا۟ خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَـٰهِدُوا۟ بِأَمْوَٰلِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤١﴾

التوبة : ٣٨ ــ ٤١ .

هذا المقطع من سياق السورة ، الغالب أنه نزل بعد الأمر بالنفير العام لغزوة تبوك ، ذلك حين بلغ رسول الله ﷺ أن الروم قد جمعوا له على أطراف الجزيرة بالشام ، وأن هرقل قد رزق أصحابه رزق سنة ، وانضمت إليهم لخم وجذام وعاملة وغسان من قبائل العرب ، وقدموا مقدماتهم إلى البلقاء من أعمال الشام ، فاستنفر الناس إلى قتال الروم ، وكان ﷺ قلما

يخرج إلى غزوة إلا ورّى بغيرها مكيدة فى الحرب ، إلا ما كان من هذه الغزوة ، فقد صرّح بها لبعد المشقة وشدة الزمان ، إذ كان ذلك فى شدة الحر حين طابت الظلال ، وأينعت الثمار وحبب إلى الناس المقام ، عندئذ بدت تظهر فى المجتمع مظاهر البيئة وأعراضها ، وبدأت تتجلى نماذج من الناس وتركاتهم وثقلهم فى هذا المجتمع (١) .

يقول ابن كثير : « إن هذه الآية أمر الله تعالى فيها بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك » . إلا أن الصحابة كلما كانوا يقرأون هذه الآية كانوا يشعرون بثقل التبعة ويدركون أبعاد معنى ﴿ **خفافاً وثقالاً** ﴾ .

﴿ **انفروا خفافاً وثقالاً وجاهدوا بأموالكم وأنفسكم فى سبيل الله ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون** ﴾ وفى رواية أنه لما قرأ أبو طلحة هذه الآية قال : أرى ربنا استنفرنا شيوخاً وشباناً ، جهزونى يا بنى ، فقال بنوه : يرحمك الله ، قد غزوت مع رسول الله ﷺ حتى مات ، ومع أبى بكر حتى مات ، ومع عمر حتى مات ، فنحن نغزو عنك . فأبى ، فركب البحر ، فمات فلم يجدوا له جزيرة يدفنونه فيها إلا بعد تسعة أيام ، فلم يتغير ، فدفنوه فيها (٢) .

غزوة تبوك صورة حية لإبراز حياة المجتمع المدنى وسماته وحياته ، فقد بدأ يكتمل هذا المجتمع المدنى المثالى ، وبدأ أفراده ينضجون ويكونون لبنات هذا المجتمع المثالى ، وقصة أبى طلحة صورة من هذه الصور النموذجية ، وغزوة تبوك حافلة من هذه النماذج وعكسها ، فقال رسول الله ﷺ ذات يوم وهو فى جهاده ذلك للجد بن قيس أحد بنى سلمة : **يا جد : هل لك العام فى جلاد بنى الأصفر** ؟ فقال : يا رسول الله ، لو تأذن لى ولا تفتنى ؟ فوالله لقد عرف قومى أنه ما من رجل بأشد عجباً بالنساء منى ، وإنى أخشى إن رأيت نساء بنى الأصفر . أن لا أصبر. فأعرض عنه ﷺ ، وقال : **قد أذنت لك** (٣) . ففى الجد بن قيس نزلت هذه الآية

---

(١) أسباب نزول القرآن للواحدى ص ٢٤٥ ـــ مختصر ابن كثير م ٢ ص ١٤٣ ، الروض الأنف ج ٣ ص ١٧٣ تقديم وتعليق طه عبد الرؤوف سعد .

(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥٦٠ .

(٣) الروض الأنف : ج ٣ ص ١٧٤ .

﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ التوبة : ٤٩ .

بمثل هذه المحاذير تحرك المنافقون فى مثل هذا الموقف الحرج ، والرد عليه : ﴿ ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ ، والتعبير يرسم مشهداً من المشاهد الخاصة بالمنافقين ، كأن الفتنة فيه هاوية يسقط فيها المفتونون ، وكأن جهنم من ورائهم تحيط بهم ، وصورة أخرى أخاذة من صور المؤمنين الصادقين ، قال ابن إسحاق : ثم إن رجالاً من المسلمين أتوا رسول الله ﷺ ، وهم البكاءون ، وهم سبعة نفر من الأنصار وغيرهم من بنى عمرو بن عوف : سالم بن عمير ، وعلبة بن زيد أخو بنى حارثة ، وأبو ليلى عبد الرحمن بن كعب أخو بنى مازن بن النجار ، وعمرو بن حمام الجموح أخو بنى سلمة وعبد الله بن مغفل المزنى .. إلخ ، فاستحملوا رسول الله ﷺ وكانوا أهل حاجة ، فقال : « **ما أجد ما أحملكم عليه** » . فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون [١] ، وفيهم نزلت الآية : ﴿ **ولا على الذين إذا ما أتوك لتحملهم قلت لا أجد ما أحملكم عليه فتولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزناً ألا يجدوا ما ينفقون** ﴾ [٢] . وفى حديث أنس أن النبى ﷺ كان فى غزاة فقال : **إن أقواماً بالمدينة خلفنا ما سلكنا شعباً ولا وادياً إلا وهم معنا فيه حبسهم العذر** [٣] .

وإنها لصورة مؤثرة للرغبة الصحيحة فى الجهاد والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه ، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات الموثوقة .

أما صور المنافقين فنذكرها فى موضعها من الكتاب بإذن الله .

ولما كانت تلك طبيعة الغزوة وخطورتها فى وقت كانت التربية الإسلامية تكتمل ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين أياً كانت الأسباب أمراً مستنكراً عظيماً ، وكان ما بدا فى الغزوة من التردد والتخلف ظاهرة بيئية لابد من تتبعها والتركيز عليها حتى يتراءى لنا التطور الذى طرأ على

---

(١) الروض الأنف ص ١٧٤ .

(٢) التوبة : ٩٢ .

(٣) أخرجه البخارى ج ٤ ص ٨٦ ط عالم الكتب ــ بيروت .

المجتمع المدنى ، وفى الآيات التالية يبين الله مدى فضله ورحمته إذ يتجاوز عما بدا من التردد والتخلف من المؤمنين المخلصين ، ويتوب عليهم فيما وقعوا فيه من أخطاء ، كذلك يبين مصير الثلاثة الذين خلفوا بغير حكم فى أمرهم ، وهم المرجون لأمر الله :

لَقَد تَّابَ ٱللَّهُ عَلَى ٱلنَّبِيِّ وَٱلْمُهَٰجِرِينَ وَٱلْأَنصَارِ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ فِى سَاعَةِ ٱلْعُسْرَةِ مِنۢ بَعْدِ مَا كَادَ يَزِيغُ قُلُوبُ فَرِيقٍ مِّنْهُمْ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ ۚ إِنَّهُۥ بِهِمْ رَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١١٧﴾ وَعَلَى ٱلثَّلَٰثَةِ ٱلَّذِينَ خُلِّفُوا۟ حَتَّىٰٓ إِذَا ضَاقَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْأَرْضُ بِمَا رَحُبَتْ وَضَاقَتْ عَلَيْهِمْ أَنفُسُهُمْ وَظَنُّوٓا۟ أَن لَّا مَلْجَأَ مِنَ ٱللَّهِ إِلَّآ إِلَيْهِ ثُمَّ تَابَ عَلَيْهِمْ لِيَتُوبُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ هُوَ ٱلتَّوَّابُ ٱلرَّحِيمُ ﴿١١٨﴾ التوبة : ١١٧ ، ١١٨ .

تاب على نبيه محمد ﷺ وأصحابه من المهاجرين والأنصار الذين رافقوه فى غزوة تبوك على عسرة الظهر ، وعسرة الزاد ، وعسرة الماء ﴿ **من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ أى عن الحق ، ويشك فى دين الرسول ﷺ ويرتاب للذى نال من المشقة والشدة فى سفرهم وغزوهم ﴿ **ثم تاب عليهم** ﴾ (١)

وتوبة الله على النبى ﷺ تفهم بالرجوع إلى ما كان فى أحداث الغزوة بجملتها ، والظاهر أنها متعلقة بما سبق أن قال الله لنبيه : ﴿ **عفا الله عنك لم أذنت لهم حتى يتبين لك الذين صدقوا وتعلم الكاذبين** ﴾ ذلك حين استأذن جماعة من أولى الطول بأعذار منتحلة فأذن لهم ، وقد عفا الله عنه فى اجتهاده ﷺ مع تنبيهه بأن الأولى كان هو التريث حتى يتبين الصادقون فى أعذارهم من الكاذبين .

---

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٦١٥ .

وتوبته على المهاجرين والأنصار يشير النص الذى بين أيدينا إلى ملابساتها فى قوله تعالى : ﴿ **الذين اتبعوه فى ساعة العسرة من بعد ما كاد يزيغ قلوب فريق منهم** ﴾ . وقد كان بعضهم تثاقل فى الخروج ، ثم لحق بالركب وهم من خلص المؤمنين ، وبعضهم استمع للمنافقين المرجفين بهول لقاء الروم ، ثم ثبت الله قلبهم ومضى بعد تردد (١) .

ويحسن أن نستعرض حديث كعب بن مالك وقول الله عز وجل : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا** ﴾ كما سجل لنا البخارى :

حدثنا يحيى بن بكير : حدثنا الليث ، عن عقيل ، عن ابن شهاب ، عن عبد الرحمن بن عبد الله بن كعب بن مالك : أن عبد الله بن كعب بن مالك ، وكان قائد كعب من بنيه حين عمى قال : سمعت كعب بن مالك يحدث حين تخلف عن قصة تبوك ، قال كعب : لم أتخلف عن رسول الله ﷺ فى غزوة غزاها إلا فى غزوة تبوك ، غير أنى كنت تخلفت فى غزوة بدر ، ولم يعاتب أحداً تخلف عنها ، إنما خرج رسول الله ﷺ يريد عير قريش حتى جمع الله بينهم وبين عدوهم على غير ميعاد ، ولقد شهدت مع رسول الله ﷺ ليلة العقبة حين تواثقنا على الإسلام ، وما أحب أن لى بها مشهد بدر ، وإن كانت بدر أذكر فى الناس منها كان من خبرى أنى لم أكن قط أقوى ولا أيسر حين تخلفت عنه فى تلك الغزاة ، ولم يكن رسول الله ﷺ يريد غزوة إلا ورى بغيرها ، حتى كانت تلك الغزوة غزاها رسول الله ﷺ فى حر شديد ، واستقبل سفراً بعيداً ، ومفازاً وعدواً كثيراً ، فجلى للمسلمين أمرهم ليتأهبوا أهبة غزوهم ، فأخبرهم بوجهه الذى يريد ، والمسلمون مع رسول الله ﷺ كثير ، ولا يجمعهم كتاب حافظ ، يريد الديوان ، قال كعب : فما رجل يريد أن يتغيب إلا ظن أن سيخفى له مالم ينزل فيه وحى الله . وغزا رسول الله ﷺ تلك الغزوة حين طابت الثمار والظلال وتجهز رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، فطفقت أغدو لكى أتجهز معهم ، فأرجع ولم أقض شيئاً فأقول فى نفسى : أنا قادر عليه ، فلم يزل يتمادى بى حتى اشتد بالناس الجد ، فأصبح رسول الله ﷺ والمسلمون معه ، ولم أقض من جهازى شيئاً ، فقلت : أتجهز بعده بيوم أو بيومين ثم ألحقهم ، فغدوت بعد أن فصلوا لأتجهز ، فرجعت ولم أقض شيئاً ثم غدوت

(١) الظلال : م ٣ ص ١٧٢٣ .

ثم رجعت ولم أقض شيئاً ، فلم يزل بى حتى أسرعوا وتفارط الغزو ، وهممت أن أرتحل فأدركهم ، وليتنى فعلت ، فلم يقدر لى ذلك ، فكنت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ فطفت فيهم أحزننى أنى لا أرى إلا رجلا مغموصاً عليه النفاق ، أو رجلا ممن عذر الله من الضعفاء ، ولم يذكرنى رسول الله ﷺ حتى بلغ تبوك ، فقال وهو جالس فى القوم بتبوك : **ما فعل كعب ؟** فقال رجل من بنى سلمة : يا رسول الله ، حبسه براده ونظره فى عطفه . فقال معاذ بن جبل : بئس ما قلت ، والله يا رسول الله ما علمنا عليه إلا خيراً ، فسكت رسول الله ﷺ . قال كعب بن مالك : فلما بلغنى أنه توجه قافلا حضرنى همى وطفقت أتذكر الكذب وأقول : بماذا أخرج من سخطه غدا . واستعنت على ذلك بكل ذى رأى من أهلى ، فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل ، وعرفت أنى لن أخرج منه أبداً بشىء فيه كذب ، فأجمعت صدقة ، وأصبح رسول الله ﷺ قادماً ، وكان إذا قدم من سفر بدأ بالمسجد فيركع فيه ركعتين ثم جلس للناس ، فلما فعل ذلك جاءه المخلفون ، فطفقوا يعتذرون إليه ويحلفون له ، وكانوا بضعة وثمانين رجلا ، فقبل منهم رسول الله ﷺ علانيتهم ، وبايعهم واستغفر لهم ، ووكل سرائرهم إلى الله ، فجئته ، فلما سلمت عليه تبسم تبسم المغضب ، ثم قال : تعال ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : **ما خلفك ؟ ألم تكن قد ابتعت ظهرك ؟** فقلت بلى : إنى والله لو جلست عند غيرك من أهل الدنيا لرأيت أن سأخرج من سخطه بعذر ، ولقد أعطيت جدلا ، ولكنى والله لقد علمت لئن حدثتك اليوم حديث كذب ترضى به عنى ليوشكن الله أن يسخطك علىّ ، ولئن حدثتك حديث صدق تجد عليَّ فيه إنى لأرجو فيه عفو الله ، لا والله ما كان لى من عذر ، والله ما كنت قط أقوى ولا أيسر منى حين تخلفت عنك . فقال رسول الله ﷺ : **أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك** . فقمت وثار رجال من بنى سلمة فاتبعونى ، فقالوا لى : والله ما علمناك كنت أذنبت ذنباً قبل هذا ، ولقد عجزت أن لا تكون اعتذرت إلى رسول الله ﷺ بما اعتذر إليه المتخلفون ، قد كان كافيك ذنبك استغفار رسول الله ﷺ لك ، فوالله ما زالوا يؤنبونى

حتى أردت أن أرجع فأكذب نفسى ، ثم قلت لهم : هل لقى هذا معى أحد ؟ قالو : نعم ، رجلان قالا مثل ما قلت ، فقيل لهما مثل ما قيل لك ، فقلت من هما ؟ قالوا : مرارة بن الربيع العمرى ، وهلال بن أمية الواقفى . فذكروا لى رجلين صالحين قد شهدا بدراً فيهما أسوة فمضيت حين ذكروهما لى ، ونهى رسول الله ﷺ المسلمين عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس وتغيروا لنا حتى تنكرت فى نفس الأرض فما هى التى أعرف ، فلبثنا على ذلك خمسين ليلة فأما صاحباى فاستكانا وقعدا فى بيوتهما يبكيان ، وأما أنا فكنت أشب القوم وأجلدهم ، فكنت أخرج فأشهد الصلاة مع المسلمين ، وأطوف فى الأسواق ولا يكلمنى أحد ، وآتى رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، فأقول فى نفسى : هل حرك شفتيه برد السلام علىّ أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه ، فأسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى أقبل إلى ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى حتى إذا طال علىَّ ذلك من جفوة الناس مشيت حتى تسورت جدار حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلى فسلمت عليه فوالله ما رد علىَّ السلام ، فقلت يا أبا قتادة أنشدك بالله ، هل تعلمنى أحب الله ورسوله ؟ فسكت ، فعدت له ، فنشدته ، فسكت ، فعدت له ، فنشدته ، فقال : الله ورسوله أعلم — ففاضت عيناى ، وتوليت حتى تسورت الجدار . قال : فبينا أنا أمشى بسوق المدينة إذا نبطى من أنباط أهل الشام ممن قدم بالطعام يبيعه بالمدينة يقول : من يدل على كعب بن مالك ؟ فطفق الناس يشيرون له ، حتى إذا جاءنى دفع إلى كتاب من ملك غسان ، فإذا فيه : قد بلغنى أن صاحبك قد جفاك ، ولم يجعلك الله بدار هوان ولا مضيعة فالحق بنا نواسك ، فقلت لما قرأتها : وهذا أيضاً من البلاء ، فتيممت بها التنور فسجرته بها ، حتى إذا مضت أربعون ليلة من الخمسين إذا رسول رسول الله ﷺ يأتينى ، فقال : إن رسول الله ﷺ يأمرك أن تعتزل امرأتك . فقلت : أطلقها أم ماذا أفعل ؟ قال : لا بل اعتزلها ولا تقربها . وأرسل إلى صاحبىّ مثل ذلك . فقلت لامرأتى : الحقى بأهلك فتكونى عندهم حتى يقضى الله فى هذا الأمر ، قال كعب : فجاءت امرأة هلال بن أمية رسول الله ﷺ فقالت : يا رسول الله ، إن هلال بن أمية شيخ ضائع ليس له خادم ، فهل

تكره أن أخدمه ؟ قال : لا ، ولكن لا يقربك . قالت : إنه والله ما به حركة إلى شيء ، والله ما زال يبكى منذ كان من أمره ما كان إلى يومه هذا . فقال لى بعض أهلى : لو استأذنت رسول الله ﷺ فى امرأتك كما أذن لامرأة هلال بن أمية أن تخدمه ، فقلت : والله لا أستأذن فيها رسول الله ﷺ ، وما يدرينى ما يقول رسول الله ﷺ إذا استأذنته فيها وأنا رجل شاب ، فلبثت بعد ذلك عشر ليال ، حتى كملت لنا خمسون ليلة من حين نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا ، فلما صليت صلاة الفجر صبح خمسين ليلة وأنا على ظهر بيت من بيوتنا ، فبينا أنا جالس على الحال التى ذكر الله قد ضاقت علىّ نفسى وضاقت علىّ الأرض بما رحبت سمعت صوت صارخ أوفى على جبل سلع بأعلى صوته : يا كعب بن مالك أبشر . قال : فخررت ساجداً ، وعرفت أن قد جاء فرج . وآذن رسول الله ﷺ بتوبة الله علينا حين صلى صلاة الفجر ، فذهب الناس يبشروننا ، وذهب قبل صاحبىّ مبشرون ، وركض إلىّ رجل فرساً وسعى ساع من أسلم ، فأوفى على الجبل ، وكان الصوت أسرع من الفرس . فلما جاءنى الذى سمعت صوته يبشرنى نزعت له ثوبىّ ، فكسوته إياهما ببشراه ، والله ما أملك غيرهما يومئذ ، واستعرت ثوبين فلبستهما ، وانطلقت إلى رسول الله ﷺ فيتلقانى الناس فوجاً فوجاً ، يهنئونى بالتوبة يقولون : لتهنك توبة الله عليك ، قال كعب : حتى دخلت المسجد فإذا رسول الله ﷺ جالس حوله الناس ، فقام إلىّ طلحة بن عبيد الله يهرول حتى صافحنى وهنأنى ، والله ما قام إلىّ رجل من المهاجرين غيره ، ولا أنساها لطلحة ، قال كعب : فلما سلمت على رسول الله ﷺ قال رسول الله ﷺ وهو يبرق وجهه من السرور : **أبشر بخير يوم مر عليك منذ ولدتك أمك** ، قال : قلت : أمن عندك يا رسول الله أم من عند الله ؟ قال: **لا، بل من عند الله** ، وكان رسول الله ﷺ إذا سر استنار وجهه حتى كأنه قطعة قمر ، وكنا نعرف ذلك منه (١) .

وفى حادثة الثلاثة الذين خلفوا ، كما رواها كعب بن مالك بأسلوبه الأدبى المثير ، وفى الآيات الكريمة التى تحدثت عنها ، صور بارزة عن المجتمع المدنى المتكامل نستطيع أن نتبينها من خلال تأمل معناه :

(١) البخارى ج ٦ ص ٣ — ٨ .

﴿ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ مَا لَكُمْ إِذَا قِيلَ لَكُمُ ٱنفِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ٱثَّاقَلْتُمْ إِلَى ٱلْأَرْضِ ۚ أَرَضِيتُم بِٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا مِنَ ٱلْءَاخِرَةِ ۚ فَمَا مَتَٰعُ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فِى ٱلْءَاخِرَةِ إِلَّا قَلِيلٌ ﴾ (٣٨) التوبة : ٣٨ .

إنها ثُقلة الأرض ومطامع الأرض وتصورات المعدة والمادة ، ثقلة الخوف على الحياة والتعبير يلقى كل هذه الظلال بجرس ألفاظه **﴿ اثاقلتم ﴾** وهى بجرسها تمثل مجموعة الأجسام المسترخية الثقيلة يرفعها الرافعون فى جهد فيسقط منهم فى ثقل ، ويلقيها بمعنى ألفاظه **﴿ اثاقلتم إلى الأرض ﴾** .

وإن النفرة للجهاد فى سبيل الله انطلاق من قيد الأرض ، وارتفاع على ثقلة اللحم والدم ، وعلاج ناجع لهذه المجموعة من الناس : **﴿ أرضيتم بالحياة الدنيا من الآخرة فما متاع الحياة الدنيا فى الآخرة إلا قليل ﴾** .

ويضرب الله لهم المثل فى الواقع التاريخى الذى يعلمونه على نصرة الله لرسوله بلا عون منهم ولا ولاء والنصر من عند الله يؤتيه من يشاء :

﴿ إلا تنصروه فقد نصره الله إذ أخرجه الذين كفروا ثانى اثنين إذ هما فى الغار .. ﴾ التوبة : ٤٠ .

وفى ظلال هذا المثل الواقع يدعوهم إلى النفرة العامة ، وإلى تفهم معانى القيادة والالتزام بأمر الجماعة لا يعوقهم معوق ولا يقعد بهم طارىء إن كانوا يريدون لأنفسهم الخير فى هذه الأرض وفى الدار الآخرة :

ولا تتلمسوا الحجج والمعاذير ، ولا تخضعوا للعوائق والتعلات :

﴿ ذلكم خير لكم إن كنتم تعلمون ﴾ التوبة : ٤١ .

ومن خلال هذه اللمسات الموحية تأتى صور عديدة للمنافقين :

﴿ ومنهم من يقول ائذن لى ولا تفتنى ألا فى الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين ﴾ فقال الجد بن قيس : ائذن لنا ولا تفتنا بالنساء .. وسنتكلم عن هذه الفئة فى فصل المنافقين (بإذن الله) .

وصورة أخرى تسجل الآيات هى مجموعة المتأخرين والمعتذرين :

وَجَآءَ ٱلْمُعَذِّرُونَ مِنَ ٱلْأَعْرَابِ لِيُؤْذَنَ لَهُمْ وَقَعَدَ ٱلَّذِينَ كَذَبُوا۟ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ ۚ سَيُصِيبُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴿٩٠﴾ لَّيْسَ عَلَى ٱلضُّعَفَآءِ وَلَا عَلَى ٱلْمَرْضَىٰ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ مَا يُنفِقُونَ حَرَجٌ إِذَا نَصَحُوا۟ لِلَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۚ مَا عَلَى ٱلْمُحْسِنِينَ مِن سَبِيلٍ ۚ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٩١﴾ وَلَا عَلَى ٱلَّذِينَ إِذَا مَآ أَتَوْكَ لِتَحْمِلَهُمْ قُلْتَ لَآ أَجِدُ مَآ أَحْمِلُكُمْ عَلَيْهِ تَوَلَّوا۟ وَّأَعْيُنُهُمْ تَفِيضُ مِنَ ٱلدَّمْعِ حَزَنًا أَلَّا يَجِدُوا۟ مَا يُنفِقُونَ ﴿٩٢﴾ التوبة : ٩٠ ــ ٩٢

صور متحركة من المجتمع المدنى الذى بدأ يتكامل :

(أ) طبقة الضعفاء والمرضى والعاجزين عن القتال لعلة فى تكوينهم ، ليس على هؤلاء حرج إذا تخلفوا عن المعركة فى الميدان وقلوبهم مخلصة لله ورسوله .

(ب) طبقة القادرين على الحرب ، ولكنهم لا يجدون الرواحل التى تحملهم إلى أرض المعركة ، فإذا حرموا المشاركة فيها لهذا السبب ألمت نفوسهم حتى تفيض أعينهم دموعاً لأنهم لا يجدون ما ينفقون .

وإنها لصورة حية تصور طبقة المؤمنين الصادقين الذين اكتمل بناؤهم ، وتصور هذه الآيات الرغبة الصحيحة عندهم فى الجهاد ، والألم الصادق للحرمان من نعمة أدائه ، وإنها لصورة واقعة حفظتها الروايات لهذا المجتمع (١) .

---

(١) الظلال : م ٣ ص ١٦٨٦ بتصرف .

(ج) وطبقة الطيبين المخطئين تصفهم الآيات بهذه الكلمات : **﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملاً صالحاً وآخر سيئاً عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم ﴾** التوبة : ١٠٢ .

وهذه الآية وإن كانت نزلت فى أناس معينين ، فإنها عامة فى كل المذنبين الخطائين ، وقد قال ابن عباس : نزلت فى أبى لبابة وجماعة من أصحابه تخلفوا عن رسول الله ﷺ فى غزوة تبوك ، فلما رجع رسول الله ﷺ من غزوته ربطوا أنفسهم بسوارى المسجد ، وحلفوا ألا يحلهم إلا رسول الله ﷺ ، ولما أنزل الله هذه الآية: **﴿ وآخرون اعترفوا بذنوبهم ﴾** أطلقهم رسول الله ﷺ وعفا عنهم (١) .

وفى الحاشية نقلا عن (اللباب) أخرج ابن جرير : وجاء أبو لبابة وأصحابه بأموالهم ، فقالوا : يا رسول الله ، هذه أموالنا فتصدق بها واستغفر لنا ، فقال : « **ما أمرت أن آخذ من أموالكم شيئاً** » فأنزل الله : **﴿ خذ من أموالهم ﴾** الآية . وعن قتادة : أن هذه الآية نزلت فى سبعة : أربعة منهم ربطوا أنفسهم ، وهم : أبو لبابة ، ومرداس ، وأوس بن خزام ، وثعلبة بن وديعة (٢) .

والظاهر أن هذا التصنيف قد نزلت به هذه الآيات بعد العودة من تبوك ، بعد اعتذار من اعتذر من المؤمنين المتخلفين ، سواء منهم من اعتذر صادقاً ، ومن ربط نفسه بسارية المسجد حتى يحله رسول الله ﷺ .

وهكذا مَنَّ الله عليهم لما علمه سبحانه من حسن سريرتهم ، وصدق توبتهم ، فأمر رسول الله ﷺ أن يأخذ بعض أموالهم يتصدق بها عنهم ، وأن يصلى عليهم ، فالأصل فى الصلاة الدعاء ، ذلك أن أخذ الصدقة منهم يرد عليهم شعورهم بعضويتهم الكاملة فى هذا المجتمع الناصع ، فهم يشاركون فى واجباتهم وينهضون بأعبائه ، وهم لم ينبذوا منها ، ولم ينبتوا عنها ، وفى تطوعهم لهذه الصدقات تطهير لهم وتزكية (٣) .

---

(١) تفسير ابن كثير : م ٢ ص ٥٩٩ بتصرف .
(٢) مختصر ابن كثير م ٢ص ١٦٧ .
(٣) الظلال : م ٣ ص ١٧٠٨ .

(د) والطبقة الأخيرة هي التى لم يبت فى أمرها ، وقد وكل أمرها إلى ربها : ﴿ **وآخرون مرجون لأمر الله إما يعذبهم وإما يتوب عليهم والله عليم حكيم** ﴾ التوبة : ١٠٦ .

وهؤلاء هم القسم الأخير من المتخلفين عن غزوة تبوك غير المنافقين والمعتذرين والمخطئين التائبين ، وهذا القسم كان أمره موكولا إلى الله لم يعلموه ، ولم يعلمه الناس بعد ، وقد روى أن هذه الآية نزلت فى الثلاثة الذين خلفوا ، أى من أجل إعلان توبتهم وقضاء أمرهم ، وهم : مرارة بن الربيع ، وكعب بن مالك ، وهلال بن أمية الذين قعدوا عن غزوة تبوك كسلا وميلا إلى الدّعة ، ثم كان لهم شأنهم مع القيادة وصارت لهم قضية مع المجتمع .

إن الدخول فى الإسلام صفقة بين متبايعين : الله سبحانه وتعالى فيها هو المشترى ، والمؤمن فيها هو البائع ، فهى بيعة مع الله ، لا يبقى بعده للمؤمن شىء فى نفسه ، ولا فى ماله ، يحتجزه دون الله سبحانه ، ودون الجهاد فى سبيله لتكون كلمة الله هى العليا ، وليكون الدين كله لله :

* إِنَّ ٱللَّهَ ٱشْتَرَىٰ مِنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ أَنفُسَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُم بِأَنَّ لَهُمُ ٱلْجَنَّةَ ۚ يُقَٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَيَقْتُلُونَ وَيُقْتَلُونَ ۖ وَعْدًا عَلَيْهِ حَقًّا فِى ٱلتَّوْرَىٰةِ وَٱلْإِنجِيلِ وَٱلْقُرْءَانِ ۚ وَمَنْ أَوْفَىٰ بِعَهْدِهِۦ مِنَ ٱللَّهِ ۚ فَٱسْتَبْشِرُوا۟ بِبَيْعِكُمُ ٱلَّذِى بَايَعْتُم بِهِۦ ۚ وَذَٰلِكَ هُوَ ٱلْفَوْزُ ٱلْعَظِيمُ ﴿١١١﴾ التوبة : ١١١ .

والذين باعوا هذه البيعة وعقدوا هذه الصفقة هم صفوة مختارة ذات

صفات مميزة [1] : ﴿ **التائبون العابدون الحامدون السائحون الراكعون الساجدون الآمرون بالمعروف والناهون عن المنكر والحافظون لحدود الله وبشر المؤمنين** ﴾ .

هذه هي الجماعة المؤمنة التي بايعها الله تعالى على الجنة ، واشترى منها الأنفس والأموال لتمضي مع سنة الله الجارية ، قتال في سبيل إعلاء كلمة الله ، أو الاستشهاد في المعركة .

ولما كانت هذه طبيعة البيعة ، كان التخلف عن الجهاد للقادرين أياً كانت الأسباب أمراً مستنكراً عظيماً ، وكان التردد والتخلف ظاهرة لابد من تتبعها والتركيز عليها ليكون أسلوباً من أساليب التنقية لبناء المجتمع . وقد تخلف في غزوة تبوك بعض المسلمين منهم :

- كعب بن مالك بن عمرو بن القيس .
- هلال بن أمية الواقفي .
- مرارة بن الربيع العمري [2] .
- أبو خيثمة السلمي .

وأما الثلاثة الذين خلفوا فقد كان خبرهم ملء السمع والبصر ، ليعلم الناس كيف تكون التبعية للإسلام في المنشط والمكره ، وقد مكثوا زهاء شهر ونصف والمجتمع لا يكلمهم ، ولا يرد لهم سلاماً ولا يعاشرون عقائلهم حتى نزل الوحي بالعفو عنهم [3] : ﴿ **وعلى الثلاثة الذين خلفوا حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم وظنوا أن لا ملجأ من الله إلا إليه ثم تاب عليهم ليتوبوا إن الله هو التواب الرحيم** ﴾ التوبة : ١١٨ .

---

(١) الظلال : م ٢ ج ١١ ص ١٧١٤ بتصرف .

(٢) السيرة النبوية للندوي ص ٣١١ .

(٣) الدعوة الإسلامية في عهدها المدني د / رؤوف شلبي ج ٣ ص ٨٦ ط . دار القلم الكويت .

المجتمع المدنى يكاد يستكمل مقوماته من التطور والبناء ومن الترابط والتنظيم ليكون مجتمعاً يحتذى ، وتتطلع إليه البشرية عبر السنين والأيام ، وليعرف أفراد هذا المجتمع واجباتهم تجاه القيادة والجماعة ، ومن هنا كان للقيادة شأن مع هؤلاء المتخلفين ، فلما مُثل كعب بين يدى القائد ﷺ : « فلما سلمت عليه تبسم المغضب ، ثم قال لى : **تعال** ، فجئت أمشى حتى جلست بين يديه ، فقال لى : **ما خلفك ؟ ألم تكن قد اشتريت ظهرك ؟** ولما سمع قصة تخلفه — رضى الله تعالى عنه — فقال ﷺ : **أما هذا فقد صدق ، فقم حتى يقضى الله فيك** . يقول كعب : فقمت .

معالجة القضية :

لقد أصبحت القضية قضية لها شأنها ، ينتظر حكمها من السماء ، قضية شغلت القيادة وأفراد المجتمع مدة خمسين يوماً ، والمجتمع فى ترقب وانتظار : انتظار الفرج من السماء ، وقبول التوبة .

ونهى رسول الله ﷺ عن كلام الثلاثة ، فابتعد الناس عنهم حتى تغيرت البيئة وتنكرت لهم الأرض : ﴿ **حتى إذا ضاقت عليهم الأرض بما رحبت وضاقت عليهم أنفسهم** .. ﴾ فالتعبير القرآنى يكشف هنا فى جلاء وجمال بيانى عما يرزح تحته الثلاثة المخلفون ، وعما تعانى منه نفوسهم ، فإذا الأرض تضيق بهم وتتقاصر أطرافها وتنكمش رقعتها ، فهم منها فى حرج وضيق .

﴿ **وضاقت عليهم أنفسهم** ﴾ فكأنما هى وعاء لهم تضيق بهم ولا تسعهم ، وتضغطهم فيتكرب أنفاسهم (١) .

وكان تطوراً مثيراً فى المحاسبة وفرقاً شاسعاً فى مراجعة الأخطاء بين ما وقع فيه أفراد المجتمع فى غزوة أحد وما تشير إليه التعبيرات المذكورة فى غزوة تبوك ، ففى غزوة أحد تسجل الآيات هذا المنظر ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم فى الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ما تحبون منكم من يريد الدنيا**

---

(١) الظلال م ٣ ج ١١ ص ١٧٣٢ بتصرف .

ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم والله ذو فضل على المؤمنين ﴾ [1] .

عفا عم وقع منهم من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ، وعفا كذلك عما وقع منهم من فرار وانقلاب ، عفا عنهم لأنهم يخطئون ويضعفون في دائرة الإيمان بالله والاستسلام له ، عفا عنهم رغم الأخطاء الجسيمة والخسائر الفادحة ، ويقول القرآن : ﴿ **ولقد عفا عنكم** ﴾ بكل بساطة ويسر ، وبدون أدنى عقاب أو عتاب .

وأما فى غزوة تبوك فقد اختلف الأمر ، فكان العتاب والعقاب وأى عقاب ! وكان هذا العقاب لأسباب عديدة من أهمها :

١ ــ عدم ضبطهم بأوامر القيادة .

٢ ــ عدم التزامهم بأمر الجماعة ، وهما يشكلان حجر الزاوية فى بناء المجتمع المثالى المنشود .

يصور كعب منظر المجتمع المدنى بعد انطلاق الجيش والجماعة نحو تبوك ، فيقول : « فطفقت إذا خرجت فى الناس بعد خروج رسول الله ﷺ يحزننى أننى لا أرى لى أسوة إلا رجلا مغموصاً عليه فى النفاق أو رجلا ممن عذر الله » . عاش كعب بن مالك فى مثل هذه الظروف المغموسة فى النفاق فترة من الزمن ، فكانت النتيجة أن يقول كعب : « فطفقت أتذكر الكذب ، وأقول بماذا أخرج من سخطه غداً »؟.

وسرعان ما تبددت أفكاره عن الكذب بمجرد ما أقبل نبى الهدى نحو « طيبة » ، « فلما قيل : إن رسول الله ﷺ قد أظل قادماً زاح عنى الباطل حتى عرفت أنى لم أنج منه بشىء أبداً ، فأجمعت صدقه » .

وتعبيرات كعب بن مالك الأدبية تصور الحياة فى المجتمع المدنى فى غياب أفرادها الأساسيين الذين تكونت منهم القواعد الصلبة لهذا المجتمع وما كان تأثير هذا المجتمع في نفسية كعب .

---

(١) آل عمران : ١٥٢ .

ولعلاج هذه النفسية ، وفى ظل عنصر الصدق البادى فى قصة الثلاثة الذين خلفوا ، يجىء الهتاف للذين آمنوا جميعاً أن يتقوا الله ويكونوا مع الصادقين فى إيمانهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وكونوا مع الصادقين** ﴾ (١) . ومن أجل هذه الاعتبارات جاء هذا الهتاف مباشرة بعد قضية التوبة وقضية العقاب .

ويبين الشيخ المراغى طريقة اندماج الأفراد مع الجماعة الصادقة « بأداء فرائضه واجتناب نواهيه ، وكونوا فى الدنيا من أهل ولايته وطاعته تكونوا فى الآخرة مع الصادقين فى الجنة » (٢) . والمراد بالصادقين محمد ﷺ وأصحابه (٣) .

ويتجلى هذا الضبط خلال تحليل كلمات كعب رضى الله تعالى عنه : « نهى رسول الله ﷺ عن كلامنا أيها الثلاثة من بين من تخلف عنه ، فاجتنبنا الناس أو قال تغيروا لنا حتى تنكرت لى فى نفس الأرض .. » حتى إذا طال ذلك من هجر المسلمين مشيت حتى تسورت حائط أبى قتادة وهو ابن عمى وأحب الناس إلىّ ، فسلمت عليه ، فوالله ما رَدَّ علىّ السلام ، فقلت له : يا أبا قتادة ، أنشدك الله هل تعلم أنى أحب الله ورسوله ؟ قال : فسكت ، فقال : فعدت فنشدته : فسكت ، فعدت فنشدته ، قال : الله ورسوله أعلم . ففاضت عيناى وتوليت حتى تسورت الجدار » .

هكذا كان الضبط ، وهكذا كانت الطاعة فى الجماعة ، فلا مخلوق يفتح فمه بكلمة ، ولا مخلوق يلقى كعباً بأنس ، ولا مخلوق يأخذ منه أو يعطى ، حتى ابن عمه (٤) وأحب الناس إليه ، ولكنها المفاهيم تتغير والمقاييس تصقل ، فتتبدد معانى القبيلة والعشائرية .

وتمتد المقاطعة ، فتنزل عنه زوجه لتدعه فريداً طريداً من الأنس كله ، ليعيش في شبه سجن انفرادي .

---

(١) التوبة : ١١٩ .

(٢) تفسير المراغى ج ١١ ص ٤٣ .

(٣) روح المعانى : للألوسى ج ١٠ ص ٤٥ .

(٤) الظلال : م ٣ ج ١١ ص ١٧٣١ بتصرف .

يصور كعب بن مالك علاقة النبى ﷺ ومحبته نحوه فى شدة العقاب والعتاب فيقول :

« وآتي رسول الله ﷺ فأسلم عليه وهو فى مجلسه بعد الصلاة ، وأقول فى نفسي : هل حرّك شفتيه برد السلام أم لا ؟ ثم أصلى قريباً منه أسارقه النظر ، فإذا أقبلت على صلاتى نظر إلىّ ، وإذا التفت نحوه أعرض عنى » .

لمحات من حب القائد لرعيته ، وحب الرعية نحو المربى والقائد ، حتى يكتمل بناء الفرد بين العتاب والمحبة ، وبين المقاطعة والرعاية ، ولذلك كان كعب يثق بالفرج يأتى من عند الله ، لأنه كان يعلم من نفسه الصدق مع الله « وقد جعل منه إيمانه الصادق العميق رجلا بحق استعلى على الدنيا وما فيها من حطام ، يتهافت عليها أشباه الرجال من ضعاف العقيدة ، وذلك حين رفض عرض ملك غسان بإباء الرجال الكبار وعزم المؤمنين الأبرار » (١) .

★ ★ ★

(١) كعب بن مالك الأنصارى : د . محمد على هاشمى ص ٨٨ ط ١ .



الباب الثالث

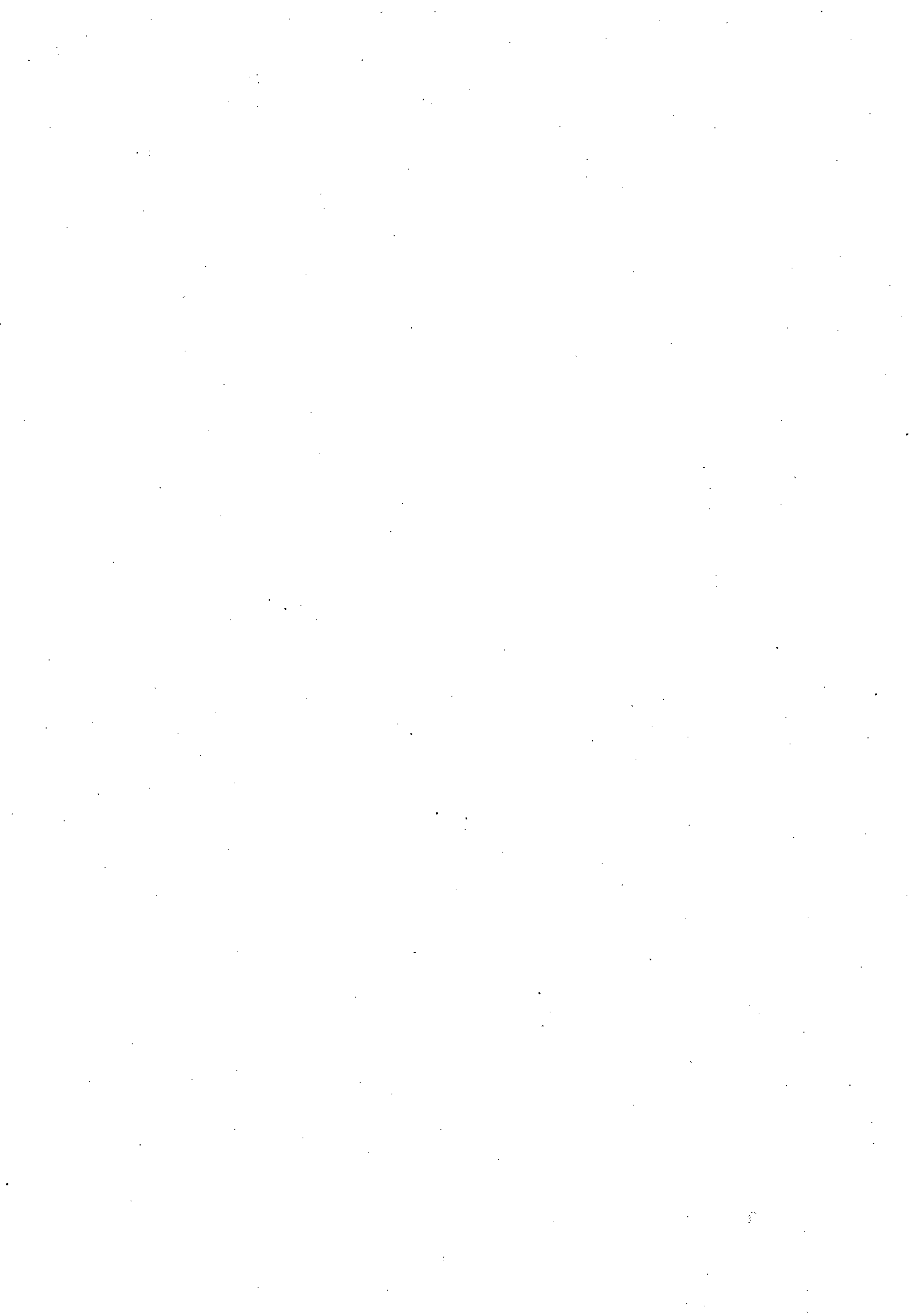
« البنية الاجتماعية فى صورتها الجديدة »

الفصل الأول : الأسرة ووسائل الحفاظ عليها .

الفصل الثانى : التطورات الاقتصادية والتكافل الاجتماعى .

الفصل الثالث : الآداب الاجتماعية .

★ ★ ★



الفصل الأول

الأسرة ووسائل الحفاظ عليها

(أ) الزواج :

الآيات تصور المفهوم الإسلامى للزواج .

١ ـ الزواج بين الجاهلية والإسلام .

٢ ـ تنظيم جديد للزواج .

٣ ـ صورة من صور تطهير العلاقة الزوجية .

٤ ـ الزواج وسيلة من وسائل تنظيم المجتمع وتطهيره .

(ب) تحريم الزنا :

١ ـ المرحلة الأولى من محاربة الزنا .

٢ ـ التدرج الزمنى فى مكافحة الزنا .

(ج) تحريم الخمر والميسر :

١ ـ انغماس المجتمع قبل الإسلام فى شرب الخمر .

٢ ـ التمهيد لتحريم الخمر .

٣ ـ الخطوة الأولى فى تحريم الخمر .

٤ ـ الخطوة الثانية فى تحريم الخمر .

٥ ـ القطع بتحريم الخمر .



(أ) الزواج

« الآيات التى تصور المفهوم الإسلامى للزواج »

يقول الحق عز وجل :

أُحِلَّ لَكُمْ لَيْلَةَ ٱلصِّيَامِ ٱلرَّفَثُ إِلَىٰ نِسَآئِكُمْ ۚ هُنَّ لِبَاسٌ لَّكُمْ وَأَنتُمْ لِبَاسٌ لَّهُنَّ ۗ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ كُنتُمْ تَخْتَانُونَ أَنفُسَكُمْ فَتَابَ عَلَيْكُمْ وَعَفَا عَنكُمْ ۖ فَٱلْـَٔـٰنَ بَـٰشِرُوهُنَّ وَٱبْتَغُوا۟ مَا كَتَبَ ٱللَّهُ لَكُمْ ۚ وَكُلُوا۟ وَٱشْرَبُوا۟ حَتَّىٰ يَتَبَيَّنَ لَكُمُ ٱلْخَيْطُ ٱلْأَبْيَضُ مِنَ ٱلْخَيْطِ ٱلْأَسْوَدِ مِنَ ٱلْفَجْرِ ۖ ثُمَّ أَتِمُّوا۟ ٱلصِّيَامَ إِلَى ٱلَّيْلِ ۚ وَلَا تُبَـٰشِرُوهُنَّ وَأَنتُمْ عَـٰكِفُونَ فِى ٱلْمَسَـٰجِدِ ۗ تِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ فَلَا تَقْرَبُوهَا ۗ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَّقُونَ ﴿١٨٧﴾

البقرة : ١٨٧ .

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَـٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَـٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ ۖ قُلْ هُوَ أَذًى

فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ ۖ
فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ
ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ نِسَآؤُكُمْ حَرْثٌ لَّكُمْ
فَأْتُوا۟ حَرْثَكُمْ أَنَّىٰ شِئْتُمْ ۖ وَقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُمْ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ
وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّكُم مُّلَٰقُوهُ ۗ وَبَشِّرِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢٢٣﴾

البقرة : ٢٢١ ــ ٢٢٣ .

فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
تَحِلُّ لَهُۥ مِنۢ بَعْدُ حَتَّىٰ تَنكِحَ زَوْجًا غَيْرَهُۥ ۗ فَإِن طَلَّقَهَا فَلَا
جُنَاحَ عَلَيْهِمَآ أَن يَتَرَاجَعَآ إِن ظَنَّآ أَن يُقِيمَا حُدُودَ ٱللَّهِ ۗ
وَتِلْكَ حُدُودُ ٱللَّهِ يُبَيِّنُهَا لِقَوْمٍ يَعْلَمُونَ ﴿٢٣٠﴾

البقرة : ٢٣٠ .

وَإِذَا طَلَّقْتُمُ ٱلنِّسَآءَ فَبَلَغْنَ أَجَلَهُنَّ
فَلَا تَعْضُلُوهُنَّ أَن يَنكِحْنَ أَزْوَٰجَهُنَّ إِذَا تَرَٰضَوْا۟ بَيْنَهُم
بِٱلْمَعْرُوفِ ۗ ذَٰلِكَ يُوعَظُ بِهِۦ مَن كَانَ مِنكُمْ يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ
وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۗ ذَٰلِكُمْ أَزْكَىٰ لَكُمْ وَأَطْهَرُ ۗ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ
لَا تَعْلَمُونَ ﴿٢٣٢﴾

البقرة : ٢٣٢ .

وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ فِيمَا عَرَّضْتُم بِهِۦ مِنْ خِطْبَةِ ٱلنِّسَآءِ أَوْ
أَكْنَنتُمْ فِىٓ أَنفُسِكُمْ ۚ عَلِمَ ٱللَّهُ أَنَّكُمْ سَتَذْكُرُونَهُنَّ وَلَٰكِن

لَّا تُوَاعِدُوهُنَّ سِرًّا إِلَّآ أَن تَقُولُواْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ۚ وَلَا تَعْزِمُواْ عُقْدَةَ ٱلنِّكَاحِ حَتَّىٰ يَبْلُغَ ٱلْكِتَـٰبُ أَجَلَهُۥ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا فِىٓ أَنفُسِكُمْ فَٱحْذَرُوهُ ۚ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ حَلِيمٌ ﴿٢٣٥﴾

البقرة : ٢٣٥ .

وَإِن طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ وَقَدْ فَرَضْتُمْ لَهُنَّ فَرِيضَةً فَنِصْفُ مَا فَرَضْتُمْ إِلَّآ أَن يَعْفُونَ أَوْ يَعْفُوَاْ ٱلَّذِى بِيَدِهِۦ عُقْدَةُ ٱلنِّكَاحِ ۚ وَأَن تَعْفُوٓاْ أَقْرَبُ لِلتَّقْوَىٰ ۚ وَلَا تَنسَوُاْ ٱلْفَضْلَ بَيْنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿٢٣٧﴾

البقرة : ٢٣٧ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُواْ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُواْ ٱلْيَتَـٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُواْ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُواْ فِى ٱلْيَتَـٰمَىٰ فَٱنكِحُواْ مَا طَابَ لَكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ مَثْنَىٰ وَثُلَـٰثَ وَرُبَـٰعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُواْ فَوَٰحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَـٰنُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰٓ أَلَّا تَعُولُواْ ﴿٣﴾

النساء : ١ ــ ٣ .

وَلَا تَنكِحُوا۟ مَا نَكَحَ ءَابَآؤُكُم مِّنَ ٱلنِّسَآءِ إِلَّا مَا قَدْ سَلَفَ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَمَقْتًا وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٢٢﴾

النساء : ٢٢ .

وَمَن لَّمْ يَسْتَطِعْ مِنكُمْ طَوْلًا أَن يَنكِحَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ فَمِن مَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُم مِّن فَتَيَٰتِكُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ ۚ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَٰنِكُم ۚ بَعْضُكُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ فَٱنكِحُوهُنَّ بِإِذْنِ أَهْلِهِنَّ وَءَاتُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ بِٱلْمَعْرُوفِ مُحْصَنَٰتٍ غَيْرَ مُسَٰفِحَٰتٍ وَلَا مُتَّخِذَٰتِ أَخْدَانٍ ۚ فَإِذَآ أُحْصِنَّ فَإِنْ أَتَيْنَ بِفَٰحِشَةٍ فَعَلَيْهِنَّ نِصْفُ مَا عَلَى ٱلْمُحْصَنَٰتِ مِنَ ٱلْعَذَابِ ۚ ذَٰلِكَ لِمَنْ خَشِىَ ٱلْعَنَتَ مِنكُمْ ۚ وَأَن تَصْبِرُوا۟ خَيْرٌ لَّكُمْ ۗ وَٱللَّهُ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٥﴾

النساء : ٢٥ .

وَيَسْتَفْتُونَكَ فِى ٱلنِّسَآءِ ۖ قُلِ ٱللَّهُ يُفْتِيكُمْ فِيهِنَّ وَمَا يُتْلَىٰ عَلَيْكُمْ فِى ٱلْكِتَٰبِ فِى يَتَٰمَى ٱلنِّسَآءِ ٱلَّٰتِى لَا تُؤْتُونَهُنَّ مَا كُتِبَ لَهُنَّ وَتَرْغَبُونَ أَن تَنكِحُوهُنَّ وَٱلْمُسْتَضْعَفِينَ مِنَ ٱلْوِلْدَٰنِ وَأَن تَقُومُوا۟ لِلْيَتَٰمَىٰ بِٱلْقِسْطِ ۚ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِهِۦ عَلِيمًا ﴿١٢٧﴾

النساء : ١٢٧ .

ٱلۡيَوۡمَ أُحِلَّ لَكُمُ ٱلطَّيِّبَٰتُۖ وَطَعَامُ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ حِلّٞ لَّكُمۡ وَطَعَامُكُمۡ حِلّٞ لَّهُمۡۖ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنَٰتِ وَٱلۡمُحۡصَنَٰتُ مِنَ ٱلَّذِينَ أُوتُواْ ٱلۡكِتَٰبَ مِن قَبۡلِكُمۡ إِذَآ ءَاتَيۡتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ مُحۡصِنِينَ غَيۡرَ مُسَٰفِحِينَ وَلَا مُتَّخِذِيٓ أَخۡدَانٖۗ وَمَن يَكۡفُرۡ بِٱلۡإِيمَٰنِ فَقَدۡ حَبِطَ عَمَلُهُۥ وَهُوَ فِي ٱلۡأٓخِرَةِ مِنَ ٱلۡخَٰسِرِينَ ﴿٥﴾

المائدة : ٥ .

وَلَقَدۡ أَرۡسَلۡنَا رُسُلٗا مِّن قَبۡلِكَ وَجَعَلۡنَا لَهُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَذُرِّيَّةٗۚ وَمَا كَانَ لِرَسُولٍ أَن يَأۡتِيَ بِـَٔايَةٍ إِلَّا بِإِذۡنِ ٱللَّهِۗ لِكُلِّ أَجَلٖ كِتَابٞ ﴿٣٨﴾

الرعد : ٣٨ .

وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَنفُسِكُمۡ أَزۡوَٰجٗا وَجَعَلَ لَكُم مِّنۡ أَزۡوَٰجِكُم بَنِينَ وَحَفَدَةٗ وَرَزَقَكُم مِّنَ ٱلطَّيِّبَٰتِۚ أَفَبِٱلۡبَٰطِلِ يُؤۡمِنُونَ وَبِنِعۡمَتِ ٱللَّهِ هُمۡ يَكۡفُرُونَ ﴿٧٢﴾

النحل : ٧٢

ٱلزَّانِي لَا يَنكِحُ إِلَّا زَانِيَةً أَوۡ مُشۡرِكَةٗ وَٱلزَّانِيَةُ لَا يَنكِحُهَآ إِلَّا زَانٍ أَوۡ مُشۡرِكٞۚ وَحُرِّمَ ذَٰلِكَ عَلَى ٱلۡمُؤۡمِنِينَ ﴿٣﴾

النور : ٣ .

وَأَنكِحُواْ ٱلْأَيَٰمَىٰ مِنكُمْ

وَٱلصَّٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُواْ فُقَرَآءَ

يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ وَلْيَسْتَعْفِفِ

ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ

وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ

إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ

ءَاتَىٰكُمْ ۚ وَلَا تُكْرِهُواْ فَتَيَٰتِكُمْ عَلَى ٱلْبِغَآءِ إِنْ أَرَدْنَ

تَحَصُّنًا لِّتَبْتَغُواْ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۚ وَمَن يُكْرِههُّنَّ

فَإِنَّ ٱللَّهَ مِنۢ بَعْدِ إِكْرَٰهِهِنَّ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٣٣﴾

النور : ٣٢ ــ ٣٣ .

وَمِنْ ءَايَٰتِهِۦٓ أَنْ خَلَقَ لَكُم مِّنْ أَنفُسِكُمْ أَزْوَٰجًا لِّتَسْكُنُوٓاْ

إِلَيْهَا وَجَعَلَ بَيْنَكُم مَّوَدَّةً وَرَحْمَةً ۚ إِنَّ فِى ذَٰلِكَ لَءَايَٰتٍ

لِّقَوْمٍ يَتَفَكَّرُونَ ﴿٢١﴾

الروم : ٢١

وَقَرْنَ فِى بُيُوتِكُنَّ وَلَا

تَبَرَّجْنَ تَبَرُّجَ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ٱلْأُولَىٰ ۖ وَأَقِمْنَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتِينَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَأَطِعْنَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥٓ ۚ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱللَّهُ لِيُذْهِبَ

عَنكُمُ ٱلرِّجْسَ أَهْلَ ٱلْبَيْتِ وَيُطَهِّرَكُمْ تَطْهِيرًا ﴿٣٣﴾

الأحزاب : ٣٣

إِنَّ ٱلْمُسْلِمِينَ وَٱلْمُسْلِمَٰتِ

وَٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَٰتِ وَٱلْقَٰنِتِينَ وَٱلْقَٰنِتَٰتِ وَٱلصَّٰدِقِينَ

وَٱلصَّٰدِقَٰتِ وَٱلصَّٰبِرِينَ وَٱلصَّٰبِرَٰتِ وَٱلْخَٰشِعِينَ

وَٱلْخَٰشِعَٰتِ وَٱلْمُتَصَدِّقِينَ وَٱلْمُتَصَدِّقَٰتِ وَٱلصَّٰٓئِمِينَ

وَٱلصَّٰٓئِمَٰتِ وَٱلْحَٰفِظِينَ فُرُوجَهُمْ وَٱلْحَٰفِظَٰتِ

وَٱلذَّٰكِرِينَ ٱللَّهَ كَثِيرًا وَٱلذَّٰكِرَٰتِ أَعَدَّ ٱللَّهُ لَهُم مَّغْفِرَةً

وَأَجْرًا عَظِيمًا ﴿٣٥﴾ الأحزاب : ٣٥ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا نَكَحْتُمُ ٱلْمُؤْمِنَٰتِ

ثُمَّ طَلَّقْتُمُوهُنَّ مِن قَبْلِ أَن تَمَسُّوهُنَّ فَمَا لَكُمْ عَلَيْهِنَّ مِنْ

عِدَّةٍ تَعْتَدُّونَهَا ۖ فَمَتِّعُوهُنَّ وَسَرِّحُوهُنَّ سَرَاحًا جَمِيلًا ﴿٤٩﴾

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّبِىُّ إِنَّآ أَحْلَلْنَا لَكَ أَزْوَٰجَكَ ٱلَّٰتِىٓ ءَاتَيْتَ

أُجُورَهُنَّ وَمَا مَلَكَتْ يَمِينُكَ مِمَّآ أَفَآءَ ٱللَّهُ عَلَيْكَ وَبَنَاتِ

عَمِّكَ وَبَنَاتِ عَمَّٰتِكَ وَبَنَاتِ خَالِكَ وَبَنَاتِ خَٰلَٰتِكَ

ٱلَّٰتِى هَاجَرْنَ مَعَكَ وَٱمْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا

لِلنَّبِىِّ إِنْ أَرَادَ ٱلنَّبِىُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا خَالِصَةً لَّكَ مِن

دُونِ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۗ قَدْ عَلِمْنَا مَا فَرَضْنَا عَلَيْهِمْ فِىٓ أَزْوَٰجِهِمْ

وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ لِكَيْلَا يَكُونَ عَلَيْكَ حَرَجٌ ۗ وَكَانَ ٱللَّهُ

غَفُورًا رَّحِيمًا ﴿٥٠﴾ الأحزاب : ٤٩ ـ ٥٠ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتَ ٱلنَّبِىِّ إِلَّآ أَن يُؤْذَنَ لَكُمْ إِلَىٰ طَعَامٍ
غَيْرَ نَـٰظِرِينَ إِنَىٰهُ وَلَـٰكِنْ إِذَا دُعِيتُمْ فَٱدْخُلُوا۟ فَإِذَا طَعِمْتُمْ
فَٱنتَشِرُوا۟ وَلَا مُسْتَـْٔنِسِينَ لِحَدِيثٍ ۚ إِنَّ ذَٰلِكُمْ كَانَ
يُؤْذِى ٱلنَّبِىَّ فَيَسْتَحْىِۦ مِنكُمْ ۖ وَٱللَّهُ لَا يَسْتَحْىِۦ مِنَ
ٱلْحَقِّ ۚ وَإِذَا سَأَلْتُمُوهُنَّ مَتَـٰعًا فَسْـَٔلُوهُنَّ مِن وَرَآءِ حِجَابٍ ۚ
ذَٰلِكُمْ أَطْهَرُ لِقُلُوبِكُمْ وَقُلُوبِهِنَّ ۚ وَمَا كَانَ لَكُمْ أَن تُؤْذُوا۟
رَسُولَ ٱللَّهِ وَلَآ أَن تَنكِحُوٓا۟ أَزْوَٰجَهُۥ مِنۢ بَعْدِهِۦٓ أَبَدًا ۚ إِنَّ
ذَٰلِكُمْ كَانَ عِندَ ٱللَّهِ عَظِيمًا ﴿٥٣﴾

الأحزاب : ٥٣ .

قَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّتِى تُجَـٰدِلُكَ فِى زَوْجِهَا وَتَشْتَكِىٓ
إِلَى ٱللَّهِ وَٱللَّهُ يَسْمَعُ تَحَاوُرَكُمَآ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ سَمِيعٌۢ بَصِيرٌ ﴿١﴾

المجادلة : ١ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ

وَلَا تُمۡسِكُواْ بِعِصَمِ ٱلۡكَوَافِرِ وَسۡـَٔلُواْ مَآ أَنفَقۡتُمۡ وَلۡيَسۡـَٔلُواْ
مَآ أَنفَقُواْۚ ذَٰلِكُمۡ حُكۡمُ ٱللَّهِۖ يَحۡكُمُ بَيۡنَكُمۡۚ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ
حَكِيمٞ ﴿١٠﴾ المتحنة : ١٠ .

* * *

١ ــ الزواج بين الجاهلية والإسلام :

كانت المرأة فى المجتمع الجاهلى عرضة غبن وحيف ، تؤكل حقوقها وتحرم إرثها ، وتعضل بعد الطلاق أو وفاة الزوج من أن تنكح زوجاً ترضاه [١] . ومن أرجاس الجاهلية ما حكته أم المؤمنين عائشة (رضى الله عنها) عن أنواع الاتصال بين الجنسين فى الجاهلية ، إذ تبدو فى معظمها صوراً حيوانية هابطة مزرية :

ففى صحيح البخارى عن ابن شهاب قال : أخبرنى عروة بن الزبير أن عائشة (رضى الله عنها) زوج النبى ﷺ أخبرته أن النكاح فى الجاهلية كان على أربعة أنحاء :

فنكاح منها نكاح الناس اليوم ، يخطب الرجل إلى الرجل وَلِيَّتَه أو ابنته ، فيصدقها ، ثم ينكحها .

ونكاح آخر : كان الرجل يقول لامرأته إذا طهرت من طمثها : أرسلى إلى فلان فاستبضعى منه ، ويعتزلها زوجها ، ولا يمسها أبداً حتى يتبين حملها من ذلك الرجل الذى تستبضع منه ، فإذا تبين حملها أصابها زوجها إذا أحب ، وإنما يفعل ذلك رغبة فى نجابة الولد ، فكان هذا النكاح نكاح الاستبضاع .

ونكاح آخر يجتمع الرهط ما دون العشرة ، فيدخلون على المرأة كلهم يصيبها ، فإذا حملت ووضعت ومرَّ عليها ليال بعد أن تضع حملها أرسلت إليهم ، فلم يستطع رجل منهم أن يمتنع حتى يجتمعوا عندها ، تقول لهم : قد عرفتم الذى كان من أمركم ، وقد ولدت فهو ابنك يا فلان ، تسمى من أحبت باسمه ، فيلحق به ولدها ، لا يستطيع أن يمتنع به الرجل .

ونكاح رابع : يجتمع الناس الكثير ، فيدخلون على المرأة لا تمتنع ممن

---

(١) ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين للندوى ص ٨٦ ط الرابعة ١٩٨٥ .

جاءها ، وهن البغايا ، وكن ينصبن على أبوابهن رايات تكون علما فمن أرادهن دخل عليهن ، فإذا حملت إحداهن ، ووضعت حملها ، جمعوا لها ، ودعوا لهم القافة ، ثم ألحقوا ولدها بالذى يرون ، فالتاط به ودعى ابنه ، لا يمتنع من ذلك ، فلما بعث محمد ﷺ بالحق هدم نكاح الجاهلية كله إلا نكاح الناس اليوم [١] .

ودلالة هذه الصورة على هبوط المجتمع الإنسانى وبهيميته لا تحتاج إلى تعليق ، ويكفى تصور الرجل وهو يرسل امرأته إلى رجل غيره لتأتى له منه بولد نجيب ، كما يرسل ناقته أو فرسه أو دابته إلى الفحل النجيب لتأتى له منه بنتاج جيد ، ويكفى تصور الرجال — ما دون العشرة — يدخلون إلى المرأة مجتمعين ، كلهم يصيبها ، ثم تختار هى أحدهم لتلحق به وليدها . إنه الوحل الذى طهر الإسلام منه العرب وزكاهم .

وفى رواية أخرى عن ابن سلام : « أخبرنى معاوية ، حدثنا هشام عن أبيه ، عن عائشة رضى الله تعالى عنها فى قوله تعالى : ﴿ **ويستفتونك فى النساء قل الله يفتيكم فيهن** .. ﴾ الآية قالت : هى اليتيمة تكون فى حجر الرجل قد شركته فى ماله ويرغب عنها أن يتزوجها ويكره أن يزوجها غيره ، فيدخل عليه فى ماله ، فيحبسها ، فنهاهم الله عن ذلك [٢] .

هذا الحديث يصور أيضاً جانباً من التقاليد التى كانت سائدة فى المجتمع الجاهلى حتى جاء الإسلام وبدأ القرآن الكريم يغير كثيراً منها وينظم فكرة الزواج .

ومما تناوله التغيير نوعان آخران غير ما ورد فى الحديثين السابقين ، عرف أحدهما بنكاح البدل ، وهو : أن يقول الرجل للرجل : انزل لى عن امرأتك وأنزل لك عن امرأتى . وعرف الثانى بنكاح الخدن : كانوا يقولون : ما استتر فلا بأس به ، وما ظهر فهو لؤم ، وقد نهى القرآن الكريم عنه فقال : ﴿ **ولا متخذات أخدان** ﴾ [٣] .

---

(١) صحيح البخارى باب « من قال لا نكاح إلا بولى » م ٣ ج ٧ ص ٢٠ .
(٢) المصدر نفسه ص ٢١ .
(٣) النساء : ٢٥ — وراجع فقه السنة سيد سابق م ٢ ص ٦ — مكتبة المسلم .

٢ ـــ تنظيم جديد للزواج :

لقد ركز الإسلام على تعميق معانى الزواج ، وعبر عنه (بالميثاق الغليظ) ، ودعا إلى امتزاج الطرفين بقوله : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾ ، وركزه على عناصر (السكن والمودة والرحمة) ، وجعله أساساً لاستمرار معانى الخلافة (بالبنين والأحفاد) ، كما اعتبره الخلية الأولى التى تتكون منها الأسرة .

الزواج أنسب مجال حيوى لإرواء الغريزة وإشباعها ، فيهدأ البدن من الاضطراب ، وتسكن النفس من الصراع ، ويكف النظر عن التطلع إلى الحرام ، وتتوق النفس إلى الحلال وإلى عش الحنان والمودة : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة إن فى ذلك لآيات لقوم يتفكرون** ﴾ الروم : ٢١ .

ومن هنا عنى الإسلام بجملة من الوسائل التى من شأنها إذا روعيت وحوفظ عليها من التعرض للتدهور والانحلال ، وكان أول ما تجب مراعاته فى تلك الحياة السعيدة هو التشبع بروح الإسلام والتفهم لمعانى التقوى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾

النساء : ١ .

هذه الآية أول سورة النساء ، وهى تتحدث عن التنظيم الإسلامى الجديد للزواج ، ويلفت النظر أن السورة قد افتتحت بقوله تعالى : ﴿ **يا أيها الناس** ﴾فهى خطاب إلى الناس ، ولهذا الافتتاح دلالته بأن هذه

هى القضية الأولى من القضايا الهامة التى تشمل حياة البشرية كلها ولا تخص مجتمعاً معيناً ، وأن قضية الحياة الزوجية تعالج بالتقوى : ﴿ **اتقوا ربكم الذى خلقكم** ﴾ ، لأن الحياة الأسرية تتعرض لكثير من المنعطفات والمتاعب ، وهى لا تحل بالطرق الرسمية من المحاكم والشرطة ، إنما تذوب بتقوى الله ، وتختفى بشعور المحبة والألفة والسكينة .

أما القضية الثانية التى تشملها الآية المذكورة فهى : ﴿ **ربكم الذى خلقكم من نفس واحدة** ﴾ يترتب عليها وحدة البشرية فى أصلها ، لأنها كلها منبثقة من نفس واحدة ، فالمفروض أن عجلة الحياة الزوجية تسير على وتيرة السكينة والألفة .

والقضية الثالثة هى قضية الجنسين : ﴿ **خلقكم من نفس واحدة وخلق منها زوجها** ﴾ ، يترتب عليها وحدة الجنسين فى الأصل ، ويترتب عليها ثبات العلاقات فى داخل الأسرة . وهذه القضايا من دعائم توحيد المجتمع وتنظيمه (١) .

بهذه التوجيهات الربانية يعالج القران قضية الحياة الزوجية ، ويضع الحلول الفطرية للقضايا التى تتعرض لها الأمة فى مجال الأسرة ، ومن ضمن هذه الحلول : وَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تُقْسِطُوا فِي الْيَتَامَىٰ فَانكِحُوا مَا طَابَ لَكُم مِّنَ النِّسَاءِ مَثْنَىٰ وَثُلَاثَ وَرُبَاعَ ۖ فَإِنْ خِفْتُمْ أَلَّا تَعْدِلُوا فَوَاحِدَةً أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَدْنَىٰ أَلَّا تَعُولُوا ﴿٣﴾ النساء : ٣ .

وردت هذه الآيات فى سبيل تنظيم المجتمع والأسرة وتيسير الحياة الزوجية . وهذه الرخصة فى التعدد مع التحفظ خوف العجز عن العدل والاكتفاء بواحدة فى هذه الحالة أو ما ملكت اليمين ، هذه المسألة تشير إلى التطور الذى حدث فى معالجة قضية الزواج ، ويجب أن تؤخذ بيسر ووضوح ، وأن تعرف الملابسات الحقيقية والواقعية التى تحيط بها .

---

(١) راجع دراسات قرآنية لمحمد قطب ص ٤٠٨ — ٤١٠ ط دار الشروق — بيروت .

روى البخارى بإسناده أن غيلان بن سلمة الثقفى أسلم وتحته عشر نسوة ، فقال له النبى ﷺ : « **اختر منهن أربعاً** » (١) . وروى أبو داود بإسناده أن عميرة الأسدى قال : أسلمت وعندى ثمانى نسوة ، فذكرت ذلك للنبى ﷺ فقال : « **اختر منهن أربعاً** » ، وقال الشافعى فى مسنده : أخبرنى من سمع ابن أبي زياد يقول : أخبرنى عبد المجيد ، عن ابن سهل بن عبد الرحمن ، عن عوف بن الحارث ، عن نوفل بن معاوية الديلمى ، قال : أسلمت وعندى خمس نسوة ، فقال لى رسول الله ﷺ : « **اختر أربعاً أيتهن شئت وفارق الأخرى** » (٢) .

فقد جاء الإسلام وتحت الرجل عشر نسوة أو أكثر ليقول للرجال : إن هناك حداً لا يتجاوزه المسلم وهو أربع ، وإن هناك قيداً ، وهو إمكان العدل ، وإلا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم .

جاء الإسلام لا ليطلق ولكن ليحدد ، ولا ليترك الأمر لهوى الرجل ولكن ليقيد التعدد بالعدل (٣) .

﴿ **فإن خفتم ألا تعدلوا فواحدة أو ما ملكت أيمانكم** ﴾ أى إن خفتم من تعداد النساء أن لا تعدلوا بينهن كما قال تعالى : ﴿ **ولن تستطيعوا أن تعدلوا بين النساء ولو حرصتم** ﴾ فمن خاف من ذلك ، فليقتصر على واحدة أو على الجوارى السرارى ، فإنه لا يجب قسم بينهن ، ولكن يستحب ، فمن فعل فحسن ، ومن لا فلا حرج (٤) .

قِيم ومُثل عن الحياة الزوجية :

وبدأ المجتمع الإسلامى يتلقى مفاهيم جديدة للزواج ، وبدأت الآيات تجلى هذه المفاهيم بصورة أدق ، يقول تعالى : ﴿ **نساؤكم حرث لكم** ﴾ (٥) .

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٦٧٧ .
(٢) المصدر نفسه م ١ ص ٦٧٩ .
(٣) راجع الظلال م ١ ج ٤ ص ٥٧٩ .
(٤) تفسير ابن كثير م ١ ص ٦٧٩ .
(٥) البقرة : ٢٢٣ .

إن هذا التعبير الدقيق فيه إشارات إلى تغيير المفاهيم وإبراز أهداف الزواج ، وقد جاء وضعها وذكرها فى مواضع أخرى كقوله تعالى : ﴿ **هن لباس لكم وأنتم لباس لهن** ﴾البقرة وقوله : ﴿ **ومن آياته أن خلق لكم من أنفسكم أزواجاً لتسكنوا إليها وجعل بينكم مودة ورحمة** ﴾ الروم .

فكل من هذه التعبيرات تصور جانباً من جوانب تلك العلاقة العميقة الكبيرة فى الموضع المناسب ، وتعطى مفهوماً مبتكراً لهذا المجتمع النامي الجديد ، وكان تغييراً جذرياً فى مفاهيم الزواج السابقة : ﴿ **فأتوا حرثكم أنى شئتم** ﴾ ، وفى الوقت ذاته توضح الغاية والهدف والاتجاه إلى الله فيه بالعبادة . ومثل هذه المفاهيم الجديدة فى مجال الحياة الزوجية كان يتلقاها المجتمع بين حين وآخر (٣) .

كما أن الآيات تشير إلى أن وراء مفاهيم الزوجية مقصداً أسمى وأجل ، وهو أنه (تعالى) يحب ألا تكون بين الزوجين علاقة شهوة فحسب بل تكون بينهما علاقة حب ومودة وأنس وعلاقة ، تأتلف بها القلوب ، وتتصل فيها الأرواح ، ويكون بينهما موضع سر للآخر (٤) .

وزيادة فى توضيح مفهوم الزواج وما حدث فى هذا المجال من تطور وتدرج ، تصور الآيات المجتمع المدنى :

وَلَا تَنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكَٰتِ حَتَّىٰ يُؤْمِنَّ ۚ وَلَأَمَةٌ مُّؤْمِنَةٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكَةٍ وَلَوْ أَعْجَبَتْكُمْ ۗ وَلَا تُنكِحُوا۟ ٱلْمُشْرِكِينَ حَتَّىٰ يُؤْمِنُوا۟ ۚ وَلَعَبْدٌ مُّؤْمِنٌ خَيْرٌ مِّن مُّشْرِكٍ وَلَوْ أَعْجَبَكُمْ ۗ أُو۟لَٰٓئِكَ يَدْعُونَ إِلَى ٱلنَّارِ ۖ وَٱللَّهُ يَدْعُوٓا۟ إِلَى ٱلْجَنَّةِ وَٱلْمَغْفِرَةِ بِإِذْنِهِۦ ۖ وَيُبَيِّنُ ءَايَٰتِهِۦ لِلنَّاسِ لَعَلَّهُمْ يَتَذَكَّرُونَ ﴿٢٢١﴾ البقرة : ٢٢١

---

(١) الظلال م ١ ص ٢٤٢ بتصرف .

(٢) الحجاب للمودودى ص ٢٤٤ ط دار النشر السعودية .

كان المجتمع المدنى يفاجأ بمثل هذه التغييرات الشاملة التى حدثت فى مفاهيم الزواج ، لأنه أعمق وأقوى رابطة تصل بين اثنين من بنى الإنسان ، وتشمل أوسع الاستجابات التى يتبادلها فردان ، فلابد إذاً من توحد القلوب والتقائها على المودة والرحمة .

ولقد كانت النشأة الأولى للجماعة المسلمة فى مكة لا تسمح فى أول الأمر بالانفصال الإجتماعى الكامل ، لأن الأوضاع الاجتماعية تحتاج إلى زمن وإلى تنظيمات دقيقة ، فلما أراد الله للجماعة المسلمة أن تستقل فى المدينة ، وتتميز شخصيتها الاجتماعية كما تميزت شخصيتها الاعتقادية ، بدأ التنظيم الجديد يأخذ طريقه ، ونزلت هذه الآية تحرم أى نكاح جديد بين المسلمين والمشركين ، فأما ما كان قائماً بالفعل فقد استمر إلى السنة السادسة للهجرة ، حتى نزل قوله تعالى فى الحديبية :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا جَآءَكُمُ
ٱلْمُؤْمِنَـٰتُ مُهَـٰجِرَٰتٍ فَٱمْتَحِنُوهُنَّ ۖ ٱللَّهُ أَعْلَمُ بِإِيمَـٰنِهِنَّ ۖ
فَإِنْ عَلِمْتُمُوهُنَّ مُؤْمِنَـٰتٍ فَلَا تَرْجِعُوهُنَّ إِلَى ٱلْكُفَّارِ ۖ
لَا هُنَّ حِلٌّ لَّهُمْ وَلَا هُمْ يَحِلُّونَ لَهُنَّ ۖ وَءَاتُوهُم مَّآ أَنفَقُوا۟ ۚ
وَلَا جُنَاحَ عَلَيْكُمْ أَن تَنكِحُوهُنَّ إِذَآ ءَاتَيْتُمُوهُنَّ أُجُورَهُنَّ ۚ
وَلَا تُمْسِكُوا۟ بِعِصَمِ ٱلْكَوَافِرِ   الممتحنة : ١٠ .

فانتهت آخر الارتباطات بين هؤلاء وهؤلاء (١) . ومن الطبيعى أن تعقب هذه الخطوة فكرة منع الزواج من المشركات : **﴿ ولا تنكحوا المشركات حتى يؤمن ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾** .

قال « السدى » : نزلت فى عبد الله بن أبى رواحة كانت له أمة سوداء ، فغضب عليها ، فلطمها ، ثم فزع فأتى رسول الله ﷺ فأخبره خبرها ،

---

(١) الظلال م ١ ص ٢٣٩ ــ ٢٤٠ بتصرف .

فقال : ما هى ؟ قال : تصوم ، وتصلى ، وتحسن الوضوء ، وتشهد أن لا إله إلا الله وأنك رسول الله ، فقال : « يا أبا عبد الله هذه مؤمنة » . فقال : « والذى بعثك بالحق لأعتقنها ، ولأتزوجنها ، ففعل ، فطعن عليه ناس من المسلمين ، وقالوا : نكح أَمَتَهُ ، وكانوا يريدون أن ينكحوا إلى المشركين وينكحوهم رغبة فى أحسابهم ، فأنزل الله : ﴿ ولأمة مؤمنة خير من مشركة ولو أعجبتكم ﴾ (١) .

* * *

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٣٨٦ .

٣ ـ صورة من صور تطهير العلاقة الزوجية :

تغيير فكرة أهل المدينة عن « الحائض » .

﴿ وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْمَحِيضِ قُلْ هُوَ أَذًى فَٱعْتَزِلُوا۟ ٱلنِّسَآءَ فِى ٱلْمَحِيضِ وَلَا تَقْرَبُوهُنَّ حَتَّىٰ يَطْهُرْنَ فَإِذَا تَطَهَّرْنَ فَأْتُوهُنَّ مِنْ حَيْثُ أَمَرَكُمُ ٱللَّهُ إِنَّ ٱللَّهَ يُحِبُّ ٱلتَّوَّٰبِينَ وَيُحِبُّ ٱلْمُتَطَهِّرِينَ ﴿٢٢٢﴾ ﴾ البقرة : ٢٢٢ .

وعن أنس أن اليهود كانت إذا حاضت المرأة منهم لم يواكلوها ولم يجامعوها فى البيوت ، فسأل أصحاب النبى ﷺ ، فأنزل الله عز وجل : ﴿ **ويسألونك عن المحيض قل هو أذى** ﴾ ..الآية . فقال رسول الله ﷺ : « **اصنعوا كل شىء إلا النكاح** » ، فبلغ ذلك اليهود ، فقالوا : ماذا يريد هذا الرجل أن يدع من أمرنا شيئاً إلا خالفنا فيه ؟ » (١) .

« ويستفاد من أقوال المفسرين والرواة أن هذه العادة من عادات أهل المدينة ، والغالب أنها تسربت إليهم أو إلى العرب من اليهودية التى تعتبر الحائض نجسة إلى أن تطهر ، وتوجب عزلها عن سائر أفراد العائلة ولا يزال السامريون وهم طائفة من اليهود متمسكين بالتوراة دون التلمود يأخذون أنفسهم بهذه الشريعة إلى الآن » (٢) .

عائشة أم المؤمنين تؤكد تغيير هذه الفكرة ..

« عن مسروق قال : قلت لعائشة : ما يحل للرجل من امرأته إذا كانت حائضاً ؟ قالت : كل شىء إلا الجماع ، وهذا قول ابن عباس ومجاهد والحسن . « وروى ابن جرير عن عائشة قالت له : ما فوق الإزار . وقلت :

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٣٨٧ .
(٢) عصر النبى ﷺ وبيئته قبل البعثة لمحمد عزة دروزة ص ١٣٩ .

ويحل مضاجعتها ومواكلتها بلا خلاف . قالت عائشة : كان رسول الله ﷺ يأمرني ، فأغسل رأسه ، وأنا حائض ، وكان يتكيء في حجري ، وأنا حائض ، فيقرأ القرآن » (١) .

٤ ــ الزواج وسيلة من وسائل تنظيم المجتمع وتطهيرة :

رغَّب الإسلام في الزواج بصور متعددة ، فتارة يذكر أنه من سُنن الأنبياء وهدي المرسلين ﴿ **ولقد أرسلنا رسلا من قبلك وجعلنا لهم أزواجاً وذرية** ﴾ (٢) .

وفي حديث الترمذي عن أبي أيوب رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال : « **أربع من سنن المرسلين : الحناء ، والتعطر ، والسواك ، والنكاح** » (٣) وتارة يذكر في معرض الامتنان ﴿ **والله جعل لكم من أنفسكم أزواجاً وجعل لكم من أزواجكم بنين وحفدة ورزقكم من الطيبات** ﴾ (٤) .

فيلفت الإسلام إلى أن الله سيجعل الزواج سبيلا إلى الغنى ، وأنه سيحمل عن مُريده هذه الأعباء ويمده بالقوة التي تجعله قادراً على التغلب على أسباب الفقر (٥) .

تيسير الزواج :

وَأَنكِحُوا۟ ٱلْأَيَـٰمَىٰ مِنكُمْ
وَٱلصَّـٰلِحِينَ مِنْ عِبَادِكُمْ وَإِمَآئِكُمْ ۚ إِن يَكُونُوا۟ فُقَرَآءَ
يُغْنِهِمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٣٢﴾ النور : ٣٢ .

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٣٨٨ .
(٢) الرعد : ٣٨ .
(٣) سنن الترمذي ج ٣ ص ٢٧٢ .
(٤) النحل : ٧٢ .
(٥) فقه السنة : م ٢ ص ٧ .

وواضح من الآية الكريمة أن الإسلام جعل الزواج وسيلة لمواجهة الميول الجنسية الفطرية ، ولذلك يجب أن تزول العقبات من طريق الزواج ، لتجرى الحياة على طبيعتها ويسرها ، فالإسلام لا يفرض العفة إلا وقد هيأ لها أسبابها وجعلها ميسورة للأفراد الأسوياء ، فلا يلجأ إلى الفاحشة إلا الذى يعدل عن الطريق النظيف الميسور عامداً غير مضطر ، ولذلك أمر الله تعالى هذا المجتمع المسلم الجديد أن يعين من يقف المال فى طريقهم إلى النكاح الحلال : ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ .

﴿ **والأيامى** ﴾ هم الذين لا أزواج لهم من الجنسين ، فإذا وجد فى المجتمع الإسلامى بعد ذلك أيامى فقراء وفقيرات تعجز مواردهم الخاصة عن الزواج فعلى الجماعة أن تزوجهم ، وكذلك العبيد والإماء ، غير أن هؤلاء يلتزم أولياؤهم بأمرهم ما داموا قادرين .

ولا يجوز أن يكون الفقر عائقاً عن التزويج متى كانوا صالحين للزواج راغبين فيه رجالاً ونساء فالرزق بيد الله ، وقد تكفل الله بإغنائهم إن هم اختاروا طريق العفة النظيف ﴿ **إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله** ﴾ .

« ذهب جمهور الفقهاء إلى أن الأمر بالتزويج فى هذه الآية للندب ، ومعناه أن المسلمين عامة ينبغى أن يهتم بعضهم ببعض حتى لا يبقى فى مجتمعهم رجل ولا امرأة بدون نكاح » (١) .

وفى انتظار قيام الجماعة بتزويج الأيامى يأمرهم بالاستعفاف حتى يغنيهم الله بالزواج :

وَلْيَسْتَعْفِفِ ٱلَّذِينَ لَا يَجِدُونَ نِكَاحًا حَتَّىٰ يُغْنِيَهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ وَٱلَّذِينَ يَبْتَغُونَ ٱلْكِتَٰبَ مِمَّا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ فَكَاتِبُوهُمْ إِنْ عَلِمْتُمْ فِيهِمْ خَيْرًا ۖ وَءَاتُوهُم مِّن مَّالِ ٱللَّهِ ٱلَّذِىٓ ءَاتَىٰكُمْ النور : ٣٣ .

---

(١) تفسير سورة النور للمودودي ط دار الاعتصام ص ١٨١

وأحسن تفسير لهذه الآيات ما جاء عن النبى ﷺ من الأحاديث فى هذا الباب : فعن عبد الله بن مسعود أن رسول الله ﷺ قال : « **يا معشر الشباب ، من استطاع منكم الباءة فليتزوج ، فإنه أغض للبصر وأحصن للفرج ، ومن لم يستطع فعليه بالصوم ، فإنه له وجاء** » (١) .

وعن أبى هريرة أن النبى ﷺ قال : « **ثلاثة حق على الله عونهم : الناكح يريد العفاف ، والمكاتب يريد الأداء ، والغازى فى سبيل الله** » (٢) .

وهكذا يواجه الإسلام المشكلة الاجتماعية مواجهة تطبيقية ، فيهيىء لكل فرد صالح للزواج أن يتزوج ولو كان عاجزاً من ناحية المال ، واعتبر الزواج وسيلة فعالة لتنظيم المجتمع وتطهيره .

* * *

---

(١) صحيح مسلم ج ٩ ص ١٧٥ باب استحباب النكاح لمن تاقت نفسه إليه . ط دار الفكر .

(٢) سنن الترمذى ج ٣ ص ١٠٣ ط دار الفكر باب ما جاء فى المجاهد والمكاتب والناكح وعون الله إياهم .

(ب) تحريم الزنا :

دعا الإسلام إلى الزواج ، ويسر لذلك السبل ، لأنه أسلم طريقة لتصريف الغريزة الجنسية ، وهى الوسيلة المثلى لاستمرار معانى الخلافة على وجه الأرض ، ولإخراج جيل يقوم على تربيته الزوجان ، ويتعهدانه بالرعاية والعناية ، وغرس عواطف الحب والود والرحمة والمودة وعزة النفس ، لكى يستطيع هذا الجيل أن ينهض بتبعاته ، ويسهم بجهوده فى تعمير هذا الكون .

وكما وضع الطريقة المثلى لتصريف الغريزة ، ومنع أى تصرفٍ فى غير الطريق المشروع ، وحظر إثارة الغريزة بأى وسيلة من الوسائل ، فنهى عن الاختلاط والخلوة والصورة المثيرة والغناء الفاحش والنظر المريب وكل ما من شأنه أن يهيج الغريزة أو يدعو إلى الفحش : ﴿ **إن الذين يحبون أن تشيع الفاحشة فى الذين آمنوا لهم عذاب أليم فى الدنيا والآخرة والله يعلم وأنتم لا تعلمون** ﴾ النور : ١٩ .

إن الذين يحبون أن يذيع الزنا فى الذين صدقوا بالله ورسوله ، ويظهر ذلك فيهم ، لهم عذاب أليم ، يقول : لهم عذاب وجيع فى الدنيا ، بالحد الذى جعله الله حداً لرامى المحصنات والمحصنين إذا رموهم بذلك ، وفى الآخرة عذاب جهنم إن مات مصراً على ذلك غير تائب (١) .

إن الزنا يفسد نظام البيت ، ويهز كيان الأسرة ، ويقطع العلاقة الزوجية ، ويعرض الجيل كله لسوء التربية ، مما يتسبب عنه التشرد والانحراف والجريمة . ومما لا شك فيه أنه من أكبر الأسباب الموجبة للفساد وانحطاط الآداب .

لهذا كله حرم الإسلام الزنا لحماية الأسرة التى هى اللبنة الأولى فى بناء المجتمع ، ووضع العقوبات الصارمة الحاسمة لتلك الفعلة المستنكرة الشائنة ، وعدم الرأفة فى أخذ الفاعلين بجرمهما ، وعدم تعطيل الحد أو الترفق فى

---

(١) تفسير الطبرى ج ١٧ ص ١٠٠ ط دار الفكر ١٩٨٤ بيروت .

إقامته تراخياً فى دين الله وحقه ، وإقامته فى مشهد عام تحضره طائفة من المؤمنين ، فيكون أوجع وأوقع فى نفوس الفاعلين ونفوس المشاهدين .

وقد احتاط لتنفيذه هذه العقوبة بقدر ما أخاف الزناة وأرهبهم ، فمن الاحتياط أنه درأ الحدود بالشبهات ، فلا يقام حد إلا بعد التيقن من وقوع الجريمة ، وأنه لابد فى إثبات هذه الجريمة من أربعة شهود عدول من الرجال ، وأنه رأوا عملية الزنا نفسها كالميل فى المكحلة وهذا مما يصعب ثبوته .

فهذه العقوبة هى إلى الإرهاب والتخويف أقرب منها إلى التحقيق والتنفيذ .

ويرى كثير من الفقهاء أن عقوبة الزنا فى أول الأمر كانت متدرجة كما حدث فى تحريم الربا وتحريم الخمر [1] ، وكان هذا التدرج ليرتقى بالمجتمع ، ويأخذ به فى رفق وهوادة إلى العفاف والطهر ، وحتى لا يشق على الناس هذه القفزة السريعة فلا يكون عليهم فى الدين حرج واتخذ لذلك مراحل :

١ــ المرحلة الأولى من محاربة الزنا :

فى أول مرحلة من مراحل التنديد بجريمة الزنا ، جاء فى بعض الآيات المكية وهى فى سورة الفرقان قولة تعالى : ﴿ **ولا يقتلون النفس التى حرم الله إلا بالحق ولا يزنون ومن يفعل ذلك يلق أثاماً يضاعف له العذاب يوم القيامة ويخلد فيه مهاناً** ﴾ الفرقان : ٦٨ ــ ٦٩ .

والتخرج من قتل النفس إلا بالحق مفرق الطريق بين الحياة الاجتماعية الآمنة المطمئنة التى تحترم فيها الحياة الإنسانية ويقام لها وزن ، والتحرج من الزنا هو مفرق الطريق بين الحياة النظيفة التى يشعر فيها الإنسان بارتفاعه عن الحس الحيوانى الغليظ ، ويحس بأن لالتقائه بالجنس الآخر هدفاً أسمى من إرواء النفس ، من أجل ذلك ذكر الله تعالى فى سمات عباد الرحمن ، وعقب عليها بالتهديد الشديد : ﴿ **ومن يفعل ذلك يلق أثاماً** ﴾ وهذه أول خطوة حكيمة لمحاربة القتل والزنا .

---

(١) راجع فقه السنة لسيد سابق ج ٢ نظام الأسرة وحد الزنا ص ١٠ ، ٣٤٢ .

وهناك ارتباط بين القتل والزنا ، ولذلك كثيراً ما تذكر الآيات هذا المعنى .

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا الزِّنَىٰ إِنَّهُ كَانَ فَاحِشَةً وَسَاءَ سَبِيلًا ۝ وَلَا تَقْتُلُوا النَّفْسَ الَّتِي حَرَّمَ اللَّهُ إِلَّا بِالْحَقِّ وَمَن قُتِلَ مَظْلُومًا فَقَدْ جَعَلْنَا لِوَلِيِّهِ سُلْطَانًا فَلَا يُسْرِف فِّي الْقَتْلِ إِنَّهُ كَانَ مَنصُورًا ۝ ﴾

الإسراء : ٣٢ ــ ٣٣

إن كلمة الزنا تحمل فى طياتها معاني عديدة للقتل ، فإنه قتل ابتداء لأنه إراقة لمادة الحياة فى غير موضعها ، وهو قتل فى صورة أخرى ، قتل فى الجماعة التى يفشو فيها ، فتضيع الأنساب ، وتنحل الجماعة ، وتتفكك روابطها ، وهو يضيع مفاهيم الأسرة وأهدافها السامية ، ولذلك يأخذ الإسلام محاربة الزنا التدرج الطبيعي ، فيكره الاختلاط فى غير ضرورة ، وينهى عن التبرج بالزينة ، ويحض على الزواج لمن استطاع ، ويوصى بالصوم لمن لا يستطيع ، ويكره الحواجز التى تمنع من الزواج كالمغالاة فى المهور ، وينفى الخوف من العيلة والإملاق ، ويوقع أشد العقوبة على الجريمة حين تقع،وعلى رمى المحصنات الغافلات دون برهان إلى آخر وسائل الوقاية والعلاج [١] .

« الزنا فيه معانى الاعتداء وإن كان الاعتداء الشخصى بين الرجل والمرأة غير واضح ، ولكن ثمة اعتداء آخر وهو الاعتداء على الأسرة ، والاعتداء على النظام الاجتماعى الذى نظم الله فيه العلاقة بين الرجل والمرأة بعلاقة قدسها الله بكلمته ، وهى الزواج كما قال ﷺ : **« اتقوا الله فى النساء فإنهن عوان عندكم ، استحللتم فروجهن بكلمة الله »** ، وكلمة الله تعالى هى المنظمة لتلك العلاقةالإنسانية ، فمن أوجد علاقة بغير هذا الذى أحله الله تعالى ، فقد اعتدى على النظام الذى قرره شرع الله تعالى » [٢] .

---

(١) الظلال : م ٤ ص ٢٢٢٤ بتصرف .

(٢) الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى للإمام « أبو زهرة » ص ٦٣ .

ولما كان لجريمة الزنا فحشها وخطورة أثرها فى المجتمع أطلق عليها القرآن كلمة « الفاحشة » ، قال تعالى : ﴿ **ولا تقربوا الزنا إنه كان فاحشة وساء سبيلًا** ﴾ .

٢ ــ التدرج الزمنى فى مكافحة الزنا :

كان الحكم فى ابتداء الإسلام أن المرأة إذا ثبت زناها بالبينة العادلة حبست فى بيت ، فلا تمكن من الخروج منه إلى أن تموت ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **واللاتى يأتين الفاحشة** ﴾ يعنى الزنا ﴿ **من نسائكم فاستشهدوا عليهن أربعة منكم فإن شهدوا فأمسكوهن في البيوت حتى يتوفاهن الموت أو يجعل الله لهن سبيلا** ﴾ النساء : ١٥ .

إن الإسلام يتدرج فى تطهير المجتمع وتنظيفه ، وقد اختار فى أول الأمر عزل الفاحشات من النسوة وإبعادهن عن المجتمع متى ثبت عليهن ارتكاب الفاحشة : ﴿ **أو يجعل الله لهن سبيلا** ﴾ ، **الآية تبين هذا التدرج** المنشود ويشعر الدارس لهذه الآية أن هذا ليس الحكم النهائى الدائم ، وإنما هو فترة معينة وملابسات فى المجتمع خاصة ، وأنه يتوقع صدور حكم آخر ثابت دائم ، وهذا هو الذى وقع بعد ذلك فتغير الحكم ، كما ورد فى سورة النور .

وبينما المجتمع المدنى فى حالة الترقب والانتظار لهذا الحكم النهائى جاء الوحى : « روى مسلم وأصحاب السنن عن عبادة بن الصامت عن النبى ﷺ قال : « **خذوا عنى ، خذوا عني ، قد جعل الله لهن سبيلا ، البكر بالبكر جلد مائة وتغريب سنة ، والثيب بالثيب جلد مائة والرجم** » (١) .

وهكذا يتجلى لنا عناية المنهج الإسلامى بتطهير المجتمع المتطور من الفاحشة ، فالإسلام لم ينتظر حتى تقوم له دولة فى المدينة تتولاها بالتنفيذ ، فقد ورد النهى عن الزنا فى سورة الإسراء المكية :

﴿ وَلَا تَقْرَبُوا۟ ٱلزِّنَىٰٓ ۖ إِنَّهُۥ كَانَ فَٰحِشَةً وَسَآءَ سَبِيلًا ﴿٣٢﴾ ﴾ الإسراء : ٣٢ .

---

(١) تفسير ابن كثير : م ١ ص ٦٩٦ .

كما ورد فى سورة « المؤمنون » :

قَدْ أَفْلَحَ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ هُمْ فِى صَلَاتِهِمْ خَٰشِعُونَ ﴿٢﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ عَنِ ٱللَّغْوِ مُعْرِضُونَ ﴿٣﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِلزَّكَوٰةِ فَٰعِلُونَ ﴿٤﴾ وَٱلَّذِينَ هُمْ لِفُرُوجِهِمْ حَٰفِظُونَ ﴿٥﴾ إِلَّا عَلَىٰٓ أَزْوَٰجِهِمْ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُمْ فَإِنَّهُمْ غَيْرُ مَلُومِينَ ﴿٦﴾ فَمَنِ ٱبْتَغَىٰ وَرَآءَ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْعَادُونَ ﴿٧﴾ المؤمنون : ١ — ٧ .

ثم كرر هذا القول فى سورة المعارج ، فلما أصبحت للإسلام دولة فى المدينة أخذ يزاول سلطته فى صون المجتمع من الفاحشة عن طريق العقوبة والتأديب على نحو ما رأينا فى هذه الأحكام التى تضمنتها الآيات القرآنية . وأخيراً جاء الحكم واضحاً فى السنة السادسة من الهجرة :

ٱلزَّانِيَةُ وَٱلزَّانِى فَٱجْلِدُوا۟ كُلَّ وَٰحِدٍ مِّنْهُمَا مِا۟ئَةَ جَلْدَةٍ ۖ وَلَا تَأْخُذْكُم بِهِمَا رَأْفَةٌ فِى دِينِ ٱللَّهِ إِن كُنتُمْ تُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ ۖ وَلْيَشْهَدْ عَذَابَهُمَا طَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٢﴾ النور : ٢ .

فكان هذا هو السبيل الذى أشارت إليه من قبل آية النساء ، والجلد هو حد البكر من الرجال والنساء ، وهو الذى لم يحصن بالزواج ، ويوقع عليه متى كان مسلماً بالغاً عاقلاً حراً ، فأما المحصن وهو من سبق له الوطء فى نكاح صحيح ، وهو مسلم حر بالغ ، فحده الرجم : (عن ابن عباس أن

عمر قام ، فحمد الله ، وأثنى عليه ، ثم قال : أما بعد أيها الناس ، فإن الله تعالى بعث محمداً ﷺ بالحق ، وأنزل إليه الكتاب ، فكان فيما أنزل عليه آية الرجم فقرأناها ، ووعيناها ، ورجم رسول الله ﷺ) .

(قال ابن عمر : نبئت عن كثير بن الصلت ، قال : كنا عند مروان وفينا زيد ، فقال زيد بن ثابت : كنا نقرأ : « الشيخ والشيخة إذا زنيا فارجموهما البتة » (١) ، قال مروان : ألا أكتبها فى المصحف ؟ قال : ذكر ذلك وفينا عمر بن الخطاب ، فقال : أنا أشفيكم من ذلك ، قال : قلنا : فكيف ؟ قال جاء رجل إلى النبى ﷺ ، قال : فذكر كذا وكذا ، وذكر الرجم فقال : يا رسول الله ، أكتب لى آية الرجم ، قال : « **لا أستطيع الآن** » هذا أو نحو ذلك) (٢) .

والقرآن يذكر حد البكر ، ويشدد فى الأخذ به دون تسامح ولا هوادة ، وإذا كانت العقوبة تبدو قاسية فإن آثار الجريمة المرتبة عليها أشد ضرراً على المجتمع ، والإسلام يوازن بين الضرر الواقع على المذنب والضرر الواقع على المجتمع ، ويقضى بارتكاب أخف الضررين ، وهذه هى العدالة .

ثم يزيد فى تفظيع الفعلة وإبراز شناعتها ، فيقطع ما بين فاعلها وبين هذا المجتمع الطاهر من وشيجة .

والتشديد فى عقوبة الزنا مطلوب فى مثل هذه الظروف ، لأن فيها حفظ النفوس وصيانة الأعراض وحماية الأسرة وتطهير البيئة ، ولذلك يعقب على حد الزنا بعزل الزناة عن المجتمع .

---

(١) بقية الآية : ﴿ نكالا من الله والله عزيز حكيم ﴾ راجع : مناهل العرفان فى علوم القرآن . محمد بن عبد العزيز الزرقانى ج ٢ ص ١١١ ط عيسى الحلبي بمصر .
(٢) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٢٦٢ ط دار الفكر ١٩٨١ م .

(ج) تحريم الخمر والميسر :

١ ــ انغماس المجتمع قبل الإسلام فى شرب الخمر :

كانت الخمر إحدى تقاليد المجتمع المدنى الأصيلة الشاملة ، وإحدى الظواهر لهذا المجتمع ، كما أنها تكاد تكون ظاهرة مميزة لكل مجتمع بعيد عن مجتمع القرآن والإسلام ، فقد كانت ظاهرة مميزة للمجتمع الروماني فى أوج جاهليته ، والمجتمع الفارسى أيضاً .

ولكى ندرك تغلغل هذه الظاهرة فى المجتمع العربى قبل الإسلام يجب أن نعود إلى الشعر الجاهلى ، حيث نجد الخمر عنصراً أساسياً من عناصر المادة الأدبية ، كما أنه عنصر أساسى من عناصر الحياة كلها ، يقول طرفة بن العبد :

وإن تبغنى فى حلقة القوم تلقنى
وإن تقتنصني فى الحوانيت تصطد
متى تأتنى أصبحك* كأساً روية
وإن كنت عنها غانياً فاغن وازدد(١)

والحديث عن الخمر وشربها ووصف مجالس الشراب والمفاخرة بها تزحم الشعر الجاهلى وتنتشر فيه فيقول طرفة نفسه فى معلقته :

وما زال تشرابى الخمور ولذتى ... وبيعى وإنفاق طريفى ومتلدى
إلى أن تحامتنى العشيرة كلها ... وأفردت إفراد البعير المعبد
رأيت بنى غبراء* لا ينكروننى ... ولا أهل هذاك الطراف* الممدد
ألا أيهذا اللائمى أشهد الوعى ... وأن أحضر اللذات هل أنت مخلدى ؟
فإن كنت لا تسطيع دفع منيتى ... فدعنى أبادرها بما ملكت يدى

* « بنوغبراء » : الصعاليك ، وهم المحاويج والفقراء .
* الطراف : بيت من أدم ، وأهله المياسر والأغنياء .

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى . تحقيق وتعليق عبد السلام محمد هارون ط الثانية دار المعارف بمصر ص ١٨٦ ، ١٨٧ .
أصبحك : من الصبوح : شرب الغداة .

فلولا ثلاث هن من عيشة الفتى وجدك لم أحفل متى قام عودى
فمنهن سبق العاذلات بشربة كميت* متى ما تعل بالماء تزبد(١)

يقول امرؤ القيس .

حلت لى الخمر وكنت امرأً عن شربها فى شغل شاغل
فاليوم فاشرب غير مستحقب إثماً من الله ولا واغل (٢)

ويقول الأعشى :

فقد أشرب الراح قد تعلمين من يوم المقام ويوم الظعن
وأشرب بالريف حتى يقا ل : قد طال بالريف ما قد دجن(٣)

ويقول المنخل اليشكرى :

يارب يوم للمنـــــــــــــــــــحـ خل قد لها فيــه قصير
فإذا انتشــــــــــــــــيت فإنني رب الخورنــــق والسديـــر
فإذا صحـــوت فإنـــــــي رب الشويهة والبــــــعير
ولقـد شربت من المـــدا مة بالقليـــل وبالكـــثير(٤)

والأبيات تصور انغماس المجتمع الجاهلى فى الشراب وإدمانه الخمر ولذلك أخذ القرآن مسلك التدرج فى تحريمها .

* * *

---

(١) شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات لأبى بكر محمد بن القاسم الأنبارى تحقيق وتعليق عبدالسلام محمد هارون ص ١٩١ : ١٩٤ .
* كميت : حمرتها تضرب إلى السواد .
(٢) المصدر نفسه : ص ١٠ .
(٣) ديوان الأعشى : ص ٢٠٦ دار صادر بيروت .
(٤) الأصمعيات . تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر ، عبد السلام هارون ص ٥٥ دار المعارف مصر .

٢ ــ التمهيد لتحريم الخمر :

وكانت أول آية نزلت فى هذا الصدد فى مكة : ﴿ **ومن ثمرات النخيل والأعناب تتخذون منه سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ النحل : ٦٧ .

هذه الثمرات المنبثقة عن الحياة التى بثها الماء النازل من السماء تتخذون منه ﴿ **سكراً ورزقاً حسناً إن فى ذلك لآية لقوم يعقلون** ﴾ والسكر هو الخمر ، والنص يلمح إلى أن الرزق الحسن غير الخمر ، وأن الخمر ليست رزقاً حسناً ، وفى هذا توطئة وتدرج لما جاء بعده من تحريمها ، فيدركون أن من يصنع هذا الرزق هو الذى يستحق العبودية ، وهو الله ، قال ابن عباس : « السكر » ما حرم من ثمرتيهما ، والرزق الحسن ما أحل من ثمرتيهما ، يعنى ما يبس منهما من تمر وزبيب ، وما عمل منهما من طلاء وهو الدبس ، وخل ونبيذ حلال يشرب قبل أن يشتد ، كما وردت السنة بذلك (١) .

٣ ــ الخطوة الأولى فى تحريم الخمر :

ولقد كان كبار الصحابة مولعين بالخمر ، وبدأ يتسرب إليهم الشك فى حلها كلما ذاقوا حلاوة الإيمان وازدادوا قرباً من الله تعالى ، وبدءوا يتساءلون ، قال تعالى : ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر قل فيهما إثم كبير ومنافع للناس وإثمهما أكبر من نفعهما** ﴾ (٢) ، نزلت فى عمر بن الخطاب ومعاذ بن جبل ونفر من الأنصار أتوا رسول الله ﷺ ، فقالوا : أفتنا فى الخمر والميسر ، فإنهما مذهبة للعقل ، مسلبة للمال ، فأنزل الله تعالى هذه الآية (٣).

---

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٨٩١ .
(٢) البقرة : ٢١٩ .
(٣) أسباب نزول القرآن للواحدى تحقيق محمد أحمد صقر ص ٦٤ ط ١٩٨٤ .

وحتى ذلك الوقت لم يكن قد نزل تحريم الخمر والميسر ، ولكن الله تعالى يأخذ بيد هذه الجماعة الناشئة خطوة خطوة فى الطريق الذى أراده لها .

وهذا النص كان أول خطوة من خطوات التحريم ، فإذا كان الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع فتلك علة تحريم ومنع ، وإن لم يصرح هنا بالتحريم والمنع ، والآية تحرك الوجدان وتخاطب العقل بأن الإثم فى الخمر والميسر أكبر من النفع ، وفى هذا إيحاء بأن تركهما هو الأولى .

٤ ــ الخطوة الثانية فى تحريم الخمر :

وظل عمر يشرب الخمر ويطلب الإيضاح ، ويقول : « اللهم بين لنا بياناً شافياً فى الخمر » ، حتى نزلت الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** .. ﴾ [١] .

نزلت فى أناس من أصحاب رسول الله ﷺ كانوا يشربون الخمر ويحضرون الصلاة وهم نشوى ، فلا يدرون كم يصلون ولا ما يقولون فى صلاتهم .

أخبرنا أبو بكر الأصفهانى ، قال : أخبرنا أبو الشيخ الحافظ ، قال : حدثنا عطاء عن أبى عبد الرحمن ، قال : صنع عبد لرحمن بن عوف طعاماً ، ودعا أناساً من أصحاب رسول الله ﷺ ، فطعموا وشربوا ، وحضرت صلاة المغرب ، فقرأ ﴿ **قل يا أيها الكافرون** ﴾ فلم يقمها فأنزل الله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقربوا الصلاة وأنتم سكارى حتى تعلموا ما تقولون** ﴾ [٢] .

والصلاة فى خمسة أوقات معظمها تتقارب لا يكفى ما بينها للسكر والإفاقة ، وفى هذا تضييق لفرص المزاولة العملية للشرب .

---

(١) النساء : ٤٣ .
(٢) أسباب النزول ص ١٤٦ .

٥ ــ القطع بتحريم الخمر :

ثم جاء النهى الحازم الأخير بتحريم الخمر والميسر مقرونين إلى تحريم الأنصاب والأزلام ، أى إلى الشرك بالله ، قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟

إِنَّمَا ٱلْخَمْرُ وَٱلْمَيْسِرُ وَٱلْأَنصَابُ وَٱلْأَزْلَـٰمُ رِجْسٌ مِّنْ عَمَلِ ٱلشَّيْطَـٰنِ فَٱجْتَنِبُوهُ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٩٠﴾ إِنَّمَا يُرِيدُ ٱلشَّيْطَـٰنُ أَن يُوقِعَ بَيْنَكُمُ ٱلْعَدَٰوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ فِى ٱلْخَمْرِ وَٱلْمَيْسِرِ وَيَصُدَّكُمْ عَن ذِكْرِ ٱللَّهِ وَعَنِ ٱلصَّلَوٰةِ ۖ فَهَلْ أَنتُم مُّنتَهُونَ ﴿٩١﴾ وَأَطِيعُوا۟ ٱللَّهَ وَأَطِيعُوا۟ ٱلرَّسُولَ وَٱحْذَرُوا۟ ۚ فَإِن تَوَلَّيْتُمْ فَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّمَا عَلَىٰ رَسُولِنَا ٱلْبَلَـٰغُ ٱلْمُبِينُ ﴿٩٢﴾ لَيْسَ عَلَى ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ جُنَاحٌ فِيمَا طَعِمُوٓا۟ إِذَا مَا ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ وَعَمِلُوا۟ ٱلصَّـٰلِحَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّءَامَنُوا۟ ثُمَّ ٱتَّقَوا۟ وَّأَحْسَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُحْسِنِينَ ﴿٩٣﴾

المائدة : ٩٠ ــ ٩٣

لقد كانت الخمر والميسر والأنصاب والأزلام من معالم الحياة الجاهلية ، ومن التقاليد المتغلغلة فى المجتمع الجاهلى ، وكانت مرتبطة بعضها ببعض ، ويجعلونها من المفاخر التى يتسابقون إليها ، وكان يصاحب مجالس الشراب نحر الذبائح واتخاذ الشواء فيها للشاربين وللسقاة ولأحلاس هذه المجالس .

أخبرنا أبو سعيد بن أبى بكر المطوعى ، قال : حدثنا أبو عمرو : (قال : حدثنا مصعب بن سعد بن أبى وقاص عن أبيه ، قال : أتيت على

نفر من المهاجرين والأنصار ، فقالوا : تعال نطعمك و نسقك خمراً ، وذلك قبل أن تحرم الخمر ، فأتيتهم فى الحش ــ والحش : البستان ــ فإذا رأس جزور مشوى عندهم ودن من خمر ، فأكلت وشربت معهم ، وذكرت الأنصار والمهاجرين ، فقلت : المهاجرون خير من الأنصار ، فأخذ رجل أحد لَحْيَىْ الرأس [فضربنى به] فجدع أنفى ، فأتيت رسول الله ﷺ فأخبرته ، فأنزل الله فىَّ (يعنى نفسه) شأن الخمر : ﴿ **إنما الخمر والميسر** .. ﴾ الآية . رواه مسلم ، عن أبى خيثمة) . [1] .

وفى ذبائح مجالس الخمر وغيرها من المناسبات الاجتماعية كان يجرى الميسر عن طريق الأزلام ، وهى قِداح كانوا يستقسمون بها الذبيحة ، (وقد ورد عن أمير المؤمنين على بن أبى طالب رضى الله عنه فى صدد شرح الميسر أنه قال : الشطرنج من الميسر ، وقال مالك : كان ميسر أهل الجاهلية بيع اللحم بالشاة والشاتين ، وأما الأنصاب ، فقال ابن عباس ومجاهد : هى حجارة كانوا يذبحون قرابينهم عندها . أما الأزلام ، فقالوا أيضاً : هى قداح كانوا يستقسمون بها . وقوله تعالى : ﴿ **رجس من عمل الشيطان** ﴾ ، قال ابن عباس : أي سخط من عمل الشيطان [2] ، عن ابن عباس قال : إنما نزل تحريم الخمر فى قبيلتين من قبائل الأنصار شربوا ، فلما أن ثمل القوم عبث بعضهم ببعض ، فلما أن صحوا جعل الرجل يرى الأثر بوجهه ورأسه ولحيته ، فيقول : صنع بى أخى فلان ، وكانوا إخوة ليس فى قلوبهم ضغائن ، فيقول : والله لو كان بى رؤوفاً رحيماً ما صنع بى هذا ، حتى وقعت الضغائن فى قلوبهم ، فأنزل الله تعالى هذه الآية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إنما الخمر والميسر والأنصاب والأزلام رجس من عمل الشيطان** ﴾ إلى قوله تعالى : ﴿ **فهل أنتم منتهون** ﴾ فقال أناس من المتكلفين : هى رجس وهى فى بطن فلان ، وقد قتل يوم أحد ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ إلى آخر

---

(١) أسباب النزول للواحدى ص ٢٠٠ .

(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ١٤٦ ، ١٤٧ باختصار .

الآية (١) . ولما نزلت آيات التحريم هذه فى سنة ثلاث بعد وقعة أحد ، لم يحتج الأمر إلى أكثر من مناد فى نوادى المدينة : « ألا أيها القوم ، إن الخمر قد حرمت » ، فمن كان فى يده كأس حطمها ، ومن كان فى فمه جرعة مجَّها وشقت زقاق الخمر ، وأهرق المسلمون ما تبقى عندهم منها حتى امتلأت الشوارع بها ، وانتهى الأمر كأن لم يكن سكر ولا خمر (٢) .

عن أنس قال : كنت ساقى القوم يوم حُرِّمت الخمر فى بيت أبى طلحة ، وما شرابهم إلا الفضيح (*) والبسر والتمر ، وإذ مناد ينادى : ألا إن الخمر قد حرمت ، قال : فجرت فى سكك المدينة ، فقال أبو طلحة : أخرج فأرقها ، قال : فأرقتها . قال بعضهم : قتل فلان وقتل فلان وهى فى بطونهم ، قال : فأنزل الله تعالى : ﴿ **ليس على الذين آمنوا وعملوا الصالحات جناح فيما طعموا** ﴾ (٣) .

* * *

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ١٥٣ .
(٢) الظلال : م ٢ ج ٧ ص ٩٧٥ بتصرف .
(٣) أسباب نزول القرآن للواحدى ص ٢٠٣ .
(*) الشراب المتخذ من البسر المشقوق من غير أن تمسه النار .

الفصل الثانى

التطورات الاقتصادية والتكافل الاجتماعى

أولا : التطورات الاقتصادية

الآيات تصور التطور الاقتصادى

١ ــ التطور الاقتصادى : نماذج تطبيقية له .

٢ ــ تحريم الربا .

٣ ــ أسباب تحريم الربا .

٤ ــ الأدوار التى مر بها تحريم الربا .

ثانيا : التكافل الاجتماعي

الآيات تصور التكافل الاجتماعى

١ ــ تعريف التكافل الاجتماعى .

٢ ــ مجال الإنفاق .

٣ ــ التكافل بين الفرد وأسرته القريبة .

٤ ــ ماذا تشمل النفقة .

٥ ــ الزكاة والتكافل الاجتماعى .

٦ ــ الصدقات والكفارات .



أولا : التطورات الاقتصادية :

الآيات تصور التطور الاقتصادى

مَّن ذَا ٱلَّذِى يُقْرِضُ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا فَيُضَٰعِفَهُۥ لَهُۥٓ أَضْعَافًا كَثِيرَةً ۚ وَٱللَّهُ يَقْبِضُ وَيَبْصُۜطُ وَإِلَيْهِ تُرْجَعُونَ ﴿٢٤٥﴾

البقرة : ٢٤٥ .

مَّثَلُ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ كَمَثَلِ حَبَّةٍ أَنۢبَتَتْ سَبْعَ سَنَابِلَ فِى كُلِّ سُنۢبُلَةٍ مِّا۟ئَةُ حَبَّةٍ ۗ وَٱللَّهُ يُضَٰعِفُ لِمَن يَشَآءُ ۗ وَٱللَّهُ وَٰسِعٌ عَلِيمٌ ﴿٢٦١﴾ ٱلَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَٰلَهُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ثُمَّ لَا يُتْبِعُونَ مَآ أَنفَقُوا۟ مَنًّا وَلَآ أَذًى ۙ لَّهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٦٢﴾

البقرة : ٢٦١ ــ ٢٦٢ .

* لَّيْسَ عَلَيْكَ هُدَىٰهُمْ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَهْدِى مَن يَشَآءُ ۗ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَلِأَنفُسِكُمْ ۚ وَمَا تُنفِقُونَ إِلَّا ٱبْتِغَآءَ وَجْهِ ٱللَّهِ ۚ وَمَا تُنفِقُوا۟ مِنْ خَيْرٍ يُوَفَّ إِلَيْكُمْ وَأَنتُمْ لَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٢﴾ لِلْفُقَرَآءِ ٱلَّذِينَ أُحْصِرُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ لَا يَسْتَطِيعُونَ ضَرْبًا فِى ٱلْأَرْضِ يَحْسَبُهُمُ ٱلْجَاهِلُ أَغْنِيَآءَ مِنَ ٱلتَّعَفُّفِ تَعْرِفُهُم بِسِيمَٰهُمْ لَا يَسْـَٔلُونَ ٱلنَّاسَ

إِلْحَافًا وَمَا تُنفِقُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢٧٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ أَمْوَالَهُم بِاللَّيْلِ وَالنَّهَارِ سِرًّا وَعَلَانِيَةً فَلَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٤﴾

البقرة : ٢٧٢ ـ ٢٧٤ .

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ الشَّهَوَاتِ مِنَ النِّسَاءِ وَالْبَنِينَ وَالْقَنَاطِيرِ الْمُقَنطَرَةِ مِنَ الذَّهَبِ وَالْفِضَّةِ وَالْخَيْلِ الْمُسَوَّمَةِ وَالْأَنْعَامِ وَالْحَرْثِ ذَٰلِكَ مَتَاعُ الْحَيَاةِ الدُّنْيَا وَاللَّهُ عِندَهُ حُسْنُ الْمَآبِ ﴿١٤﴾

آل عمران : ١٤ .

* وَسَارِعُوا إِلَىٰ مَغْفِرَةٍ مِّن رَّبِّكُمْ وَجَنَّةٍ عَرْضُهَا السَّمَاوَاتُ وَالْأَرْضُ أُعِدَّتْ لِلْمُتَّقِينَ ﴿١٣٣﴾ الَّذِينَ يُنفِقُونَ فِي السَّرَّاءِ وَالضَّرَّاءِ وَالْكَاظِمِينَ الْغَيْظَ وَالْعَافِينَ عَنِ النَّاسِ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُحْسِنِينَ ﴿١٣٤﴾

آل عمران : ١٣٣ ـ ١٣٤ .

* يَا بَنِي آدَمَ خُذُوا زِينَتَكُمْ عِندَ كُلِّ مَسْجِدٍ وَكُلُوا وَاشْرَبُوا وَلَا تُسْرِفُوا إِنَّهُ لَا يُحِبُّ الْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الأعراف : ٣١ .

وَإِلَىٰ مَدْيَنَ أَخَاهُمْ شُعَيْبًا قَالَ يَا قَوْمِ اعْبُدُوا اللَّهَ مَا لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرُهُ

قَدْ جَاءَتْكُم بَيِّنَةٌ مِّن رَّبِّكُمْ فَأَوْفُوا الْكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَا تَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَا تُفْسِدُوا فِي الْأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٨٥﴾

الأعراف : ٨٥ .

وَلَا تَجْعَلْ يَدَكَ مَغْلُولَةً إِلَىٰ عُنُقِكَ وَلَا تَبْسُطْهَا كُلَّ الْبَسْطِ فَتَقْعُدَ مَلُومًا مَّحْسُورًا ﴿٢٩﴾

الإسراء : ٢٩ .

قُلْ إِنَّ رَبِّي يَبْسُطُ الرِّزْقَ لِمَن يَشَاءُ مِنْ عِبَادِهِ وَيَقْدِرُ لَهُ وَمَا أَنفَقْتُم مِّن شَيْءٍ فَهُوَ يُخْلِفُهُ وَهُوَ خَيْرُ الرَّازِقِينَ ﴿٣٩﴾

سبأ : ٣٩ .

إِنَّمَا الْمُؤْمِنُونَ الَّذِينَ آمَنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ ثُمَّ لَمْ يَرْتَابُوا وَجَاهَدُوا بِأَمْوَالِهِمْ وَأَنفُسِهِمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ أُولَٰئِكَ هُمُ الصَّادِقُونَ ﴿١٥﴾ الحجرات : ١٥ .

آمِنُوا بِاللَّهِ وَرَسُولِهِ وَأَنفِقُوا مِمَّا جَعَلَكُم مُّسْتَخْلَفِينَ فِيهِ فَالَّذِينَ آمَنُوا مِنكُمْ وَأَنفَقُوا لَهُمْ أَجْرٌ كَبِيرٌ ﴿٧﴾

الحديد : ٧ .

وَالَّذِينَ تَبَوَّءُوا الدَّارَ وَالْإِيمَانَ مِن قَبْلِهِمْ يُحِبُّونَ مَنْ هَاجَرَ إِلَيْهِمْ وَلَا يَجِدُونَ فِي صُدُورِهِمْ حَاجَةً مِّمَّا أُوتُوا

وَيُؤْثِرُونَ عَلَىٰٓ أَنفُسِهِمْ وَلَوْ كَانَ بِهِمْ خَصَاصَةٌ ۚ وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِۦ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴿٩﴾

الحشر : ٩ .

وَأَنفِقُوا۟ مِن مَّا رَزَقْنَـٰكُم مِّن قَبْلِ أَن يَأْتِىَ أَحَدَكُمُ ٱلْمَوْتُ فَيَقُولَ رَبِّ لَوْلَآ أَخَّرْتَنِىٓ إِلَىٰٓ أَجَلٍ قَرِيبٍ فَأَصَّدَّقَ وَأَكُن مِّنَ ٱلصَّـٰلِحِينَ ﴿١٠﴾

المنافقون : ١٠ .

* إِنَّ رَبَّكَ يَعْلَمُ أَنَّكَ تَقُومُ أَدْنَىٰ مِن ثُلُثَىِ ٱلَّيْلِ وَنِصْفَهُۥ وَثُلُثَهُۥ وَطَآئِفَةٌ مِّنَ ٱلَّذِينَ مَعَكَ ۚ وَٱللَّهُ يُقَدِّرُ ٱلَّيْلَ وَٱلنَّهَارَ ۚ عَلِمَ أَلَّن تُحْصُوهُ فَتَابَ عَلَيْكُمْ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ۚ عَلِمَ أَن سَيَكُونُ مِنكُم مَّرْضَىٰ ۙ وَءَاخَرُونَ يَضْرِبُونَ فِى ٱلْأَرْضِ يَبْتَغُونَ مِن فَضْلِ ٱللَّهِ ۙ وَءَاخَرُونَ يُقَـٰتِلُونَ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ ۖ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنْهُ ۚ وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ وَأَقْرِضُوا۟ ٱللَّهَ قَرْضًا حَسَنًا ۚ وَمَا تُقَدِّمُوا۟ لِأَنفُسِكُم مِّنْ خَيْرٍ تَجِدُوهُ عِندَ ٱللَّهِ هُوَ خَيْرًا وَأَعْظَمَ أَجْرًا ۚ وَٱسْتَغْفِرُوا۟ ٱللَّهَ ۖ إِنَّ ٱللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٢٠﴾

المزمل : ٢٠ .

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

المطففين : ١ ـ ٣ .

(١) التطور الاقتصادى :

تحديد القرآن الكريم لمفهوم كلمة الاقتصاد :

يحدد القرآن الكريم مدلول كلمة الاقتصاد تحديداً واضحاً فى قوله تبارك وتعالى : **﴿ والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً ﴾** الفرقان : ٦٧ .

هذا هو مدلول الكلمة ، أى الاعتدال بين مرتبتين ، هما : الإسراف ، والتقتير ، والاعتدال قوام الاقتصاد الإسلامى ، وهناك آيات تجمع بين حق الانتفاع من المال وطرق توزيعه ، والنهى عن الإسراف والتبذير .

يقول تبارك وتعالى : **﴿ كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده ولا تسرفوا إنه لا يحب المسرفين ﴾** الأنعام : ١٤١ .

﴿ وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل ولا تبذر تبذيراً ﴾ الإسراء : ٣٦ .

﴿ ولا تجعل يدك مغلولة إلى عنقك ولا تبسطها كل البسط فتقعد ملوماً محسوراً ﴾ الإسراء : ٢٩ .

والآيات المذكورة تحدد معنى الاقتصاد فى ما بين الإسراف والتقتير ، مع التحذير منهما تحذيراً شديداً ، ومع الحرص على توزيع الثروات وتداولها وتعيين أصحاب الحقوق فى هذا التوزيع والتداول ، وتعطينا فكرة واضحة عما يرمى إليه الإسلام من التوجيه الاقتصادى .

والباحث فى الآيات القرآنية التى وردت بصدد الاقتصاد الإسلامى يدرك أنه اقتصاد عريق فى تاريخه ، أصيل فى ذاته ، مستقل فى تعاليمه ، ويمتاز بخصائص فريدة من نوعها منها :

أن الأرض تتسع لبنى البشر رزقاً ومكاناً مع امتداد الزمن ، والإنسان مستخلف فيها لتعميرها ، واستغلال ثرواتها ، قال تعالى : **﴿ وإذ قال ربك للملائكة إنى جاعل فى الأرض خليفة ﴾** البقرة : ٣٠ .

والأرض مذللة ومسهلة لبنى البشر :

وَٱلْأَرْضَ مَدَدْنَـٰهَا
وَأَلْقَيْنَا فِيهَا رَوَٰسِيَ وَأَنۢبَتْنَا فِيهَا مِن كُلِّ شَيْءٍ مَّوْزُونٍ ﴿١٩﴾
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ وَمَن لَّسْتُمْ لَهُۥ بِرَٰزِقِينَ ﴿٢٠﴾
وَإِن مِّن شَيْءٍ إِلَّا عِندَنَا خَزَآئِنُهُۥ وَمَا نُنَزِّلُهُۥٓ إِلَّا بِقَدَرٍ
مَّعْلُومٍ ﴿٢١﴾

الحجر : ١٩ ــ ٢١

هُوَ ٱلَّذِى جَعَلَ لَكُمُ
ٱلْأَرْضَ ذَلُولًا فَٱمْشُوا۟ فِى مَنَاكِبِهَا وَكُلُوا۟ مِن رِّزْقِهِۦ ۖ
وَإِلَيْهِ ٱلنُّشُورُ ﴿١٥﴾

الملك : ١٥

وَلَقَدْ مَكَّنَّـٰكُمْ فِى ٱلْأَرْضِ
وَجَعَلْنَا لَكُمْ فِيهَا مَعَـٰيِشَ ۗ قَلِيلًا مَّا تَشْكُرُونَ ﴿١٠﴾

الأعراف : ١٠

ومن خصائص الاقتصاد الإسلامى أيضاً أن الملك كله لله سبحانه وتعالى ، وليس للإنسان من هذا الاستخلاف والتسخير إلا ما يجنيه من صالح الأعمال ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ **وأن ليس للإنسان إلا ما سعى . وأن سعيه سوف يرى . ثم يجزاه الجزاء الأوفى** ﴾ (١) . ولذلك فإن الإنسان متروك لفطرته ، ومسئول عن تصرفه فى هذه الحياة الدنيا : ﴿ **فوربك لنسألنهم أجمعين عما كانوا يعملون** ﴾ (٢) .

---

(١) النجم : ٣٩ ــ ٤١ .
(٢) الحجر : ٣٩ .

﴿ قل لمن الأرض ومن فيها إن كنتم تعلمون. سيقولون لله قل أفلا تذكرون ﴾ (المؤمنون : ٨٤ ـ ٨٥) .

ومن أبرز خصائص الاقتصاد الإسلامى الحق المعلوم فى المال لغير مالكه . لما كان المال فى المفهوم الإسلامي هو مال الله ، والناس مستخلفون فيه ، فإن هذا الاستخلاف يشترط حقاً للفقراء فيه ، ولا يجوز لمن بيده المال أن يحرمهم من هذا الحق ، يقول الله سبحانه وتعالى .

﴿ والذين فى أموالهم حق معلوم للسائل والمحروم ﴾ المعارج : ٢٤ .

﴿ وأنفقوا مما جعلكم مستخلفين فيه ﴾ الحديد : ٧

﴿ وآتوهم من مال الله الذى آتاكم ﴾ النور : ٣٣ .

﴿ خذ منْ أموالهم صدقة تطهرهم وتزكيهم بها ﴾ التوبة : ١٠٣ .

والمؤمن الذى يتحرى رضا الله سبحانه ، ويتجنب سخطه ، فإنه يسارع حتماً إلى إخراج هذا الحق من أمواله راضى النفس مرتاح الضمير .

ومن خصائص الاقتصاد الإسلامى مشروعية المال وحله ووضعه فى محله ، فلا يعتبر المال فى الإسلام ملكاً مشروعاً إلا إذا كان مصدره حلالاً ، وإن لم يكن كذلك فهو حرام ، قال تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا أموالكم بينكم بالباطل إلا أن تكون تجارة عن تراض منكم ﴾ النساء : ٢٩ .

وكل مال لا يأتى من حله يعتبر حراماً ، ويشدد القرآن فى أكل أموال اليتيم : ﴿ إن الذين يأكلون أموال اليتامى ظلماً إنما يأكلون فى بطونهم ناراً وسيصلون سعيراً ﴾ النساء : ١٠ .

وإذا كان الإسلام لا يعتبر المال حلالا إلا إذا جاء عن طريق مشروع ، فإن الإسلام أيضاً لا يقبل أن يوضع المال إلا فى محله المشروع ، يقول الله سبحانه وتعالى : ﴿ ولا تؤتوا السفهاء أموالكم التى جعل الله لكم قياماً ﴾ النساء : ٥ .

إِنَّ ٱلْمُبَذِّرِينَ كَانُوٓا۟ إِخْوَٰنَ ٱلشَّيَٰطِينِ ۖ وَكَانَ ٱلشَّيْطَٰنُ لِرَبِّهِۦ كَفُورًا ﴿٢٧﴾ الإسراء : ٢٧ .

وَكُلُوا۟

وَٱشْرَبُوا۟ وَلَا تُسْرِفُوٓا۟ ۚ إِنَّهُۥ لَا يُحِبُّ ٱلْمُسْرِفِينَ ﴿٣١﴾

الأعراف : ٣١ .

وَأَوْفُوا۟ ٱلْكَيْلَ إِذَا كِلْتُمْ وَزِنُوا۟ بِٱلْقِسْطَاسِ ٱلْمُسْتَقِيمِ ۚ ذَٰلِكَ خَيْرٌ وَأَحْسَنُ تَأْوِيلًا ﴿٣٥﴾

الإسراء : ٣٥ .

وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ ٱلَّذِينَ إِذَا ٱكْتَالُوا۟ عَلَى ٱلنَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾

المطففين : ١ ــ ٣

وكان من عناية الإسلام لإبراز سمات الاقتصاد الإسلامى ومعالمه أنه من أوائل ما نزل فى هذا الصدد ، عندما قدم النبى ﷺ المدينة : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ . روى الطبري ، عن عكرمة ، عن ابن عباس قال : لما قدم النبى ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا الكيل [١] وفى أسباب النزول للواحدى « فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .

قال القرظي : كان بالمدينة تجار يطففون ، وكانت بياعاتهم كشبه

---

(١) تفسير الطبرى م ١٢ ج ٣٠ص ٥٨ ط الأولى مصر .
وتفسير ابن كثير ج ٤ ص ٧٦٠ وأسباب النزول للواحدى ص ٤٨٢ .

القمار : المنابذة (١) ، والملامسة (٢) والمخاطرة ، فأنزل الله تعالى هذه الآية ، فخرج رسول الله ﷺ إلى السوق ، وقرأها .

وقال السدى : قدم رسول الله ﷺ المدينة ، وبها رجل يقال له أبو جهينة ، ومعه صاعان : يكيل بأحدهما ، ويكتال بالآخر . فأنزل الله تعالى هذه الآية (٣) .

والروايات تصور أسواق المدينة ، وما يدور فى جنباتها من نشاط اقتصادى ، وما يحدث فى دكاكينها من تطفيف الكيل والتعامل بالأثرة والأنانية والطمع والجشع ، وتسجل تحركات تجارها ، وبما عرفوا من معايير اقتصادية جاهلية لدى أهل المدينة ، كما تسجل مدى الجهد الذى بذله ﷺ فى تغيير تلك المفاهيم والقضاء عليها .

وها هو ﷺ يتلقى الأمر المتعلق بالمطففين ، فينطلق نحو السوق ، ويتلو عليهم الآية الكريمة : ﴿ **ويل للمطففين . الذين إذا اكتالوا على الناس يستوفون** ﴾ ، يتلو عليهم فى ساحة السوق ، ووسط البيع والشراء ، ويرشد ، ويعظ ، ويحذر ، ويبشر ، حتى تختفى مظاهر الجشع المقيضة للبناء الاقتصادى « فأحسنوا الكيل بعد ذلك » .

---

(١) فى اللسان ٤٤٩/٥ « وفى الحديث : أن النبى ﷺ ، نهى عن المنابذة فى البيع . قال أبو عيد : المنابذة : أن يقول الرجل لصاحبه انبذ إلىَّ الثوب أو غيره من المتاع ، أو أنبذ إليك ، وقد وجب البيع بكذا وكذا . قال : ويقال : إنما هى أن تقول : إذا نبذ الحصاة إليك فقد وجب البيع ، ومما يحققه الحديث الآخر : أنه نهى عن بيع الحصاة . فيكون البيع معاطاة من غير عقد ، ولا يصح » .

(٢) فى اللسان ٩٤/٨ « وبيع الملامسة : أن تشترى المتاع بأن تلمسه ولا تنظر إليه ، وفى الحديث : النهى عن الملامسة . قال أبو عبيد : الملامسة : أن يقول : إن لمست ثوبى أو لمست ثوبك ، أو إذا لمست المبيع فقد وجب البيع بكذا وكذا ، ويقال : هو أن يلمس المتاع من وراء الثوب ولا ينظر إليه ، ثم يوقع البيع عليه . وهذا كله غرر ، وقد نهى عنه ، ولأنه تعليق أو عدول عن الصيغة الشرعية » .

(٣) أسباب النزول : للواحدى ص ٤٨٢ ، ٤٨٣ .

وهناك روايات موثقة تؤيد هذا التطور الاقتصادى : وقال ابن أبى حاتم .. عن هلال بن طلق ، قال : بينما أنا أسير مع ابن عمر ، فقلت : من أحسن الناس هيئة وأوفاهم كيلا أهل مكة وأهل المدينة ؟ قال : حق لهم ، أما سمعت الله تعالى يقول : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ ؟ وقال ابن جرير : حدثنا أبو السائب .. عن رجل عن عبد الله ، قال : قال له رجل : يا أبا عبد الرحمن ، إن أهل المدينة ليوفون الكيل ، قال : وما يمنعهم أن يوفوا الكيل وقد قال الله تعالى : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ حتى بلغ — ﴿ **يوم يقوم الناس لرب العالمين** ﴾ . والمراد بالتطفيف ها هنا البخس فى المكيال والميزان ، إما بالازدياد إن اقتضى من الناس ، وإما بالنقصان إن قضاه . » (١) .

هكذا وضع الإسلام المعايير الاقتصادية ، وبيّن أن المال زينة الحياة الدنيا ، وأن الله تعالى سخر لنا مافي الأرض جميعا ، وجعلنا مستخلفين على مابأيدينا من ثروات ، وأمرنا أن ننفق على وجه الاستمرار ، وأن نبتعد عن كل معاني الجشع والطمع ، وحذر القرآن منه مرة بالترغيب وأخرى بالترهيب ، وقال تعالى : ﴿ **وَمَن يُوقَ شُحَّ نَفْسِهِ فَأُولَئِكَ هُمُ الْمُفْلِحُونَ** ﴾ (٢) .

وظل ﷺ يضع المقاييس والموازين ، ويوضح الالتباس ويزيل الغبش .. عن ابن عباس قال : « قدم رسول الله ﷺ ، وهم يسلفون في التمر السنة والسنتين والثلاث ، فقال رسول الله ﷺ : « **مَنْ أسلَفَ فِي تَمْرٍ فليسلف في كيل معلوم ووزن معلوم إلى أجل معلوم** » (٣) .

وهكذا وضع ﷺ المبادىء الأسياسية والخطوط العريضة لتطوير الاقتصاد الإسلامي لهذا المجتمع النامي .

وعندما يصدر الإسلام تعاليمه فإن صدورها لا يقتصر على أهل المدينة

---

(١) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٧٦٠

(٢) الحشر : ٩ .

(٣) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري ، وتهذيب ابن القيم جـ ٥ ص ١١٠ ط باكستان .

دون غيرهم ، وإنما هي للمسلمين جميعا : ﴿ **يَا أَيُّهَا الَّذِينَ آمَنُوا كُونُوا قَوَّامِينَ بِالْقِسْطِ شُهَدَاءَ لله وَلَوْ عَلَىٰ أَنفُسِكُمْ أَوِ الوَالِدَيْنِ وَالأَقْرَبِينَ إن يَكُنْ غَنِيًّا أَوْ فَقِيراً فَالله أَوْلَىٰ بِهِمَا فَلَا تَتَّبِعُوا الهَوَىٰ أَنْ تَعْدِلُوا وَإِنْ تَلْوُوا أَوْ تُعْرِضُوا فَإِنَّ الله كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيراً** ﴾ (١) .

﴿ **فَأَوْفُوا الكَيْلَ وَالْمِيزَانَ وَلَاتَبْخَسُوا النَّاسَ أَشْيَاءَهُمْ وَلَاتُفْسِدُوا فِي الأَرْضِ بَعْدَ إِصْلَاحِهَا ذَلِكُمْ خَيْرٌ لَكُمْ إِنْ كُنْتُمْ مُؤْمِنِينَ** ﴾(٢) .

وعلى هذا فإن الاقتصاد الإسلامي يرتبط بالعقيدة الإسلامية من نوع التبعية ، ولا يحل له الخروج عنها ، وتكون نتائج هذا الاقتصاد منسجمة مع توجيهات هذه العقيدة ومكيفة بها . (٣) .

نماذج تطبيقية :

أثرت هذه الآيات في النفوس والقلوب ، وتحرك أفراد هذا المجتمع النامي ينفذون أوامر الله ويطبقونها على أنفسهم ، قال أنس : لما نزلت ﴿ **لن تنالوا البر حتى تنفقوا مما تحبون** ﴾ قال أبوطلحة : يارسول الله ، إن الله يقول : ﴿ **لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ ، وإن أحب أموالي إليَّ (بيرحاء) ، وإنها صدقة لله أرجو بها برها وذخرها عند الله تعالى ، فضعها يارسول الله حيث أراك الله ، فقال النبي ﷺ: « **بَخٍ بَخٍ ، ذاك مالٌ رابحٌ ، وقد سمعت وأنا أرى أن تجعلها في الأقربين** » فقال أبوطلحة : أفعلُ يارسول الله ، فقسمها أبوطلحة في أقاربه وبني عمه .

وفي الصحيحين أن عمر قال : يارسول الله ، لم أصب مالا قط هو أنفس عندي من سهمي الذي هو بخيبر ، فما تأمرني به ؟ قال : « **حبس الأصل وسبل الثمرة** » . ومثال آخر عن حمزة بن عبدالله بن عمر ، قال : قال عبدالله : حضرتني هذه الآية ﴿ **لَنْ تَنَالُوا البِرَّ حَتَّىٰ تُنفِقُوا مِمَّا تُحِبُّونَ** ﴾ ، فذكرت ما أعطاني الله ، فلم أجد شيئا أحب إلى من جارية لي

---

(١) النساء : ١٣٥ .

(٢) الأعراف : ٨٥ .

(٣) راجع ، الاقتصاد في ضوء الشريعة الإسلامية د. محمود محمد بابللي .

رومية ، فقلت : هي حرة لوجه الله ، فلو أني أعود في شيء جعلته لله لنكحتها ، يعني تزوجتها . (١) .

وروي عن عبدالله بن مسعود أنه قال : لما نزلت ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له** ﴾ ، قال أبوالدحداح الأنصارى : يارسول الله ، وإن الله عز وجل ليريد منا القرض ؟ قال : « **نعم يا أبا الدحداح** » . قال : أرني يدك يارسول الله . قال : فناوله يده . وقال : فإني قد أقرضت ربي عز وجل حائطي ، قال : وحائط له فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه وعيالها . قال : فجاء أبو الدحداح ، فناداها : يا أم الدحداح . قالت : لبيك . قال : اخرجي ، فقد أقرضته ربي عز وجل . (٢)

والقصة مثيرة للغاية ، كيف تغيرت النفوس المادية إلى هذا السمو والبذل والعطاء ، وكان تطورا رائعا في التفكير المادي ، ونموذجا تطبيقيا بليغا ، ومما لاشك فيه أن هذه الحوادث كانت حديث الناس في هذا المجتمع النامي المتطور ، مما كان له الأثر المباشر في محاربة الجشع والطمع والربا ، وكانت هذه خطوات حكيمة للقضاء على الربا .



(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٥٧٠ تخريج حسين بن إبراهيم زهران .

(٢) تفسير ابن كثير م ١ ص ٤٤٧ ، ٤٤٨ تخريج حسين بن إبراهيم زهران .

(٢) تحريم الربا :

ٱلَّذِينَ يَأْكُلُونَ ٱلرِّبَوٰاْ لَا يَقُومُونَ إِلَّا كَمَا يَقُومُ ٱلَّذِى يَتَخَبَّطُهُ ٱلشَّيْطَٰنُ مِنَ ٱلْمَسِّ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوٓاْ إِنَّمَا ٱلْبَيْعُ مِثْلُ ٱلرِّبَوٰاْ ۗ وَأَحَلَّ ٱللَّهُ ٱلْبَيْعَ وَحَرَّمَ ٱلرِّبَوٰاْ ۚ فَمَن جَآءَهُۥ مَوْعِظَةٌ مِّن رَّبِّهِۦ فَٱنتَهَىٰ فَلَهُۥ مَا سَلَفَ وَأَمْرُهُۥٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ وَمَنْ عَادَ فَأُوْلَٰٓئِكَ أَصْحَٰبُ ٱلنَّارِ ۖ هُمْ فِيهَا خَٰلِدُونَ ﴿٢٧٥﴾ يَمْحَقُ ٱللَّهُ ٱلرِّبَوٰاْ وَيُرْبِى ٱلصَّدَقَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ لَا يُحِبُّ كُلَّ كَفَّارٍ أَثِيمٍ ﴿٢٧٦﴾ إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ وَعَمِلُواْ ٱلصَّٰلِحَٰتِ وَأَقَامُواْ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَوُاْ ٱلزَّكَوٰةَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿٢٧٧﴾ يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ٱتَّقُواْ ٱللَّهَ وَذَرُواْ مَا بَقِىَ مِنَ ٱلرِّبَوٰٓاْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٢٧٨﴾ فَإِن لَّمْ تَفْعَلُواْ فَأْذَنُواْ بِحَرْبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَرَسُولِهِۦ ۖ وَإِن تُبْتُمْ فَلَكُمْ رُءُوسُ أَمْوَٰلِكُمْ لَا تَظْلِمُونَ وَلَا تُظْلَمُونَ ﴿٢٧٩﴾

البقرة : ٢٧٥ ــ ٢٧٩ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُواْ ٱلرِّبَوٰٓاْ أَضْعَٰفًا مُّضَٰعَفَةً ۖ وَٱتَّقُواْ ٱللَّهَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿١٣٠﴾

آل عمران : ١٣٠ .

﴿يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ لَا تَأْكُلُوٓاْ أَمْوَٰلَكُم بَيْنَكُم بِٱلْبَـٰطِلِ إِلَّآ أَن تَكُونَ تِجَـٰرَةً عَن تَرَاضٍ مِّنكُمْ ۚ وَلَا تَقْتُلُوٓاْ أَنفُسَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِكُمْ رَحِيمًا ﴿٢٩﴾﴾

النساء : ٢٩

﴿وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن رِّبًا لِّيَرْبُوَاْ فِىٓ أَمْوَٰلِ ٱلنَّاسِ فَلَا يَرْبُواْ عِندَ ٱللَّهِ ۖ وَمَآ ءَاتَيْتُم مِّن زَكَوٰةٍ تُرِيدُونَ وَجْهَ ٱللَّهِ فَأُوْلَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُضْعِفُونَ ﴿٣٩﴾﴾

الروم : ٣٩ .

★ ★ ★

إن طائفة من التشريعات الإسلامية لم تبدأ بالفرض والتكليف ، وإنما بدأت بالحض والتأليف ، فبدأت الآيات تنزل تحث على الإنفاق والبذل في سبيل الله ، لتستجيش المشاعر والانفعالات الحية في النفس الإنسانية ، ولما كان الكف عن الإنفاق إنما ينشا عن دوافع السوء وعن الخوف من الإملاق ، كشف الله للذين آمنوا عن هذه الدوافع ، لتبدو لهم عارية ، وليعرفوا كيف يجري الشيطانُ في الإنسان مجرى الدم :

﴿ الشيطان يعدكم الفقر ويأمركم بالفحشاء والله يعدكم مغفرة منه وفضلا والله واسع عليم . يؤتي الحكمة من يشاء ومن يؤت الحكمة فقد أوتي خيراً كثيراً وما يذكر إلا أولوا الألباب ﴾ (١) .

الشيطان يخوفكم الفقر ، فيثير في نفوسكم الحرص والشح والتكالب ، والشيطان يأمركم بالفحشاء ، وخوف الفقر كان يدعو الناس في جاهليتهم لوأد البنات وهو فاحشة ، والحرص على جمع الثروة كان يؤدي ببعضهم إلى الربا وهو فاحشة ، على أن خوف الفقر من الإنفاق في سبيل الله في ذاته فاحشة (٢) . ثم بدأت الآيات تحض على الإنفاق والصدقة : **﴿ وما تنفقوا من خير فإن الله به عليم ﴾** فلا يضيع عنده الخير والعمل الصالح ، **﴿ الذين ينفقون أموالهم بالليل والنهار سرا وعلانية فلهم أجرهم عند ربهم ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون ﴾**(٣) .

بعد هذا العرض المثير الشائق للصدقة تأتي آيات الربا مباشرة لحكمة ربانية عميقة ، فقد عرف المجتمع المدني وجه الصدقة الندىّ ، ثم تعرف على الوجه الكالح الطالح وهو الربا .

الصدقة عطاء وسماح وطهارة وزكاة وأخوة ومحبة وتآلف وترابط ، والربا شح وجشع وأثَرة وأنانية ، والصدقة نزول عن المال بلا عوض

(١) البقرة : ٢٦٨ — ٢٦٩ .
(٢) الظلال : م ١ ص ٣١٢ بتصرف .
(٣) البقرة : ٢٧٤ .

ولا رد ، والربا استرداد للدين ومعه زيادة حرام مقتطعة من جهد المدين أو من لحمه ، من جهده إن كان قد عمل بالمال الذي استدانه فربح نتيجة لعمله هو وكَدّهِ ، ومن لحمه إن كان لم يربح أو خسر ، أو كان قد أخذ المال للنفقة منه على نفسه وأهله ولم يستربحه شيئا (١) .

والربا في اللغة : الزيادة مطلقا ، ومنه قوله تعالى ﴿ **واهتزت وربت** ﴾ أي زادت .

وفي الشرع : زيادة يأخذها المُقْرِض من المُستَقْرِض مقابل الأجل .
والربا الذي حرمه الإسلام نوعان : ربا النسيئة ، وربا الفضل (٢) .

قال أبوبكر : أصل الربا فى اللغة هو الزيادة ، ومنه « الرابية » ، لزيادتها على ما حواليها من الأرض ، وفي الشرع يقع على معان لم يكن الاسم موضوعا لها في اللغة ، ويدل عليه أن النبي ﷺ سمى النسيئة ربا ، فقال « **إنما الربا في النسيئة** » . وقال عمر بن الخطاب : إن آية الربا من آخر ما نزل من القرآن ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين** ﴾ (٣) .

(٣) أسباب تحريم الربا :

إن التعامل الربوي ضد التكافل الاجتماعي والأخوة الحقة ، ولا يمكن إلا أن يفسد ضمير الفرد وخلقه وشعوره تجاه أخيه في المجتمع ، لأنه يبث روح الشره والطمع والأثرة والمقامرة بصفة عامة ، ولذلك صور الإسلام المُرابِي بهذه الصورة المثيرة : ﴿ **الذين يأكلون الربا لا يقومون إلا كما يقوم الذي يتخبطه الشيطان من المس** ﴾ ، وهي صورة معروفة معهودة للناس ، صورة الشخص « الأناني » الذي عاش على حساب الآخرين ، صورة الجشع الذي انتهى به جشعُه إلى هذه الصورة من التخبط كأنَّ به مساً من الشيطان ، ولاشك أن هذه الصورة المثيرة كانت تهز المجتمع الإسلامي الناشيء هزا عنيفا ، لتخرج به من المادية المستغلة إلى الأخوة

---

(١) الظلام : م ١ ص ٣١٨ بتصرف .
(٢) تفسير آيات الأحكام . للصابوني جـ ١ ص ٣٩١ ط ١٩٧٧م .
(٣) أحكام القرآن للجصاص جـ ١ ص ٤٦٤ ط بيروت . والآية من سورة البقرة : ٢٧٨ .

المتكافلة ، ولتخرج بالناس من المجتمع المادى إلى المجتمع الإنسانى الأخوى المتكافل .

ولقد ذكرت معظم التفاسير أن المقصود بالقيام فى هذه الصورة هو القيام يوم البعث .

« تشبيه المرابين بالمصروعين الذين يتخبطهم الشيطان فيه لطيفة ، وهى أن الله عز وجل أربى فى بطونهم ما أكلوا من الربا ، فأثقلهم ، فصاروا مخبلين ينهضون ويسقطون ، وتلك سيماهم يوم القيامة يُعرفون بها ، قال سعيد بن جبير : تلك علامات آكل الربا يوم القيامة » (١) .

والربا له تأثيرات ضارة على الفرد والمجتمع ، فمن الناحية النفسية فإنه يولد فى الإنسان حب الأثرة والأنانية فلا يعرف إلا نفسه ، ولا يهمه إلا مصلحته ، وبذلك تنعدم روح التضحية والأخوة والإيثار . ومن الناحية الاجتماعية فإنه يولد العداوة والبغضاء بين أفراد المجتمع ، ويدعو إلى تفكيك الروابط الإنسانية والاجتماعية بين طبقات الناس . ومن الناحية الاقتصادية فهو يقسم الناس إلى طبقتين : طبقة مترفة تعيش على النعيم ، وأخرى معدمة تعيش على الفاقة .

وقد ثبت أن الربا أعظم عامل من عوامل تضخم الثروات وتكدسها فى أيد قليلة من البشر (٢) .

وقد عالج الإسلام هذه الأوضاع الاقتصادية معالجة واقعية دون أن يحدث هزة اقتصادية واجتماعية مراعياً فى ذلك التدرج والتطور بكلمات ندية لها وقع فى القلوب والنفوس : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات والله لا يحب كل كفار أثيم** ﴾ .

وقول القرآن : ﴿ **يمحق الله الربا ويربى الصدقات** ﴾ يصور أصدق تصوير مهمة الإسلام فى نقل المجتمع المادى إلى مجتمع إنسانى يؤمن بالله ، فالربا

---

(١) تفسير آيات الأحكام للصابونى ج ١ ص ٣٨٧ .
(٢) تفسير آيات الأحكام للصابونى ص ٣٩٦ ج ١ بتصرف .

رأس الاستغلال السيء للمال ، بينما الصدقات تعاطف وتكافل إنسانى على صاحب الحاجة » [1] .

(٤) الأدوار التى مر بها تحريم الربا :

ولقد مر تحريم الربا بأربعة أدوار تمشياً مع قاعدة التطوير والتدرج .

الدور الأول :

نزل قوله تعالى : ﴿ **وما آتيتم من ربا ليربوا فى أموال الناس فلا يربُوا عند الله وما آتيتم من زكاة تريدون وجه الله فأولئك هم المضعفون** ﴾ [2] . وهذه الآية نزلت فى مكة ، وهى كما يظهر ليس فيها ما يشير إلى تحريم الربا ، وإنما فيها إشارة إلى بغض الله للربا ، فهى إذاً خطوة تمهيدية .

الدور الثانى :

قوله تعالى : ﴿ **فبظلم من الذين هادو حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيراً . وأخذهم الربا وقد نهوا عنه** ﴾ [3] . وهذه الآية مدنية ، وتشير إلى عادات اليهود وطبيعتهم الذين حرم عليهم الربا ، فأكلوه واستحقوا عليه اللعنة والغضب ، وهو تحريم بالتلويح لا بالتصريح .

الدور الثالث :

نزل قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تأكلوا الربا أضعافاً مضاعفة** ﴾ [4] ، وهذه الآية مدنية ، وفيها تحريم للربا صريح ، ولكنه تحريم « جزئى لا كلى » ، لأنه تحريم لنوع من الربا الذى يسمى « الربا

---

(١) منهج القرآن فى تطوير المجتمع د . محمد البهى ص ١٤٩ ط أولى ١٩٧٤ م .

(٢) الروم : ٣٩ .

(٣) النساء : ١٦٠ ــ ١٦١ .

(٤) آل عمران : ١٣٠ .

الفاحش » ، حيث كان الدين فيه يتزايد حتى يصبح أضعافاً مضاعفة .

الدور الرابع :

وفى هذا الدور الأخير نزل التحريم الكلى القاطع فى قوله تعالى : ﴿ يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وذروا ما بقى من الربا إن كنتم مؤمنين. فإن لم تفعلوا فأذنوا بحرب من الله ورسوله وإن تبتم فلكم رؤوس أموالكم لا تظلمون ولا تظلمون ﴾ . (١) الآيات . وهذه آخر آية نزلت فى القرآن كما سبق أن ذكرنا فى قول عمر ، ومن هنا يتضح لنا سير التشريع الإسلامى فى معالجة الأمراض الاجتماعية والاقتصادية التى كان عليها العرب فى المجتمع الجاهلى بالسير بهم فى طريق التدرج والتطوير (٢) .

* * *

(١) البقرة : ٢٧٨ ــ ٢٧٩ .
(٢) تفسير آيات الأحكام للصابونى ص ٣٩٠ ــ ٣٩١ ج ١ .

ثانياً : التكافل الاجتماعى :

الآيات تصور التكافل الاجتماعى

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ لَا تَعْبُدُونَ إِلَّا ٱللَّهَ وَبِٱلْوَٰلِدَيْنِ إِحْسَانًا وَذِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينِ وَقُولُوا۟ لِلنَّاسِ حُسْنًا وَأَقِيمُوا۟ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتُوا۟ ٱلزَّكَوٰةَ ثُمَّ تَوَلَّيْتُمْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنكُمْ وَأَنتُم مُّعْرِضُونَ ﴿٨٣﴾

البقرة : ٨٣ .

* لَّيْسَ ٱلْبِرَّ أَن تُوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ قِبَلَ ٱلْمَشْرِقِ وَٱلْمَغْرِبِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْبِرَّ مَنْ ءَامَنَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَٱلْمَلَـٰٓئِكَةِ وَٱلْكِتَـٰبِ وَٱلنَّبِيِّـۧنَ وَءَاتَى ٱلْمَالَ عَلَىٰ حُبِّهِۦ ذَوِى ٱلْقُرْبَىٰ وَٱلْيَتَـٰمَىٰ وَٱلْمَسَـٰكِينَ وَٱبْنَ ٱلسَّبِيلِ وَٱلسَّآئِلِينَ وَفِى ٱلرِّقَابِ وَأَقَامَ ٱلصَّلَوٰةَ وَءَاتَى ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُوفُونَ بِعَهْدِهِمْ إِذَا عَـٰهَدُوا۟ ۖ وَٱلصَّـٰبِرِينَ فِى ٱلْبَأْسَآءِ وَٱلضَّرَّآءِ وَحِينَ ٱلْبَأْسِ ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ صَدَقُوا۟ ۖ وَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُتَّقُونَ ﴿١٧٧﴾

البقرة : ١٧٧ .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ ۖ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ

وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ البقرة : ٢١٥ .

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلْيَتَٰمَىٰ ۖ قُلْ إِصْلَاحٌ لَّهُمْ خَيْرٌ ۖ وَإِن تُخَالِطُوهُمْ فَإِخْوَٰنُكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ ٱلْمُفْسِدَ مِنَ ٱلْمُصْلِحِ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَأَعْنَتَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٢٢٠﴾ البقرة : ٢٢٠ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلنَّاسُ ٱتَّقُوا۟ رَبَّكُمُ ٱلَّذِى خَلَقَكُم مِّن نَّفْسٍ وَٰحِدَةٍ وَخَلَقَ مِنْهَا زَوْجَهَا وَبَثَّ مِنْهُمَا رِجَالًا كَثِيرًا وَنِسَآءً ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ٱلَّذِى تَسَآءَلُونَ بِهِۦ وَٱلْأَرْحَامَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَيْكُمْ رَقِيبًا ﴿١﴾ وَءَاتُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰٓ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَتَبَدَّلُوا۟ ٱلْخَبِيثَ بِٱلطَّيِّبِ ۖ وَلَا تَأْكُلُوٓا۟ أَمْوَٰلَهُمْ إِلَىٰٓ أَمْوَٰلِكُمْ ۚ إِنَّهُۥ كَانَ حُوبًا كَبِيرًا ﴿٢﴾ النساء : ١ ــ ٢ .

وَلَا تُؤْتُوا۟ ٱلسُّفَهَآءَ أَمْوَٰلَكُمُ ٱلَّتِى جَعَلَ ٱللَّهُ لَكُمْ قِيَٰمًا وَٱرْزُقُوهُمْ فِيهَا وَٱكْسُوهُمْ وَقُولُوا۟ لَهُمْ قَوْلًا مَّعْرُوفًا ﴿٥﴾ وَٱبْتَلُوا۟ ٱلْيَتَٰمَىٰ حَتَّىٰٓ إِذَا بَلَغُوا۟ ٱلنِّكَاحَ فَإِنْ ءَانَسْتُم مِّنْهُمْ رُشْدًا فَٱدْفَعُوٓا۟ إِلَيْهِمْ أَمْوَٰلَهُمْ ۖ وَلَا تَأْكُلُوهَآ

إِسْرَافًا وَبِدَارًا أَن يَكْبَرُوا ۚ وَمَن كَانَ غَنِيًّا فَلْيَسْتَعْفِفْ ۖ وَمَن كَانَ فَقِيرًا فَلْيَأْكُلْ بِالْمَعْرُوفِ ۚ فَإِذَا دَفَعْتُمْ إِلَيْهِمْ أَمْوَالَهُمْ فَأَشْهِدُوا عَلَيْهِمْ ۚ وَكَفَىٰ بِاللَّهِ حَسِيبًا ﴿٦﴾

النساء : ٥ — ٦ .

* وَاعْبُدُوا اللَّهَ وَلَا تُشْرِكُوا بِهِ شَيْئًا ۖ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا وَبِذِي الْقُرْبَىٰ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَالْجَارِ ذِي الْقُرْبَىٰ وَالْجَارِ الْجُنُبِ وَالصَّاحِبِ بِالْجَنبِ وَابْنِ السَّبِيلِ وَمَا مَلَكَتْ أَيْمَانُكُمْ ۗ إِنَّ اللَّهَ لَا يُحِبُّ مَن كَانَ مُخْتَالًا فَخُورًا ﴿٣٦﴾

النساء : ٣٦ .

* وَقَضَىٰ رَبُّكَ أَلَّا تَعْبُدُوا إِلَّا إِيَّاهُ وَبِالْوَالِدَيْنِ إِحْسَانًا ۚ إِمَّا يَبْلُغَنَّ عِندَكَ الْكِبَرَ أَحَدُهُمَا أَوْ كِلَاهُمَا فَلَا تَقُل لَّهُمَا أُفٍّ وَلَا تَنْهَرْهُمَا وَقُل لَّهُمَا قَوْلًا كَرِيمًا ﴿٢٣﴾ وَاخْفِضْ لَهُمَا جَنَاحَ الذُّلِّ مِنَ الرَّحْمَةِ وَقُل رَّبِّ ارْحَمْهُمَا كَمَا رَبَّيَانِي صَغِيرًا ﴿٢٤﴾ رَّبُّكُمْ أَعْلَمُ بِمَا فِي نُفُوسِكُمْ ۚ إِن تَكُونُوا صَالِحِينَ فَإِنَّهُ كَانَ لِلْأَوَّابِينَ غَفُورًا ﴿٢٥﴾ وَآتِ ذَا الْقُرْبَىٰ حَقَّهُ وَالْمِسْكِينَ وَابْنَ السَّبِيلِ وَلَا تُبَذِّرْ تَبْذِيرًا ﴿٢٦﴾

الإسراء : ٢٣ — ٢٦ .

ٱلنَّبِيُّ أَوۡلَىٰ بِٱلۡمُؤۡمِنِينَ مِنۡ أَنفُسِهِمۡۖ وَأَزۡوَٰجُهُۥٓ أُمَّهَٰتُهُمۡۗ وَأُوْلُواْ ٱلۡأَرۡحَامِ بَعۡضُهُمۡ أَوۡلَىٰ بِبَعۡضٖ فِي كِتَٰبِ ٱللَّهِ مِنَ ٱلۡمُؤۡمِنِينَ وَٱلۡمُهَٰجِرِينَ إِلَّآ أَن تَفۡعَلُوٓاْ إِلَىٰٓ أَوۡلِيَآئِكُم مَّعۡرُوفٗاۚ كَانَ ذَٰلِكَ فِي ٱلۡكِتَٰبِ مَسۡطُورٗا ﴿٦﴾

الأحزاب : ٦ .

كَلَّاۖ بَل لَّا تُكۡرِمُونَ ٱلۡيَتِيمَ ﴿١٧﴾ وَلَا تَحَٰٓضُّونَ عَلَىٰ طَعَامِ ٱلۡمِسۡكِينِ ﴿١٨﴾ وَتَأۡكُلُونَ ٱلتُّرَاثَ أَكۡلٗا لَّمّٗا ﴿١٩﴾ وَتُحِبُّونَ ٱلۡمَالَ حُبّٗا جَمّٗا ﴿٢٠﴾

الفجر : ١٧ ــ ٢٠ .

فَلَا ٱقۡتَحَمَ ٱلۡعَقَبَةَ ﴿١١﴾ وَمَآ أَدۡرَىٰكَ مَا ٱلۡعَقَبَةُ ﴿١٢﴾ فَكُّ رَقَبَةٍ ﴿١٣﴾ أَوۡ إِطۡعَٰمٞ فِي يَوۡمٖ ذِي مَسۡغَبَةٖ ﴿١٤﴾ يَتِيمٗا ذَا مَقۡرَبَةٍ ﴿١٥﴾ أَوۡ مِسۡكِينٗا ذَا مَتۡرَبَةٖ ﴿١٦﴾

البلد : ١١ ــ ١٦ .

* * *

(١) تعريف التكافل الاجتماعى :

لمادة « كفل » معان متعددة ، نذكر منها : هو كافية وكافلة ، وهو يكفينى ويكفلنى : يعولنى وينفق على (*) .

ـ الكفل بمعنى الضِّعْف والنصيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا اتقوا الله وآمنوا برسوله يؤتكم كفلين من رحمته** ﴾ (١) ، أى ضعفين ونصيبين من الأجر .

ـ الكفيل : بمعنى الشاهد والرقيب ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **وقد جعلتم الله عليكم كفيلا** ﴾ (٢) ، أى شاهداً ورقيباً .

ـ الكافل : بمعنى العائل والضامن ، ومنه قوله تعالى : ﴿ **إذ يلقون أقلامهم أيهم يكفل مريم** ﴾ (٣) أى أيهم يعولها ويضمن معيشتها .

على ضوء هذه الاشتقاقات اللغوية يكون المعنى الاصطلاحى لكلمة التكافل الاجتماعى .. أن يتضامن أبناء المجتمع ويتساندوا فيما بينهم ، سواء أكانوا أفراداً أو جماعات ، حكاماً أو محكومين ـ على اتخاذ مواقف إيجابية ، كرعاية اليتيم ، أو سلبية كتحريم الاحتكار . والمجتمع المتكافل الذى يسوده الخير ، وتشمله المحبة ، وتحكمه العدالة ، ويقوم بين أبنائه التعاون على البر والتناصر بالحق ، والتناصح بالتقوى ، والتواصى بالمنفعة .

وهذا المفهوم للتكافل ، نستنتجه من الآيات والأحاديث ، وإلى هذا القرآن يشير فيقول : ﴿ **وتعاونوا على البر والتقوى ولا تعاونوا على الإثم والعدوان** ﴾ (٤) . كما تشير الأحاديث إليه : « **المؤمن للمؤمن كالبنيان يشد بعضه بعضاً** » (٥) ، « **لا يؤمن أحدكم حتى يحب لأخيه**

(*) انظر مادة (كفل) فى أساس البلاغة والقاموس المحيط .

(١) الحديد : ٢٨ .

(٢) النحل : ٩١ .

(٣) آل عمران : ٤٤ .

(٤) المائدة : ٢ .

(٥) صحيح مسلم ج ١٦ ص ١٣٩ باب تراحم المؤمنين .

ما يحب لنفسه » (١) .

(٢) مجال الإنفاق :

الكرم من العادات الحميدة التى عرف بها العرب قبل الإسلام ، ولم تكن خصلة عندهم تفوق خصلة الكرم ، وقد بعثتها فيهم حياة الصحراء القاسية وما فيها من جدب ، فكان الغنىّ بينهم يفضل على الفقير ، وكثيراً ما كان يذبح إبله فى سنين القحط يطعمها عشيرته ، كما يذبحها قرير العين للضيفان الذين ينزلون به أو تدفعهم الصحراء إليه ، ومن سننهم أنهم كانوا يوقدون النار ليلا ليهتدى إليهم التائهون ، فإذا وفدوا عليهم أمنوهم حتى لو كانوا من عدوهم ، ويدور فى شعرهم الفخر بهذه النيران وأن كلابهم لا تنبح ضيوفهم ، لما تعودت من كثرة الغادين والرائحين ، يقول عوف بن الأحوص :

ومستنبح يغشى القواء ودونه
من الليل بابا ظلمة وستورها
رفعت له نارى فلما اهتدى بها
زجرت كلابى أن يهر عقورها
فلا تسألينى واسألى عن خليقتى
إذا رد عافى القدر من يستعيرها
ترى أن قدرى لا تزال كأنها
لذى الفروة المقرور أم يزورها (٢)

فالكرم من ديدنهم إلا أنه كان يشوبه كثير من الرياء ومعانى الفخر ، وليقال كذا وكذا ، وعندما يتحول هذا المجتمع إلى المجتمع القرآنى بدأت تظهر ظاهرة الأسئلة ، وهذه الظاهرة توحى بيقظة العقيدة واستعلائها على نفوس الجماعة ، ورغبة المؤمنين فى معرفة حكم العقيدة فى كل شأن من شئون حياتهم اليومية ، وهنا يسأل بعض المسلمين عما ينفقون :

---

(١) صحيح البخارى ج ١ ص ١٧ ط عالم الكتب . باب من الإيمان أن يحب لأخيه ما يحب لنفسه .

(٢) المفضليات رقم ٣٦ والحيوان للجاحظ ط الحلبى ١٣٦/٥ .

يَسْـَٔلُونَكَ مَاذَا يُنفِقُونَ قُلْ مَآ أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَٰلِدَيْنِ وَٱلْأَقْرَبِينَ وَٱلْيَتَٰمَىٰ وَٱلْمَسَٰكِينِ وَٱبْنِ ٱلسَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا۟ مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ ٱللَّهَ بِهِۦ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾

البقرة : ٢١٥ .

فجاءهم الجواب يبين صفة الإنفاق : ﴿ **قل ما أنفقتم من خير** ﴾ ، والخير له معنيان أو إيحاءان ، الأول : أن الذى ينفق خير للمعطى ، وخير للجماعة ، وخير فى ذاته ، فلا يكون من المال المسلوب أو المغصوب ، والإيحاء الثانى : أن يتحرى المنفق أفضل ما عنده ، فينفق منه للإنفاق تطهيراً للقلوب وتزكية للنفس ، ثم منفعة للآخرين ، لا رياء ولا سمعة ولا فخراً .

(٣) التكافل بين الفرد وأسرته القريبة :

وبدأت معانى الإنفاق تتطور وتتبلور فى أذهان هذا المجتمع وتأخذ مساراً جديداً : ﴿ **قل ما أنفقتم من خير فللوالدين والأقربين واليتامى والمساكين وابن السبيل وما تفعلوا من خير فإن الله به عليم** ﴾ وهذا المجال يربط بين طوائف من الناس ، بعضهم تربطه بالمنفق رابطة العصب ، وبعضهم رابطة الرحم ، وبعضهم رابطة الرحمة ، وبعضهم رابطة الإنسانية الكبرى فى إطار العقيدة ، إلا أن التركيز فى هذه الآية على الأقرباء ، وقد أيدتها آيات أخرى : ﴿ **وآت ذا القربى حقه والمسكين وابن السبيل** ﴾ الإسراء وقال تعالى : ﴿ **واتقوا الله الذى تساءلون به والأرحام إن الله كان عليكم رقيباً** ﴾ النساء . وندد بمن لا يتضامن مع أقربائه ولا يتفقد أحوالهم ويتسبب فى قطع أرحامهم ، ووصفهم بالمفسدين ، وحكم عليهم باللعنة ، فقال : ﴿ **فهل عسيتم إن توليتم أن تفسدوا فى الأرض وتقطعوا أرحامكم . أولئك الذين لعنهم الله فأصمهم وأعمى**

أبصارهم ﴾ [1] . هكذا نرى الآيات تركز على الأقارب ، وتجعل التكافل والتضامن معهم من أبرز ما يمتاز به المجتمع المسلم ، وجاءت السنة تدعو إلى ذلك وتحذر من قطع الأرحام ، فقد اعتبر النبي ﷺ صلة الرحم من الأعمال التي تدخل الجنة ، وذلك كما ورد في إجابته لمن طلب منه أن يرشده إلى عمل يدخله الجنة ويبعده عن النار ، فقال له : « **تعبد الله لا تشرك به شيئا ، وتقيم الصلاة ، وتؤتي الزكاة ، وتصل الرحم** .. » [2] .

لقد جعل الإسلام ذوي القربى متضامنين متكافلين ، يشد بعضهم أزر بعض ، ويحمل قويهم ضعيفهم ، ويكفل غنيهم فقيرهم ، وينهض قادرهم بعاجزهم ، فإن العلائق بينهم أشد قوة ، وبواعث التعاطف والتراحم والتساند أوثق عروة ، وهم يشكلون الركائز الأساسية في مجال التكافل والتضامن [3] .

﴿ **وأولوا الأرحام بعضهم أولى ببعض في كتاب الله** ﴾ [4] .

﴿ **إن الله يأمر بالعدل والإحسان وإيتاء ذي القربى** ﴾ [5] .

كل هذه النصوص تؤيدها أحاديث كثيرة ، فقد قال عليه السلام : « **أرحامكم أرحامكم** » عن أنس [6] .

كما تدل هذه النصوص على أن للقريب على قريبه حقا أكثر من غيره من الناس لما بينهما من روابط النسب والرحم ، فما هو هذا الحق إن لم تكن إعالته والنفقة عليه عند عجزه ؟

---

(1) محمد : ٢٢ ــ ٢٣ .

(2) صحيح البخاري : جـ ٨ ص ٧ ط عالم الكتب ــ بيروت ــ باب فضل صلة الرحم .

(3) مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام . د. يوسف القرضاوي ط مؤسسة الرسالة ص ٥٥ .

(4) الأنفال : ٧٥ .

(5) النحل : ٩٠ .

(6) صحيح الجامع الصغير للألباني م ١ ص ٣٠٨ ط ١٩٧٩ ــ المكتب الإسلامي ــ بيروت .

(٤) ماذا تشمل النفقة ؟

لم يقدر الإسلام لهذه النفقة التي فرضها على القريب حدا معلوما ، ولكنه يراعي قدرة المنفق وحاجة المنفق عليه وبكل يسر وسهولة ، قال تعالى : ﴿ **لينفق ذو سعة من سعته ومن قدر عليه رزقه فلينفق مما آتاه الله لا يكلف الله نفساً إلا ما آتاها** ﴾ (١) ، ويقول سبحانه : ﴿ **ومتعوهن على الموسع قدره وعلى المقتر قدره متاعاً بالمعروف** ﴾ (٢) .

نفقة الأقارب تجب مطلقا لسد حاجة القريب ، وهي لذلك تقدر على كل حال بكفاية القريب المطلوب له النفقة ، وتجب نفقة الأقارب للمأكل والمشرب والملبس والسكن والرضاع ، وأساس ذلك أن هذه النفقة تجب للكفاية » (٣) .

ومعاني هذا التكافل تؤيدها كثير من الآيات والأحاديث ، قال تعالى : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً وبالوالدين إحساناً وبذي القربى واليتامى والمساكين والجار ذي القربى والجار الجنب والصاحب بالجنب وابن السبيل وما ملكت أيمانكم إن الله لا يحب من كان مختالا فخوراً** ﴾ (٤) .

وهذه التضحية في التكافل والسمو في التعاطف يتطلب إيمانا قويا ، ومن هنا كانت البداية : ﴿ **واعبدوا الله ولا تشركوا به شيئاً** ﴾ ، ثم ينطلق الأمر بالبر إلى الإحسان بالوالدين ، ثم يبدأ بذوي القربى قرابة شاملة من قبل الأب ومن ناحية الأم ، وهي في صورة وحدة متكاملة تشكل أكبر لبنة في تطوير هذا المجتمع النامي ، ومنه يتوسع ، فيشمل الوحدات : اليتامى والمساكين ولو أنهم قد يكونون أبعد مكانا من الجار إلا أنهم أولى بالرعاية ، ثم وحدة الجار .

---

(١) الطلاق : ٧ .
(٢) البقرة : ٢٣٦ .
(٣) الأحوال الشخصية لعبدالعزيز العامر ص ٤٣٩ ، ٤٤٠ ط ١٩٧٦ .
(٤) النساء : ٣٦ .

والآية تشير إلى أن إكرام الجار من الإيمان ، ويؤيد هذا المعنى قوله ﷺ : « **من كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليحسن إلى جاره ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليكرم ضيفه ، ومن كان يؤمن بالله واليوم الآخر فليقل خيراً أو ليصمت** » (١) .

« مازال جبريل يوصيني بالجار حتى ظننت أنه يسورثه » (٢) .

« ليس المؤمن بالذي يشبع وجاره جائع إلى جنبه » (٣) .

« وليس الجار هو الملاصق كما يظن بعض الناس ، فقد روي في الآثار : « أن أربعين داراً جار ، وفسرها بعضهم بأربعين من كل جهة من الجهات الأربعة ، فأهل كل حي إذاً جيران بعضهم لبعض » (٤) .

فالإسلام يريد أن يجعل من كل حي وحدة متكاملة متآلفة مترابطة في السراء والضراء ، بحيث يحملون ضعيفهم ، ويطعمون جائعهم ، ويتفقدون أحوال بعضهم ببعض وإلا برئت منهم ذمة الله وذمة رسوله ﷺ ، ولم يستحقوا الانتماء إلى مجتمع المؤمنين .

(٥) الزكاة والتكافل الاجتماعي :

قد كان التكافل في الإسلام انبثاقا من عدة روافد ، أساسها العقيدة والمسئولية الجماعية والترابط والأخوة ، وجعل الزكاة رافدا أساسيا من روافد التكافل ، وحث على ذلك بآيات كثيرة : ﴿ **فإن تابوا وأقاموا الصلاة وآتوا الزكاة فإخوانكم في الدين** ﴾ (٥) ، وقال سبحانه : ﴿ **هدى وبشرى للمحسنين . الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم بالآخرة هم يوقنون** ﴾ (٦) .

---

(١) صحيح مسلم جـ ٢ ص ٢ ط دار الفكر باب الحث على إكرام الجار وابن ماجه جـ ٢ ص ١٢١٠ .

(٢) صحيح البخارى جـ ٢ ص ١٨ ، وصحيح مسلم جـ ١٦ ص ١٧٦ ط دار الفكر باب الوصية بالجار والإحسان إليه .

(٣) صحيح الجامع الصغير للألبانى م ٥ ص ٨٩ ط الثانية ١٩٧٩ المكتب الإسلامى بيروت .

(٤) مشكلة الفقر . د. يوسف القرضاوي ص ١١٨ .

(٥) التوبة : ١١ .

(٦) لقمان : ٣ ـــ ٤ .

ونظَّم الإسلام الزكاة لأصناف مختلفة من المحتاجين : ﴿ **إنما الصدقات للفقراء والمساكين والعاملين عليها والمؤلفة قلوبهم وفي الرقاب والغارمين وفي سبيل الله وابن السبيل فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾ (١) .

والزكاة في الإسلام حق أو دين في أعناق الأغنياء للفئات الضعيفة والمستحقة ، وهي كذلك حق معلوم محدد النسبة والمقدار ، علمه الذين تجب عليهم الزكاة ، وعلمه الذين تُصرف لهم الزكاة : ﴿ **وفي أموالهم حق للسائل والمحروم** ﴾ (٢) .

وفي سورة أخرى وصف الأخيار من عباده الذين يستحقون الإكرام في جناته ، فقال تعالى : ﴿ **والذين في أموالهم حق معلوم . للسائل والمحروم** ﴾ (٣) .

إن الجانب الاجتماعي والتكافل من أهداف الزكاة ظاهر لا ريب فيه . لقد سَدَّتْ الزكاة كل ما يتصور من أنواع الحاجات الناشئة عن العجز الفردي أو الخلل الاجتماعي أو الظروف العارضة التي لا يسلم من تأثيرها بشر .

كتب الإمام الزهري لعمر بن عبدالعزيز عن مواضع السنة في الزكاة : « إن فيها نصيبا للزَّمْنَىٰ والمُقْعَدِينَ ، ونصيبا لكل مسكين به عاهة لا يستطيع عيلة ولا تقلبا في الأرض ، ونصيبا للمساكين الذين يسألون ، ونصيبا لمن في السجون من أهل الإسلام » (٤) .

والزكاة حق الجماعة في عنق الفرد لتكفل لطوائف منهم كفايتهم أحيانا وشيئا من المتاع بعد الكفاف أحيانا ، وبذلك يحقق الإسلام جانبا من مبدئه العام : ﴿ **كي لا يكون دولة بين الأغنياء منكم ...** ﴾ ، لأن ذلك ينقلب في النهاية إلى تجميد الحياة والعمل والإنتاج في هذه الأمة .

---

(١) التوبة : ٦٠ .
(٢) الذاريات : ١٩ .
(٣) المعارج : ٢٤ ــ ٢٥ .
(٤) فقه الزكاة للقرضاوي جـ ٢ ص ٨٨٠ ط /٥ سنة ١٤٠١هـ .

لهذه المعاني جميعها شرع الزكاة ، وجعلها فريضة في المال ، وحقا لمستحقيها لا تفضلا من مخرجيها (١) : ﴿ **فريضة من الله والله عليم حكيم** ﴾ (٢) أما المستحقون لها فكما ذكرت الآية السابقة فهم أصناف ثمانية ، يمثلون معظم طبقات المجتمع المحتاجة والعاملين فيه :

١ ـ الفقراء ·

وهم الذين يملكون أقل من النصاب ، أو يملكون نصابا مستغرقا بالدَّين .

٢ ـ والمساكين ·

وهم الذين لا يملكون شيئا ، ولا يستطيعون أن يكسبوا ما يكفيهم .

٣ ـ والعاملون عليها :

وهم جباتُها ، والساعون في جمعها ، وهؤلاء وإن كانوا أغنياء يعطون منها جزاء لعملهم .

٤ ـ والمؤلفة قلوبهم :

وهم الذين كانوا قد دخلوا في الإسلام حديثا لتقوية قلوبهم .

٥ ـ وفي الرقاب :

وهم العبيد الذين لا سبيل إلى عتقهم ، والأسرى .

٦ ـ والغارمون :

وهم المدينون الذين عجزوا عن الوفاء بديونهم ، ولم يكونوا قد اقترضوها إسرافاً أو تبذيراً .

٧ ـ وفي سبيل الله :

وهو مصرف عام تحدده الدولة ، ومنه تجهيز المجاهدين ، وعلاج المرضى ، وتعليم العاجزين .

---

(١) راجع العدالة الاجتماعية في الإسلام لسيد قطب ص ١١٦ ط/٩ سنة ١٩٨٣م .
(٢) التوبة : ٦٠ .

٨ ــ وابن السبيل :

وهو الذي يكون في مكان لا يجد فيه المأوى والطعام ، وله مال في موطنه قد انقطع عنه ، ومن واجبات المجتمع المسلم أن يحتضنه ويتفقد أحواله ويمد إليه يد العون والمساعدة [(١)] .

هذه التفريعات توضح أن الزكاة أول تشريع منظم في سبيل التكافل الاجتماعي عرفته البشرية ، غايتها تحقيق الكفاية لكل محتاج ، الكفاية في المطعم والملبس والمسكن وسائر حاجات الحياة لنفس الشخص ولمن يعولهم في غير ما إسراف ولا تقتير .

ولقد سلك الإسلام لذلك طرائق عدة : أولها (النفقات) كما سبق أن ذكرنا في بداية الفصل ، وثانيها (الزكاة) ، وثالثها :

(٦) الصدقات والكفارات :

شجع القرآن الكريم على الصدقة ، فاعتبرها قرضا لله سبحانه وتعالى : **﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً فيضاعفه له أضعافا كثيرة والله يقبض ويبسط وإليه ترجعون ﴾** [(٢)] .

وبيّن القرآن الكريم أن الصدقات تنمو في المجتمع ، وأنها تعود على صاحبها وعلى الناس بأكمل الخير ، فقال تعالى : **﴿ ومثل الذين ينفقون أموالهم ابتغاء مرضات الله وتثبيتاً من أنفسهم كمثل جنة بربوةٍ أصابها وابل فآتت أكلها ضعفين فإن لم يصبها وابل فطل والله بما تعملون بصير ﴾** [(٣)] . والصدقات اللازمة هي : ــ صدقة الفطر ، وصدقات مناسك الحج ، ويقرب منها صدقة الأضحية [(٤)] .

وأما الكفارات فقد أكثر الإسلام منها ، وتعددت لذلك أنواعها وأحكامها ، فمنها :

---

(١) تنظيم الإسلام للمجتمع للإمام محمد أبوزهرة ص ١٥٨ .

(٢) البقرة : ٢٤٥ .

(٣) البقرة : ٢٦٥ .

(٤) تنظيم الإسلام للمجتمع للإمام محمد أبوزهرة ص ١٦٤ .

كفارة الظهار :

فمن قال لزوجته : أنت علي كظهر أمي أو أختي فكفارته صيام شهرين متتابعين : ﴿ **والذين يظاهرون من نسائهم ثم يعودون لما قالوا فتحرير رقبة من قبل أن يتماسا ذلكم توعظون به والله بما تعملون خبير . فمن لم يجد فصيام شهرين متتابعين من قبل أن يتماسا فمن لم يستطع فإطعام ستين مسكيناً ذلك لتؤمنوا بالله ورسوله وتلك حدود الله وللكافرين عذاب أليم** ﴾ (١) .

ومنها كفارة اليمين :

من حلف على أمر يريد أن يفعله ثم حنث في يمينه ﴿ **فكفارته إطعام عشرة مساكين من أوسط ما تطعمون أهليكم أو كسوتهم أو تحرير رقبة ..** ﴾ (٢) .

ومنها كفارات الحج

إذا ارتكب الحاج محظورا من محظورات الإحرام، أو لتمتعه بالعمرة إلى الحج ، أو لقرانه بينهما ، أو لغير ذلك ، قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تقتلوا الصيد وأنتم حرم ومن قتله منكم متعمداً فجزاء مثل ما قتل من النعم يحكم به ذوا عدل منكم هديا بالغ الكعبة أو كفارة طعام مساكين** ﴾ (٣) .

وقد أحاط الإسلام نظام التكافل الاجتماعي بسياج من السمو الخلقي ، فلا تقبل عند الله تعالى صدقة للرياء ، ولا يقبل المن والأذى ، يقول الله تعالى : ﴿ **قول معروف ومغفرة خير من صدقة يتبعها أذى والله غني حليم . يا أيها الذين آمنوا لاتبطلوا صدقاتكم بالمن والأذى كالذي ينفق ماله رئاء الناس ولا يؤمن بالله واليوم الآخر فمثله كمثل صفوان عليه تراب فأصابه وابل فتركه صلدا لا يقدرون على شيء مما كسبوا والله**

---

(١) المجادلة : ٣ — ٤ .

(٢) المائدة : ٨٩ .

(٣) المائدة : ٩٥ .

لا يهدي القوم الكافرين ﴾ (١) .

ومن الآداب الجديدة التي عرفها المجتمع المدني إخفاء الصدقة إذا كانت لشخص معين خشية التهمة بالرياء ، قال تعالى : ﴿ **إن تبدوا الصدقات فنعما هي وإن تخفوها وتؤتوها الفقراء فهو خير لكم ويكفر عنكم من سيئاتكم والله بما تعملون خبير** ﴾ (٢) .

* * *

(١) البقرة : ٢٦٣ ــ ٢٦٤ .

(٢) البقرة : ٢٧١ .

الفصل الثالث

الآداب الاجتماعية

١ ــ التثبت في الأخبار .

٢ ــ سوء الظن بالمسلم من غير مبرر .

٣ ــ النهي عن احتقار المسلم والاستهزاء به .

٤ ــ النهي عن التجسس والغيبة .

٥ ــ النهي عن رمي المحصنات .

٦ ــ الأمر بغض البصر .

٧ ــ آداب السلام والتحية .

٨ ــ آداب الاستئذان .



« الآيات تتحدث عن الآداب الاجتماعية »

يقول الحق عز وعلا :

وَإِذَا جَآءَهُمْ أَمْرٌ مِّنَ ٱلْأَمْنِ أَوِ ٱلْخَوْفِ أَذَاعُوا۟ بِهِۦ ۖ وَلَوْ رَدُّوهُ إِلَى ٱلرَّسُولِ وَإِلَىٰٓ أُو۟لِى ٱلْأَمْرِ مِنْهُمْ لَعَلِمَهُ ٱلَّذِينَ يَسْتَنۢبِطُونَهُۥ مِنْهُمْ ۗ وَلَوْلَا فَضْلُ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ وَرَحْمَتُهُۥ لَٱتَّبَعْتُمُ ٱلشَّيْطَٰنَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٣﴾ النساء : ٨٣ .

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ النساء : ٨٦ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِذَا ضَرَبْتُمْ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ فَتَبَيَّنُوا۟ وَلَا تَقُولُوا۟ لِمَنْ أَلْقَىٰٓ إِلَيْكُمُ ٱلسَّلَٰمَ لَسْتَ مُؤْمِنًا تَبْتَغُونَ عَرَضَ ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا فَعِندَ ٱللَّهِ مَغَانِمُ كَثِيرَةٌ ۚ كَذَٰلِكَ كُنتُم مِّن قَبْلُ فَمَنَّ ٱللَّهُ عَلَيْكُمْ فَتَبَيَّنُوٓا۟ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرًا ﴿٩٤﴾ النساء : ٩٤ .

وَإِذَا رَأَيْتَ ٱلَّذِينَ يَخُوضُونَ فِىٓ ءَايَٰتِنَا فَأَعْرِضْ عَنْهُمْ حَتَّىٰ يَخُوضُوا۟ فِى حَدِيثٍ غَيْرِهِۦ ۚ وَإِمَّا يُنسِيَنَّكَ ٱلشَّيْطَٰنُ فَلَا تَقْعُدْ بَعْدَ ٱلذِّكْرَىٰ مَعَ ٱلْقَوْمِ ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٦٨﴾ الأنعام : ٦٨ .

وَلَا تَقْفُ مَا لَيْسَ لَكَ بِهِۦ عِلْمٌ ۚ إِنَّ ٱلسَّمْعَ وَٱلْبَصَرَ وَٱلْفُؤَادَ كُلُّ أُو۟لَٰٓئِكَ كَانَ عَنْهُ مَسْـُٔولًا ﴿٣٦﴾

الإسراء : ٣٦ .

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟ بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾

النور : ٤ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ قُل لِّلْمُؤْمِنِينَ يَغُضُّوا۟ مِنْ أَبْصَٰرِهِمْ وَيَحْفَظُوا۟ فُرُوجَهُمْ ۚ ذَٰلِكَ أَزْكَىٰ لَهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ خَبِيرٌۢ بِمَا يَصْنَعُونَ ﴿٣٠﴾ وَقُل لِّلْمُؤْمِنَٰتِ يَغْضُضْنَ مِنْ أَبْصَٰرِهِنَّ وَيَحْفَظْنَ فُرُوجَهُنَّ وَلَا يُبْدِينَ زِينَتَهُنَّ إِلَّا مَا ظَهَرَ مِنْهَا ۖ وَلْيَضْرِبْنَ بِخُمُرِهِنَّ عَلَىٰ جُيُوبِهِنَّ ۖ وَلَا يُبْدِينَ

زِينَتَهُنَّ إِلَّا لِبُعُولَتِهِنَّ أَوْ ءَابَآئِهِنَّ أَوْ ءَابَآءِ بُعُولَتِهِنَّ
أَوْ أَبْنَآئِهِنَّ أَوْ أَبْنَآءِ بُعُولَتِهِنَّ أَوْ إِخْوَٰنِهِنَّ أَوْ بَنِىٓ إِخْوَٰنِهِنَّ
أَوْ بَنِىٓ أَخَوَٰتِهِنَّ أَوْ نِسَآئِهِنَّ أَوْ مَا مَلَكَتْ أَيْمَٰنُهُنَّ أَوِ
ٱلتَّٰبِعِينَ غَيْرِ أُوْلِى ٱلْإِرْبَةِ مِنَ ٱلرِّجَالِ أَوِ ٱلطِّفْلِ ٱلَّذِينَ
لَمْ يَظْهَرُوا۟ عَلَىٰ عَوْرَٰتِ ٱلنِّسَآءِ ۖ وَلَا يَضْرِبْنَ بِأَرْجُلِهِنَّ
لِيُعْلَمَ مَا يُخْفِينَ مِن زِينَتِهِنَّ ۚ وَتُوبُوٓا۟ إِلَى ٱللَّهِ جَمِيعًا أَيُّهَ
ٱلْمُؤْمِنُونَ لَعَلَّكُمْ تُفْلِحُونَ ﴿٣١﴾

النور : ٢٧ ـ ٣١ .

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لِيَسْتَـْٔذِنكُمُ ٱلَّذِينَ مَلَكَتْ أَيْمَٰنُكُمْ وَٱلَّذِينَ لَمْ يَبْلُغُوا۟
ٱلْحُلُمَ مِنكُمْ ثَلَٰثَ مَرَّٰتٍ ۚ مِّن قَبْلِ صَلَوٰةِ ٱلْفَجْرِ وَحِينَ
تَضَعُونَ ثِيَابَكُم مِّنَ ٱلظَّهِيرَةِ وَمِنۢ بَعْدِ صَلَوٰةِ ٱلْعِشَآءِ ۚ
ثَلَٰثُ عَوْرَٰتٍ لَّكُمْ ۚ لَيْسَ عَلَيْكُمْ وَلَا عَلَيْهِمْ جُنَاحٌۢ بَعْدَهُنَّ ۚ
طَوَّٰفُونَ عَلَيْكُم بَعْضُكُمْ عَلَىٰ بَعْضٍ ۚ كَذَٰلِكَ يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمُ
ٱلْءَايَٰتِ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٨﴾ وَإِذَا بَلَغَ ٱلْأَطْفَٰلُ مِنكُمُ
ٱلْحُلُمَ فَلْيَسْتَـْٔذِنُوا۟ كَمَا ٱسْتَـْٔذَنَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِمْ ۚ كَذَٰلِكَ
يُبَيِّنُ ٱللَّهُ لَكُمْ ءَايَٰتِهِۦ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿٥٩﴾

النور : ٥٨ ـ ٥٩ .

وَإِذَا سَمِعُوا۟ ٱللَّغْوَ أَعْرَضُوا۟ عَنْهُ وَقَالُوا۟ لَنَآ أَعْمَـٰلُنَا وَلَكُمْ أَعْمَـٰلُكُمْ سَلَـٰمٌ عَلَيْكُمْ لَا نَبْتَغِى ٱلْجَـٰهِلِينَ ﴿٥٥﴾

القصص : ٥٥ .

وَٱلَّذِينَ يُؤْذُونَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَٱلْمُؤْمِنَـٰتِ بِغَيْرِ مَا ٱكْتَسَبُوا۟ فَقَدِ ٱحْتَمَلُوا۟ بُهْتَـٰنًا وَإِثْمًا مُّبِينًا ﴿٥٨﴾

الأحزاب : ٥٨ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ إِن جَآءَكُمْ فَاسِقٌۢ بِنَبَإٍ فَتَبَيَّنُوٓا۟ أَن تُصِيبُوا۟ قَوْمًۢا بِجَهَـٰلَةٍ فَتُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَا فَعَلْتُمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٦﴾

الحجرات : ٦ .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا يَسْخَرْ قَوْمٌ مِّن قَوْمٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُونُوا۟ خَيْرًا مِّنْهُمْ وَلَا نِسَآءٌ مِّن نِّسَآءٍ عَسَىٰٓ أَن يَكُنَّ خَيْرًا مِّنْهُنَّ ۖ وَلَا تَلْمِزُوٓا۟ أَنفُسَكُمْ وَلَا تَنَابَزُوا۟ بِٱلْأَلْقَـٰبِ ۖ بِئْسَ ٱلِٱسْمُ ٱلْفُسُوقُ بَعْدَ ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ وَمَن لَّمْ يَتُبْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿١١﴾ يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱجْتَنِبُوا۟ كَثِيرًا مِّنَ ٱلظَّنِّ إِنَّ بَعْضَ ٱلظَّنِّ إِثْمٌ ۖ وَلَا تَجَسَّسُوا۟ وَلَا يَغْتَب بَّعْضُكُم بَعْضًا ۚ أَيُحِبُّ أَحَدُكُمْ أَن يَأْكُلَ لَحْمَ أَخِيهِ مَيْتًا فَكَرِهْتُمُوهُ ۚ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ تَوَّابٌ رَّحِيمٌ ﴿١٢﴾

الحجرات : ١١ ــ ١٢ .

« الآداب الاجتماعية »

تميز المجتمع العربي قبل الإسلام ببدائية موغلة في خضوعها لعفوية السلوك وعزوفها عن الانتظام في آداب التعامل وتفاصيل العلاقات ، وجاء الإسلام ليكون مجتمعا ربانيا متآلفا يرتبط أفراده بعضهم مع بعض بروابط الإخاء والحب والتراحم والأخلاق الكريمة : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ (١) ، « **إنما بعثت لأتمم صالح الأخلاق** »(٢) ، مجتمعا يصون الأفراد والأسر ، ويهيء لها المناخ المناسب الذي يرقى بها عن الامتهان والابتذال ، ويحيطها بسياج من الآداب الاجتماعية تأخذ بيد المجتمع كله ، ليكون نموذجا للمجتمعات الإسلامية يُحتذى به على مر الأزمنة والعصور ، واتخذ لذلك أنظمة وآدابا .

(١) التثبت في الأخبار :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا أن تصيبوا قوما بجهالة فتصبحوا على ما فعلتم نادمين** ﴾ (٣) .

« والفاسق الخارج عن حجر الشرع ، من قولهم : فسق الرطب إذا خرج عن قشره ، وقال الراغب : والفسق أعم من الكفر ، ويقع بالقليل من الذنوب وبالكثير ، لكن تعورف فيما كانت كثيرة ، وأكثر ما يقال الفاسق لمن التزم حكم الشرع وأقر به ثم أخل بجميع أحكامه أو ببعضها » (٤) .

ويخصص الفاسق لأنه مظنة الكذب ، وحتى لا يشيع الشك بين أفراد المجتمع في كل ما ينقله أفراده من أنباء ، فالأصل في المجتمع أن يكون أفراده موضع ثقة ، وأن يكون أنباؤهم مصدقة مأخوذاً بها ، فأما الفاسق فهو موضع شك حتى يثبت خبره ، لذا على الجماعة أن لا تعجل في تصرف

---

(١) الحجرات : ١٠ .
(٢) صحيح الجامع الصغير للألباني م ٢ ص ٢٨٥ ط ١ ، ١٩٦٩ .
(٣) الحجرات : ٦ .
(٤) روح المعاني للألوسي م ١٩ ج ٢٦ ص ١٤٥ دار إحياء التراث العربي — بيروت .

بناءً على خبر الفاسق فتصيب قوما بظلم عن جهالة وتسرع فتندم على ارتكابها ما يُغْضِب الله ، وبذلك يكون للمجتمع المسلم منهجه في التثبت من الأقوال والأفعال والاستيثاق من مصدرها قبل الحكم عليها ، ويستند هذا المنهج إلى تقوى الله وإلى إرجاع الأمر إلى رسول الله ﷺ ، وقد أشارت إلى ذلك الآيات في سورة النساء : ﴿ **وإذا جاءهم أمر من الأمن أو الخوف أذاعوا به ولو ردوه إلى الرسول وإلى أولى الأمر منهم لعلمه الذين يستنبطونه منهم ولولا فضل الله عليكم ورحمته لا تبعتم الشيطان إلا قليلا** ﴾ (١) .

﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا ضربتم في سبيل الله فتبينوا ولا تقولوا لمن ألقى اليكم السلام لست مؤمنا تبتغون عرض الحياة الدنيا فعند الله مغانم كثيرة كذلك كنتم من قبل فَمَنَّ الله عليكم فتبينوا إن الله كان بما تعملون خبيرا** ﴾ (٢) .

(٢) النهي عن سوء الظن بالمسلم من غير مبرر :

﴿ **يا أيها الذين آمنوا اجتنبوا كثيرا من الظن إن بعض الظن إثم** ﴾ (٣) .

« تنهى الآية أفراد المجتمع المسلم عن كثير من الظن ، وهو التهمة والتخون للأهل والناس فى غير محله ، لأن بعض ذلك يكون إثما محضاً » (٤) « بهذا يطهر القرآن ضمير أفراد المجتمع المسلم من داخله أن يتلوث بالظن السيء ، فيقع في الإثم ، ويدعه نقيا بريئا من الهواجس والشكوك ، أبيض يُكِنُّ لإخوانه المودة التي لا يخدشها ظن السوء ، والبراءة التي لا تلوثها الريب والشكوك . وما أروع الحياة في مجتمع برىء من الظنون » (٥) .

---

(١) النساء : ٨٣ .

(٢) النساء : ٩٤ .

(٣) الحجرات : ١٢ .

(٤) تفسير ابن كثير م ٤ ص ٣٢٦ بتصرف .

(٥) في ظلال القرآن م ٦ ص ١١٨ ط دار الفكر .

والأمر لا يقف عند هذا الأفق الوضيء في تربية الضمائر والقلوب، بل يقيم مبدأ في التعامل، وسياجاً حول حقوق أفراد المجتمع، فلا يؤخذون بظنة، ولا يحاكمون بريبة، ولا يصبح الظن أساساً لمحاكمتهم، ومعنى هذا أن يظل الأفراد أبرياء، مصونة حقوقهم وحرياتهم واعتبارهم حتى يتبين بوضوح أنهم ارتكبوا ما يؤاخذون عليه. يقول تعالى: ﴿ **ولا تقف ماليس لك به علم إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا** ﴾ (١).

ويقول ﷺ: « **إياكم والظن، فإن الظن أكذب الحديث، ولا تجسسوا، ولا تحسسوا، ولا تنافسوا، ولا تحاسدوا، ولا تباغضوا، ولا تدابروا، وكونوا عباد الله إخوانا** » (٢).

(٣) النهي عن احتقار المسلم والاستهزاء به:

﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا يسخر قوم من قوم عسى أن يكونوا خيرا منهم ولا نساء من نساء عسى أن يكنَّ خيرا منهن ولا تلمزوا أنفسكم ولا تنابزوا بالألقاب بئس الاسم الفسوق بعد الإيمان ومن لم يتب، فأولئك هم الظالمون** ﴾ (٣).

وعن أبي هريرة رضي الله عنه أن رسول الله ﷺ قال: « **بحسب امرىء من الشر أن يحقر أخاه المسلم، كل المسلم على المسلم حرام: دمه، وماله، وعرضه** » (٤).

إن المجتمع الفاضل الذي يقيمه الإسلام بهدي القرآن مجتمع له أدب رفيع، ولكل فرد فيه كرامته التي لا تمس وهي من كرامة المجموع، « فالآية تنهى عن السخرية بالناس وهو احتقارهم واستصغارهم والاستهزاء بهم وهذا حرام، فقد يكون المحتقر أعظم قدراً عند الله تعالى

---

(١) الإسراء: ٣٦.
(٢) صحيح مسلم: جـ ١٦ ص ١١٨ ط دار الفكر.
(٣) الحجرات: ١١.
(٤) صحيح مسلم جـ ١٦ ص ١٢١.

وأحب إليه من الساخر منه المحتقِر له » [1] ، لأن القيم الظاهرة التي يراها الرجال في أنفسهم ويراها النساء في أنفسهن ليست هي القيم الحقيقية التى يوزن بها الناس ، فميزان الله يرفع ويخفض بغير هذه الموازين البشرية ذات الأهواء .

ثم تستجيش الآيات عاطفة الأخوة الإيمانية ، فتذكِّر أفراد المجتمع المسلم بأنهم نفس واحدة ، فمن يلمز فقد لمز نفسه ، كما يصور القرآن في موضع آخر عقاب اللماز والهماز ، وأنه مذموم ملعون : ﴿ **ويل لكل هُمَزَة لُمَزَة** ﴾ [2] .

وتنهى الآية عن التنابز بالألقاب التي يكرهها أصحابها ، ويحسون فيها سخرية وعيباً ، لأن ذلك من حق المؤمن على المؤمن ، ولأن هذه الصفات غير كريمة ولا تليق بأفراد المجتمع المؤمن . ثم يأتي في نهاية الآية تهديد وتحذير لأفراد هذا المجتمع من الانقياد وراء هذه الصفات ، لأن ذلك أشبه بالارتداد عن الإيمان ، ولا تتوقف الآيات عند هذا الحد ، بل تقرر أن من لم يقلع ويتوب عن ذلك ، فهو ظالم . وبذلك تضع الآية قواعد للأخلاق الفاضلة التي تليق بهذا المجتمع المؤمن الكريم [3] .

(٤) النهي عن التجسس والغيبة :

﴿ ولاتجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا فكرهتموه واتقوا الله إن الله تواب رحيم ﴾ [4] .

عن أبي برزة الأسلمي قال : قال رسول الله ﷺ : « **يا معشر من آمن بلسانه ولم يدخل الإيمان قلبه ، لا تغتابوا المسلمين ، ولا تتبعوا عوراتهم فإن من اتبع عوراتهم يتبع الله عورته ، ومن يتبع الله عورته يفضحه في بيته** » [5] . قال الألوسي : « ولا تجسسوا : ـ ولا تبحثوا عن عورات .

(١) تفسير ابن كثير للصابوني م ٤ ص ٣٢٦ .
(٢) الهمزة : ١ .
(٣) الظلال : م ٦ ص ٣٣٤٤ ـ ٣٣٤٥ بتصرف .
(٤) الحجرات : ١٢ .
(٥) أبوداود : جـ ٧ ص ٢١٣ ـ ٢١٤ .

المسلمين ومعايبهم وتستكشفوا عما ستروه ، تَفَعُّل من الجَسّ باعتبار ما فيه من معنى الطلب كاللمس فإن من يطلب الشيء يجسه ويلمسه فأريد به ما يلزمه ، واستعمال التفعل للمبالغة » (١) .

والقرآن يقاوم هذا العمل الدنيء لتطهير القلب من هذا الاتجاه اللئيم لتتبع عورات الآخرين وكشف سوءاتهم ، وتمشيا مع أهدافه لتنظيم المجتمع وتطهيره والمحافظة عليه من الفساد . عن معاوية قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **إنك إن اتبعت عورات الناس أفسدتهم أو كدت أن تفسدهم** » (٢) .

ففي المجتمع القرآني الرفيع يعيش الناس آمنين على أنفسهم ، آمنين على بيوتهم ، آمنين على أسرارهم ، آمنين على عوراتهم ، وليس لأحد أن يتتبع مساوىء الناس ، ويتعقب بواطنهم ، وليس لأحد أن يؤاخذهم إلا بما يظهر منهم من مخالفات وجرائم ، وهذا من فضل الله على عباده ، أن استحب ستر عيوبهم ، ولو صدق اتصافهم بها ، عن ابن عباس ، عن النبي ﷺ قال : « **من ستر عورة أخيه المسلم ستر الله عورته يوم القيامة ، ومن كشف عورة أخيه المسلم كشف الله عورته حتى يفضحه في بيته** » (٣) .

وتمضي الآية تحرم الغيبة ، وتنفر المسلم من هذه الصفة الكريهة المذمومة في تعبير موح مؤثر يصل إلى أعماق النفس السوية ، فيردعها من الاقتراب من هذه الصفة : ﴿ **أيحب أحدكم أن يأكل لحم أخيه ميتا** ﴾ . عن أنس بن مالك رضي الله عنه قال : قال رسول الله ﷺ : « **لما عرج بي مررت بقوم لهم أظفار من نحاس ، يخمشون وجوههم وصدورهم ، فقلت : من هؤلاء ياجبريل ؟ قال : هؤلاء الذين يأكلون لحوم الناس ، ويقعون في أعراضهم** » (٤) .

---

(١) روح المعاني للألوسي : م ٢ ج ٢٦ ص ١٥٧ .
(٢) أبوداود : جـ ٧ ص ٢١٨ .
(٣) ابن ماجة : جـ ٢ ص ٨٥ باب الستر على المؤمن .
(٤) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري تحقيق محمد حامد الفقي جـ ٧ ص ٢١٣ .

المسلم الحق لا يجوز له أن يتشفى بالتشنيع على مسلم ، ولو بذكره بما فيه ، أو يستحل عرض أخيه ويفضحه فيه : « **كل المسلم على المسلم حرام : دمه ، وعرضه ، وماله** » (١) . عن أبي هريرة رضي الله عنه أنه قيل : يارسول الله ، ما الغيبة ؟ قال : « **ذكرك أخاك بما يكره** » . قيل : أفرأيت إن كان في أخي ما أقول ؟. قال : « **إن كان فيه ماتقول فقد اغتبته ، وإن لم يكن فيه ما تقول فقد بَهَتَّه** » (٢) .

وقد حرَّم بعض العلماء الاستماع للغيبة ، قال الإمام النووي : « اعلم أن الغيبة كما يحرم على المغتاب ذكرها ، يحرم على السامع استماعها وإقرارها » (٣) .

﴿ وإذا رأيت الذين يخوضون في آياتنا فأعرض عنهم حتى يخوضوا في حديث غيره وإما ينسينك الشيطان فلا تقعد بعد الذكرى مع القوم الظالمين ﴾ (٤) .

﴿ وإذا سمعوا اللغو أعرضوا عنه وقالوا لنا أعمالنا ولكم أعمالكم سلام عليكم لا نبتغي الجاهلين ﴾ (٥) .

﴿ إن السمع والبصر والفؤاد كل أولئك كان عنه مسئولا ﴾ (٦) .

(٥) النهي عن رمي المحصنات :

إن الإسلام يربي الناس تربية شاملة ، وينظم شئونهم وحياتهم وفق شريعة خاصة ، ويخلق مقومات اجتماعية وشعورية خاصة ، لينشأ مجتمعا نظيفا ، مجتمعا كل فرد فيه مصون العرض ، مضمون الرزق ، تضيق فيه فرص الغواية ، وعوامل الإثارة والفتنة ، مجتمعا تعيش فيه المسلمات بريئات الطوايا ، مطمئنات لا يحذرن شيئا ، لأنهن لم يأتين شيئا يحذرنه .

---

(١) صحيح مسلم جـ ١٦ ص ١٢١ .
(٢) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري جـ ٧ ص ٢١٢ .
(٣) الأذكار للنووي ص ٣٠١ المكتبة الإسلامية ــ استانبول ط ٤ .
(٤) الأنعام : ٦٨ .
(٥) القصص : ٥٥ .
(٦) الإسراء : ٣٦ .

ونظم القرآن لهذا المجتمع آدابا اجتماعية تُراعى في حديث المجالس ، وفي النوادي والطرقات وفي البيوت .

فلا يجوز أن تُترك الألسن تلوك عرض المحصنات بدون دليل قاطع ، ولا يترك المجال لكل من شاء أن يقذف بريئة أو بريئا ، فيصبح المجتمع ويمسي وأعراضه مجروحة وسمعته ملوثة ، وتنشأ حالة من الريبة والقلق لا تطاق : ﴿ **والذين يرمون المحصنات ثم لم يأتوا بأربعة شهداء فاجلدوهم ثمانين جلدة ولا تقبلوا لهم شهادة أبدا وأولئك هم الفاسقون** ﴾ (١) .

وهذا التشديد في العقوبة مقصود به أن يقطع أحاديث الناس الذين يقومون بنشر قالة السوء عن أفراد المجتمع ، وذلك لأن اطراد التُّهَمِ يشجع النفوس المتحرجة من ارتكاب الفعلة على فعلها ، لأن جو الجماعة كله ملوث وأن الفعلة فيها شائعة ، فيقوم عليها من كان يتحرج فيها ، فتكون مفسدة وأي مفسدة . وإشاعة التهم على هذا الطريق يولد في المجتمع شيئا فشيئا بيئة للفجور والدعارة على صورة غير مرئية ، وتهون في حس المرء فداحة بشاعتها لكثرة تردادها ولأجل هذا جاءت الآية بالجزاء الرادع الذي يحول دون وصول المجتمع إلى هذا الحد الماحق ، فتأمر بجلد القاذف للمحصنة وهي الحرة البالغة العفيفة ، فإذا كان المقذوف رجلا فكذلك يجلد قاذفه أيضا ، وأوجبت الآية على القاذف إذا لم يقم البينة على صحة ما قال ثلاثة أحكام :

أحدها : أن يجلد ثمانين جلدة .

الثاني : أن ترد شهادته أبدا .

الثالث : أن يكون فاسقا ليس بعدل لا عند الله ولا عند الناس (٢) .

إن هذا الجزاء الذي وضعه الله تعالى يحفظ للمجتمع طهارته ونقاءه ومظهره الشريف ، ويصون حرمة المؤمن من أي اعتداء ويبين مدى حرمة المؤمن عند الله تعالى .

---

(١) النور : ٤ .

(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٤٢٤ .

عن أبي هريرة رضي الله عنه : أن رسول الله ﷺ قال : « **اجتنبوا السبع الموبقات** » . قيل يارسول الله ، وماهن ؟ قال : « **الشرك بالله ، والسحر ، وقتل النفس التي حرم الله إلا بالحق ، وأكل الربا وأكل مال اليتيم ، والتولي يوم الزحف ، وقذف المحصنات الغافلات المؤمنات** » [1] .

وعن عائشة رضي الله عنها قالت : قال رسول الله ﷺ لأصحابه : « **أي الربا أربى عند الله** ؟ ، قالوا : الله ورسوله أعلم ، قال : « **أربى الربا عند الله استحلال عرض امرىء مسلم** » ، ثم قرأ : ﴿ **والذين يؤذون المؤمنين والمؤمنات بغير ما اكتسبوا فقد احتملوا بهتانا وإثما مبينا** ﴾ [2] .

(٦) الأمر بغض البصر :

﴿ **قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ذلك أزكى لهم إن الله خبير بما يصنعون** ﴾ [3] .

إن الإسلام يهدف إلى إقامة مجتمع نظيف ، لاتهاج فيه الشهوات في كل لحظة ، وفي الآيات المعروضة هنا نماذج من تقليل فرص الاستثارة والغواية والفتنة من الجانبين ، فتحث الرجال على غض البصر لإغلاق النافذة الأولى من نوافذ الفتنة والغواية والاستعلاء على الرغبة ، ويأتي حفظ الفرج كثمرة طبيعية لغض البصر ، وفي هذا تطهير للفرد وللمجتمع وأصون لحرماته وأعراضه [4] .

وللنساء من أحكام غض البصر وحفظ الفروج ما للرجال على أن لهن بعض أحكام أخرى ليست للرجال : ﴿ **وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ولا يبدين زينتهن إلا ما ظهر منها وليضربن بخمرهن على جيوبهن ولا يبدين زينتهن إلا لبعولتهن أو آبائهن أو آباء بعولتهم أو أبنائهن أو أبناء بعولتهن أو إخوانهن أو بني إخوانهن أو**

---

(١) مختصر صحيح المسلم ص ١٩ رقم ٤٧ .
(٢) الأحزاب ٥٨ ــ وتفسير ابن كثير م ٣ ص ٨٢٤ .
(٣) النور : ٣٠ .
(٤) في ظلال القرآن : م ٤ ص ٢٥١٢ بتصرف .

بني أخواتهن أو نسائهن أو ما ملكت أيمانهن أو التابعين غير أولي الإربة من الرجال أو الطفل الذين لم يظهروا على عورات النساء ، ولا يضربن بأرجلهن ليعلم ما يخفين من زينتهن وتوبوا إلى الله جميعا أيه المؤمنون لعلكم تفلحون ﴾ [1] .

فالإسلام يوجه زينة المرأة ويضبطها ويجعلها تتبلور في الاتجاه بها إلى رجل واحد ــ هو الزوج شريك الحياة ــ ، ومنعها من إظهار مفاتنها ، فلا تعرضها للعيون الجائعة ، فأمرها بضرب غطاء الرأس والنحر والصدر (الخمار) . وهكذا رفع الإسلام ذوق المجتمع المسلم ، وطهر إحساسه بالجمال ، فلم يعد الطابع الحيواني للجمال هو المستحب ، بل الطابع الإنساني المهذب .

لقد تلقى المجتمع هذه الأوامر بقلوب مشرقة بنور الله ، لم يتلكأ في الطاعة ، بل كان كما قالت عائشة رضي الله عنها : يرحم الله نساء المهاجرات الأول ، لما أنزل الله : ﴿ **وليضربن بخمرهن على جيوبهن** ﴾ شققن مروطهن فاختمرن بها [2] .

ولم يتوقف القرآن عند ذلك بل بين السبيل والجزاء ، فالخوف من الله هو الحاجز الصلب أمام دفعات الهوى العنيفة ، وجزاء هذا الجهاد الشاق للهوى هو الجنة ، فالله يعلم ضخامة هذا الجهاد ، وقيمته كذلك في تهذيب النفس البشرية وتقويمها : ﴿ **وأما من خاف مقام ربه ونهى النفس عن الهوى . فإن الجنة هي المأوى** ﴾

﴿ **قد أفلح المؤمنون .الذين هم في صلاتهم خاشعون . والذين هم عن اللغو معرضون . والذين هم للزكاة فاعلون . والذين هم لفروجهم حافظون . إلا على أزواجهم أو ما ملكت أيمانهم فإنهم غير ملومين . فمن ابتغى وراء ذلك فأولئك هم العادون** ﴾

---

(١) النور : ٣١ .

(٢) صحيح البخاري جـ ٦ ص ١٣٦ مطابع الشعب ط ١٣٧٨ .

(٣) النازعات : ٤٠ ــ ٤١ .

(٤) المؤمنون : ١ ــ ٧ .

(٧) آداب السلام والتحية :

هذا المجتمع المدني امتاز بشخصية خاصة لا تلتبس بالشخصية الجاهلية ، وتميز بتصور خاص وبآداب خاصة لا تختلط بتصورات الجاهلية ، وتميز بأهداف واهتمامات تتفق مع تلك الشخصية ، وهذا التصور والتميز تحت راية خاصة تحمل اسم الله وحده في كل عاداتها ، فتعرف بأنها الأمة الوسط ، ويُعرف المجتمع بأنه مجتمع قرآني ، وعَلّم قائد هذا المجتمع أفراده آداب التحية واللقاء .

والتحية في المجتمع علاقة من العلاقات التي تدور بها عجلة الحياة في يسر إذا اتبع الأدب الواجب فيها ، قال تعالى : **﴿ وإذا حييتم بتحية فحيوا بأحسن منها أو ردوها إن الله كان على كل شيء حسيبا ﴾** [١] .

وقد جاء الإسلام بتحيته الخاصة التي تميز المجتمع المسلم وتجعل كل سمة فيه — حتى السمات اليومية العادية — متفردة متميزة ، جعل الإسلام تحيته : « السلام عليكم » أو « السلام عليكم ورحمة الله » أو « السلام عليكم ورحمة الله وبركاته » والرد عليها بأحسن منها ، واختفت الكلمات المعروفة في الجاهلية .

عن عمران بن حصين رضي الله عنهما قال : جاء رجل إلى النبي ﷺ فقال : السلام عليكم ، فرد عليه ، ثم جلس فقال النبي ﷺ : « عشر » ، ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله ، فرد عليه ثم جلس ، فقال : « **عشرون** »ثم جاء آخر ، فقال : السلام عليكم ورحمة الله وبركاته ، فرد عليه فجلس فقال : « **ثلاثون** ».[٢] .

وقال تعالى : **﴿ فإذا دخلتم بيوتا فسلموا على أنفسكم تحية من عند الله مباركة طيبة ﴾** [٣] .

---

(١) النساء : ٨٦ .

(٢) مختصر سنن أبي داود للحافظ المنذري جـ ٨ ص ٦٨ — ٦٩ — رقم ٥٠٣١ .

(٣) النور : ٦١ .

عن أبي سلمة أن عائشة حدثته أن رسول الله ﷺ قال لها : « **إن جبريل يقرأ عليك السلام** » . قالت : قلت : وعليه السلام ورحمة الله وبركاته . (١) .

وأصبح السلام وسيلة من وسائل نشر الألفة والمحبة في هذا المجتمع المثالي ، عن أبي هريرة رضي الله عنه ، قال : قال رسول الله ﷺ : « **والذي نفسي بيده لا تدخلوا الجنة حتى تؤمنوا ، ولا تؤمنوا حتى تحابوا ، ألا أدلكم على أمر إذا أنتم فعلتموه تحاببتم ؟ أفشوا السلام بينكم** » (٢) .

وعن عبدالله بن سلام رضي الله عنه قال : سمعت رسول الله ﷺ يقول : « **يا أيها الناس ، أفشوا السلام ، وأطعموا الطعام ، وصلوا بالليل والناس نيام ، تدخلوا الجنة بسلام** » (٣) .

(٨) آداب الاستئذان :

أولى الإسلام للبيوت وحرماتها أهمية كبرى تمثلت في ضرورة الاستئذان ، ومهد لهذه الخطوة بخطوات أخرى مثلها تكسبها لمسات إنسانية عميقة المغزى ، وتومىء إلى جوانب بالغة الدقة في العلاقات الاجتماعية ، وتمحو تلك الجفوة المستحكمة في الطباع والمتأصلة في النفوس ، فكان الاستئناس الذي هو بمثابة المدخل الطبيعي لأي علاقة إنسانية سوية ، وآيات الآداب تشير إلى خاصية نفسية لا يدركها إلا من كان ذا حساسية مرهفة ومشاعر يقظة ، وفي الإيماء بهذه السجية ما يعبر عن اهتمام القرآن الكريم بصقل النفوس وتخليصها من أوضار العنجهية المصاحبة لغلظ الطبع وبداوة النفس .

---

(١) ابن ماجه جـ ٢ ص ١٢١٨ .

(٢) سنن الترمذي جـ ٤ ص ١٥٦ .

(٣) ابن ماجه جـ ١ ص ٤٢٣ باب ما جاء في قيام الليل ، والكتاب المصنف في الأحاديث والآثار للحافظ أبي بكر بن أبي شيبة جـ ٨ ص ٣٤ كتاب الأدب ط الدار السلفية ـ بومباي الهند .

وتستوقفنا في الآيات الكريمة الخاصة بهذا الجانب فضلا عن الدقة والشمول والإحاطة بدقائق النفس وخلجات الروح ، ذلك التواشج المعجز بين هذه الآيات الكريمة بمضامينها التربوية وبين التصور العام لحقائق الوجود والكون والحياة ، فنحن أمام لوحة تكاملت فيها الخطوط وانسجمت الألوان والظلال ، فالجزئيات التي تناولتها الآيات الكريمة تتصل بالعلاقات بين الأفراد بعضهم مع بعض ، وبين الأفراد وأسرهم ، ثم تتسع لتشمل المجتمع بأسره ، تتداخل فيها الروابط الاجتماعية بالمصالح الاقتصادية بالسمات الأخلاقية في تشكيل محكم ، فهذه القيم متداخلة مترابطة لا تنفصل فيها ظاهرة عن أخرى ، فالاستئذان فضلا عن أنه قيمة خلقية ، فهو يمس مصالح البشر وأسرار الناس ، وقد تكون هذه الأسرار ذات طابع اقتصادي أو ذات سمة اجتماعية محضة ، كذلك فإن في سترها ضمان لعدم شيوعها إن كانت رذيلة ، فيكون في ذلك حماية للمجتمع بأسره ، كما أن المرحلة التي نزلت فيها هذه الآيات اتسمت بما تتسم به مراحل الانتقال في حياة الأمم من طور إلى طور ، وهذا يقتضي التحديد والتخصيص ومحاربة الفوضى وإشاعة التماسك والترابط .

كذلك فإن تحديد العلاقات بين المولى ومالكه صيانة للترابط بين أفراد الأسرة وصيانة لتماسكها وحفظاً لمصالحها وأسرارها ، ولنقل مثل ذلك فيما أومأت إليه الآيات من صياغة العلاقة بين سائر الفئات .

وخلاصة القول فيما أسلفت ذكره هو أن هذه الآيات الكريمة أعادت صياغة الروابط الاجتماعية وفق تصور إسلامي جديد يتسم بالواقعية والاستقصاء والشمول .

يقول تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تدخلوا بيوتا غير بيوتكم حتى تستأنسوا وتسلموا على أهلها ، ذلكم خير لكم لعلكم تذكرون . فإن لم تجدوا فيها أحدا فلا تدخلوها حتى يؤذن لكم وإن قيل لكم ارجعوا فارجعوا هو أزكى لكم والله بما تعملون عليم . ليس عليكم جناح أن تدخلوا بيوتا غير مسكونة فيها متاع لكم والله يعلم ما تبدون وما تكتمون** ﴾ (١) .

---

(١) النور : ٢٧ — ٢٩ .

عن منصور بن ربعي قال : أخبرنا رجل من بني عامر : أنه استأذن على النبي ﷺ وهو في بيت ، فقال : أألِجُ ؟ فقال النبي ﷺ لخادمه : « اخرج إلى هذا فعلم الاستئذان ، فقل له : السلام عليكم ، أأدخل ؟ » فسمعه الرجل ، فقال : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فأذن له النبي ﷺ ، فدخل (١) .

لم يكن العرب يعرفون آداب الاستئذان في الجاهلية ، بل كانوا يهجمون هجوما ، فيدخل الزائر منهم البيت ، ثم يقول : لقد دخلت !! وقد تقع أنظارهم على نسائهم ، وهن في حالة غير جديرة بالنظر ، وكان يقع أن تكون المرأة عارية أو مكشوفة العورة ، هي أو الرجل ، وكان ذلك يؤذي ويجرح ، ويحرم البيوت أمنها وسكينتها ، كما يعرض النفوس من هنا ومن هناك للفتنة ، حين تقع العين على ما يثير .

وقد نزل القرآن ينظم للناس هذا السلوك الاجتماعي ، ويحدد لهم آدابه ، وفي سورة النور صورة واضحة محددة لهذا السلوك .

فالبيوت جعلها الله سكناً يفيء إليه الناس فتسكن أرواحهم ويأمنون على عوراتهم وحرماتهم ، والبيون لا تكون كذلك إلا حين تكون حرما آمنا لا يستبيحه أحد إلا بعلم أهله وإذنهم .

فكانت هذه الآداب التي « أدب الله بها عباده المؤمنين ، فأمرهم أن لا يدخلوا بيوتا غير بيوتهم حتى يستأذنوا قبل الدخول ، ويسلموا بعده » (٢) .

والسنّة في الاستئذان ثلاث مرات ، لا يزاد عليها . قال ابن وهب : قال مالك : الاستئذان ثلاث ، لا أحب أن يزيد أحد عليها ، إلا من علم أنه لم يُسمع ، فلا أرى بأسا أن يزيد إذا استيقن أنه لم يُسمع . وصورة الاستئذان أن يقول الرجل : السلام عليكم ، أأدخل ؟ فإن أذن له دخل ،

(١) أبوداود جـ ٤ ص ٨٣ دار الفكر .
(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٤٤٦ بتصرف .

وإن أمر بالرجوع انصرف ، وإن سكت عنه استأذن ثلاثا ، ثم ينصرف من بعد الثلاث » (١) .

عن جابر بن عبدالله رضي الله عنهما قال : استأذنت على النبي ﷺ ، فقال : « من هذا » ؟ فقلت : أنا ، فقال النبي ﷺ : « **أنا أنا** » !!كأنه كره ذلك (٢) . قال علماؤنا : إنما كره النبي ﷺ ذلك لأن قوله أنا لا يحصل به تعريف ، وإنما الحكم في ذلك أن يذكر اسمه كما فعل عمر بن الخطاب رضي الله عنه.وأبوموسى، لأن في ذكر الاسم إسقاط كلفة السؤال والجواب » (٣) . « كما أنه ينبغي للمستأذن على أهل المنزل أن لا يقف تلقاء الباب بوجهه ، ولكن ليكن الباب عن يمينه أو يساره » (٤) . لما رواه أبوداود .

عن عبدالله بن بُسر رضي الله عنهما قال : كان رسول الله ﷺ إذا أتى باب قوم لم يستقبل الباب من تلقاء وجهه ، ولكن من ركنه الأيمن أو الأيسر ، ويقول : « **السلام عليكم ، السلام عليكم** »وذلكأن الدور لم يكن عليها يومئذ ستور . (٥) .

« فأما بيتك الذي تسكنه فإن كان فيه أهلك فلا إذن عليها إلا أنك تسلّم إذا دخلت . قال قتادة : إذا دخلت بيتك فسلّم على أهلك ، فهم أحق من سلّمت عليهم . فإن كان فيه معك أمك أو أختك ، فقالوا : تنحنح واضرب برجلك حتى ينتبها لدخولك ، لأن الأهل لاحشمة بينك وبينها ، وأما الأم والأخت فقد يكونان على حالة لا تحب أن تراهما فيها . فإن دخل بيت نفسه وليس فيه أحد ، قال قتادة : فقل: السلام علينا وعلى

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٢ ص ٢١٤ ــ ٢١٥ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت .

(٢) أبوداود جـ ١٤ ص ٩١ ، ومختصر صحيح مسلم للحافظ عبدالعظيم المنذري ــ تحقيق الألباني ص ٣٧٥ رقم ١٤٢٣ ط ٥ المكتب الإسلامي ــ بيروت .

(٣) الجامع لأحكام القرآن جـ ١٢ ص ٢١٧ .

(٤) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٤٤٧ .

(٥) أبوداود جـ ٨ ص ٦١ ــ ٦٢ رقم ٥٠٢٤ .

عباد الله الصالحين » (١) .

وتتوالى الآداب ، فتذكر الآيات أنه إذا لم تجدوا في البيوت أحداً فلا تدخلوها « سواء كان الباب مغلقاً أو مفتوحاً ، لأن الشرع قد أغلقه بالتحريم للدخول حتى يفتحه الإذن من ربه ، بل يجب عليه أن يأتي الباب ، ويحاول الإذن على صفة لا يطلع منه على البيت لا في إقباله ولا في انقلابه » (٢) « فإذا ردوكم من الباب قبل الإذن أو بعده فارجعوا ، فإن رجوعكم أزكى لكم وأطهر » (٣) .

عن سهل بن سعد الساعدي رضي الله عنهما : أن رجلا أطَّلع في جُحْر في باب رسول الله ﷺ ، ومع رسول الله ﷺ مِدْرًى * يَحُكُّ به رأسه ، فلما رآه رسول الله ﷺ قال: « **لو أعلم أنك تنظرني لطعنت به في عينك** » ، وقال رسول الله ﷺ : « **إنما جعل الإذن من أجل البصر** » (٤) .

ثم استثنت الآيات من الاستئذان بيوتا غير مسكونة فيها متاع للناس « لأن الداخل فيها إنما هو لماله من الانتفاع ، فالطالب يدخل في الخانكات وهي المدارس لطلب العلم ، والساكن يدخل الخانات وهي الفنادق ، والزبون يدخل الدكان للابتياع ، والحاقن يدخل الخلاء للحاجة ، وكل يؤتى على وجهه من بابه » (٥) .

وباهتمام لافت للأذهان محرك للنفوس ، نرى الآيات الكريمة في موضع آخر من السورة تركز على طريقة التعامل مع الطفل ، وتحكم التصور حول ما ينبغي أن يدرج عليه في علاقاته مع وسطه الاجتماعي . وهذا يدل على

---

(١) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٢ ص ٢١٩ .
(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي جـ ١٢ ص ٢٢٠ .
(٣) تفسير ابن كثير م ٣ ص ٤٥٠ .
* حديدة يسوى بها شعر الرأس .
(٤) مختصر صحيح مسلم للحافظ زكي الدين عبدالعظيم المنذري الدمشقي تحقيق محمد ناصر الدين الألباني ص ٣٧٥ رقم ١٤٢٤ ط ٥ المكتب الإسلامي بيروت .
(٥) القرطبي م ١٢ ص ٢٢١ ــ ٢٢٢ .

عمق النظرة وبعدها وإعجازها . فلم يكن المجتمع العربي آنذاك ليقيم وزناً لمثل هذه الأمور ، بل كانت نظرتهم تنحصر في جانب واحد هو إعداده لأمور الحياة العملية المتعلقة بالحرب أو محدودة بحدود القبيلة ، أما التوجيه القرآني فقد أخذ بعين الاعتبار كافة الجوانب ، وعمل على تربية الروح والحواس ، ومعروف ما لهذا من أثر في تكوين المجتمع الجديد الذي عمل الإسلام على بنائه فوق أنقاض المجتمع القديم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا ليستأذنكم الذين ملكت أيمانكم والذين لم يبلغوا الحلم منكم ثلاث مرات من قبل صلاة الفجر وحين تضعون ثيابكم من الظهيرة ومن بعد صلاة العشاء ثلاث عورات لكم ليس عليكم ولا عليهم جناح بعدهن طوافون عليكم بعضكم على بعض كذلك يبين الله لكم الآيات والله عليم حكيم . وإذا بلغ الأطفال منكم الحلم فليستئذنوا كما استأذن الذين من قبلهم كذلك يبين الله لكم آياته والله عليم حكيم** ﴾ (١) .

وهنا تأتي أحكام الاستئذان في داخل البيوت ، حيث اشتملت هذه الآيات على استئذان الأقارب بعضهم على بعض ، فأمر الله تعالى المؤمنين أن يستأذنهم خدمهم مما مُلكت أيمانهم وأطفالهم الذين لم يبلغوا الحلم منهم في ثلاثة أوقات تنكشف فيها العورات عادة هذه الأوقات هي :

« قبل صلاة الفجر لأنه وقت انتهاء النوم ، ووقت الخروج من ثياب النوم ولبس ثياب النهار » (٢) .

« ووقت الظهيرة عند القيلولة ، حيث يخلعون ملابسهم في العادة ويرتدون ثياب النوم للراحة » .

« وبعد صلاة العشاء حين يخلعون ملابسهم كذلك ويرتدون ثياب الليل » .

وفي هذه الأوقات الثلاثة لابد أن يستأذن الخدم ، ويستأذن الصغار

---

(١) النور : ٥٨ ــ ٥٩ .

(٢) الجامع لأحكام القرآن للقرطبي م ١٢ ص ٣٠٤ .

المميزون الذين لم يبلغوا الحلم ، كي لا تقع أنظارهم على عورات أهليهم . وهو أدب يغفله كثير من الناس في حياتهم المنزلية ، مستهينين بآثاره النفسية والعصبية والخلقية ، ظانين أن الخدم لا تمتد أعينهم إلى عورات السادة ! وأن الصغار قبل البلوغ لا ينتبهون لهذه المناظر . بينما قرر أهل علم النفس اليوم أن بعض المشاهد التي تقع عليها أنظار الأطفال في صغرهم هي التي تؤثر في حياتهم كلها ، وقد تصيبهم بأمراض نفسية وعصبية يصعب شفاؤهم منها (١) .

والعليم الخبير يؤدب المؤمنين بهذه الآداب ، وهو يريد أن يبني أمة سليمة الأعصاب ، سليمة الصدور ، مهذبة المشاعر ، طاهرة القلوب ، نظيفة التصورات . وفي نفس الوقت لا يجعل استئذان الخدم والصغار في كل حين منعا للحرج ، فهم كثيرو الدخول والخروج على أهليهم بحكم صغر سنهم أو قيامهم بالخدمة ، وبذلك يجمع بين الحرص على عدم انكشاف العورات وإزالة الحرج والمشقة لو حتم أن يستأذنوا كما يستأذن الكبار .

فأما حين يدرك الصغار سن البلوغ ، فإنهم يدخلون في حكم الأجانب ، الذين يجب أن يستأذنوا في كل وقت ، حسب النص العام ، الذي مضت به آية الاستئذان (٢) .

في كل مامضى من آداب اجتماعية أقيم صرح المجتمع المسلم عليها وتأكيداً وترسيخاً لموقف الإسلام من الحرية الشخصية للمسلم في غير ما ضرر ولا ضرار . وتأكيداً وترسيخاً لاحترام الوجود الفردي الفاعل في بناء هذا المجتمع المتماسك كالبنيان المرصوص ، وتأكيداً وترسيخاً لحتمية التكوين الحصين للمجتمع وحماية له من تولد ما يمكن أن يتحول يوما ما إلى معول هدم يقوض أو « فيروس متوحش » ينخر في بنية المجتمع الإسلامي فيبيت أنقاضا متراكمة أو شبحاً متهالكا .

(١) الظلال م ٤ ص ٢٥٣٢ بتصرف واختصار .
(٢) في ظلال القرآن م ٤ ص ٢٥٣٢ .

إنها وإن تك في صورة آداب اجتماعية فإنها في جوهرها تشريع وقائي يهدف إلى تحصين هزة المجتمع الإسلامي وبقائه قويا قادرا على حمل أمانة الدعوة إلى الله في داخله ترسيخا وتطهيرا وفي خارجه إيجادا وانتشارا .

إنها وإن بدت ذات مظهر حضاري قد نرى شبيها بها في عوالم كافرة بائدة أو باقية ، فإن هذه النازلة من السماء ذات جوهر تعبدي ، وتشكل لبنة في تشييد وترسيخ مجتمع يعمل في كل حركاته وسكناته ، وفي شكله ومضمونه على تحقيق ما أعلنه رب العزة : ﴿ **وما خلقت الجن والإنس إلا ليعبدون** ﴾ (١) .

* * *

(١) الذاريات : ٥٦ .

الباب الرابع

الأقليات في المجتمع المدني

الفصل الأول : أهـل الكتـاب .

الفصل الثاني : المنافقــون .



الفصل الأول

أهل الكتاب

« الآيات تتحدث عن أهل الكتاب في المدينة »

أولا ــ اليهــود :

أ ــ القبائل اليهودية في المدينة .

ب ــ موقف اليهود من الإسلام بعد الهجرة .

جـ ــ جدال اليهود مع النبى ﷺ لإثارة البلبلة في المجتمع الإسلامي :

١ ــ جدالهم في شأن نبوته ﷺ بقصد الطعن فيها .

٢ ــ جدالهم حول تحويل القبلة .

٣ ــ جدالهم حول أفضلية البيت الحرام .

٤ ــ جدالهم ــ هم والنصارى ــ في شأن إبراهيم عليه السلام وملته .

٥ ــ جدالهم حول ما حرم عليهم من الأطعمة .

٦ ــ توجيه أسئلة محرجة في تصورهم إلى النبي ﷺ .

د ــ القرآن يصور مواقف اليهود في المجتمع المدني .

هـ ــ تطهير المجتمع المدني من اليهود :

١ ــ أسباب التطهير .

٢ ــ نقض بني قينقاع عهدهم مع الرسول ﷺ .

٣ ــ غدر بني النضير وإجلاؤهم عن المدينة .

٤ ــ خيانة بني قريظة والتنكيل بهم .

ثانيـا ــ النصارى :

أ ــ النصارى والمجتمع المدني .

ب ــ حقيقة النصارى كما يسجلها القرآن الكريم .

جـ ــ قصة المباهلة كما صورها القرآن الكريم .

* * *

(الآيات تتحدث عن أهل الكتاب في المدينة)

أولا ـــ اليهـــود :

وَءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلْتُ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَكُمْ وَلَا تَكُونُوٓا۟ أَوَّلَ كَافِرٍۭ بِهِۦ ۖ وَلَا تَشْتَرُوا۟ بِـَٔايَٰتِى ثَمَنًا قَلِيلًا وَإِيَّٰىَ فَٱتَّقُونِ ﴿٤١﴾ وَلَا تَلْبِسُوا۟ ٱلْحَقَّ بِٱلْبَٰطِلِ وَتَكْتُمُوا۟ ٱلْحَقَّ وَأَنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴿٤٢﴾

البقرة : ٤١ ـــ ٤٢ .

يَٰبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتِىَ ٱلَّتِىٓ أَنْعَمْتُ عَلَيْكُمْ وَأَنِّى فَضَّلْتُكُمْ عَلَى ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٤٧﴾

البقرة : ٤٧ .

وَقَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَةً ۚ قُلْ أَتَّخَذْتُمْ عِندَ ٱللَّهِ عَهْدًا فَلَن يُخْلِفَ ٱللَّهُ عَهْدَهُۥٓ ۖ أَمْ تَقُولُونَ عَلَى ٱللَّهِ مَا لَا تَعْلَمُونَ ﴿٨٠﴾

البقرة : ٨٠ .

وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَٰقَكُمْ لَا تَسْفِكُونَ دِمَآءَكُمْ وَلَا تُخْرِجُونَ أَنفُسَكُم مِّن دِيَٰرِكُمْ ثُمَّ أَقْرَرْتُمْ وَأَنتُمْ تَشْهَدُونَ ﴿٨٤﴾ ثُمَّ أَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ تَقْتُلُونَ أَنفُسَكُمْ وَتُخْرِجُونَ فَرِيقًا مِّنكُم مِّن دِيَٰرِهِمْ تَظَٰهَرُونَ عَلَيْهِم بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَإِن يَأْتُوكُمْ أُسَٰرَىٰ تُفَٰدُوهُمْ وَهُوَ مُحَرَّمٌ عَلَيْكُمْ إِخْرَاجُهُمْ ۚ أَفَتُؤْمِنُونَ بِبَعْضِ ٱلْكِتَٰبِ وَتَكْفُرُونَ بِبَعْضٍ ۚ فَمَا جَزَآءُ مَن يَفْعَلُ ذَٰلِكَ مِنكُمْ إِلَّا خِزْىٌ فِى ٱلْحَيَوٰةِ ٱلدُّنْيَا ۖ وَيَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ يُرَدُّونَ إِلَىٰٓ أَشَدِّ

ٱلْعَذَابِ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَـٰفِلٍ عَمَّا تَعْمَلُونَ ﴿٨٥﴾ أُو۟لَـٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلْحَيَوٰةَ ٱلدُّنْيَا بِٱلْـَٔاخِرَةِ ۖ فَلَا يُخَفَّفُ عَنْهُمُ ٱلْعَذَابُ وَلَا هُمْ يُنصَرُونَ ﴿٨٦﴾

البقرة : ٨٤ ــ ٨٦

وَلَمَّا جَآءَهُمْ كِتَـٰبٌ مِّنْ عِندِ ٱللَّهِ مُصَدِّقٌ لِّمَا مَعَهُمْ وَكَانُوا۟ مِن قَبْلُ يَسْتَفْتِحُونَ عَلَى ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ فَلَمَّا جَآءَهُم مَّا عَرَفُوا۟ كَفَرُوا۟ بِهِۦ ۚ فَلَعْنَةُ ٱللَّهِ عَلَى ٱلْكَـٰفِرِينَ ﴿٨٩﴾

البقرة : ٨٩

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ قَالُوا۟ نُؤْمِنُ بِمَآ أُنزِلَ عَلَيْنَا وَيَكْفُرُونَ بِمَا وَرَآءَهُۥ وَهُوَ ٱلْحَقُّ مُصَدِّقًا لِّمَا مَعَهُمْ ۗ قُلْ فَلِمَ تَقْتُلُونَ أَنۢبِيَآءَ ٱللَّهِ مِن قَبْلُ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩١﴾

* وَلَقَدْ جَآءَكُم مُّوسَىٰ بِٱلْبَيِّنَـٰتِ ثُمَّ ٱتَّخَذْتُمُ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِهِۦ وَأَنتُمْ ظَـٰلِمُونَ ﴿٩٢﴾ وَإِذْ أَخَذْنَا مِيثَـٰقَكُمْ وَرَفَعْنَا فَوْقَكُمُ ٱلطُّورَ خُذُوا۟ مَآ ءَاتَيْنَـٰكُم بِقُوَّةٍ وَٱسْمَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَأُشْرِبُوا۟ فِى قُلُوبِهِمُ ٱلْعِجْلَ بِكُفْرِهِمْ ۚ قُلْ بِئْسَمَا يَأْمُرُكُم بِهِۦٓ إِيمَـٰنُكُمْ إِن كُنتُم مُّؤْمِنِينَ ﴿٩٣﴾ قُلْ إِن كَانَتْ لَكُمُ ٱلدَّارُ ٱلْـَٔاخِرَةُ عِندَ ٱللَّهِ خَالِصَةً مِّن دُونِ ٱلنَّاسِ فَتَمَنَّوُا۟ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٤﴾ وَلَن يَتَمَنَّوْهُ أَبَدًۢا بِمَا قَدَّمَتْ أَيْدِيهِمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٩٥﴾ وَلَتَجِدَنَّهُمْ أَحْرَصَ ٱلنَّاسِ

عَلَىٰ حَيَوٰةٍ وَمِنَ ٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۚ يَوَدُّ أَحَدُهُمْ لَوْ يُعَمَّرُ أَلْفَ سَنَةٍ وَمَا هُوَ بِمُزَحْزِحِهِۦ مِنَ ٱلْعَذَابِ أَن يُعَمَّرَ ۗ وَٱللَّهُ بَصِيرٌۢ بِمَا يَعْمَلُونَ ﴿٩٦﴾

البقرة : ٩١ ــ ٩٦

وَقَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ لَوْلَا يُكَلِّمُنَا ٱللَّهُ أَوْ تَأْتِينَآ ءَايَةٌ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ مِن قَبْلِهِم مِّثْلَ قَوْلِهِمْ ۘ تَشَٰبَهَتْ قُلُوبُهُمْ ۗ قَدْ بَيَّنَّا ٱلْءَايَٰتِ لِقَوْمٍ يُوقِنُونَ ﴿١١٨﴾

البقرة : ١١٨

* سَيَقُولُ ٱلسُّفَهَآءُ مِنَ ٱلنَّاسِ مَا وَلَّىٰهُمْ عَن قِبْلَتِهِمُ ٱلَّتِى كَانُوا۟ عَلَيْهَا ۚ قُل لِّلَّهِ ٱلْمَشْرِقُ وَٱلْمَغْرِبُ ۚ يَهْدِى مَن يَشَآءُ إِلَىٰ صِرَٰطٍ مُّسْتَقِيمٍ ﴿١٤٢﴾ وَكَذَٰلِكَ جَعَلْنَٰكُمْ أُمَّةً وَسَطًا لِّتَكُونُوا۟ شُهَدَآءَ عَلَى ٱلنَّاسِ وَيَكُونَ ٱلرَّسُولُ عَلَيْكُمْ شَهِيدًا ۗ وَمَا جَعَلْنَا ٱلْقِبْلَةَ ٱلَّتِى كُنتَ عَلَيْهَآ إِلَّا لِنَعْلَمَ مَن يَتَّبِعُ ٱلرَّسُولَ مِمَّن يَنقَلِبُ عَلَىٰ عَقِبَيْهِ ۚ وَإِن كَانَتْ لَكَبِيرَةً إِلَّا عَلَى ٱلَّذِينَ هَدَى ٱللَّهُ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُضِيعَ إِيمَٰنَكُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ بِٱلنَّاسِ لَرَءُوفٌ رَّحِيمٌ ﴿١٤٣﴾ قَدْ نَرَىٰ تَقَلُّبَ وَجْهِكَ فِى ٱلسَّمَآءِ ۖ فَلَنُوَلِّيَنَّكَ قِبْلَةً تَرْضَىٰهَا ۚ فَوَلِّ وَجْهَكَ شَطْرَ ٱلْمَسْجِدِ ٱلْحَرَامِ ۚ وَحَيْثُ مَا كُنتُمْ فَوَلُّوا۟ وُجُوهَكُمْ شَطْرَهُۥ ۗ وَإِنَّ ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ ٱلْكِتَٰبَ لَيَعْلَمُونَ أَنَّهُ ٱلْحَقُّ مِن رَّبِّهِمْ ۗ وَمَا ٱللَّهُ بِغَٰفِلٍ عَمَّا يَعْمَلُونَ ﴿١٤٤﴾

البقرة : ١٤٢ ــ ١٤٤

أَلَمْ تَرَ إِلَى

ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يُدْعَوْنَ إِلَىٰ كِتَـٰبِ ٱللَّهِ لِيَحْكُمَ بَيْنَهُمْ ثُمَّ يَتَوَلَّىٰ فَرِيقٌ مِّنْهُمْ وَهُم مُّعْرِضُونَ ﴿٢٣﴾ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ قَالُوا۟ لَن تَمَسَّنَا ٱلنَّارُ إِلَّآ أَيَّامًا مَّعْدُودَٰتٍ ۖ وَغَرَّهُمْ فِى دِينِهِم مَّا كَانُوا۟ يَفْتَرُونَ ﴿٢٤﴾

آل عمران : ٢٣ — ٢٤

يَـٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَـٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَـٰٓأَنتُمْ هَـٰٓؤُلَآءِ حَـٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَـٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَـٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾

آل عمران : ٦٥ — ٦٨

* كُلُّ ٱلطَّعَامِ كَانَ حِلًّا لِّبَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ إِلَّا مَا حَرَّمَ إِسْرَٰٓءِيلُ عَلَىٰ نَفْسِهِۦ مِن قَبْلِ أَن تُنَزَّلَ ٱلتَّوْرَىٰةُ ۗ قُلْ فَأْتُوا۟ بِٱلتَّوْرَىٰةِ فَٱتْلُوهَآ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿٩٣﴾ فَمَنِ ٱفْتَرَىٰ عَلَى

ٱللَّهِ ٱلْكَذِبَ مِنۢ بَعْدِ ذَٰلِكَ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّٰلِمُونَ ﴿٩٤﴾
قُلْ صَدَقَ ٱللَّهُ ۗ فَٱتَّبِعُوا۟ مِلَّةَ إِبْرَٰهِيمَ حَنِيفًا ۖ وَمَا كَانَ
مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٩٥﴾ إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى
بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَٰتٌۢ بَيِّنَٰتٌ
مَّقَامُ إِبْرَٰهِيمَ ۖ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا ۗ وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ
حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا ۚ وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ
غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴿٩٧﴾

آل عمران : ٩٣ ــ ٩٧ .

ضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلذِّلَّةُ

أَيْنَ مَا ثُقِفُوٓا۟ إِلَّا بِحَبْلٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَحَبْلٍ مِّنَ ٱلنَّاسِ وَبَآءُو
بِغَضَبٍ مِّنَ ٱللَّهِ وَضُرِبَتْ عَلَيْهِمُ ٱلْمَسْكَنَةُ ۚ ذَٰلِكَ بِأَنَّهُمْ
كَانُوا۟ يَكْفُرُونَ بِـَٔايَٰتِ ٱللَّهِ وَيَقْتُلُونَ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ ۚ
ذَٰلِكَ بِمَا عَصَوا۟ وَّكَانُوا۟ يَعْتَدُونَ ﴿١١٢﴾ ۞ لَيْسُوا۟ سَوَآءً ۗ
مِّنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ أُمَّةٌ قَآئِمَةٌ يَتْلُونَ ءَايَٰتِ ٱللَّهِ ءَانَآءَ
ٱلَّيْلِ وَهُمْ يَسْجُدُونَ ﴿١١٣﴾

آل عمران : ١١٢ ــ ١١٣ .

وَلَا يَحْسَبَنَّ ٱلَّذِينَ يَبْخَلُونَ بِمَآ ءَاتَىٰهُمُ ٱللَّهُ مِن فَضْلِهِۦ
هُوَ خَيْرًا لَّهُم ۖ بَلْ هُوَ شَرٌّ لَّهُمْ ۖ سَيُطَوَّقُونَ مَا بَخِلُوا۟ بِهِۦ
يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ ۗ وَلِلَّهِ مِيرَٰثُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۗ وَٱللَّهُ

بِمَا تَعْمَلُونَ خَبِيرٌ ﴿١٨٠﴾ لَّقَدْ سَمِعَ ٱللَّهُ قَوْلَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ فَقِيرٌ وَنَحْنُ أَغْنِيَآءُ ۘ سَنَكْتُبُ مَا قَالُوا۟ وَقَتْلَهُمُ ٱلْأَنۢبِيَآءَ بِغَيْرِ حَقٍّ وَنَقُولُ ذُوقُوا۟ عَذَابَ ٱلْحَرِيقِ ﴿١٨١﴾

آل عمران : ١٨٠ ـ ١٨١

ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ عَهِدَ إِلَيْنَآ أَلَّا نُؤْمِنَ لِرَسُولٍ حَتَّىٰ يَأْتِيَنَا بِقُرْبَانٍ تَأْكُلُهُ ٱلنَّارُ ۗ قُلْ قَدْ جَآءَكُمْ رُسُلٌ مِّن قَبْلِى بِٱلْبَيِّنَـٰتِ وَبِٱلَّذِى قُلْتُمْ فَلِمَ قَتَلْتُمُوهُمْ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٨٣﴾

آل عمران : ١٨٣

وَإِنَّ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَـٰبِ لَمَن يُؤْمِنُ بِٱللَّهِ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْكُمْ وَمَآ أُنزِلَ إِلَيْهِمْ خَـٰشِعِينَ لِلَّهِ لَا يَشْتَرُونَ بِـَٔايَـٰتِ ٱللَّهِ ثَمَنًا قَلِيلًا ۗ أُو۟لَـٰٓئِكَ لَهُمْ أَجْرُهُمْ عِندَ رَبِّهِمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ سَرِيعُ ٱلْحِسَابِ ﴿١٩٩﴾

آل عمران : ١٩٩

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَـٰبِ يَشْتَرُونَ ٱلضَّلَـٰلَةَ وَيُرِيدُونَ أَن تَضِلُّوا۟ ٱلسَّبِيلَ ﴿٤٤﴾ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِأَعْدَآئِكُمْ ۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَلِيًّا وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ نَصِيرًا ﴿٤٥﴾ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ يُحَرِّفُونَ ٱلْكَلِمَ عَن مَّوَاضِعِهِۦ وَيَقُولُونَ سَمِعْنَا وَعَصَيْنَا وَٱسْمَعْ غَيْرَ مُسْمَعٍ وَرَٰعِنَا لَيًّۢا بِأَلْسِنَتِهِمْ وَطَعْنًا فِى ٱلدِّينِ ۚ وَلَوْ أَنَّهُمْ قَالُوا۟ سَمِعْنَا وَأَطَعْنَا وَٱسْمَعْ وَٱنظُرْنَا لَكَانَ

خَيْرًا لَّهُمْ وَأَقْوَمَ وَلَٰكِن لَّعَنَهُمُ ٱللَّهُ بِكُفْرِهِمْ فَلَا يُؤْمِنُونَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٤٦﴾

النساء : ٤٤ ـــ ٤٦

أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ أُوتُوا۟ نَصِيبًا مِّنَ ٱلْكِتَٰبِ يُؤْمِنُونَ بِٱلْجِبْتِ وَٱلطَّٰغُوتِ وَيَقُولُونَ لِلَّذِينَ كَفَرُوا۟ هَٰٓؤُلَآءِ أَهْدَىٰ مِنَ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ سَبِيلًا ﴿٥١﴾

النساء : ٥١

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾

النساء : ١٥٣

فَبِظُلْمٍ مِّنَ ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ طَيِّبَٰتٍ أُحِلَّتْ لَهُمْ وَبِصَدِّهِمْ عَن سَبِيلِ ٱللَّهِ كَثِيرًا ﴿١٦٠﴾ وَأَخْذِهِمُ ٱلرِّبَوٰا۟ وَقَدْ نُهُوا۟ عَنْهُ وَأَكْلِهِمْ أَمْوَٰلَ ٱلنَّاسِ بِٱلْبَٰطِلِ ۚ وَأَعْتَدْنَا لِلْكَٰفِرِينَ مِنْهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٦١﴾ لَّٰكِنِ ٱلرَّٰسِخُونَ فِى ٱلْعِلْمِ مِنْهُمْ وَٱلْمُؤْمِنُونَ يُؤْمِنُونَ بِمَآ أُنزِلَ إِلَيْكَ وَمَآ أُنزِلَ مِن قَبْلِكَ ۚ وَٱلْمُقِيمِينَ ٱلصَّلَوٰةَ ۚ وَٱلْمُؤْتُونَ

ٱلزَّكَوٰةَ وَٱلْمُؤْمِنُونَ بِٱللَّهِ وَٱلْيَوْمِ ٱلْـَٔاخِرِ ۚ أُو۟لَـٰٓئِكَ سَنُؤْتِيهِمْ أَجْرًا عَظِيمًا ﴿١٦٢﴾

النساء : ١٦٠ ـ ١٦٢

وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ وَٱلنَّصَـٰرَىٰ نَحْنُ أَبْنَـٰٓؤُا۟ ٱللَّهِ وَأَحِبَّـٰٓؤُهُۥ ۚ قُلْ فَلِمَ يُعَذِّبُكُم بِذُنُوبِكُم ۖ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ۚ يَغْفِرُ لِمَن يَشَآءُ وَيُعَذِّبُ مَن يَشَآءُ ۚ وَلِلَّهِ مُلْكُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَمَا بَيْنَهُمَا ۖ وَإِلَيْهِ ٱلْمَصِيرُ ﴿١٨﴾

المائدة : ١٨

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱذْكُرُوا۟ نِعْمَتَ ٱللَّهِ عَلَيْكُمْ إِذْ هَمَّ قَوْمٌ أَن يَبْسُطُوٓا۟ إِلَيْكُمْ أَيْدِيَهُمْ فَكَفَّ أَيْدِيَهُمْ عَنكُمْ ۖ وَٱتَّقُوا۟ ٱللَّهَ ۚ وَعَلَى ٱللَّهِ فَلْيَتَوَكَّلِ ٱلْمُؤْمِنُونَ ﴿١١﴾

المائدة : ١١

وَتَرَىٰ كَثِيرًا مِّنْهُمْ يُسَـٰرِعُونَ فِى ٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَأَكْلِهِمُ ٱلسُّحْتَ ۚ لَبِئْسَ مَا كَانُوا۟ يَعْمَلُونَ ﴿٦٢﴾

المائدة : ٦٢

وَعَلَى ٱلَّذِينَ هَادُوا۟ حَرَّمْنَا كُلَّ ذِى ظُفُرٍ ۖ وَمِنَ ٱلْبَقَرِ وَٱلْغَنَمِ حَرَّمْنَا عَلَيْهِمْ شُحُومَهُمَآ إِلَّا مَا حَمَلَتْ ظُهُورُهُمَآ أَوِ ٱلْحَوَايَآ أَوْ مَا ٱخْتَلَطَ بِعَظْمٍ ۚ ذَٰلِكَ جَزَيْنَـٰهُم بِبَغْيِهِمْ ۖ وَإِنَّا لَصَـٰدِقُونَ ﴿١٤٦﴾

الأنعام : ١٤٦

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾ الأعراف : ١٨٧

وَإِمَّا تَخَافَنَّ مِن قَوْمٍ خِيَانَةً فَٱنۢبِذْ إِلَيْهِمْ عَلَىٰ سَوَآءٍ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يُحِبُّ ٱلْخَآئِنِينَ ﴿٥٨﴾ الأنفال : ٥٨

وَيَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلرُّوحِ ۖ قُلِ ٱلرُّوحُ مِنْ أَمْرِ رَبِّى وَمَآ أُوتِيتُم مِّنَ ٱلْعِلْمِ إِلَّا قَلِيلًا ﴿٨٥﴾ الإسراء : ٨٥

وَأَوْرَثَكُمْ أَرْضَهُمْ وَدِيَٰرَهُمْ وَأَمْوَٰلَهُمْ وَأَرْضًا لَّمْ تَطَـُٔوهَا ۚ وَكَانَ ٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرًا ﴿٢٧﴾ الأحزاب : ٢٧

ثانيا ــ النصارى :

وَقَالُوا۟ لَن يَدْخُلَ ٱلْجَنَّةَ إِلَّا مَن كَانَ هُودًا أَوْ نَصَٰرَىٰ ۗ تِلْكَ أَمَانِيُّهُمْ ۗ قُلْ هَاتُوا۟ بُرْهَٰنَكُمْ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١١١﴾ بَلَىٰ مَنْ أَسْلَمَ وَجْهَهُۥ لِلَّهِ وَهُوَ مُحْسِنٌ فَلَهُۥٓ أَجْرُهُۥ عِندَ رَبِّهِۦ وَلَا خَوْفٌ عَلَيْهِمْ وَلَا هُمْ يَحْزَنُونَ ﴿١١٢﴾ وَقَالَتِ ٱلْيَهُودُ لَيْسَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ

عَلَىٰ شَيْءٍ وَقَالَتِ ٱلنَّصَٰرَىٰ لَيْسَتِ ٱلْيَهُودُ عَلَىٰ شَيْءٍ وَهُمْ يَتْلُونَ ٱلْكِتَٰبَ ۗ كَذَٰلِكَ قَالَ ٱلَّذِينَ لَا يَعْلَمُونَ مِثْلَ قَوْلِهِمْ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَهُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَٰمَةِ فِيمَا كَانُوا۟ فِيهِ يَخْتَلِفُونَ ﴿١١٣﴾

البقرة : ١١١ ــ ١١٣

إِذْ قَالَ ٱللَّهُ

يَٰعِيسَىٰٓ إِنِّى مُتَوَفِّيكَ وَرَافِعُكَ إِلَىَّ وَمُطَهِّرُكَ مِنَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَجَاعِلُ ٱلَّذِينَ ٱتَّبَعُوكَ فَوْقَ ٱلَّذِينَ كَفَرُوٓا۟ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۖ ثُمَّ إِلَىَّ مَرْجِعُكُمْ فَأَحْكُمُ بَيْنَكُمْ فِيمَا كُنتُمْ فِيهِ تَخْتَلِفُونَ ﴿٥٥﴾

آل عمران : ٥٥

وَمِنَ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰٓ

أَخَذْنَا مِيثَٰقَهُمْ فَنَسُوا۟ حَظًّا مِّمَّا ذُكِّرُوا۟ بِهِۦ فَأَغْرَيْنَا بَيْنَهُمُ ٱلْعَدَاوَةَ وَٱلْبَغْضَآءَ إِلَىٰ يَوْمِ ٱلْقِيَٰمَةِ ۚ وَسَوْفَ يُنَبِّئُهُمُ ٱللَّهُ بِمَا كَانُوا۟ يَصْنَعُونَ ﴿١٤﴾

المائدة : ١٤

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ قَدْ جَآءَكُمْ

رَسُولُنَا يُبَيِّنُ لَكُمْ عَلَىٰ فَتْرَةٍ مِّنَ ٱلرُّسُلِ أَن تَقُولُوا۟ مَا جَآءَنَا مِنۢ بَشِيرٍ وَلَا نَذِيرٍ ۖ فَقَدْ جَآءَكُم بَشِيرٌ وَنَذِيرٌ ۗ وَٱللَّهُ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿١٩﴾

المائدة : ١٩

وَلْيَحْكُمْ أَهْلُ ٱلْإِنجِيلِ بِمَآ
أَنزَلَ ٱللَّهُ فِيهِ ۚ وَمَن لَّمْ يَحْكُم بِمَآ أَنزَلَ ٱللَّهُ فَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ
ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤٧﴾ المائدة : ٤٧

* يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟
لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ
وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ المائدة : ٥١

* لَتَجِدَنَّ
أَشَدَّ ٱلنَّاسِ عَدَٰوَةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلَّذِينَ أَشْرَكُوا۟ ۖ
وَلَتَجِدَنَّ أَقْرَبَهُم مَّوَدَّةً لِّلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱلَّذِينَ قَالُوٓا۟ إِنَّا نَصَٰرَىٰ ۚ
ذَٰلِكَ بِأَنَّ مِنْهُمْ قِسِّيسِينَ وَرُهْبَانًا وَأَنَّهُمْ لَا يَسْتَكْبِرُونَ ﴿٨٢﴾
وَإِذَا سَمِعُوا۟ مَآ أُنزِلَ إِلَى ٱلرَّسُولِ تَرَىٰٓ أَعْيُنَهُمْ تَفِيضُ مِنَ
ٱلدَّمْعِ مِمَّا عَرَفُوا۟ مِنَ ٱلْحَقِّ ۖ يَقُولُونَ رَبَّنَآ ءَامَنَّا فَٱكْتُبْنَا
مَعَ ٱلشَّٰهِدِينَ ﴿٨٣﴾ المائدة : ٨٢ ــ ٨٣

وَإِذْ قَالَ ٱللَّهُ يَٰعِيسَى ٱبْنَ مَرْيَمَ
ءَأَنتَ قُلْتَ لِلنَّاسِ ٱتَّخِذُونِى وَأُمِّىَ إِلَٰهَيْنِ مِن دُونِ ٱللَّهِ ۖ
قَالَ سُبْحَٰنَكَ مَا يَكُونُ لِىٓ أَنْ أَقُولَ مَا لَيْسَ لِى بِحَقٍّ ۚ إِن
كُنتُ قُلْتُهُۥ فَقَدْ عَلِمْتَهُۥ ۚ تَعْلَمُ مَا فِى نَفْسِى وَلَآ أَعْلَمُ مَا فِى

نَفْسِكَ ۚ إِنَّكَ أَنتَ عَلَّـٰمُ ٱلْغُيُوبِ ﴿١١٦﴾ مَا قُلْتُ لَهُمْ إِلَّا مَآ أَمَرْتَنِى بِهِۦٓ أَنِ ٱعْبُدُوا۟ ٱللَّهَ رَبِّى وَرَبَّكُمْ ۚ وَكُنتُ عَلَيْهِمْ شَهِيدًا مَّا دُمْتُ فِيهِمْ ۖ فَلَمَّا تَوَفَّيْتَنِى كُنتَ أَنتَ ٱلرَّقِيبَ عَلَيْهِمْ ۚ وَأَنتَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ شَهِيدٌ ﴿١١٧﴾

المائدة : ١١٦ ـ ١١٧

قَالَ إِنِّى عَبْدُ ٱللَّهِ ءَاتَىٰنِىَ ٱلْكِتَـٰبَ وَجَعَلَنِى نَبِيًّا ﴿٣٠﴾ وَجَعَلَنِى مُبَارَكًا أَيْنَ مَا كُنتُ وَأَوْصَـٰنِى بِٱلصَّلَوٰةِ وَٱلزَّكَوٰةِ مَا دُمْتُ حَيًّا ﴿٣١﴾ وَبَرًّۢا بِوَٰلِدَتِى وَلَمْ يَجْعَلْنِى جَبَّارًا شَقِيًّا ﴿٣٢﴾ وَٱلسَّلَـٰمُ عَلَىَّ يَوْمَ وُلِدتُّ وَيَوْمَ أَمُوتُ وَيَوْمَ أُبْعَثُ حَيًّا ﴿٣٣﴾ ذَٰلِكَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ ۚ قَوْلَ ٱلْحَقِّ ٱلَّذِى فِيهِ يَمْتَرُونَ ﴿٣٤﴾ مَا كَانَ لِلَّهِ أَن يَتَّخِذَ مِن وَلَدٍ ۖ سُبْحَـٰنَهُۥٓ ۚ إِذَا قَضَىٰٓ أَمْرًا فَإِنَّمَا يَقُولُ لَهُۥ كُن فَيَكُونُ ﴿٣٥﴾

مريم : ٣٠ ـ ٣٥

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ كُونُوٓا۟ أَنصَارَ ٱللَّهِ كَمَا قَالَ عِيسَى ٱبْنُ مَرْيَمَ لِلْحَوَارِيِّـۧنَ مَنْ أَنصَارِىٓ إِلَى ٱللَّهِ ۖ قَالَ ٱلْحَوَارِيُّونَ نَحْنُ أَنصَارُ ٱللَّهِ ۖ فَـَٔامَنَت طَّآئِفَةٌ مِّنۢ بَنِىٓ إِسْرَٰٓءِيلَ وَكَفَرَت طَّآئِفَةٌ ۖ فَأَيَّدْنَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ عَلَىٰ عَدُوِّهِمْ فَأَصْبَحُوا۟ ظَـٰهِرِينَ ﴿١٤﴾

الصف : ١٤

أولا ــ اليهــود :

(أ) القبائل اليهودية في المدينة :

وردت لفظة (اليهود) معرفة في القرآن الكريم ، في مواضع من سورة البقرة [1] ، ومن سورة المائدة [2] ، ومن سورة التوبة [3] . وكلها سور مدنية . ولم ترد في سورة من السور المكية .

كما وردت لفظة (يهودياً) في سورة آل عمران ، وردت في شرح ديانه (إبراهيم) عليه السلام : ﴿ **ما كان إبراهيم يهوديا ولا نصرانيا ولكن كان حنيفا مسلما** ﴾ [4] . وهي من السور المدنية كذلك .

وعبر القرآن الكريم عن اليهود وعن معتنقي اليهودية بـ « الذين هادوا » [5] ، وبـ « من كان هودا » [6] و « كونوا هودا » [7] و « كانوا هودا » [8] . وسورتا الأنعام والنحل من السور المكية . وبناء على ذلك تكون جملة « الذين هادوا » قد نزلت قبل نزول لفظة (اليهود) في القرآن الكريم .

وقد أخذ « أهل الأخبار مما رووه » عن دخول اليهود إلى يثرب في أيام موسى ، وما ذكروه عن إرساله جيشا إلى هذه المنطقة ، ثم مارووه عن سكنهم القديم في أطراف المدينة وفي أعالي الحجاز ، من سفر (صموئيل الأول) من التوراة .

وممن استقر في المدينة : بنو قريظة ، وبنو النضير ، وبنو قينقاع ، وبنو بهدل ، وبنو عوف ، وبنو القصيص ، وبنو ماسلة . سكن هؤلاء

---

(١) البقرة : الآية ١١٣ ، ١٢٠ .
(٢) المائدة : الآية ١٨ ، ٥١ ، ٦٤ ، ٨٢ .
(٣) التوبة : الآية ٣٠ .
(٤) آل عمران : الآية ٦٧ .
(٥) البقرة : الآية ٦٢ ، النساء الآية ٤٦ ، ١٦٠ ، المائدة ، الآية ٤١ ، ٤٤ ، ٦٩ .
(٦) البقرة : الآية ١١١ .
(٧) البقرة : الآية ١٣٥ .
(٨) البقرة : الآية ١٤٠ .

المدينة وأطرافها ، وكان يسكن معهم من غير بني إسرائيل بطون من العرب .

وظل اليهود أصحاب يثرب وسادتها ، حتى جاء الأوس والخزرج فنزلوها ، واستغلوا الخلافات التي كانت قد وقعت بين اليهود ، فتغلبوا عليهم ، وسيطروا على المدينة ، وقسموها فيما بينهم [1] .

وتركزت قوة اليهود في المدينة في ثلاث قبائل كبيرة ، هي بنو قينقاع ، وبنو النضير ، وبنو قريظة .

وبنو قينقاع كانوا دون سائر يهود يثرب أصحاب الصناعة والصياغة [2] . وقد كان الرسول ﷺ ينظر إلى يهود بني قنقاع على أنهم أصحاب الكلمة والمعرفة بين يهود المدينة ، فزارهم في سوقهم ، وقال لهم : « **يا معشر اليهود ، احذروا من الله عز وجل ، فإنكم عرفتم أني نبي مرسل ، تجدون ذلك في كتابكم** » [3] . وكانت العلاقة بين هذه القبائل الثلاث مضطربة متوترة ، وقد يكون بعضهم حربا على بعض . يقول الدكتور إسرائيل ولفنسون :

« قد كانت هناك عداوة بين بني قينقاع وبقية اليهود ، سببها أن بني قينقاع قد اشتركوا مع الخزرج في يوم بعاث ، وقد أثخن بنو النضير وبنو قريظة في بني قينقاع ومزقوهم كل ممزق ، مع أنهم دفعوا الفدية عن كل من وقع في أيديهم من اليهود ، وقد استمرت هذه العداوة بين البطون اليهودية بعد يوم بعاث حتى وقعت الحرب بين الأنصار وبين بني قينقاع ، فلم ينهض معهم أحد من اليهود في محاربة الأنصار » . [4] .

---

(١) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام ــ د. جواد علي جـ ٦ ص ٥١١ ــ ٥١٩ ط الأولى ٧٠ .

(٢) تاريخ الطبري حـ ٢ ص ٤٨١ .

(٣) مجتمع المدينة في عهد الرسول ﷺ لعبدالله بن إدريس ص ٣٨ ط ١٩٨٢م .

(٤) تاريخ اليهود في بلاد العرب في الجاهلية وصدر الإسلام . للدكتور إسرائيل ولفنسون ص ١٢٩ ط الاعتماد بالقاهرة ١٩٢٧ . نقلا عن السيرة النبوية للندوي ص ١٣٣ .

وقد أشار القرآن إلى عداوة اليهود فيما بينهم في قوله تعالى : ﴿ **وإذ أخذنا ميثاقكم لا تسفكون دماءكم ولا تخرجون أنفسكم من دياركم ثم أقررتم وأنتم تشهدون . ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم تظاهرون عليهم بالإثم والعدوان وإن يأتوكم أسارى تفادوهم وهو محرم عليكم إخراجهم أفتؤمنون ببعض الكتاب وتكفرون ببعض فما جزاء من يفعل ذلك منكم إلا خزي في الحياة الدنيا ويوم القيامة يردون إلى أشد العذاب وما الله بغافل عما تعملون** ﴾ (١) .

والقران يسجل الحياة الاجتماعية بين بطون وأفخاذ اليهود التي كانت تتحرك في وسط المجتمع المدني وتختلط بالبيئة وترتبط بالقبائل العربية بارتباطات سياسية واجتماعية ، ووضح ابن عباس رضي الله عنه أبعاد هذه الآية ، فقال : « أنبهم الله من فعلهم ، وقد حرم عليهم في التوراة سفك دمائهم ، وافترض عليهم فيها فداء أسراهم ، فكانوا فريقين : طائفة منهم من بني قينقاع حلفاء الخزرج ، والنضير وقريظة حلفاء الأوس ، فكانوا إذا كانت بين الأوس والخزرج حرب خرجت بنو قينقاع مع الخزرج ، وخرجت النضير وقريظة مع الأوس ، يظاهر كل من الفريقين حلفاءه على إخوانه حتى يتسافكوا دماءهم بينهم ، وبأيديهم التوراة يعرفون منها ما عليهم وما لهم ، والأوس والخزرج أهل الشرك يعبدون الأوثان لا يعرفون جنة ولا ناراً ، ولا بعثا ، ولا قيامة ، ولا كتابا ، ولا حراما ، ولا حلالا ، فإذا وضعت الحرب أوزارها افتدوا أسرارهم « تصديقا لما في التوراة وأخذاً به بعضهم من بعض يفتدى بنو قينقاع ما كان من أسراهم في أيدي الأوس ، وتفتدى النضير وقريظة ما كان في أيدي الخزرج منهم ويطلبون ما أصابوا من الدماء ، وقتلوا من قتلوا منهم فيما بينهم مظاهرة لأهل الشرك عليهم » (٢) .

وكانت علاقة اليهود هذه مع الأوس والخزرج خاضعة للمنفعة الشخصية والمكاسب المادية ، فهم يعملون على إثارة الحرب بين

---

(١) البقرة : ٨٤ ، ٨٥ .

(٢) تفسير الطبري جـ ١ ص ٣٩٧ .

الفريقين ، متى وجدوا في إثارتها فائدة لهم ليقترض الأوس من طائفة من اليهود ، ويقترض الخزرج من طائفة أخرى .

وكانت معظم معاملاتهم مع غيرهم تقوم على المراهنات وتعاطى الربا ، وبهذا سيطر اليهود على الجوانب الاقتصادية في المدينة ، وأثقلوا الأوس والخزرج بالديون والالتزامات علاوة على ما تعرضوا له من إرهاق ومشقة (١) .

(ب) موقف اليهود من الإسلام بعد الهجرة :

قبل بعثة الرسول ﷺ كان أحبار اليهود قد تحدثوا عن نبي يبعث في الجزيرة العربية ، ووردت صفاته في كتبهم وتنبؤاتهم ، قال ابن إسحاق : « وحدثني عاصم بن قتادة عن رجال من قومه قالوا : إن مما دعانا إلى الإسلام مع رحمة الله تعالى وهداه لنا لما كنا نسمع من رجال يهود ، وكنا أهل شرك أصحاب أوثان ، وكانوا أهل كتاب عندهم علم ليس لنا ، وكانت لاتزال بيننا وبينهم شرور ، فإذا نلنا منهم بعض ما يكرهون قالوا لنا : إنه قد تقارب زمان نبي يبعث الآن نقتلكم معه قتل عاد وإرم . فكنا كثيرا ما نسمع ذلك منهم ، فلما بعث الله رسوله ﷺ أجبناه حين دعانا إلى الله تعالى ، وعرفنا ما كانوا يتوعدوننا به ، فبادرناهم إليه ، فآمنا به ، وكفروا به (٢) ، وفيهم نزلت الآيات : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنه الله على الكافرين** ﴾ (٣) . قال محمد بن إسحاق : عن ابن عباس ، أن يهودا كانوا يستفتحون على الأوس والخزرج برسول الله ﷺ قبل مبعثه ، فلما بعثه الله من العرب ، كفروا به وجحدوا ما كانوا يقولون فيه ، فقال لهم معاذ بن جبل وبشر بن البراء بن معـرور ، وداود بن سلمة : يا معشر يهود ، اتقوا الله وأسلموا ، فقد كنتم تستفتحون

---

(١) التاريخ اليهودي العام لصابر طعيمة جـ ٢ ص ١٧ ط الأولى ١٩٧٥ م دار الجيل بيروت .
(٢) السيرة النبوية لابن هشام ص ٢٢٥ ط الحلبي ١٩٣٦ م .
(٣) البقرة : ٨٩ .

علينا بمحمد صلى الله عليه وسلم ، ونحن أهـل شرك ، وتخبروننـا بأنه مبعوث وتصفونه ، فقـال سلام بن مشكم (أخو بني النضير) : ماجاءنا بشيء نعرفه ، وما هو بالذي كنا نذكر لكم ، فأنزل الله في ذلك من قولهم : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم** ﴾ الآية ، وقال العوفي ، عن ابن عباس « **وكان من قبل يستفتحون على الذين كفروا** » ، يقول : يستنصرون بخروج محمد ﷺ على مشركي العرب ، يعني بذلك أهل الكتاب ، فلما بعث محمد ﷺ ورأوه من غيرهم ، كفروا به وحسدوه ...

وقال مجاهد : « فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين » قال : هم اليهود (١) .

لقد كان اليهود هم أول من اصطدم بالدعوة في المدينة وكان لهذا الاصطدام أسبابه الكثيرة :

ــ كانوا يزعمون أنهم شعب الله المختار ، فكانوا يتطلعون أن يكون الرسول الأخير فيهم ، فلما جاء من العرب أخذتهم العزة بالإثم .

ــ شعر اليهود بالخطر من عزلهم عن المجتمع المدني الذي كانوا يزاولون فيه التجارة الرابحة .

ــ بدأ القرآن يتعرض لليهود في عقائدهم وحياتهم وأخلاقهم ، مما أثار اليهود على الإسلام والمسلمين ، فغيروا موقفهم منهم ، وناصبوا الإسلام العداء الخفي والسافر .

وقد حلّل الكاتب اليهودي « إسرائيل ولفنسون » أسباب هذا النزاع ، فقال : « ولو وقفت تعاليم الرسول عند حد محاربته للديانة الوثنية فحسب ، ولم يكلف اليهود أن يعترفوا برسالته ، لما وقع نزاع بين اليهود والمسلمين ، ولكان اليهود قد نظروا بعين ملؤها التبجيل والاحترام لتعاليم الرسول ، ولأيدوه وساعدوه بأموالهم وأنفسهم حتى يحطموا الأصنام

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ١٨٧ .

ويقضوا على العقائد الوثنية ، لكن بشرط ألا يتعرض لهم ولا لدينهم ، وبشرط ألا يكلفهم الاعتراف بالرسالة الجديدة ، لأن العقلية اليهودية لا تلين أمام شيء يزحزحها عن دينها ، وتأبى أن تعترف بأن يوجد نبي من غير بني إسرائيل » (١) .

ـ هذا وقد زاد اليهود غيظا وحقدا على الإسلام دخول بعض أحبار اليهود وعلمائهم في الإسلام كعبدالله بن سلام ، وكان ذا مكانة عالية عندهم ، ولم يكونوا يتوقعون أن يدخل مثله في الإسلام ، فأثار ذلك الحقد الدفين فيهم ، لإدراكهم أن دخول أولئك الأحبار الإسلام آية ساطعة وبرهان قاطع على صدق الدعوة ، وأن ما عليه اليهود باطل من العقيدة ، ومين من القول .

ولم يقتصر اليهود على مخالفة الإسلام والابتعاد عنه ، بل تعدوا إلى تفضيل عبادة الأوثان والمشركين ، فقد روي أن قريشا قالت لعلماء اليهود الذين زاروهم في مكة : « يامعشر اليهود ، إنكم أهل الكتاب الأول ، والعلم بما أصبحنا نختلف فيه نحن ومحمد ، أفديننا خير أم دينه ؟ قالوا : بل دينكم خير من دينه ، وأنتم أولى بالحق منه » (٢) .

وإلى هذا يشير القرآن بقوله : **﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يؤمنون بالجبت والطاغوت ويقولون للذين كفروا هؤلاء أهدى من الذين آمنوا سبيلا ﴾** (٣) .

ولقد كان المنتظر أن يكون اليهود في المدينة هم أول من يؤمن بالرسالة الجديدة ويؤمن بالرسول الجديد مذ كان القرآن يصدق ماجاء فى التوراة في عمومه ومذ كانوا هم يتوقعون رسالة هذا الرسول وعندهم أوصافه في البشارات التي يتضمنها كتابهم ، وهم كانوا يستفتحون به على العرب المشركين ، والقرآن يزيد وضوحا من موقف اليهود من الرسول ﷺ ودعوته :

---

(١) تاريخ اليهود في بلاد العرب ولفنسون ص ١٢٣ نقلا عن السيرة النبوية للندوي .
(٢) الروض الأنف للسهيلي ج ٣ ص ٢٥٩ .
(٣) النساء : ٥١ .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون . ذلك بأنهم قالوا لن تمسنا النار إلا أياما معدودات وغرهم في دينهم ما كانوا يفترون ﴾ (١) .

﴿ ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يشترون الضلالة ويريدون أن تضلوا السبيل . والله أعلم بأعدائكم وكفى بالله وليا وكفى بالله نصيرا . من الذين هادوا يحرفون الكلم عن مواضعه ويقولون سمعنا وعصينا واسمع غير مسمع وراعنا ليا بألسنتهم وطعنا في الدين ولو أنهم قالوا سمعنا وأطعنا واسمع وانظرنا لكان خيرا لهم وأقوم ولكن لعنهم الله بكفرهم فلا يؤمنون إلا قليلا ﴾ (٢) .

(جـ) جدال اليهود مع النبي ﷺ لإثارة البلبلة في المجتمع الإسلامي .

لم تذكر كتب السير شيئا عن الاحتكاك الذي وقع بين النبي ﷺ ، وبين اليهود وهو بمكة المكرمة ، حتى هاجر إلى المدينة المنورة ، فالتقى بهم ، إذ كانوا مختلطين بالقبائل العربية ومتصلين بالمسلمين بروابط عديدة ، وطبيعي أن يدعوهم النبي ﷺ إلى الإسلام لعموم رسالته ، لأنه أرسل رحمة للعالمين ، وكانت هذه الدعوة هي المحرك لغرورهم الذي دفعهم إلى الإنكار والمكابرة ، وأخذتهم العزة بالإثم ، فاندفعوا لمجادلة النبي ﷺ وسائر المسلمين ، وناقشوهم مناقشة دينية ، أخذت أولا طابع الاستفهام والاستفسار ، ثم أخذت من جانبهم سبا واستهزاء وخيانة ، حتى اضطر النبي ﷺ إلى إجلاء بعضهم .

وقد أمر الله نبيه أن يجادلهم برفق ، فقال تعالى : ﴿ ولا تجادلوا أهل الكتاب إلا بالتي هي أحسن ﴾ (٣) . وقال تعالى : ﴿ ادع إلى سبيل ربك بالحكمة والموعظة الحسنة وجادلهم بالتي هي أحسن إن ربك هو

---

(١) آل عمران : ٢٣ ــ ٢٤ .
(٢) النساء : ٤٤ ــ ٤٦ .
(٣) العنكبوت : ٤٦ .

أعلم بمن ضل عن سبيله وهو أعلم بالمهتدين ﴾ (١) .

وقد كان النبي ﷺ ينكر عليهم في جدلهم معه تحريفهم التوراة واختلافهم فيها ، ويكفي ذلك دليلا على الشك في حقيقة ما بأيديهم ، قال تعالى : **﴿ فويل للذين يكتبون الكتاب بأيديهم ثم يقولون هذا من عند الله ليشتروا به ثمنا قليلا فويل لهم مما كتبت أيديهم وويل لهم مما يكسبون ﴾** (٢) .

كما أنكر عليهم أنهم كانوا لا يتلقون تعاليم دينهم من كتبهم ولكن من أحبارهم ، قال تعالى : **﴿ اتخذوا أحبارهم ورهبانهم أربابا من دون الله ﴾** (٣) .

واستنكر عليهم النبي ﷺ شدة تعصبهم لدينهم ، إلى درجة أنهم كانوا يتواصون بعدم الإيمان لأحد من غير جنسهم ولو غزت الحقيقة نفوسهم ، وقد سجل القرآن هذه الحقيقة ، فقال تعالى : **﴿ ولا تؤمنوا إلا لمن تبع دينكم قل إن الهدى هدى الله أن يؤتى أحد مثل ما أوتيتم أو يحاجوكم عند ربكم قل إن الفضل بيد الله يؤتيه من يشاء والله واسع عليم . يختص برحمته من يشاء والله ذو الفضل العظيم ﴾** (٤) .

وقد كانت المناقشة تدفعهم إلى كثير من المهاترات ، فكان النبي ﷺ يأخذها عليهم ، من مثل ادعائهم أن جبريل عدوهم ، وقد رد القرآن على هذا القول ردا صريحا قويا ، فقال تعالى : **﴿ قل من كان عدوا لجبريل فإنه نزله على قلبك بإذن الله مصدقا لما بين يديه وهدى وبشرى للمؤمنين . من كان عدوا لله وملائكته ورسله وجبريل وميكال فإن الله عدو للكافرين ﴾** (٥) .

---

(١) النحل : ١٢٥ .
(٢) البقرة : ٧٩ .
(٣) التوبة : ٣١ .
(٤) آل عمران : ٧٣ ، ٧٤ .
(٥) البقرة : ٩٧ ، ٩٨ .

واتخذ اليهود هذه المجادلات وسيلة لإثارة الفتنة والبلبلة في هذا المجتمع المتطور ، واحتجوا على النبي ﷺ بوجود النسخ في القرآن ، وأنكروا نسخ المعجزات والآيات ، فرد الله عليهم : **﴿ ما ننسخ من آية أو ننسها نأت بخير منها أو مثلها ألم تعلم أن الله على كل شيء قدير ﴾** [1] .

وهكذا أوجد اليهود جوا من المناقشات والمهاترات التي لم يكن الهدف من ورائها الوصول إلى الحق ، بل كانت صادرة عن سوء نية ، ولذلك اتخذت طابع التحدى والمعداوة . [2] .

وسوف نعرض لشيء من ذلك تبيانا لما استقرت عليه الشخصية اليهودية عبر الأزمان وإلى أن يرث الله الأرض ومن عليها من غرام بالإفساد في الأرض ، وجبه الحق بالباطل ، وجحد لكل ما يدين إرجافهم وإفسادهم وما يكشف زيفهم ، أملا منا أن يستبصر أبناء الإسلام أنهم اليوم أمام يهود الأمس ، وأن عليهم أن يستلهموا هدى رسول الله ﷺ في التعامل معهم في السلم والحرب ، في القرب والبعد .

(١) جدالهم في شأن نبوته ﷺ بقصد الطعن فيها :

حاول اليهود الطعن في نبوة الرسول ﷺ كيما ينصرف عنها الناس ، فلا يؤمنوا بدعوته ، واتخذوا لذلك وسائل متعددة :

راحوا يصرحون بأنه — ﷺ — ليس هو النبي المنتظر بعد أن عرفوا صدقه ، كما يعرفون أبناءهم ، وقد سجل القرآن الكريم هذا عليهم ، ليبقى الآية الهادية للأمة الإسلامية ، والكاشفة لهم حقيقة عبدة العجل من أبناء يهود : **﴿ ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين ﴾** [3] .

---

(١) البقرة : ١٠٦ .

(٢) راجع تاريخ الجدل للإمام محمد أبوزهرة ص ٤٨ — ٥١ ط الثانية ١٩٨٠ .

(٣) البقرة : ٨٩ .

ظهروا أمام الناس — تضليلا وتعتيما — بمظهر المحافظة على عهود الله ، وأنهم ما تركوا الإيمان بمحمد — ﷺ — صدا له ، وإنكارا لحقه ، بل تركوا الإيمان به ، لأنه لم يأت بالمعجزات التي أتى بها الأنبياء السابقون ، وهم لا يؤمنون إلا لمن أتى بالمعجزات ، فهم في حل من الإيمان به ، وفقا لما عهد إليهم . وقد سجل القرآن عليهم هذا التضليل وكشف زيفهم ومحق زخرفهم وباطلهم : ﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار قل قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات وبالذي قلتم فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ (١) .

وقد أمر الله نبيه — ﷺ — أن يرد عليهم بما يخرس ألسنتهم من واقع تاريخهم المظلم ، فقال : قل لهم يامحمد ﴿ **قد جاءكم رسل من قبلي بالبينات** ﴾ أي بالحجج والبراهين ، وبالذي قلتم أي بنار تأكل القرابين المتقبلة ﴿ **فلم قتلتموهم إن كنتم صادقين** ﴾ في زعمكم أنكم تتبعون الحق وتنقادون للرسل ؟!

وبذلك تكون الآية قد أبطلت دعواهم ، وردت عليهم بما يثبت كذبهم ، وطالبوا الرسول ﷺ بالمطالب المتعنتة ، على سبيل التحدي والتعجيز ، وإظهاره بمظهر العاجز عن إجابة أسئلتهم ، لكي ينصرف الناس عنه ويعتقدوا عدم صدقه .

أخرج ابن جرير وابن أبي حاتم من طريق عكرمة عن ابن عباس ، قال : قال رافع بن حريملة اليهودي لرسول الله ﷺ يا محمد ، إن كنت رسولا من الله كما تقول ، فقل لله فيكلمنا حتى نسمع كلامه ، فأنزل الله في ذلك قوله تعالى : ﴿ **وقال الذين لا يعلمون لولا يكلمنا الله أو تأتينا آية كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم تشابهت قلوبهم قد بينا الآيات لقوم يوقنون** ﴾ (٢) .

---

(١) آل عمران : ١٨٣ .

(٢) البقرة : ١١٨ .

فأجابهم الله عن هذه الشبهة بقوله : ﴿ **كذلك قال الذين من قبلهم مثل قولهم** ﴾ ، وحاصل هذا الجواب أنا قد أيدنا قول محمد ﷺ بالمعجزات ، وبينا صحة قوله بالقرآن وسائر الحجج .

وقد ذكر القرآن أن هذه من عادات اليهود القديمة ، بدليل قوله تعالى : ﴿ **يسألك أهل الكتاب أن تنزل عليهم كتابا من السماء فقد سألوا موسى أكبر من ذلك فقالوا أرنا الله جهرة فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ثم اتخذوا العجل من بعد ماجاءتهم البينات فعفونا عن ذلك وآتينا موسى سلطانا مبينا** ﴾ (١) .

ومن الوسائل التي اتبعها اليهود في الطعن في نبوة محمد ﷺ محاولتهم إنكار أن يكون القرآن منزلا من عند الله تعالى على محمد ﷺ :

عن ابن عباس — رضي الله عنهما — قال : قال ابن صوريا القطويني لرسول الله ﷺ : يامحمد ، ماجئتنا بشيء نعرفه ، وما أنزل الله عليك من آية بينة فنتبعك . فأنزل الله في ذلك من قوله : ﴿ **ولقد أنزلنا إليك آيات بينات وما يكفر بها إلا الفاسقون** ﴾ (٢) .

وغرضهم من هذه المقالة الطعن في كون القرآن الكريم معجزة لرسول الله ﷺ ، فالآية الكريمة ترد على اليهود الذين حاولوا الطعن في صدق النبي ﷺ عن طريق إنكارهم أن يكون القرآن معجزة (٣) .

(٢) جدالهم حول تحويل القبلة :

﴿ **سيقول السفهاء من الناس ماولاهم عن قبلتهم التي كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب يهدي من يشاء إلى صراط مستقيم . وكذلك جعلناكم أمة وسطا لتكونوا شهداء على الناس ويكون الرسول عليكم**

---

(١) النساء : ١٥٣ .

(٢) تفسير ابن كثير م ١ ص ٢٠٠ وذكر السهيلي : الغطيوني بدلا من القطويني ، وهي كلمة عبرانية تطلق على كل من تولى أمر اليهود وملكهم .

(٣) بنو إسرائيل في القرآن والسنة د. محمد سيد طنطاوي الجزء الأول ط ١–١٩٦٨ م ص ١٩٣ : ١٩٨ .

شهيداً وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم ﴾ [1] .

لما قدم رسول الله ﷺ المدينة صلى نحو بيت المقدس ستة عشر شهراً أو سبعة عشر شهراً ، وكان رسول الله ﷺ يحب أن يوجهه الله إلى الكعبة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** .. ﴾ الآية وقال السفهاء من الناس وهم اليهود : ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها ، قال الله تعالى : ﴿ **قل لله المشرق والمغرب** ﴾ رواه البخارى عن عبد الله بن رجاء [2] .

وقوله تعالى : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ : قال ابن عباس فى رواية الكلبى : كان رجال من أصحاب رسول الله ﷺ قد ماتوا على القبلة الأولى ، منهم : أسعد بن زرارة ، وأبو أمامة أحد بنى النجار ، والبراء بن المعرور أحد بنى سلمة ، وأناس آخرون جاءت عشائرهم ، فقالوا : يا رسول الله ، توفى إخواننا وهم يصلون إلى القبلة الأولى ، وقد صرفك الله تعالى إلى قبلة إبراهيم ، فكيف بإخواننا ؟ فأنزل الله : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ [3] .

والآيات والروايات تصور البيئة المدنية ، وتسجل حقيقة الجدال ، فبدأ القرآن يرد عليهم وعلى أسئلتهم وعلى أقاويلهم ، ويصحح التصور العام للأمور ، كما كانت حادثة القبلة مناسبة كريمة لتقديم مفاهيم جديدة لمعانى القبلة : ﴿ **قل لله المشرق والمغرب يهدى من يشاء إلى صراط مستقيم** ﴾ فالجهات والأماكن لا فضل لها لذاتها ، وإنما يفضلها ويخصصها اختيار الله

---

(1) البقرة : ١٤٢ ـ ١٤٣ .
(2) صحيح البخارى : ج ١ ص : ٨٨ .
(3) أسباب نزول القرآن للواحدى ص ٣٩ .

وتوجيهه ، لذلك يقرر حقيقة التصور للأماكن والجهات ، وحقيقة المصدر الذى يتلقى منه البشر التوجيهات .

ويكشف لهم عن حكمة اختيار القبلة التى كانوا عليها : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه وإن كانت لكبيرة إلا على الذين هدى الله وما كان الله ليضيع إيمانكم إن الله بالناس لرؤوف رحيم** ﴾ (١) .

والآيات تصور تحركات اليهود فى جنبات المجتمع ، وإثارة الشكوك فى صفوف المسلمين وقلوبهم ، عندما قالوا لهم : إن كان التوجه إلى بيت المقدس فيما مضى باطلا فقد ضاعت صلواتكم طوال هذه الفترة ، وإن كانت حقاً فالتوجه الجديد إلى المسجد الحرام باطل ، وصلاتكم إليه كلها ضائعة ، فأنزل الله تعالى ردا عليهم : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ .

وتتبين لنا خلال قصة تحويل القبلة مدى ما أحدثته هذه القضية والحملة فى نفوس بعض المسلمين ، وفى المجتمع الجديد من بلبلة فى أذهان الناس حتى صارت القضية حديث المجالس ، والقرآن يتابع القضية أولا بأول ، ويوجه هذا المجتمع ويرشده فيقول : ﴿ **وما جعلنا القبلة التى كنت عليها إلا لنعلم من يتبع الرسول ممن ينقلب على عقبيه** ﴾ .

وبدأ اليهود يتخذون من هذا الوضع حجة لهم ، فصدر الأمر الإلهى الكريم بالاتجاه إلى المسجد الحرام : (٢) ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء فلنولينك قبلة ترضاها فول وجهك شطر المسجد الحرام وحيث ما كنتم فولوا وجوهكم شطره وإن الذين أوتوا الكتاب ليعلمون أنه الحق من ربهم وما الله بغافل عما يعملون** ﴾ (٣) .

---

(١) البقرة : ١٤٣ .
(٢) الظلال : م ١ ص ١٢٦ بتصرف .
(٣) البقرة : ١٤٤ .

قال ابن عباس : كان أول ما نسخ القرآن القبلة ، وذلك أن رسول الله ﷺ لما هاجر إلى المدينة ، وكان أكثر أهلها اليهود ، فأمره الله تعالى أن يستقبل بيت المقدس ، فاستقبلها رسول الله ﷺ بضعة عشر شهراً ، وكان يحب قبلة إبراهيم ، فكان يدعو الله ، وينظر إلى السماء ، فأنزل الله : ﴿ **قد نرى تقلب وجهك فى السماء** ﴾ إلى قوله ﴿ **فولوا وجوهكم شطره** ﴾ ، فارتابت من ذلك اليهود ، وقالوا : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب** ﴾ ، وقال : ﴿ **فأينما تولوا فثم وجه الله** ﴾ (١) .

وقد تكررت آيات القبلة ، وتكرر فيها الأمر للمؤمنين بالتوجه إلى المسجد الحرام فى صلاتهم ، وهذا التكرار لتأكيد أمر القبلة وتشديده ، لأن تحول القبلة كان أول نسخ فى الإسلام ، كما قال كثير من العلماء ، فاقتضى الأمر تأكيده حتى يرسخ فى نفوس المسلمين ، ويستقر فى مشاعرهم ، ويتبدد ما أثير حولها من شبهات وشكوك (٢) .

(٣) جدالهم حول أفضلية البيت الحرام :

حرص اليهود على أن يشيعوا « أن بيت المقدس أفضل من الكعبة وأحق الاستقبال ، لأنه وضع قبلها ، وهو أرض المحشر ، وأرض جميع الأنبياء من ذرية إسحق ، وكانوا يعظمونه ويصلون إليه ، وقد وعد الله تعالى « إبراهيم » أن تكون البركة فى نسل ولده « إسحق » ، فلو كنت على ما كانوا عليه لعظمت ما عظموا ، ولبقيت على استقبالهم أبداً دون أن تتحول إلى المسجد الحرام فإن تحولك إليه مخالفة لقبلة الأنبياء من قبلك » (٣) .

وقد جاء رد الله سبحانه وتعالى :

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٢٨٧ باختصار .

(٢) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة للدكتور الطنطاوى ج ١ ص ٢٤٥ .

(٣) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة للدكتور الطنطاوى ج ١ ص ٢٤٥ .

﴿إِنَّ أَوَّلَ بَيْتٍ وُضِعَ لِلنَّاسِ لَلَّذِى بِبَكَّةَ مُبَارَكًا وَهُدًى لِّلْعَالَمِينَ ﴿٩٦﴾ فِيهِ ءَايَاتٌ بَيِّنَاتٌ مَّقَامُ إِبْرَاهِيمَ وَمَن دَخَلَهُۥ كَانَ ءَامِنًا وَلِلَّهِ عَلَى ٱلنَّاسِ حِجُّ ٱلْبَيْتِ مَنِ ٱسْتَطَاعَ إِلَيْهِ سَبِيلًا وَمَن كَفَرَ فَإِنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ عَنِ ٱلْعَالَمِينَ ﴿٩٧﴾﴾

آل عمران : ٩٦ ــ ٩٧

وبذلك كذب اليهود فى دعواهم أن المسجد الأقصى أفضل من المسجد الحرام ، وبين فضائل البيت الحرام ، وأن فى تحول الرسول ﷺ للكعبة لم يكن مخالفة للأنبياء قبله ، وإنما هو تكريس لعظمة البيت الحرام وأهميته ، وبيان لزيف الادعاء وبطلان حججهم المغرضة التى تهدف إلى البلبلة ، وإثارة النفوس ، وتقويض دعائم الدعوة الجديدة ، وبث العقبات أمامها ، وإشغالها بقضايا جانبية تستنفذ جُلَّ طاقتها ، وتصرفها عن مهامها الأساسية ممثلة فى التأسيس لمجتمع مثالى نقى ، ومحاولة لتأكيد فريتهم أنهم الأئمة والناس لهم تبع فى كل شئون الحياة ومنها التوجه فى العبادة التى هى جوهر الحياة لدى كل ذى دين يستمسك به .

وما كان لرسول الله ﷺ أن يدعه ربه على حال يبدو ظاهرها أن فيه تبعية لتوجهات يهود ، وهو الذى جعل منه إمام الأنبياء فى المسجد الأقصى ليلة الإسراء ، فكان فى هذه الإمامة وفى التوجه إلى بيت المقدس أولا إشارة إلى أنه لم يأت بما يناقض بما جاءت به الرسل من قبل ، وأنه أحق ببيت المقدس منهم ، وأنه لَمَّا تفرد بالسيادة والإمامة والختم كان أحق بأن يكون أول بيت وضع للناس هو توجهه ، فجمع الله ــ عز وعلا ــ بين التوجهين ، تأكيداً ، وتكريماً .

(٤) جدالهم هم والنصارى فى شأن إبراهيم عليه السلام وملته :

كانوا فى مجادلاتهم يدعون أن « إبراهيم » عليه السلام كان على ديانتهم ، لأنه كان موضع إجلال الفريقين لما فى كتبهم من الثناء عليه فى العهد العتيق والعهد الجديد ، كما كانت قريش تجله وتدعى أنها على دينه ،

ولذلك كانت هذه القضية موضع اهتمام القرآن الكريم فى آيات عديدة ، ففى سورة « النحل » المكية يقول الله تعالى : ﴿ **إن إبراهيم كان أمة قانتاً لله حنيفاً ولم يك من المشركين** ﴾ النحل : ١٢١ .

فلما هاجر النبى ﷺ إلى المدينة نزلت آيات تتحدث عن هذه القضية ، وتعالجها بصورة منطقية وبحجج وبراهين علمية :

يَٰٓأَهْلَ ٱلْكِتَٰبِ لِمَ تُحَآجُّونَ فِىٓ إِبْرَٰهِيمَ وَمَآ أُنزِلَتِ ٱلتَّوْرَىٰةُ وَٱلْإِنجِيلُ إِلَّا مِنۢ بَعْدِهِۦٓ ۚ أَفَلَا تَعْقِلُونَ ﴿٦٥﴾ هَٰٓأَنتُمْ هَٰٓؤُلَآءِ حَٰجَجْتُمْ فِيمَا لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ فَلِمَ تُحَآجُّونَ فِيمَا لَيْسَ لَكُم بِهِۦ عِلْمٌ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ وَأَنتُمْ لَا تَعْلَمُونَ ﴿٦٦﴾ مَا كَانَ إِبْرَٰهِيمُ يَهُودِيًّا وَلَا نَصْرَانِيًّا وَلَٰكِن كَانَ حَنِيفًا مُّسْلِمًا وَمَا كَانَ مِنَ ٱلْمُشْرِكِينَ ﴿٦٧﴾ إِنَّ أَوْلَى ٱلنَّاسِ بِإِبْرَٰهِيمَ لَلَّذِينَ ٱتَّبَعُوهُ وَهَٰذَا ٱلنَّبِىُّ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ۗ وَٱللَّهُ وَلِىُّ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿٦٨﴾ آل عمران : ٦٥ ــ ٦٨ .

وبهذا الأسلوب المحكم تولى القرآن مجادلة أهل الكتاب على مسمع من المجتمع الذى يتابع هذه الأحداث لحظة بلحظة ، فما أنزلت التوراة على موسى ولا الإنجيل على عيسى إلا من بعد إبراهيم بأحقاب طوال ، وقد قالوا : إن بين إبراهيم وموسى سبعمائة سنة ، وبين موسى وعيسى حوالى ألف سنة ، وبين عيسى ومحمد ﷺ حوالى ستمائة سنة . أفلا تعقلون أن المتقدم على الشىء لا يكون تابعاً له ، كما أن هذه الأخبار لا يمكن تلقيها إلا بوحى من الله (١) .

عن ابن عباس رضى الله عنه ، قال : اجتمعت نصارى نجران وأحبار يهود عند رسول الله ﷺ ، فتنازعوا عنده ، فقالت الأحبار : ما كان إبراهيم إلا يهودياً ، وقالت النصارى : ما كان إبراهيم إلا نصرانياً ، فأنزل

---

(١) تفسير المراغى ج ٣ ص ١٨٠ ، ١٨١ بتصرف .

الله تعالى : ﴿ **يا أهل الكتاب لم تحاجون فى إبراهيم** ﴾ الآية أى كيف تدعون أيها اليهود أنه كان يهودياً وقد كان زمنه قبل أن ينزل الله التوراة على موسى ، وكيف تدعون أيها النصارى أنه كان نصرانياً وإنما حدثت النصرانية بعد زمنه بدهر ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **أفلا تعقلون** ﴾ . ثم قال تعالى : ﴿ **ها أنتم هؤلاء حاججتم فيما لكم به علم فلم تحاجون فيما ليس لكم به علم** ﴾ الآية (١) .

والآيات والروايات تصور مظاهر الجدل ومنطق القرآن للرد عليهم ، كما تصور وقع هذا الجدال فى نفوس السامعين والمتتبعين لهذه الأحداث ، فالقرآن ينكر على من يجادل فيما لا علم له به ، وهى مجادلة اليهود فى كون إبراهيم يهودياً أو نصرانياً ، مع أنه لا ذكر لدين إبراهيم فى أحد الكتابين ، وهذا الأسلوب الحكيم أثبت للجماهير أن هذا الجدل لذات الجدل فقط لا لمعرفة الحقائق .

وإن على المجتمع الإسلامى المعاصر أن يستقى فى صراعه الحاضر مع الباطل اليهودى من معين الهدى القرآنى الثر ، ليكشف عن نهج الفكر اليهودى فى التزييف والتزوير التاريخى للواقعات ، فما الصراع الإسلامى اليهودى إلا ثمرة لما غرسته العصابة اليهودية من إفك فى تربة الوعى التاريخى للحياة ، وما يزال إفكهم يورق ويثمر حنظلا يتجرع المسلمون عصارته ، وما يزال المسلمون عاجزين عن استئصال هذا الإفك ، لتغافلهم عما أقام الإسلام : قرآناً وسنة منائر هادية إلى التى هى أهدى وأقوم فى مجادلة ومجالدة عبدة العجل ، على الرغم من أنهم يقيمون صروح إفكهم على كثبان رملية يسير تبديدها بأعاصير الحق الذى كاد يتغافل عنه كثير من أهله وذويه .

(٥) جدالهم حول ما حُرِّم عليهم من الأطعمة :

ومن المسائل التي أثار اليهود حولها الجدل بعض الآيات التى كانت تخصهم ، وتتحدث عن تاريخهم وصفاتهم ، فعندما نزل قوله تعالى : ﴿ **كل الطعام كان حلا لبنى إسرائيل إلا ما حرم إسرائيل على نفسه من قبل أن تنزل التوراة قل فأتوا بالتوراة فاتلوها إن كنتم صادقين . فمن**

---

(١) تفسير ابن كثير ج ١ ص ٣٧٣ .

افترى على الله الكذب من بعد ذلك فأولئك هم الظالمون ﴾ [1] .

اندفع اليهود وانطلقوا للنبى ﷺ يناقشونه ويجادلونه ، وقالوا : (لسنا بأول من حرمت عليه ، ولا هو تحريم قديم : كانت محرمة على نوح وعلى إبراهيم ومن بعده من بنى إسرائيل ، وهلم جرا إلى أن انتهى التحريم إلينا ، فحرمت علينا كما حرمت على من قبلنا) [2] .

وآية ﴿ كل الطعام .. ﴾ تشير إلى أشياء كثيرة ، من أهمها زعم اليهود أن النسخ محال ، فدحض القرآن دعواهم عن طريق كتابهم ، فقد أخبر سبحانه أن جميع الأطعمة السابقة على نزول التوراة كانت حلالا لبنى إسرائيل سوى ما حرمه « إسرائيل » على نفسه ، واستمر الأمر على ذلك حتى نزلت التوراة ، فحرم الله عليهم فيها بعض الطيبات بسبب ظلمهم ونعيهم وتحريم التوراة لبعض المطاعم التى كانت حلالًا لهم قبل نزولها هو النسخ بعينه [3] .

ومنها أنها تتضمن تكذيبهم أن ما حرم عليهم لم يكن سبب تحريمه ظلمهم أو بغيهم ، وإنما كان محرماً على غيرهم ممن سبقهم من الأمم ، وقد سبق الرد على هذا القول فى الكشاف .

ومنها أيضاً أن الآية تشير إلى عدم صدقهم ، فما كانوا يحضرون كتابهم ، وما كانوا يجرؤون على إخراج التوراة ، وبعد نزول هذه الآية انقلبوا صاغرين مخذولين ، ولكنهم لا يصدعون للحق كما ينبغى ، فما هم بالذين يخضعون لسلطان الحق ، بل هم الخاضعون أبداً لسطوة السيف حين يكون فى يد قاهر ، فتلك هى السجية التى جبلت عليها يهود ، وما كان للمسلمين فى هذا العصر إلا أن يدركوا أن حقهم المنهوب لن يعود إلا على شفرات سيوف باترة ، لا على مناضد مجادلة لن يوضع عليها إلا مهاترة صهيونية يجيدها عبدة العجل منذ أكثر من ثلاثين قرناً .

---

(1) آل عمران : ٩٣ — ٩٤ .
(2) الكشاف للزمخشرى ج ١ ص ٤٤٥ ط دار المعرفة .
(3) بنو إسرائيل فى القرآن والسنة ج ١ ص ٢٤٦ .

(٦) توجيه أسئلة محرجة فى تصورهم إلى النبى ﷺ :

كان اليهود يترددون على مجلس الرسول ﷺ ، ويوجهون إليه أسئلة صاغها التعنت وقذف بها على ألسنتهم قصد الإحراج وإظهار عجزه عن الإجابة عنها . وما كان لهم أن يفعلوا — لو كانوا يعقلون — من بعد أن تكاثرت البراهين والدلائل والآيات الباهرات القاهرات على أنه ﷺ **﴿ ما ينطق عن الهوى . إن هو إلا وحى يوحى . علمه شديد القوى ﴾** (١) .

سألوه عن الروح ، فسجل القرآن الكريم سؤالهم والجواب المخرس الدامغ : **﴿ ويسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيم من العلم إلا قليلا ﴾** (٢) .

عن عبد الله بن مسعود — رضى الله عنه — قال : كنت أمشى مع رسول الله ﷺ فى حرث فى المدينة ، وهو متوكىء على عسيب ، فمر بقوم من اليهود ، فقال بعضهم لبعض : سلوه عن الروح ، وقال بعضهم : لا تسألوه ، قال : فسألوه عن الروح ، فقالوا : يا محمد ، ما الروح ؟ فما زال متوكئاً على العسيب ، قال : فظننت أنه يوحى إليه ، فقال : **﴿ يسألونك عن الروح قل الروح من أمر ربى وما أوتيم من العلم إلا قليلا ﴾** .

وهذا الحديث يشير إلى أن هذه الآية مدنية ، وأنها نزلت حين سأل اليهود عن ذلك بالمدينة ، مع أن السورة مكية إلا آيات لم تعد هذه الآية منها .

وقد يجاب عن هذا بأنه قد تكون نزلت عليه بالمدينة المنورة مرة ثانية ، كما نزلت عليه بمكة قبل ذلك ، أو نزل عليه الوحى بأن يجيبهم عما سألوه بالآية المتقدم إنزالها عليه ، ومما يدل على نزول هذه الآية بمكة ما قال الإمام

---

(١) النجم : ٣ — ٥ .

(٢) الإسراء : ٨٥ .

(أحمد) : حدثنا قتيبة ، حدثنا يحيى بن زكريا ، عن داود ، عن عكرمة ، عن ابن عباس ، قال : قالت قريش ليهود : أعطونا شيئاً نسأل عنه هذا الرجل ، فقالوا : سلوه عن الروح ، فسألوه ، فنزلت : ﴿ **ويسألونك عن الروح** .. ﴾ الآية ..

ولذلك حمل العلماء تعدد الروايات على تعدد نزول الآية ، فقالوا نزلت مرتين : مرة فى مكة ومرة فى المدينة (١) .

وسألوه عن الساعة :

وسجل القرآن ذلك ، وأجاب عن سؤالهم بما يكف كل لسان عنه ، وبما يعلن فى قوة قاهرة أنه لا يملك من علمها شيئاً ، لاستئثار الله بذلك ، وما كان له ﷺ أن يفترى . يقول الحق عز وعلا :

يَسْـَٔلُونَكَ عَنِ ٱلسَّاعَةِ أَيَّانَ مُرْسَىٰهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ رَبِّى ۖ لَا يُجَلِّيهَا لِوَقْتِهَآ إِلَّا هُوَ ۚ ثَقُلَتْ فِى ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ ۚ لَا تَأْتِيكُمْ إِلَّا بَغْتَةً ۗ يَسْـَٔلُونَكَ كَأَنَّكَ حَفِىٌّ عَنْهَا ۖ قُلْ إِنَّمَا عِلْمُهَا عِندَ ٱللَّهِ وَلَـٰكِنَّ أَكْثَرَ ٱلنَّاسِ لَا يَعْلَمُونَ ﴿١٨٧﴾

الأعراف : ١٨٧

قيل : نزلت فى قريش ، وقيل فى نفر من اليهود .

والحق أن اليهود بتساؤلهم عن مثل هذه الأشياء التى لا يضير جهل الإنسان بها إنما يقصدون منه التشكيك فى صدق نبوة المصطفى ﷺ ، وليثيروا البلبلة فى هذا المجتمع الذى يتابع قصة الوحى لحظة بلحظة ، ويتلقى كل يوم أنباء جديدة وقيماً ومثلا فريدة من نوعها .

عن ابن عباس ، قال : قال حمل بن أبى قشير ، وسمول بن زيد لرسول الله ﷺ : يا محمد أخبرنا متى الساعة إن كنت نبياً ، كما تقول ، فإنا نعلم متى هى ؟ فأنزل الله تعالى : ﴿ **يسألونك عن الساعة أيان مرساها قل إنما**

---

(١) تفسير ابن كثير ج ٣ ص ٩٩ ، ١٠٠ .

علمها عند ربى .. ﴾ إلى قوله ﴿ ولكن أكثر الناس لا يعلمون ﴾ (١) .

هكذا يفعلون على مسمع من الناس إشعالاً لنار الفتنة وإشاعة للبلبلة فى المجتمع المسلم ، وقد ذكر القرآن جانباً من مواقفهم العدائية فى أكثر من سورة :

يَسْـَٔلُكَ أَهْلُ ٱلْكِتَـٰبِ أَن تُنَزِّلَ عَلَيْهِمْ كِتَـٰبًا مِّنَ ٱلسَّمَآءِ ۚ فَقَدْ سَأَلُوا۟ مُوسَىٰٓ أَكْبَرَ مِن ذَٰلِكَ فَقَالُوٓا۟ أَرِنَا ٱللَّهَ جَهْرَةً فَأَخَذَتْهُمُ ٱلصَّـٰعِقَةُ بِظُلْمِهِمْ ۚ ثُمَّ ٱتَّخَذُوا۟ ٱلْعِجْلَ مِنۢ بَعْدِ مَا جَآءَتْهُمُ ٱلْبَيِّنَـٰتُ فَعَفَوْنَا عَن ذَٰلِكَ ۚ وَءَاتَيْنَا مُوسَىٰ سُلْطَـٰنًا مُّبِينًا ﴿١٥٣﴾ النساء : ١٥٣

إن اليهود بدأوا يتعنتون فيطلبون إلى رسول الله ﷺ أن يأتيهم بكتاب مخطوط ينزله عليهم من السماء مجسماً يلمسونه بأيديهم . ويتولى الله سبحانه الإجابة عن نبيه ، ويقص عليه وعلى المسلمين فى مواجهة اليهود صفحة من تاريخهم مع نبيهم موسى عليه السلام أن هذه طبيعتهم وتلك جبلتهم أنهم هم من عهد موسى تعنتا وإعناتا ، فلا يسلمون إلا تحت القهر والضغط ، فقد سألوا موسى ما هو أكبر من ذلك ، فقالوا : أرنا الله جهرة ، وكان جزاء هذا التعنت وثمرته : ﴿ فأخذتهم الصاعقة بظلمهم ﴾ .

قال محمد بن كعب القرظى والسدى وقتادة : سأل اليهود رسول الله ﷺ أن ينزل عليهم كتاباً من السماء كما نزلت التوراة على موسى مكتوبة ، قال ابن جريج : سألوه أن ينزل عليهم صحفاً من الله مكتوبة إلى فلان وفلان بتصديقه فما جاءهم به ، فهذا إنما قالوه عن سبيل التعنت والعناد والكفر والإلحاد (٢) .

قال صاحب الكشاف : ﴿ فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ﴾ الشرط مقدر معناه : إن استكثرت ما سألوك عنه فقد سألوا موسى أكبر من ذلك ، وإنما أسند السؤال إليهم وإن وجد من آبائهم فى أيام موسى ، لأنهم كانوا على طريقهم وراضين بسؤالهم ومضاهين لهم فى التعنت (٣) ..

---

(١) تفسير الطبرى ج ٩ ص ١٣٧ ..
(٢) تفسير ابن كثير م ١ ص ٨٧١ .
(٣) تفسير الكشاف : ج ١ ص ٣٩٤ .

(د) القرآن يصور مواقف اليهود في المجتمع المدني :

كان اليهود يشكلون في المجتمع المدني ثقلا حين كانت لهم علاقات وارتباطات بين الفئات المختلفة ، بينهم وبين المنافقين من جهة ، وبينهم والمشركين من جهة أخرى ، ولذلك تحدث القرآن في سور متعددة عن هذه العلاقات .

وعُرف اليهود بالخداع والمكر ، فكانوا في كثير من الأحيان يتظاهرون بالمودة لجيرانهم المسلمين ذاكرين صلة القربى ، وأن العرب واليهود من نسل إبراهيم عليه السلام ، فينخدع بحيلهم ومكرهم كثير من المسلمين ، فيواصلونهم لما كان بينهم من الجوار والموادعة .[1] .

فأنزل الله تعالى آياته ينهى بها المسلمين عن مباطنة اليهود والاطمئنان إليهم : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا بطانة من دونكم ...** ﴾ [2] .

ولم يَتَوَانَ اليهود عن السعي في دين الله معاجزين لكي يفتنوا الناس في دينهم ويوهنوا عقائدهم بالشبة الزائفه والأباطيل المختلقة وفي ذلك يقول الله تعالى : ﴿ **ود كثير من أهل الكتاب لو يردونكم من بعد إيمانكم كفارا حسدا من عند أنفسهم من بعد ماتبين لهم الحق** ﴾ [3] .

وكعادة اليهود في المدينة كانوا يطلقون كل سهامهم المسمومة على الإسلام والمسلمين ، ويدسون الشكوك والريب ليضعفوا الإيمان في نفوس المسلمين وليزعزعوا ثقتهم في الإسلام .

واتخذوا لذلك أساليب ماكرة منها : ﴿ **وقالت طائفة من أهل الكتاب آمنوا بالذي أنزل على الذين آمنوا وجه النهار واكفروا آخره لعلهم يرجعون.** ﴾ [4] .

---

(١) خطر اليهودية العالمية على الإسلام والمسيحية ــ لعبدالله التل ص ٤٢ ط الثالثة .
(٢) آل عمران : ١١٨ .
(٣) البقرة : ١٠٩ .
(٤) آل عمران : ٧٢ .

﴿ وإذا جاؤوكم قالوا آمنا وقد دخلوا بالكفر وهم قد خرجوا به والله أعلم بما كانوا يكتمون ﴾ (١) .

تلك لمحة سريعة عن دور اليهود فى الإثارة وبث الفتن وتسميم الأفكار وقد ندد القرآن بمواقف اليهود العدوانية ، وبتسليبهم الحق بالباطل وكتمان الحق ، ليشيعوا الفتنة والبلبلة في المجتمع النامي والشك والارتياب في النفوس : **﴿ يابني إسرائيل اذكروا نعمتي التي أنعمت عليكم وأوفوا بعهدي أوف بعهدكم وإياي فارهبون . وآمنوا بما أنزلت مصدقا لما معكم ولا تكونوا أول كافر به ولا تشتروا بآياتي ثمنا قليلا وإياي فاتقون . ولا تلبسوا الحق بالباطل وتكتموا الحق وأنتم تعلمون . وأقيموا الصلاة وآتوا الزكاة واركعوا مع الراكعين ﴾** (٢) .

ومن معالجة القرآن الحكيمة أنه يذكرهم بنعمة الله التي أنعمها عليهم إجمالا ليدعوهم بعدها إلى الوفاء بعهدهم ، وألا يسارعوا إلى الكفر فيصبحوا أول الكافرين ، وكان ينبغي أن يكونوا أول المؤمنين ، وينهى الله بني إسرائيل أن يكون كفرهم بما أنزله مصدقا لما معهم شراء للدنيا بالآخرة وإيثارا لما بين أيديهم من مصالح خاصة وبخاصة أحبارهم الذين يخشون أن يؤمنوا بالإسلام فيخسروا رياستهم ، وما تدر عليهم من منافع وأتاوات ، ثم يدعوهم إلى الاندماج في الصف والمجتمع والدخول في أجواء القرآن وأداء العبادات المفروضة وترك هذه العزلة والتعصب والعداوة . (٣) .

والشق الآخر من العلاج هو خطاب إلى المجتمع المدني ونصيحة إلى الجماعة المسلمة تبصرهم بأساليب اليهود ووسائلهم في الكيد والفتنة ، يتجلى فيها كيدهم ومكرهم على ضوء تاريخهم وجبلتهم لئلا ينخدع أفراد هذه البيئة الفَتِيَّةِ بأقوال اليهود ومزاعمهم ووسائلهم الماكرة في الفتنة والتضليل :

﴿ أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ماعقلوه وهم يعلمون . وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا

---

(١) المائدة : ٦١ ؛

(٢) البقرة : ٤٠ ـــ ٤٣ .

(٣) الظلال : م ١ ص ٦٧ .

آمنا وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم أفلا تعقلون . أولا يعلمون أن الله يعلم مايسرون وما يعلنون ﴾ (١) .

يقول ابن كثير : — ﴿ **أفتطمعون** ﴾ أيها المؤمنون ﴿ **أن يؤمنوا لكم** ﴾ ، أي ينقاد لكم بالطاعة هؤلاء الفرقة الضالة من اليهود الذين شهد آباؤهم من الآيات البينات ما شاهدوه ، ثم قست قلوبهم من بعد ذلك ﴿ **وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه** ﴾ أي يتأولونه على غير تأويله ، ﴿ **من بعد ما علقوه** ﴾ أي فهموه على الجلية ومع هذا يخالفونه على بصيره .

وقوله تعالى : — ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ ، قال ابن عباس ، ﴿ **وإذا لقوا الذين آمنوا قالوا آمنا** ﴾ ، أي قالوا : إن صاحبكم رسول الله ولكنه إليكم خاصة ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض** ﴾ قالوا لا تحدثوا العرب بهذا فإنكم قد كنتم تستفتحون به عليهم فكان منهم ، ﴿ **وإذا خلا بعضهم إلى بعض قالوا أتحدثونهم بما فتح الله عليكم ليحاجوكم به عند ربكم** ﴾ ، أي تقرون بأنه نبي وقد علمتم أنه قد أخذ له الميثاق عليكم باتباعه (٢) .

وكان اليهود يتحركون في المجتمع المدني ، ويخالطون الناس في ندواتهم ومجالسهم ، ويتفاخرون بأنهم شعب الله المختار ، وأنهم أقرب الناس إلى الله ، وأن الدار الآخرة خالصة لهم من دون الناس ، وكان أفراد المجتمع المدني يتأثرون بهذه الأقاويل ويتساءلون فيما بينهم : ما الحق ؟

فلقن الله رسوله ﷺ أن يتحداهم بدعوتهم إلى المباهلة ، أي أن يجتمع الفريقان هم والمسلمون ، ثم يدعون الله أن يميت الكاذب ملعونا ، فقال الله تعالى : — ﴿ **قل إن كانت لكم الدار الآخرة عند الله خالصة من دون الناس فتمنوا الموت إن كنتم صادقين . ولن يتمنوه أبدا بما قدمت**

---

(١) البقرة ٧٥ — ٧٧ .

(٢) تفسير بن كثير م ١ ص ١٧٢ ، ١٧٣ .

أيديهم ، والله عليم بالظالمين . ولتجدنهم أحرص الناس على حياة ومن الذين أشركوا يود أحدهم لو يعمر ألف سنة وما هو بمزحزحه من العذاب أن يعمر والله بصير بما يعملون ﴾ [١] .

فالآيات تقرر أن اليهود متعلقون بالحياة ، ولا يتمنون الموت أبدا ، وإنما هي الأماني التي يلجأ إليها المنحرفون عن العقيدة حين يطول بهم الأمد ، وهم أحرص الناس على البقاء في الدنيا ، ولذلك نكصوا عن المباهلة لعلمهم أنهم كاذبون فيما يدعون [٢] .

هكذا تمضي الآيات في هذه المواجهة في وسط هذا المجتمع ، ومن شأن هذه الخطة أن تبطل كيد اليهود في وسط الصف المسلم ، وأن تكشف دسائسهم وأحابيلهم ، وأن تدرك الجماعة المسلمة طريقة اليهود في العمل والكيد والادعاء على ضوء ما وقع منهم في تاريخهم القديم ، وآيات سورة « البقرة » و « آل عمران » وغيرها استوفت هذه المعاني :

﴿ وإذا قيل لهم آمنوا بما أنزل الله قالوا نؤمن بما أنزل علينا ويكفرون بما وراءه وهو الحق مصدقا لما معهم قل فلم تقتلون أنبياء الله من قبل إن كنتم مؤمنين . ولقد جاءكم موسى بالبينات ثم اتخذتم العجل من بعده وأنتم ظالمون . وإذ أخذنا ميثاقكم ورفعنا فوقكم الطور خذوا ما آتيناكم بقوة واسمعوا قالوا سمعنا وعصينا وأشربوا فى قلوبهم العجل بكفرهم قل بئسما يأمركم به إيمانكم إن كنتم مؤمنين ﴾ [٣] .

لقد كان هذا هو واقع اليهود إذْ ظَلُّوا على هذا الموقف العدائي (موقف إثارة الفتنة) والتبجح باستثناء بعض أفراد من علمائهم نوهت بهم بعض الآيات :

قال تعالى : **﴿ ليسوا سواء من أهل الكتاب أمة قائمة يتلون آيات الله آناء الليل وهم يسجدون . يؤمنون بالله واليوم الآخر ويأمرون**

---

(١) البقرة : ٩٤ ــ ٩٦ .
(٢) راجع ابن كثير م ١ ص ١٩١ .
(٣) البقرة : ٩١ ــ ٩٣ .

بالمعروف وينهون عن المنكر ويسارعون في الخيرات وأولئك من الصالحين ﴾[1] .

﴿ وإن من أهل الكتاب لمن يؤمن بالله وما أنزل إليكم وما أنزل إليهم خاشعين لله لا يشترون بآيات الله ثمنا قليلا أولئك لهم أجرهم عند ربهم إن الله سريع الحساب ﴾ [2] .

﴿ لكن الراسخون في العلم منهم والمؤمنون يؤمنون بما أنزل إليك وما أنزل من قبلك والمقيمين الصلاة والمؤتون الزكاة والمؤمنون بالله واليوم الآخر أولئك سنؤتيهم أجرا عظيما ﴾[3] .

وكما صور القرآن مواقفهم العدائية هذه صَوَّرَ طباعهم وأخلاقهم ، وعرض جوانب منها عرفوا بها وجبلوا عليها ، فراح يفَنِّدُ مايدّعونه من أنهم شعب الله المختار :

﴿ وقالت اليهود والنصارى نحن أبناء الله وأحباؤه قل فلم يعذبكم بذنوبكم بل أنتم بشر ممن خلق يغفر لمن يشاء ويعذب من يشاء ﴾ [4] .

وصور عبادتهم للمال ، وحرصهم على جمعه من الطرق المحرمة ، وما انتهى بهم ذلك إلى البخل والشح :

﴿ فبظلم من الذين هادوا حرمنا عليهم طيبات أحلت لهم وبصدهم عن سبيل الله كثيرا وأخذهم الربا وقد نهوا عنه وأكلهم أموال الناس بالباطل وأعتدنا للكافرين منهم عذابا أليما ﴾[5] .

﴿ وترى كثيرا منهم يسارعون في الإثم والعدوان وأكلهم السحت لبئس ما كانوا يعملون ﴾ [6] .

---

(١) آل عمران : ١١٣ ، ١١٤ .
(٢) آل عمران : ١٩٩ .
(٣) النساء : ١٦٢ .
(٤) المائدة : ١٨ .
(٥) النساء : ١٦٠ .
(٦) المائدة : ٦٢ .

﴿ ولا يحسبن الذين يبخلون بما آتاهم الله من فضله هو خيرا لهم بل هو شر لهم سيطوقون ما بخلوا به يوم القيامة ولله ميراث السموات والأرض والله بما تعملون خبير . لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق ﴾ (١) .

قال ابن عباس : لما نزل قول الله تعالى : **﴿ من ذا الذي يقرض الله قرضا حسنا فيضاعفه له أضعافا كثيرة ﴾** دخل أبوبكر الصديق بيت المدراس فوجد من يهود ناسا كثيرة قد اجتمعوا على رجل منهم يقال له « فنحاص » ، وكان من علمائهم وأحبارهم ، ومعه حبر يقال له : « أشيع » ، فقال له أبوبكر : ويحك يافنحاص اتق الله وأسلم ، فوالله إنك لتعلم أن محمدا رسول من عند الله قد جاءكم بالحق من عنده ، تجدونه مكتوبا عندكم في التوراة والإنجيل . فقال فنحاص : والله يا أبا بكر ما بنا إلى الله من حاجة من فقر ، وإنه إلينا لفقير ، ما نتضرع إليه كما يتضرع إلينا ، وإنا نحن الأغنياء ، ولو كان غنيا ما أعطانا الربا ، فغضب أبوبكر رضي الله عنه ، فضرب وجه فنحاص ضربا شديدا ، وقال : والذي نفسي بيده لولا الذي بيننا وبينك من العهد لضربت عنقك ياعدو الله ، فأكذبونا ما استطعتم إن كنتم صادقين . فذهب فنحاص إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يامحمد ، أبصر ماصنع بي صاحبك ، فقال رسول الله ﷺ : « **ماحملك على ماصنعت يا أبابكر ؟** » فقال : يارسول الله ، إن عدو الله قال قولا عظيما ، يزعم أن الله فقير وأنهم عنه أغنياء ، فلما قال ذلك ، غضبت لله مما قال ، فضربت وجهه ، فجحد فنحاص ذلك ، وقال : ماقلت ذلك ، فأنزل الله فيما قال فنحاص : **﴿ لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء ﴾** الآية ، رواه ابن أبي حاتم (٢) .

والقصة تدل على مدى التزام المسلمين بالوثيقة المبرمة بينهم وبين اليهود ، وأن تلك الوثيقة ظلت نبراسا ينير الطريق لتأسيس المجتمع

---

(١) آل عمران : ١٨٠ ، ١٨١ .

(٢) تفسير ابن كثير م ١ ص ٦٥١ .

وتنظيمه ، فهي كصمام الأمان لتفادي الاحتكاك بين الأطراف المعنية بها . وكانت منبعا ثرا لتفهم معاني العهود والمواثيق بصورة تطبيقية .

وتدل أيضا على أن الحمية الإسلامية في قلب المؤمن حين تجد حرمة من حرمات الله تنتهك لا تملك زمامها فإذا هي تنتصر لله عز وعلا في غير ما تجاوز وعدوان على حدود ما أقامت ولاية الإسلام من عهود ومواثيق .

وتدل أيضا على أن المسلم وإن كان حليما في سجيته إلا أن حلمه هذا ينقلب بركانا لا يقهر ، وذلك ما كان من الصديق الحليم إزاء بغي « فنحاص » وكُفْرانِهِ .

وتدل أيضا على أن « يهود » لا يعرفون في تطاولهم وبغيهم حدا متى لم يجدوا يدا من حديد تهوى على رؤوسهم ، فالحياء لا يعرف طريقه إلى قلوبهم ووجوههم ، ذلك دَيْدَنُهُم حتى تقوم الساعة .

وَصَوَّرَ قَسْوَةَ قلوبِهم وما طبعوا عليه من خيانة ، وَسَجَّلَ تحريفهم للتوراة :

﴿ ثم قست قلوبكم من بعد ذلك فهي كالحجارة أو أشد قسوة وإن من الحجارة لما يتفجر منه الأنهار وإن منها لما يشقق فيخرج منه الماء وإن منها لما يهبط من خشية الله وما الله بغافل عما تعملون ﴾ (١) .

﴿ فبما نقضهم ميثاقهم لعناهم وجعلنا قلوبهم قاسية يحرفون الكلم عن مواضعه ونسوا حظا مما ذكروا به ولاتزال تطلع على خائنة منهم إلا قليلا منهم فاعف عنهم واصفح إن الله يحب المحسنين ﴾ (٢) .

وصدق الله ، فقد رأوا الحجر تتفجر منه اثنتا عشرة عينا ، ورأوا الجبل يَنْدَكُّ حين تجلى عليه الله وخر موسى صعقا ، ولكن قلوبهم لا تلين ولاتندى ولاتنبض بخشية ولا تقوى ، وهي ترى كل يوم معالم الحق ، وتشاهد في كل لحظة صدق القرآن وصدق النبوة ، ولكن ظلت قلوبهم قاسية جاسية ، ووصلت بهم القساوة أن يحرفوا الكلم عن مواضعه .

---

(١) سورة البقرة : آية ٧٤ .

(٢) المائدة : ١٣ .

والآيات تصور حال يهود في المجتمع المدني ، فهم لا يكفون عن محاولة خيانة الرسول ﷺ ، وقد كانت لهم مواقف خيانة متواترة ، وكلمة « لاتزال » تؤكد أن خيانتهم مستمرة في المجتمع الإسلامي على مدار التاريخ ، والتعبير القرآني الخاص عن واقع حال اليهود مع رسول الله ﷺ في المدينة تعبير طريف له أبعاده ومفاهيمه ، فما دامت هذه خيانتهم مع نبي الرحمة ﷺ فكيف بالمجتمعات العَادِيَّةِ ؟ فهذا هو جوهر جبلتهم ، وهذا هو جوهر موقفهم مع المجتمعات (١) .

هـ ــ تطهير المجتمع المدني من اليهود :

(١) أسباب التطهير :

إن اليهود لم يقفوا عند حد إنكار نبوة النبي ﷺ وتنزيل القرآن وفي نطاق المجادلات والمناورات الكلامية ، بل تجاوزوه إلى العذر ونقض العهد والعداء الفعلي والتحدي السافر وعدم احترام الوثيقة المبرمة بينهم وبين النبي ﷺ : ﴿ **أو كلما عاهدوا عهدا نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون** ﴾ (٢) .

وهي أدق وأوسع وثيقة كتبها رسول هذه الأمة ، ونظرا لخطورتها وثقلها وأهميتها ، ذكرت في أول هذه الرسالة ، والتي وردت فيها أسماء قبائل اليهود وفصائلها بصورة دقيقة تدل على حنكة ــ النبي ﷺ ــ السياسية وبعد نظره ، وتتجلى أبعاد تفاصيلها عندما بدأ النبي ﷺ يتخذ مواقف الجد والصرامة مع اليهود لتطهير المدينة منهم بتوجيه من الله تعالى : ﴿ **الذين عاهدت منهم ثم ينقضون عهدهم في كل مرة وهم لا يتقون** ﴾ (٣) .

وَكَأَنَّ الآية تشير إلى أن هذا النمط من الناس يشكلون حجر عثرة في بنية المجتمع الجديد ، فلابد من تطهير الجو من هذه العناصر الخطرة والتي

---

(١) الظلال جـ ٢ ص ٨٥٩ ــ بتصرف .
(٢) البقرة : ١٠٠ .
(٣) الأنفال : ٥٦ .

بدأت فصوله في الربع الأول من العهد المدني ، ثم استمرت إلى أن تم إجلاؤهم عن المدينة وخض شوكتهم .

ولقد تعددت مواقف التطهير ، فكان لكل فريق من اليهود موقف ، وهذا يدل على أن التطهير إنما كان يجري بمقدار الضرورة وبقصد إزالة الضرر والخطر المتحقق ، كما يدل على أن اليهود لم يقدموا جميعهم على الخروج من الميثاق إلى الغدر والعداء العملي في وقت واحد ، ولعل من أسباب ذلك أنهم لم يكونوا مجموعي الشمل في سلك كيان سياسي وحربي واحد كما أشارت الآية : ﴿ **ثم أنتم هؤلاء تقتلون أنفسكم وتخرجون فريقا منكم من ديارهم** ﴾ [1] .

(٢) نقض بني قينقاع عهدهم مع الرسول ﷺ :

وكان أول من كشف عن دفين غله وحقده هم يهود بنو قينقاع [2] الذين يقيمون داخل المدينة وبيوتهم تلاصق بيوت المسلمين . (عن ابن عباس قال : لما أصاب رسول الله ﷺ قريشا يوم بدر ، فقدم المدينة ، وجمع اليهود في سوق بني قينقاع ، فقال : « **يا معشر يهود ، أسلموا قبل أن يصيبكم مثل ما أصاب قريشا** » ، **فقالوا : يا محمد ، لا تغرنك نفسك** ، إنك قتلت نفرا من قريش كانوا أغمارا لا يعرفون القتال ، إنك والله لو قاتلتنا لعرفت أنا نحن الناس ، وأنك لن تأتي مثلنا . فأنزل الله عز وجل في ذلك : ﴿ **قل للذين كفروا ستغلبون وتحشرون إلى جهنم وبئس المهاد** ﴾ [3] ... قال فنحاص اليهودي في يوم بدر : لايَغُرَّنَّ محمداً أن غلب قريشا ، إن قريشا لا تحسن القتال ، فنزلت الآية المذكورة . [4] .

قال الزرقاني في شرح المواهب : « ذكر ابن سعد أن بني قينقاع لما

---

(١) البقرة : ٨٥ .

(٢) قال الزرقاني في شرح المواهب ما ملخصه : (بنو قينقاع بطن من يهود المدينة عند جسر بطحان مما يلي العالية ، وكانوا أشجع اليهود وأشدهم بغيا) جـ ٢ ص ٤٥٥ .

(٣) آل عمران : ١٢ .

(٤) جامع البيان للطبري جـ ٣ ص ١٩٢ .

كانت وقعة بدر أظهروا البغض والحسد ، ونبذوا العهد لمدة ، فأنزل الله تعالى : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ ، فقال النبي ﷺ : إني أخاف بني قينقاع [1] .

وصدق تنبؤ النبي ﷺ ، فكان من أمر بني قينقاع أن امرأة من العرب قدمت بجلب لها ، فباعته بسوق بني قينقاع ، وجلست إلى صائغ بها ، فجعلوا يريدونها على كشف وجهها ، فأبت ، فعمد الصائغ ألى طرف ثوبها ، فعقده على ظهرها ، فلما قامت انكشفت سَوْءَتُهَا ، فضحكوا بها ، فصاحت ، فوثب رجل من المسلمين على الصائغ ، فقتله ، وكان يهوديا ، وشدت اليهود على المسلم ، فقتلوه ، فاستصرخ أهل المسلم المسلمين على اليهود ، فغضب المسلمون ، فوقع الشر بينهم وبين بني قينقاع .

وكان بنو قينقاع أول يهود نقضوا ما بينهم وبين رسول الله ﷺ ، فحاصرهم رسول الله ﷺ حتى نزلوا على حكمه [2] .

فقام عبدالله بن أُبَيّ يكلم رسول الله فيهم وألح عليه ، فوهبهم له ، ومشى عبادة بن الصامت إلى رسول الله ﷺ ، وكان له من حِلْفِهِ مثل الذى لهم من عبدالله بن أبي ، فخلعهم إلى رسول الله ﷺ ، وتبرأ إلى الله عز وجل وإلى رسول الله ﷺ ومن حِلفِهم ، ففيه وفي عبدالله بن أبي نزلت هذه القصة من المائدة :

﴿ يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين . فترى الذين في قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتي بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا في أنفسهم نادمين . ويقول الذين آمنوا أهؤلاء الذين أقسموا بالله جهد أيمانهم إنهم لمعكم حبطت أعمالهم فأصبحوا خاسرين ﴾[3] . إلى قوله

---

(١) المواهب اللدنية للزرقاني جـ ١ ص ٤٥٦

(٢) سيرة ابن هشام م ٢ ص ٤٧ ــ ٤٨ ط دار الوفاق . بيروت ــ تحقيق السقا وزملائه .

(٣) المائدة : ٥١ ــ ٥٣ .

تعالى : ﴿ **إنما وليكم الله ورسوله والذين آمنوا الذين يقيمون الصلاة ويؤتون الزكاة وهم راكعون** ﴾ (١) وذكر لتولي عبادة بن الصامت الله ورسوله والذين آمنوا وتبريه من بني قينقاع وحلفهم وولايتهم : ﴿ **ومن يتول الله ورسوله والذين آمنوا فإن حزب الله هم الغالبون** ﴾ (٢) .

وأمر قائدُ المسلمين نبيُّ الهدى ﷺ أن يخرج بَنُو قينقاع من المدينة ، ولا يجاوروه فيها ، فخرجوا إلى أذرعات من أرض الشام ، وكانوا أشجع يهود المدينة ، وكان عدد المقاتلين منهم نحو ستمائة مقاتل (٣) .

وكان هذا الخروج إيذانا بتحول هام في بنية المجتمع الإسلامي ، ومنعطفاً خطيراً في تاريخ الجزيرة العربية إذ خلت من هذا الدنس و ظلت طاهرة نقية من رجسهم .

(٣) غدر بني النضير وإجلاؤهم عن المدينة :

شعر النبي ﷺ أن بني النضير يتربصون به الدوائر بعد نكبة الرجيع وبئر معونة ، وأن هذه النكبة ذكرتهم بانتصار قريش في أحد وأنستهم فوز المسلمين في بدر وغيرها ، فأراد الرسول ﷺ أن يستدرجهم لتتضح له نياتهم ، فذهب إليهم في عدد من الصحابة لكي يطلب مهادنتهم في دية القتيلين اللذين قتلهما عمرو بن أمية خطأ غداة مرجعة من بئر معونة ، لأن القتيلين من بني عامر وكانا حلفاء بني النضير ، وتظاهر اليهود بتلبية الطلب ، وجلس النبي ﷺ إلى جنب جدار من بيوتهم فينتظر وفاءهم بما وعدوا .

ثم خلا بعضهم ببعض ، فقالوا : إنكم لن تجدوا الرجل على مثل حاله هذه ــ فَمَنْ رَجُلٌ يعلو على هذا البيت ، فيلقي عليه صخرة ، فيُرِيحَنَا منه ؟ ــ فانتدب لذلك عمرو بن جحاش بن كعب أحدهم ، فقال : أنا لذلك، فصعد ، ليلقي عليه صخرة ، كما قال ، ورسول الله ﷺ في نفر

---

(١) المائدة : ٥٥ .

(٢) المائدة : ٥٦ وسيرة ابن هشام ، م ٢ ص ٤٩ ــ ٥٠ ط دار الوفاق ، بيروت .

(٣) زاد المعاد ج ٢ ص ١٨٥ .

من أصحابه ، فيهم أبوبكر ، وعمر ، وعلي رضوان الله عليهم .

فأتى رسول الله ﷺ الخبر من السماء بما أراد القوم ، فقام وخرج راجعا إلى المدينة ، فلما استَلْبَثَ النبيَّ ﷺ أصحابُه قاموا في طلبه ، فلقوا رجلا مُقْبلًا من المدينة ، فسألوه عنه ، فقال : رأيته داخلا المدينة ، فأقبل أصحاب رسول الله ﷺ حتى انتهوا إليه ﷺ ، فأخبرهم خبر ما أرادت اليهود من الغدر به ، وأمر الرسول ﷺ بالتهيؤ لحربهم والسير إليهم ، ثم سار بالناس حتى نزل بهم فتحصنوا منه بالحصون ، فأمر الرسول ﷺ بقطع النخيل وتحريقها فنادوه : أن يامحمد ، قد كنت تنهى عن الفساد وتَعِيبُه على من صنعه ، فما بال قطع النخيل وتحريقها ؟! (١) .

ونزل القرآن الكريم بعد ذلك يذكر المؤمنين بنعمة الله عليهم حيث نَجَّى نبيه ﷺ مما بيّته له يهود بني النضير من غدر ومكر ، فقال تعالى :

﴿ يا أيها الذين آمنوا اذكروا نعمة الله عليكم إذ هم قوم أن يبسطوا إليكم إيديهم فكف أيديهم عنكم واتقوا الله وعلى الله فليتوكل المؤمنون ﴾ (٢) .

« ذكر محمد بن إسحاق بن يسار ومجاهد وعكرمة وغير واحد أنها نزلت في شأن بني النضير حين أرادوا أن يلقوا على زأس رسول الله ﷺ الرحى ، لَمَّا جاءهم يستعينهم في دية العامريين ، ووكلوا عمرو بن جحاش ابن كعب بذلك وأمروه إن جلس النبي ﷺ تحت الجدار واجتمعوا عنده أن يلقي تلك الرحى من فوقه ، فأطلع الله النبي ﷺ على ما تمالؤوا عليه ، فرجع إلى المدينة وتبعه أصحابه ، فأنزل الله في ذلك هذه الآية » (٣) التي سبق ذكرها .

---

(١) سيرة ابن هشام ، م ٢ ، ص ١٩٠ ــ ١٩١ ط دار الوفاق .

(٢) سورة المائدة اية : ١١ .

(٣) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥١ .

فلما ظهر الغدر وتجلت الخيانة من بني النضير لم يبق مفر من نبذ عهدهم إليهم وفق القاعدة الإسلامية : ﴿ **وإما تخافن من قوم خيانة فانبذ إليهم على سواء إن الله لا يحب الخائنين** ﴾ (١) .

فتجهز رسول الله ﷺ ، وحاصر محلة بني النضير ، وأمهلهم ثلاثة أيام ـــ وقيل عشرة ـــ ليفارقوا جواره ويجلوا عن المحلة ، ويقيموا وكلاء عنهم على بساتينهم ومزارعهم ، وفي تلك الفترة أرسل إليهم عبدالله بن أبي ابن سلول من يقول لهم : اثبتوا وتمنعوا ، فإننا لن نسلمكم ، إن قوتلتم قاتلنا معكم ، وإن أخرجتم خرجنا معكم . وفي هذا يقول الله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحدا أبدا وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون . لأنتم أشد رهبة في صدورهم من الله ذلك بأنهم قوم لا يفقهون** ﴾ (٢) .

ولما بلغ الحصار ستا وعشرين ليلة يئس اليهود من صدق وعد المنافقين لهم ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فسألوا الرسول ﷺ أن يجليهم ويكف عن دمائهم على أن لهم ما حملت الإبل من أموالهم إلا السلاح ، ففعل ، فكان الرجل منهم يهدم بيته عن نجاف بابه فيضعه على ظهر بعيره فينطلق به ، أو يخر به حتى لا يقع في أيدي المسلمين (٣) .

وفي شأن بني النضير نزلت معظم آيات سورة الحشر ، وقد سماها ابن عباس رضي الله عنهما بسورة بني النضير ، ففي البخاري عن سعيد بن جبير قال : قلت لابن عباس رضي الله عنهما : سورة الحشر ، قال : سورة بني النضير (٤) .

---

(١) سورة الأنفال آية : ٥٨ .

(٢) سورة الحشر آية : ١١ ـــ ١٣ .

(٣) سيرة ابن هشام ، م ٢ ، ص ١٩١ . ط دار الوفاق .

(٤) صحيح البخاري (باب حديث بني النضير جـ ٥ ص ١١٣) .

قال تعالى : ﴿ **هو الذي أخرج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ما ظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم مانعتهم حصونهم من الله فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين فاعتبروا يا أولي الأبصار . ولولا أن كتب الله عليهم الجلاء لعذبهم في الدنيا ولهم في الآخرة عذاب النار . ذلك بأنهم شاقوا الله ورسوله ومن يشاقّ الله فإن الله شديد العقاب** ﴾ (١) .

ومن هذه الآيات نلاحظ أن الله تعالى هو الذي تولى إخراج الذين كفروا من أهل الكتاب من ديارهم لأول الحشر ، والله هو فاعل كل شيء ، ويؤكد ذلك قوله تعالى بعد ذلك : « ماظننتم أن يخرجوا وظنوا أنهم ما نعتهم حصونهم من الله » ، فلا أنتم كنتم تتوقعون خروجهم ، ولا هم كانوا يتخيلون وقوعه ، فقد كانوا من القوة والمنعة في حصونهم ، بحيث لا تتوقعون أنتم أن تخرجوهم منها كما أخرجوا ، « فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب » .

أتاهم من داخل أنفسهم لا من داخل حصونهم ، أتاهم من قلوبهم ، فقذف فيها الرعب ، ففتحوا حصونهم بأيديهم .

هذه التعبيرات البليغة كان لها أثرها في أفراد المجتمع النامي ، فقد لمسوا الرعب في وجوه اليهود ، وشاهدوه من تقاطيع وجوههم وهي تنطق بالوجل والرعب وهم في حصونهم المنيعة ، فكان لابد أن يتساءل المجتمع عن هذه الظاهرة الغريبة ثم يجد الجواب ، وهكذا حين يشاء الله أمرا يأتي له من حيث يعلم ومن حيث يقدر ، فلا حاجة إذاً إلى سبب ولا إلى وسيلة مما يعرفه الناس ويقدرونه .

ولقد تحصن الذين كفروا من أهل الكتاب بحصونهم ، فأتاهم الله من حيث لم يحتسبوا وقذف في قلوبهم الرعب ، ولقد امتنعوا بدورهم وبيوتهم ، فسلطهم الله على هذه الدور والبيوت يخربونها بأيديهم ويمكنون المؤمنين من إخرابها « يخربون بيوتهم بأيديهم وأيدي المؤمنين » .

---

(١) الحشر : ٢ ـ ٤ .

وبهذا تنتهى معركة بني النضير في تلك الصورة الموحية ، وهذه الحركة المصورة والعبارات المجسدة ﴿ **فاعتبروا يا أولى الأبصار** ﴾[1] .

ولقد كان إجلاء بني النضير تطبيقا وتنفيذا لسياسة الأخذ بمبدأ الوقاية التي سار عليها النبي ﷺ ، لاسيما في أعقاب غزوة أحد ، وبعد أن ظهر غدرهم ونقض ميثاقهم .

وكان الإجلاء خطة حكيمة لإعطاء درس لليهود والمنافقين في وقت واحد ، ليرتدعوا عن إثارة الفتن داخل المجتمع المدني .

وكان هذا الإجلاء أيضا نصرا للنبي ﷺ والمسلمين بدون تضحيات ، وعاد هذا النصر بمنافع جمة على المهاجرين بما أفاء الله على رسوله من أموال اليهود مما دعم اقتصاد المجتمع المدني .

وتجلى للمسلمين التحام المنافقين مع اليهود وتوحدهم وتكتلهم ضد المجتمع المسلم بصورة عجيبة .

(٤) خيانة بني قريظة والتنكيل بهم :

لم يهادن اليهود في المدينة المسلمين بعد الهجرة إلا حقبة قصيرة ، وكان الرسول ﷺ قد عقد معهم مهادنة أول مقدمه إلى المدينة أوجب لهم فيها النصره والحماية ، مشترطا عليهم ألا يغدورا ولا يفجروا ولا يتجسسوا ولا يعينوا عدوا ولا يمدوا يدا بأذى .

ولكنهم لم يكونوا أهلا لهذه المعاملة الطيبة ، ولم يحترموا عهد رسول الله ﷺ معهم ، ولعلهم قد أغراهم لطف من الرسول عليهم فظنوه ضعفا ، فلما كانت غزوة الأحزاب ظاهروهم ، وانضموا إليهم « وبلغ رسول الله ﷺ خبر بني قريظة ونقضهم للعهد ، فبعث إليهم السعدين وخوات بن جبير وعبدالله بن رواحة ليعرفوا هل هم على عهدهم أوقد نقضوه ، فلما دنوا منهم فوجدوهم على أخبث مايكون ، وَجَاهَرُوُهُم بالسب والعداوة ،

---

(١) الظلال م ٦ ص ٣٥٢٢ بتصرف .

ونالوا من رسول الله ﷺ ، فانصرفوا عنهم ولحنوا إلى رسول الله ﷺ لحنا يخبرونه أنهم قد نقضوا العهد وغدروا ، فعظم ذلك على المسلمين ، فقال رسول الله ﷺ عند ذلك« **الله أكبر: أبشروا يا معشر المسلمين**» (١) .

فلما أيد الله تعالى نبيه بنصره في غزوة الأحزاب ، ورد أعداءه بغيظهم لم ينالوا خيرا ، وكفى الله المؤمنين القتال ، تبدى له جبريل عليه السلام ، ثم قال : إن الله تعالى يأمرك أن تذهب إلى بني قريظة ، وكانوا على أميال من المدينة ، وحاصرهم الرسول ﷺ حتى أجهدهم الحصار ، وقذف الله في قلوبهم الرعب ، فبعثوا إلى رسول الله ﷺ أن ابعث إلينا أبا لبابة بن عبدالمنذر لنستشيره في أمرنا ، فأرسله رسول الله ﷺ ، فلما رأوه قام إليه الرجال ، وأجهش النساء والصبيان بالبكاء في وجهه ، فرقّ لهم ، وقالوا له : يا أبا لبابة ، أترى أن ننزل على حكم محمد ؟ قال : نعم ، وأشار بيده إلى حلقه : أنه الذبح .

وشعر أبولبابة أنه خان الله ورسوله ، فانطلق حتى ارتبط في المسجد إلى عمود من عُمُده ، وقال : لا أبرح مكاني هذا حتى يتوب الله علي مما صنعت ، وعلم النبي ﷺ بقصته ، فقال : أمَا لَوْ جاءني لاستغفرت له ، أمَا وقد فعل ما فعل ، فما أنا بالذي أطلقه من مكانه حتى يتوب الله عليه ، ونزل قوله تعالى : ﴿ **وآخرون اعترفوا بذنوبهم خلطوا عملا صالحا وآخر سيئا عسى الله أن يتوب عليهم إن الله غفور رحيم** ﴾ (٢) .

ومما لاشك فيه أن قصة أبي لبابة وربطه بسارية المسجد كان لها أكثر من تأثير في نفوس المسلمين ، فكانوا يتساءلون : ما بال هذا الصحابي الجليل نراه مربوطا بسارية المسجد ، ولايزال ينتظر التوبة ؟ وكأن الناس يتهامسون فيما بينهم يقولون : هذه مكافأة لمحبته لليهود ، وتلك جريمته التي ربط من أجلها ، وعرف الناس حينئذ أن الولاء والمحبة لله ولرسوله وللمؤمنين ، وأن الارتباطات مع أعداء الله لها حدود وقيود .

---

(١) زاد المعاد جـ ٢ ص ١١٧ ، ١١٨ المطبعة المصرية ومكتبتها .

(٢) سيرة ابن هشام م ٢ ، ص ٢٣٧ ، دار الوفاق .

ومازالت سارية أبي لبابة تنطق بهذه المعاني ، وهي محاطة بالمصلين والتائبين ، وفي وسط روضة من رياض الجنة ، وفي قلب المسجد النبوي الطاهر ، وهي من المعالم التي استمرت عبر الأيام والسنين تتحدث عن غدر بني قريظة ، وتوبة أبي لبابة . وبعد قصة أبي لبابة أمر الرسول ﷺ سعد ابن معاذ أن يصدر حكمه في بني قريظة ، فقال : « الله ورسوله أحق بالحكم » فقال رسول الله ﷺ : « **الله أمرك أن تحكم فيهم** » ، **فقال سعد : « فإني أحكم فيهم أن تقتل الرجال ، وتقسم الأموال ، وتسبى الذراري » (١) . فقال النبي ﷺ لسعد : لقد حكمت فيهم بحكم الله من فوق سبع سموات ، ثم حفرت الخنادق في سوق المدينة لتنفيذ حكم سعد فيهم ، وكان عددهم مابين ستمائة وسبعمائة ، وقد قالوا لكعب بن أسد وهم يُذْهَبُ بهم إلى رسول الله ﷺ أرسالا : ياكعب ، ماتراه يصنع بنا ؟ قال : هو والله القتل . وأتي في النهاية برأس الفتنة (حُيَي بن أخطب) وقد مزق حلته من كل ناحية ، مجموعة يداه إلى عنقه بحبل ، ثم جلس وضربت عنقه . (٢) .**

ومنذ ذلك اليوم ذلت يهود في هذا المجتمع ، وتطهر من أرجاسهم ، وخيم الهدوء والطمأنينة عليه ، وتبع ذلك أن المشركين لم يعودوا يفكرون في غزو المسلمين ، بل أصبح المسلمون هم الذين يغزون حتى كان فتح مكة والطائف ، وكانت هناك ارتباطات مريبة وعميقة بين تحركات اليهود وتحركات المنافقين وتحركات المشركين ، ولكن طرد اليهود من المدينة قضى على هذه الارتباطات ، وأعاد إلى هذا المجتمع تماسكه وترابطه حيث لم يبق فيه من الأقليات الشاذة إلا المنافقون .

وفي قتل بني قريظة نزل قوله تعالى في سورة الأحزاب :

﴿ وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف في قلوبهم الرعب فريقا تقتلون وتأسرون فريقا . وأورثكم أرضهم وديارهم

---

(١) سيرة ابن هشام ، م ٢ ، ص ٢٤٠ ــ ٢٤١ ، ط دار الوفاق .

(٢) نفس المصدر ص ٢٤١ .

وأموالهم وأرضا لم تطؤوها وكان الله على كل شيء قديرا ﴾ (١) .

وترتب على تطهير المدينة من القبائل الثلاث التي تمثل مراكز القوى لليهود نجاة المجتمع المسلم من دسائسهم ومؤامراتهم في هذه البقعة الطاهرة ، مما أتاح الفرصة للدولة الإسلامية الفتية إعادة ترتيب الأوضاع والاحتشاد للانطلاقة التاريخية المظفرة لنشر الإسلام في مأمن من طعناتهم الغادرة ، وفي منجاة من التحلل والتفكك ، فبقيت الجزيرة العربية متماسكة في جبهتها الداخلية كقاعدة صلبة تنطلق منها الجيوش الإسلامية وهي مطمئنة إلى سلامة خطوطها الخلفية .

★ ★ ★

(١) الأحزاب : ٢٦ ــ ٢٧ .

ثانيا : النصارى .

أ ـ النصارى والمجتمع المدنى :

خلال دراستى للآيات وبعض الأبيات وكتب التفسير والسير والتاريخ تبين لى أن صلة يثرب بالمسيحية قديمة . فقد ذكر أن أباقيس صرمة بن أبى أنس كان رجلًا قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، وفارق الأوثان ... وهم بالنصرانية ، ثم أمسك عنها حتى قدم الرسول ﷺ المدينة ، فأسلم وحسن إسلامه ، وهو شيخ كبير ، وكان قوالًا بالحق ، معظماً لله عز وجل فى جاهليته ، وهو الذى يقول :

وله شمس النصارى وقاموا كل عيد لربهم واحتفال
وله الراهب الحبيس تراه رهن بوس وكان ناعم بال[1]

والأبيات تشير إلى أن المسيحية وجدت سبيلًا إلى يثرب ، وأوجدت فيها من يميل إلى الرهبنة ويبنى الأديرة ، فهم يحدثوننا أن حنظلة الطائى فارق قومه ونسك وبنى ديراً بالقرب من شاطىء الفرات ويعرف هذا بدير حنظلة ، وترهب فيه حتى مات . ويذكرون أن عدى بن زيد نصح النعمان ملك الحيرة حتى حبب إليه النصرانية . (٢) .

وكان أبو عامر عبد عمرو بن صيفى بن النعمان ، وهو أبو حنظلة الغسيل يوم أحد ، وكان قد ترهب فى الجاهلية ولبس المسوح ، وكان يقال له الراهب . (٣) .

وذكر ابن كثير فى شرح آية (لا إكراه فى الدين قد تبين الرشد من الغى) قال : نزلت فى رجل من الأنصار من بنى سالم بن عوف ، يقال له الحصين ، كان له ابنان نصرانيان ، وكان رجلا مسلماً ، فقال للنبى ﷺ : ألا أستكرههما ؟ فإنهما قد أبيا إلا النصرانية ، فأنزل الله فى ذلك الآية رواه ابن جرير (٤) .

---

(١) السيرة النبوية لابن هشام م ٢ ص ٥١٠ ــ ٥١١ ط دار الوفاق ببيروت .
(٢) فجر الإسلام أحمد أمين ص ٢٧ دار الكتاب العربى بيروت ط ١٩٧٩ .
(٣) السيرة النبوية لابن هشام م ٢ ص ٥٨٤ .
(٤) تفسير ابن كثير م ١ ص ٤٦٥ .

ولم يذكر أهل الأخبار شيئا يستحق الذكر عن النصرانية في يثرب ، مما يدل على أن النصرانية لم تكن قوية في المدينة ، وأن جاليتها لم تكن كثيرة العدد فيها ، وأيضا يُشير إلى وجود النصارى في المدينة بيت للشاعر حسان ابن ثابت في قصيدة له رثى بها النبي ﷺ :

فرحت نصارى يثرب ويهودها لما توارى في الضريح الملحد

كما ذكر أن النصارى كانوا يسكنون في يثرب في موضع يقال له : سوق النبط .

وقد كان (أبو عامر) الراهب ممن اعتنق النصرانية ومن أهل يثرب . ويظهر أنه كان قد تمكن من إقناع بعض شباب الأوس باعتناق دينه ، بدليل ما ذكره علماء التفسير من أنه لما خرج من يثرب مغاضبا للرسول ﷺ ، وذهب إلى مكة مؤيدا إياهم ومحرضا لهم على محاربة الرسول ، أخذ معه خمسين أو خمسة عشر رجلا من الأوس ، على ما ذكره علماء التفسير . [1] .

والآيات في النصارى وعقائدهم ومواقفهم من المجتمع المدني أكثر وأصلح منها في المجتمع المكي ، وسنعرض صور اختلاط المسلمين بالنصارى ومواقفهم في هذا العهد على حسب ما تلهم الآيات :

قال تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء بعضهم أولياء بعض ومن يتولهم منكم فإنه منهم إن الله لا يهدي القوم الظالمين** ﴾ [2] .

وهناك آيات أخرى تخاطب أهل الكتاب مخاطبة تدل على تواجدهم في المجتمع المدني : ﴿ **يا أهل الكتاب قد جاءكم رسولنا يبين لكم على فترة من الرسل أن تقولوا ما جاءنا من بشير ولا نذير فقد جاءكم بشير ونذير والله على كل شيء قدير** ﴾ [3]

« يقول تعالى مخاطبا أهل الكتاب من اليهود والنصارى بأنه قد أرسل إليهم رسوله محمدا ﷺ خاتم النبيين ، الذي لانبي بعده ولا رسول ، بل هو المعقب لجميعهم ، ولهذا قال :﴿ **على فترة من الرسل** ﴾ أي بعد مدة متطاولة ما بين إرساله وعيسى ابن مريم » [4] .

---

(١) راجع المفصل في تاريخ العرب قبل الإسلام للدكتور جواد علي جـ ٦ ص ٥٨٩ ـــ ٦٠٣ .

(٢) المائدة : ٥١ . (٣) المائدة : ١٩ . (٤) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥٧ .

وقال تعالى : ﴿ **ومن الذين قالوا إنا نصارى أخذنا ميثاقهم فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة وسوف ينبئهم الله بما كانوا يصنعون** ﴾ (١) .

« أي ومن الذين ادعوا لأنفسهم أنهم نصارى متابعون المسيح ابن مريم عليه السلام وليسوا كذلك ، أخذنا عليهم العهود والمواثيق على متابعة الرسول ﷺ ، ومناصرته ، ومؤازرته ، واقتفاء آثاره ، وعلى الإيمان بكل نبي يرسله الله إلى أهل الأرض ، ففعلوا كما فعل اليهود ، خالفوا المواثيق ، ونقضوا العهود ، ولهذا قال تعالى : ﴿ **فنسوا حظا مما ذكروا به فأغرينا بينهم العداوة والبغضاء إلى يوم القيامة** ﴾ أي فألقينا بينهم العداوة والبغضاء لبعضهم البعض ، ولا يزالون كذلك إلى قيام الساعة » (٢) .

وفي سورة الصف الآية التالية : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله فآمنت طائفة من بني إسرائيل وكفرت طائفة فأيدنا الذين آمنوا على عدوهم فأصبحوا ظاهرين** ﴾ (٣) .

والآية بسبب دعوة المسلمين إلى الاقتداء بالحواريين في تأييدهم عيسى ونصرهم له ، كما أنها تشير إلى ثناء الله على الحواريين ، وتشير إلى وجود صلة بين المسلمين والنصارى في عهد النبي ﷺ ، وتوضح الاختلاط الموجود في هذا المجتمع بين المسلمين والنصارى (٤) .

والآية هنا تهدف إلى تصوير موقف لا إلى تفصيل قصة ، والموقف هو : ﴿ **كونوا أنصار الله كما قال عيسى ابن مريم للحواريين من أنصاري إلى الله قال الحواريون نحن أنصار الله** ، ﴾ فانتدبوا لهذا الأمر ونالوا هذا التكريم . وعيسى جاء ليبشر بالنبي الجديد والدين الأخير ، فما أجدر أتباع محمد أن ينتدبوا لهذا الأمر الدائم كما انتدب الحواريون للأمر الموقوف ، (٥) وكلها إشارات واضحة لوجود النصارى في المدينة .

---

(١) المائدة : ١٤ . (٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥٤ . (٣) الصف ١٤

(٤) سيرة الرسول صورة مقتبسة من القرآن الكريم لمحمد عزة دروزة جـ ٢ ص ٢١٩ .

(٥) الظلال م ٦ ص ٣٥٦١ .

وطبيعي أن يكون لهذا الوجود ولتلك الصلات وتتابع وفود النصارى تأثير في البيئة .

وهناك آيات أخرى تشير إلى مدى التأثير في المجتمع المدني : ﴿ **وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هودا أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين . بلى من أسلم وجهه لله وهو محسن فله أجره عند ربه ولا خوف عليهم ولا هم يحزنون . وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء وهم يتلون الكتاب كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم فالله يحكم بينهم يوم القيامة فيما كانوا فيه يختلفون** ﴾ (١) .

وفي قوله تعالى : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ بين الله تعالى تناقضهم وتباينهم وتعاديهم وتعاندهم ، كما قال ابن إسحاق عن ابن عباس : لما قدم أهل نجران من النصارى على رسول الله ﷺ ، أتتهم أحبار اليهود ، فتنازعوا عند رسول الله ﷺ ، فقال رافع بن حرملة : ما أنتم على شيء ، وكفر بعيسى وبالإنجيل . وقال رجل من أهل نجران من النصارى لليهود : ما أنتم على شيء ، وجحد نبوة موسى ، وكفر بالتوراة ، فأنزل الله في ذلك من قولهما : ﴿ **وقالت اليهود ليست النصارى على شيء وقالت النصارى ليست اليهود على شيء** ﴾ .

﴿« **وهم يتلون الكتاب** ﴾ أي وهم يعلمون شريعة التوراة والإنجيل كل منهما قد كانت مشروعة في وقت ، ولكنهم تجاحدوا فيما بينهم عنادا وكفرا ومقابلة للفاسد بالفاسد ، وقوله : ﴿ **كذلك قال الذين لا بعلمون مثل قولهم** ﴾ . قال السدي ﴿ **كذلك قال الذين لا يعلمون** ﴾ ، هم العرب قالوا : ليس محمد على شيء ، وقول السدي يشير إلى أن العرب في المجتمع المدني كانوا يتصلون باليهود والنصارى ، ويحضرون مناقشاتهم ، ويستمعون إلى مجادلاتهم ، فيتأثرون نفسيا وفكريا وعقائديا ، حتى قالوا : « ليس محمد على شيء » . وهناك آيات أخرى تدل على أن النصارى كانوا منتشرين في المدينة ، ولهم أثر محسوس في حياتها الاجتماعية ، وإن كانوا أقل خطرا من اليهود ، وأكثر قربا إلى المسلمين ، وأنهم كانوا لا يستكبرون ،

---

(١) البقرة من آية : ١١١ إلى ١١٣ .

وأن في قلوبهم رأفة ورحمة ، وأنهم كانوا ذوي أخلاق ومروءة قال تعالى : **﴿ لتجدن أشد الناس عداوة للذين آمنوا اليهود والذين أشركوا ولتجدن أقربهم مودة للذين آمنوا الذين قالوا إنا نصارى ذلك بأن منهم قسيسين ورهبانا وأنهم لا يستكبرون . وإذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول ترى أعينهم تفيض من الدمع مما عرفوا من الحق يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾** (١) .

« أي الذين زعموا أنهم نصارى من أتباع المسيح وعلى منهاج إنجليه فيهم مودة للإسلام وأهله في الجملة ، وماذاك إلا لما في قلوبهم إذ كانوا على دين المسيح من الرقة والرأفة » (٢) .

فهذا مشهد حي لهذه الفئة الخاصة من النصارى الذين هم أقرب مودة للذين آمنوا ، إذا سمعوا ما أنزل إلى الرسول من هذا القرآن اهتزت قلوبهم ، ولانت مشاعرهم ، وفاضت أعينهم بالدمع ، دلالة على التأثر العميق بالحق الذي سمعوه ، ثم إنهم لا يقفون موقف المتأثر فحسب ، بل يتقدمون خطوة أخرى : **﴿ يقولون ربنا آمنا فاكتبنا مع الشاهدين ﴾** .

(ب) حقيقة النصارى كما يسجلها القرآن الكريم :

وقد تحدث القرآن عن عقيدة المسيح في أكثر من سورة موضحا أنها التوحيد الكامل : في الذات والصفات ، والآيات تصرح أن عيسى — عليه السلام — ما دعا إلا إلى ذلك التوحيد الكامل : **﴿ وإذ قال الله ياعيسى ابن مريم أأنت قلت للناس اتخذوني وأمي إلهين من دون الله قال سبحانك ما يكون لي أن أقول ما ليس لي بحق إن كنت قلته فقد علمته تعلم مافي نفسي ولا أعلم مافي نفسك إنك أنت علام الغيوب . ما قلت لهم إلا ما أمرتني به أن اعبدوا الله ربي وربكم وكنت عليهم شهيدا ما دمت فيهم فلما توفيتني كنت أنت الرقيب عليهم وأنت على كل شيء شهيد ﴾** (٣) .

---

(١) المائدة : ٨٢ — ٨٣ .
(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ١٣٧
(٣) المائدة ١١٦ — ١١٧ .

والآيات تتحدث بكل صراحة وجلاء أن عيسى ما دعا إلا إلى التوحيد الكامل ، وأنه ما كان إلا رسولا لله رب العالمين ، وكل ما دخل من انحراف وتبديل في النصرانية قد كان بعد رفعه : ﴿ **إذ قال الله ياعيسى إني متوفيك ورافعك إليّ ومطهرك من الذين كفروا** ﴾ (١) ، ويتدخل من الرهبان الذين أضافوا إلى الإنجيل من عند أنفسهم زاعمين أنه من عند عيسى ، وعيسى مما أضافوه براء .

والقرآن إذ يتحدث عن المسيح وكتابه الإنجيل يهدف إلى أنه حلقة من سلسلة النبوة المبشرة بمقدم النبي ﷺ ، إضافة إلى أن الإنجيل شمل على هدى ونور وموعظة للمتقين في صورتها التي نزلت على عيسى عليه السلام ، وأنه كان على أتباع الإنجيل أن يحكموا بما أنزل فيه من هدى ونور : ﴿ **وليحكم أهل الإنجيل بما أنزل الله فيه ومن لم يحكم بما أنزل الله فأولئك هم الفاسقون** ﴾ (٢) .

وهذه السلسلة المتينة تمتاز بمراعاة الظروف والأوضاع المحيطة بكل أمة ، ولذا امتازت دعوة « المسيح » عليه السلام بالزهادة في الدنيا ، والابتعاد عن أسباب النزاع ، والعكوف على الحياة الروحية ، لأنه جاء في وقت كانت اليهود تتغلغل في الحياة المادية ، حتى إن بعضهم كان يفهم أن الحياة الدنيا هي غاية بني الإنسان ، بل إن التوراة التي بأيديهم خلت من ذكر اليوم الآخر ، فجاء المسيح عليه السلام مبشرا بالحياة الآخرة ، ومقررا أنها الحياة السامية لهذا العالم بين أولئك الذين أنكروها . (٣) .

ونطق السيد المسيح في المهد ليكون كلامه إعلاما صريحا ببراءة أمه ، وإنه لم يكن إلا عبدا لله ، ولد من غير أب : ﴿ **قال إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا . وجعلني مباركا أينما كنت وأوصاني بالصلاة والزكاة ما دمت حيا . وبرا بوالدتي ولم يجعلني جبارا شقيا . والسلام عليّ**

---

(١) آل عمران : ٥٥ .

(٢) المائدة : ٤٧ .

(٣) راجع : محاضرات في النصرانية للإمام محمد أبي زهرة ص ١٢ ــ ١٤ ط دار عطوة للطباعة سنة ١٩٨٢ نشر دار الفكر العربي ــ القاهرة .

يوم ولدت ويوم أموت ويوم أبعث حيا . ذلك عيسى ابن مريم قول الحق الذي فيه يمترون . ما كان لله أن يتخذ من ولد سبحانه إذا قضى أمرا فإنما يقول له كن فيكون ﴾(١) .

وفسر ابن كثير هذه الآيات في ضوء أقوال الصحابة ، بحيث يوضح حقيقة النصارى ، ويزيل الغبش بما علق في قصة ولادة المسيح عليه السلام ، نذكر طرفا منها :« **قال إني عبدالله** » ، فأول شيء تكلم به أن نزه جناب ربه تعالى وبرأه عن الولد ، وأثبت لنفسه العبودية لربة .

وقوله : ﴿ **آتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾ تبرئة لأمه مما نسبت إليه من الفاحشة ، قال نوف البكالي : لما قالوا لأمه ما قالوا كان يرتضع ثديها ، فنزع الثدي من فمه ، واتكأ على جنبه الأيسر ، وقال : ﴿ **إني عبدالله آتاني الكتاب وجعلني نبيا** ﴾ إلى قوله ﴿ **مادمت حيا** ﴾(٢) .

ولابد أن نشير هنا إلى السبب الذي من أجله ولد عيسى عليه السلام من غير أب ، فإنه لابد أن يكون ذلك لحكمة يعلمها الله تعالى جلت قدرته ، وقد أشار إليها سبحانه في قوله تعالت كلماته : ﴿ **ولنجعله آية للناس ورحمة منا وكان أمرا مقضيا** ﴾ .

﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله هو المسيح ابن مريم وقال المسيح يابني إسرائيل اعبدوا الله ربي وربكم إنه من يشرك بالله فقد حرم الله عليه الجنة ومأواه النار وما للظالمين من أنصار . لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة وما من إله إلا إله واحد وإن لم ينتهوا عما يقولون ليمسن الذين كفروا منهم عذاب أليم . أفلا يتوبون إلى الله ويستغفرونه والله غفور رحيم . ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أني يؤفكون** ﴾ (٣) .

---

(١) مريم : ٣٠ ــ ٣٥ .
(٢) تفسير ابن كثير م ٣ ص ١٩٣ .
(٣) المائدة : من ٧٢ إلى ٧٥ .

يقول تعالى حاكماً بتكفير فرق النصارى ممن قال منهم : إن المسيح هو الله تعالى الله ، وتقدس عن قولهم علوا كبيرا ، هذا وقد تقدم لهم أن المسيح عبدالله ورسوله ، وكان أول كلمة نطق بها وهو صغير في المهد إذ قال : ﴿ **إني عبدالله** ﴾ ولم يقل : إني أنا الله ولا ابن الله ، وقوله : ﴿ **لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة** ﴾ الصحيح أنها أنزلت في النصارى خاصة ، قال مجاهد وغير واحد : ثم اختلفوا في ذلك ، فقيل : المراد بذلك كفارهم في قولهم بالأقانيم الثلاثة ، وهو أقنوم الأب وأقنوم الابن وأقنوم الكلمة المنبثقة من الأب إلى الإبن ، تعالى الله عن قولهم علوا كبيرا » (١) .

هكذا حذرهم المسيح عليه السلام فلم يحذروا ، ووقعوا من بعده فيما حذرهم من الوقوع فيه .

وبعد ذلك واجههم القرآن بالمنطق الواقعي الفطري ، لعله يرد فطرتهم إلى الإدراك السليم مع التعجب من أمرهم في الانصراف عن هذا المنطق بعد البيان والإيضاح : ﴿ **ما المسيح ابن مريم إلا رسول قد خلت من قبله الرسل وأمه صديقة كانا يأكلان الطعام انظر كيف نبين لهم الآيات ثم انظر أنى يؤفكون** ﴾ .

« فأكل الطعام مسألة واقعية في حياة المسيح عليه السلام وأمه الصديقة ، ودليل على بشرية المسيح وأمه ، فأكل الطعام تلبية لحاجة جسدية لامراء فيها ، ولا يكون إلها من يحتاج إلى الطعام ليعيش ، فالله حي بذاته ، قائم بذاته ، باق بذاته ، ولا يدخل إلى ذاته سبحانه أو يخرج منها شيء حادث كالطعام » (٢) .

وتتردد هذه الحقيقة القرآنية وما يؤيدها من منطق إلهي محكم في أكثر من موضع من الآيات المدنية ، تؤكد بشرية المسيح عليه السلام ، وتنزيه الله سبحانه وتعالى عن كل ما يقول به النصارى في مذاهبهم المختلفة ، فما عيسى إلا رسول كسائر رسل الله ، ولن يستنكف أن يكون عبدا له سبحانه .

---

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ١٣١ (باختصار وتصرف) .
(٢) الظلال م ٢ ص ٩٤٤

يقول تعالى: ﴿**يا أهل الكتاب لاتغلوا في دينكم ولا تقولوا على الله إلا الحق إنما المسيح عيسى ابن مريم رسول الله وكلمته ألقاها إلى مريم وروح منه فآمنوا بالله ورسله ولا تقولوا ثلاثة انتهوا خيرا لكم إنما الله إله واحد سبحانه أن يكون له ولد له مافي السموات ومافي الأرض وكفى بالله وكيلا . لن يستنكف المسيح أن يكون عبدا لله ولا الملائكة المقربون ومن يستنكف عن عبادته ويستكبر فسيحشرهم إليه جميعا . فأما الذين آمنوا وعملوا الصالحات فيوفيهم أجورهم ويزيدهم من فضله وأما الذين استنكفوا واستكبروا فيعذبهم عذابا أليما ولا يجدون لهم من دون الله وليا ولا نصيرا**﴾ (1) .

وهناك آيات قرآنية كثيرة تسجل أن أهل الكتاب كانوا يؤلبون أفراد المجتمع المدني على النبي ﷺ ، وكانوا يحاربون العقيدة الإسلامية ، ويعملون فيها معاول الهدم والتوهين ، وينثرون الشبهات والدس والتشكيك في جنبات المجتمع المدني .

والآيات تسجل كذلك ضخامة الآثار التي كانت هذه الحرب تتركها في نفوس أبناء هذا المجتمع ، مما اقتضى ذكر جدالهم مرات ومرات في مواضع متعددة ، على نحو ما تصوره هذه الآيات الكريمة :

﴿ **ألم تر إلى الذين أوتوا نصيبا من الكتاب يدعون إلى كتاب الله ليحكم بينهم ثم يتولى فريق منهم وهم معرضون** ﴾ (2) .

﴿ **يا أهل الكتاب لم تلبسون الحق بالباطل وتكتمون الحق وأنتم تعلمون** ﴾ (3) .

﴿ **ومن أهل الكتاب من إن تأمنه بقنطار يؤده إليك ومنهم من إن تأمنه بدينار لا يؤده إليك إلا مادمت عليه قائما ذلك بأنهم قالوا ليس**

---

(1) النساء : من ١٧١ إلى ١٧٣ .
(2) آل عمران : ٢٣ .
(3) آل عمران : ٧١ .

علينا في الأميين سبيل ويقولون على الله الكذب وهم يعلمون ﴾ [1] .

﴿ قل يا أهل الكتاب لم تكفرون بآيات الله والله شهيد على ما تعملون ﴾ [2] .

« وهكذا نرى أن أعداء المجتمع المدني لم يكونوا يحاربونه في الميدان بالسيف والرمح فحسب ، ولم يكونوا يحاربونه بالدس والتشكيك فقط ، إنما كانوا يحاربونه أولا في عقيدته » [3] .

ولم تكن هذه الحرب الشعواء تشن بشكل فردي غير منظم ، بل كانت تضطلع بها فئة اجتماعية ذات أهداف بعيدة المدى ، تسعى إلى زلزلة كيان المجتمع الإسلامي وتقويضه ، من هنا كانت خطورتها القصوى وأثرها العميق وخططها المبيته كانت تحاك بدقة وأناة وخبث ، لذا تولى القرآن الكريم كشفها وتعريتها ومتابعتها والتنبيه إليها والعمل على ردعها والحوار معها بموضوعية ومنطق واضح حتى يأخذ عليها السبل من أقطارها ، فلا يكون لها أدنى أثر على مسيرة المجتمع الإسلامي الظافرة .

(جـ) قصة المباهلة كما صورها القرآن الكريم :

كان النبي ﷺ في مناقشاته مع النصارى يهاجمهم في عقيدة التثليث ، ويبين كفرهم بها ، كما قال تعالى : **﴿ لقد كفر الذين قالوا إن الله ثالث ثلاثة ﴾** وينكر عليهم ادعاءهم أن عيسى وأمه إلهان من دون الله ، وينكر الله عليهم أن الله هو المسيح ، وينكر عليهم عبادة الصليب وأكلهم الخنزير وادعاءهم أن لله ولدا .

كانوا يستمعون إلى هذه المناقشات ، فيتحمسون ويجادلون النبي ﷺ ، ويوجهون إليه أسئلة محرجة ، وتنتشر أخبار هذه المجادلات إلى خارج أجواء المدينة ، فتندفع وفود النصارى من البلاد النائية لمجابهة الرسول

---

(١) آل عمران : ٧٥ .

(٢) آل عمران : ٩٨ .

(٣) الظلال : جـ ١ ص ٣٥٣ .

ﷺ بهذه المسائل ، فمنهم من كان يتودد ويتلطف ، ومنهم من كان يحتد فيجادل .

وكتب السيرة تبين أنهم أوفدوا وفدا إلى النبي ﷺ وهو بمكة إذ بلغهم خبره من مهاجري الحبشة حتى يروا صفاته ، فقرأ عليهم القرآن الكريم ، فآمنوا كلهم .

وأوفدوا له عليه الصلاة والسلام وهو بالمدينة المنورة وفدا يتألف من ستين رجلا ، وقد أهدوا إلى النبي ﷺ هدية : بسطا ومسوحاً ، فقبل المسوح ورد البسط ، ودعاهم إلى الإسلام فأبوا ، وقالوا : كنا مسلمين قبلكم ، فقال عليه الصلاة والسلام : « **يمنعكم من الإسلام ثلاثة : عبادتكم الصليب ، وأكلكم لحم الخنزير ، وزعمكم أن لله ولدا** » .

قالوا : فمن مثل عيسى خلق من غير أب ؟

هكذا احتد النقاش ، وتغير الجو ، فدعاهم عليه الصلاة والسلام إلى المباهلية [1] .

قال تعالى :

﴿ **إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنه الله على الكاذبين** ﴾ [2] .

تذكر عدة روايات أن هذه الآيات نزلت في الحوار مع وفد نجران الذي قدم المدينة في السنة التاسعة من الهجرة ، وصاحب (في ظلال القرآن) يستبعد أن تكون السنة التاسعة هي زمن نزول هذه الآيات ، إذ إنه واضح من طبيعتها وجوهرها أنها نزلت فى الفترة الأولى من الهجرة [3] ، ونحن نطمئن إلى هذا الرأي لأن تطهير المجتمع المدنى وتنظيمه واستكمال

---

(١) انظر تاريخ الجدل للإمام محمد أبوزهرة ص ٥٣ ، ٥٤ .

(٢) آل عمران : من ٥٩ إلى ٦١ .

(٣) الظلال جـ ١ ص ٣٥٢ .

عناصر بنائه يوحى بذلك . « وكان سبب نزول هذه المباهلة وما قبلها من أول السورة إلى هنا في وفد نجران ، أن النصارى لما قدموا فجعلوا يحاجون في عيسى ، ويزعمون فيه مايزعمون من النبوه والإلهية ، فأنزل الله صدر هذه السورة ردا عليهم » (١) .

وكتب التفسير تصور قصة المباهلة وطريقتها ، مما يتراءى معه أن هذا الحدث كان مثيرا للغاية ، وكان له تأثيره في المجتمع ، وكانت له هزة في النفوس ، ففي طلب انعقاد المباهلة قال : ﴿ **تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم** ﴾ أي يدعو كل منا ومنكم أبناءه ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم قيل أراد بالأبناء الحسن والحسين ، وبالنساء فاطمة ، وبالنفس نفسه ﷺ وعليا رضي الله عنه . وقيل : على العموم لجماعة أهل الدين ، ثم نبتهل ، قال ابن عباس رضي الله عنهما : نتضرع في الدعاء ، وقيل معناه نجتهد ونبالغ في الدعاء ، وقيل : معناه نلتعن ، والابتهال : الالتعان ، يقال : عليه بهلة الله أي لعنة الله ، ﴿ **فنجعل لعنة الله على الكاذبين** ﴾ يعني : منا ومنكم في أمر عيسى ، قال المفسرون : لما قرأ رسول الله ﷺ هذه الآية على وفد نجران ، ودعاهم إلى المباهلة ، قالوا : حتى نرجع وننظر في أمرنا ثم نأتيك غدا ...

فأتوا رسول الله ﷺ وقد احتضن الحسين ، وأخذ بيد الحسن ، وفاطمة تمشي خلفه ، وعلي يمشي خلفها ، والنبي ﷺ يقول لهم : إذا دعوت فأمنوا ، فلما رآهم أسقف نجران قال : يامعشر النصارى ، إني لأرى وجوها لو سألوا الله أن يزيل جبلا لأزاله من مكانه ، فلا تبتهلوا فتهلكوا ، ولا يبقى على وجه الأرض نصراني إلى يوم القيامة ، فقالوا : يا أبا القاسم ، قد رأينا ألا نباهلك ، وأن نتركك على دينك وتتركنا على ديننا ، فقال لهم رسول الله ﷺ : **فإن أبيتم المباهلة فأسلموا يكن لكم ماللمسلمين وعليكم ما عليهم** ، فأبوا ذلك ، فقال : **إني أناجزكم** ، فقالوا : مالنا بحرب العرب طاقة ، ولكنا نصالحك على ألا ترمينا ، ولا تخيفنا ، ولا تردنا عن ديننا ، وأن نؤدي إليك في كل سنة ألفي حلة : ألفا في صفر

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٥١ .

وألفا فى رجب ... فصالحهم رسول الله ﷺ على ذلك ، وقال : والذي نفسي بيده ، إن العذاب تدلى على أهل نجران ، ولو تلاعنوا لمسخوا قردة وخنازير » (١) .

ولنا أن نتصور تلك اللحظات الحرجة التي يتقاطر فيها الناس إلى هذا الاجتماع الحاشد ، ليبتهل الجميع إلى الله أن ينزل لعنته على الكاذب من الفريقين ، ومدى تأثير هذا الاجتماع في نفوس الحاضرين ، ومدى تساؤل الناس عن هذه العقائد ، وكأنها معركة العقيدة ، وكيف انجلى الحق عندما خاف النصارى وأبوا المباهلة ، وكانت فرحته مباركة لتطهير البيئة من العقائد المنحرفة ، ومن ثم يتلو ذلك التهديد دعوة أهل الكتاب إلى كلمة سواء : ﴿ **قل يا أهل الكتاب تعالوا إلى كلمة سواء بيننا وبينكم ألا نعبد إلا الله ولا نشرك به شيئا ولا يتخذ بعضنا بعضا أربابا من دون الله** ﴾.
آل عمران : ٦٤ .

★ ★ ★

---

(١) مجمع التفاسير ، تفسير الخازن جـ ١ ص ٥١٠ ــ ٥١١ ط إستنبول ١٩٧٩ ــ ١٣٩٩هـ .

الفصل الثانى

المنافقــون

« الآيات تتحدث عن المنافقين فى المدينة »

(١) النفاق فى المجتمع المدني :

(أ) النفاق فى اللغة وفى المفهوم الإسلامى .

(ب) بداية النفاق فى المجتمع المدني .

(جـ) عبدالله بن أبي يوسع حركة النفاق فى المجتمع المدني .

(٢) استغلال المنافقين لمجريات الأحداث :

(أ) تحركات المنافقين بعد غزوة بدر .

(ب) تكتل المنافقين مع اليهود .

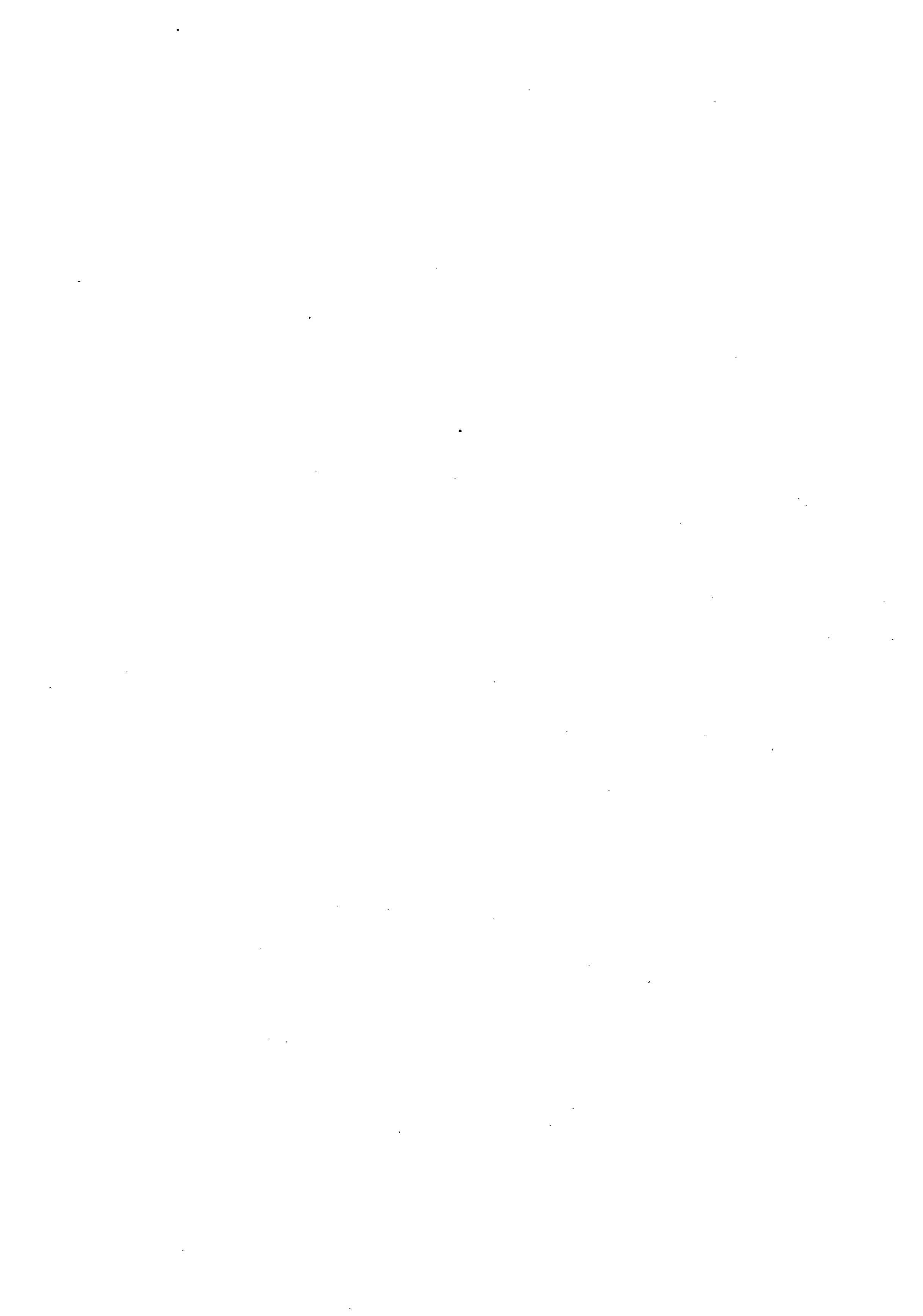
(جـ) استغلالهم لأحداث غزوة أحد .

(د) غزوة الأحزاب ودور المنافقين فيها .

(هـ) نشاط المنافقين فى غزوة بنى المصطلق .

(و) دور المنافقين فى غزوة تبوك .

(ز) المنافقون ومسجد الضرار .



« الآيات تتحدث عن المنافقين في المدينة »

يقول الحق عز وعلا :

وَمِنَ ٱلنَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِٱللَّهِ وَبِٱلْيَوْمِ ٱلْءَاخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّآ أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ ٱللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ لَا تُفْسِدُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ قَالُوٓا۟ إِنَّمَا نَحْنُ مُصْلِحُونَ ﴿١١﴾ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلْمُفْسِدُونَ وَلَٰكِن لَّا يَشْعُرُونَ ﴿١٢﴾ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ ءَامِنُوا۟ كَمَآ ءَامَنَ ٱلنَّاسُ قَالُوٓا۟ أَنُؤْمِنُ كَمَآ ءَامَنَ ٱلسُّفَهَآءُ ۗ أَلَآ إِنَّهُمْ هُمُ ٱلسُّفَهَآءُ وَلَٰكِن لَّا يَعْلَمُونَ ﴿١٣﴾ وَإِذَا لَقُوا۟ ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ قَالُوٓا۟ ءَامَنَّا وَإِذَا خَلَوْا۟ إِلَىٰ شَيَٰطِينِهِمْ قَالُوٓا۟ إِنَّا مَعَكُمْ إِنَّمَا نَحْنُ مُسْتَهْزِءُونَ ﴿١٤﴾ ٱللَّهُ يَسْتَهْزِئُ بِهِمْ وَيَمُدُّهُمْ فِى طُغْيَٰنِهِمْ يَعْمَهُونَ ﴿١٥﴾ أُو۟لَٰٓئِكَ ٱلَّذِينَ ٱشْتَرَوُا۟ ٱلضَّلَٰلَةَ بِٱلْهُدَىٰ فَمَا رَبِحَت تِّجَٰرَتُهُمْ وَمَا كَانُوا۟ مُهْتَدِينَ ﴿١٦﴾

البقرة : ٨ ــ ١٦

ثُمَّ أَنزَلَ عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾

آل عمران : ١٥٤

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَكُونُوا۟ كَٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ وَقَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ إِذَا ضَرَبُوا۟ فِى ٱلْأَرْضِ أَوْ كَانُوا۟ غُزًّى لَّوْ كَانُوا۟ عِندَنَا مَا مَاتُوا۟ وَمَا قُتِلُوا۟ لِيَجْعَلَ ٱللَّهُ ذَٰلِكَ حَسْرَةً فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ يُحْىِۦ وَيُمِيتُ ۗ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ بَصِيرٌ ﴿١٥٦﴾

آل عمران : ١٥٦

وَمَآ أَصَٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ

نَافَقُواْ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ قَٰتِلُواْ فِي سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُواْ قَالُواْ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَٰكُمْ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَٰنِ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِي قُلُوبِهِمْ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُواْ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُواْ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُواْ قُلْ فَٱدْرَءُواْ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

آل عمران : ١٦٦ ــ ١٦٨

مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِي مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ فَـَٔامِنُواْ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ وَإِن تُؤْمِنُواْ وَتَتَّقُواْ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾

آل عمران : ١٧٩

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

النساء : ١٣٧ ــ ١٣٨

ٱلَّذِينَ

يَتَرَبَّصُونَ بِكُمْ فَإِن كَانَ لَكُمْ فَتْحٌ مِّنَ ٱللَّهِ قَالُوٓاْ أَلَمْ نَكُن

مَّعَكُمْ وَإِن كَانَ لِلْكَـٰفِرِينَ نَصِيبٌ قَالُوٓا۟ أَلَمْ نَسْتَحْوِذْ عَلَيْكُمْ وَنَمْنَعْكُم مِّنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ۚ فَٱللَّهُ يَحْكُمُ بَيْنَكُمْ يَوْمَ ٱلْقِيَـٰمَةِ ۗ وَلَن يَجْعَلَ ٱللَّهُ لِلْكَـٰفِرِينَ عَلَى ٱلْمُؤْمِنِينَ سَبِيلًا ﴿١٤١﴾ إِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ يُخَـٰدِعُونَ ٱللَّهَ وَهُوَ خَـٰدِعُهُمْ وَإِذَا قَامُوٓا۟ إِلَى ٱلصَّلَوٰةِ قَامُوا۟ كُسَالَىٰ يُرَآءُونَ ٱلنَّاسَ وَلَا يَذْكُرُونَ ٱللَّهَ إِلَّا قَلِيلًا ﴿١٤٢﴾ مُّذَبْذَبِينَ بَيْنَ ذَٰلِكَ لَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ وَلَآ إِلَىٰ هَـٰٓؤُلَآءِ ۚ وَمَن يُضْلِلِ ٱللَّهُ فَلَن تَجِدَ لَهُۥ سَبِيلًا ﴿١٤٣﴾

النساء : ١٤١ ــ ١٤٣

* يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوا۟ ٱلْيَهُودَ وَٱلنَّصَـٰرَىٰٓ أَوْلِيَآءَ ۘ بَعْضُهُمْ أَوْلِيَآءُ بَعْضٍ ۚ وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَإِنَّهُۥ مِنْهُمْ ۗ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿٥١﴾ فَتَرَى ٱلَّذِينَ فِى قُلُوبِهِم مَّرَضٌ يُسَـٰرِعُونَ فِيهِمْ يَقُولُونَ نَخْشَىٰٓ أَن تُصِيبَنَا دَآئِرَةٌ ۚ فَعَسَى ٱللَّهُ أَن يَأْتِىَ بِٱلْفَتْحِ أَوْ أَمْرٍ مِّنْ عِندِهِۦ فَيُصْبِحُوا۟ عَلَىٰ مَآ أَسَرُّوا۟ فِىٓ أَنفُسِهِمْ نَـٰدِمِينَ ﴿٥٢﴾

المائدة : ٥١ ــ ٥٢

إِذۡ يَقُولُ ٱلۡمُنَٰفِقُونَ وَٱلَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ غَرَّ هَٰٓؤُلَآءِ دِينُهُمۡۗ وَمَن يَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِ فَإِنَّ ٱللَّهَ عَزِيزٌ حَكِيمٌ ﴿٤٩﴾

الأنفال : ٤٩

لَوۡ كَانَ عَرَضٗا قَرِيبٗا وَسَفَرٗا قَاصِدٗا لَّٱتَّبَعُوكَ وَلَٰكِنۢ بَعُدَتۡ عَلَيۡهِمُ ٱلشُّقَّةُۚ وَسَيَحۡلِفُونَ بِٱللَّهِ لَوِ ٱسۡتَطَعۡنَا لَخَرَجۡنَا مَعَكُمۡ يُهۡلِكُونَ أَنفُسَهُمۡ وَٱللَّهُ يَعۡلَمُ إِنَّهُمۡ لَكَٰذِبُونَ ﴿٤٢﴾

التوبة : ٤٢

* وَلَوۡ أَرَادُواْ ٱلۡخُرُوجَ لَأَعَدُّواْ لَهُۥ عُدَّةٗ وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمۡ فَثَبَّطَهُمۡ وَقِيلَ ٱقۡعُدُواْ مَعَ ٱلۡقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوۡ خَرَجُواْ فِيكُم مَّا زَادُوكُمۡ إِلَّا خَبَالٗا وَلَأَوۡضَعُواْ خِلَٰلَكُمۡ يَبۡغُونَكُمُ ٱلۡفِتۡنَةَ وَفِيكُمۡ سَمَّٰعُونَ لَهُمۡۗ وَٱللَّهُ عَلِيمُۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾ لَقَدِ ٱبۡتَغَوُاْ ٱلۡفِتۡنَةَ مِن قَبۡلُ وَقَلَّبُواْ لَكَ ٱلۡأُمُورَ حَتَّىٰ جَآءَ ٱلۡحَقُّ وَظَهَرَ أَمۡرُ ٱللَّهِ وَهُمۡ كَٰرِهُونَ ﴿٤٨﴾ وَمِنۡهُم مَّن يَقُولُ ٱئۡذَن لِّي وَلَا تَفۡتِنِّيٓۚ أَلَا فِي ٱلۡفِتۡنَةِ سَقَطُواْۗ وَإِنَّ جَهَنَّمَ لَمُحِيطَةُۢ بِٱلۡكَٰفِرِينَ ﴿٤٩﴾

التوبة : ٤٦ ــ ٤٩

وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾ وَمِنْهُم مَّن يَلْمِزُكَ فِى ٱلصَّدَقَٰتِ فَإِنْ أُعْطُوا۟ مِنْهَا رَضُوا۟ وَإِن لَّمْ يُعْطَوْا۟ مِنْهَآ إِذَا هُمْ يَسْخَطُونَ ﴿٥٨﴾

التوبة : ٥٦ ــ ٥٨

يَحْذَرُ ٱلْمُنَٰفِقُونَ أَن تُنَزَّلَ عَلَيْهِمْ سُورَةٌ تُنَبِّئُهُم بِمَا فِى قُلُوبِهِمْ ۚ قُلِ ٱسْتَهْزِءُوٓا۟ إِنَّ ٱللَّهَ مُخْرِجٌ مَّا تَحْذَرُونَ ﴿٦٤﴾ وَلَئِن سَأَلْتَهُمْ لَيَقُولُنَّ إِنَّمَا كُنَّا نَخُوضُ وَنَلْعَبُ ۚ قُلْ أَبِٱللَّهِ وَءَايَٰتِهِۦ وَرَسُولِهِۦ كُنتُمْ تَسْتَهْزِءُونَ ﴿٦٥﴾ لَا تَعْتَذِرُوا۟ قَدْ كَفَرْتُم بَعْدَ إِيمَٰنِكُمْ ۚ إِن نَّعْفُ عَن طَآئِفَةٍ مِّنكُمْ نُعَذِّبْ طَآئِفَةًۢ بِأَنَّهُمْ كَانُوا۟ مُجْرِمِينَ ﴿٦٦﴾ ٱلْمُنَٰفِقُونَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتُ بَعْضُهُم مِّنۢ بَعْضٍ ۚ يَأْمُرُونَ بِٱلْمُنكَرِ وَيَنْهَوْنَ عَنِ ٱلْمَعْرُوفِ وَيَقْبِضُونَ أَيْدِيَهُمْ ۚ نَسُوا۟ ٱللَّهَ فَنَسِيَهُمْ ۗ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٦٧﴾ وَعَدَ ٱللَّهُ ٱلْمُنَٰفِقِينَ وَٱلْمُنَٰفِقَٰتِ وَٱلْكُفَّارَ نَارَ جَهَنَّمَ خَٰلِدِينَ فِيهَا ۚ هِىَ حَسْبُهُمْ ۚ وَلَعَنَهُمُ ٱللَّهُ ۖ وَلَهُمْ عَذَابٌ مُّقِيمٌ ﴿٦٨﴾

التوبة : ٦٤ ــ ٦٨

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا

وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ

مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ

إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ

عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ

يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

التوبة : ١٠٧ ـ ١٠٨

وَإِذْ يَقُولُ الْمُنَافِقُونَ وَالَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ مَّا وَعَدَنَا اللَّهُ وَرَسُولُهُ إِلَّا غُرُورًا ﴿١٢﴾ وَإِذْ قَالَت

طَّائِفَةٌ مِّنْهُمْ يَا أَهْلَ يَثْرِبَ لَا مُقَامَ لَكُمْ فَارْجِعُوا ۚ

وَيَسْتَأْذِنُ فَرِيقٌ مِّنْهُمُ النَّبِيَّ يَقُولُونَ إِنَّ بُيُوتَنَا عَوْرَةٌ وَمَا

هِيَ بِعَوْرَةٍ ۖ إِن يُرِيدُونَ إِلَّا فِرَارًا ﴿١٣﴾

الأحزاب : ١٢ ـ ١٣

أَمْ حَسِبَ الَّذِينَ فِي قُلُوبِهِم

مَّرَضٌ أَن لَّن يُخْرِجَ اللَّهُ أَضْغَانَهُمْ ﴿٢٩﴾

محمد : ٢٩

وَيُعَذِّبَ

الْمُنَافِقِينَ وَالْمُنَافِقَاتِ وَالْمُشْرِكِينَ وَالْمُشْرِكَاتِ

ٱلظَّآنِّينَ بِٱللَّهِ ظَنَّ ٱلسَّوْءِ عَلَيْهِمْ دَآئِرَةُ ٱلسَّوْءِ وَغَضِبَ
ٱللَّهُ عَلَيْهِمْ وَلَعَنَهُمْ وَأَعَدَّ لَهُمْ جَهَنَّمَ وَسَآءَتْ مَصِيرًا ﴿٦﴾

الفتح : ٦

أَلَمْ

تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نُهُوا۟ عَنِ ٱلنَّجْوَىٰ ثُمَّ يَعُودُونَ لِمَا نُهُوا۟ عَنْهُ
وَيَتَنَٰجَوْنَ بِٱلْإِثْمِ وَٱلْعُدْوَٰنِ وَمَعْصِيَتِ ٱلرَّسُولِ وَإِذَا
جَآءُوكَ حَيَّوْكَ بِمَا لَمْ يُحَيِّكَ بِهِ ٱللَّهُ وَيَقُولُونَ فِىٓ أَنفُسِهِمْ
لَوْلَا يُعَذِّبُنَا ٱللَّهُ بِمَا نَقُولُ حَسْبُهُمْ جَهَنَّمُ يَصْلَوْنَهَا
فَبِئْسَ ٱلْمَصِيرُ ﴿٨﴾

المجادلة : ٨

* أَلَمْ تَرَ إِلَى ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ يَقُولُونَ

لِإِخْوَٰنِهِمُ ٱلَّذِينَ كَفَرُوا۟ مِنْ أَهْلِ ٱلْكِتَٰبِ لَئِنْ أُخْرِجْتُمْ
لَنَخْرُجَنَّ مَعَكُمْ وَلَا نُطِيعُ فِيكُمْ أَحَدًا أَبَدًا وَإِن قُوتِلْتُمْ
لَنَنصُرَنَّكُمْ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١١﴾ لَئِنْ أُخْرِجُوا۟
لَا يَخْرُجُونَ مَعَهُمْ وَلَئِن قُوتِلُوا۟ لَا يَنصُرُونَهُمْ وَلَئِن نَّصَرُوهُمْ
لَيُوَلُّنَّ ٱلْأَدْبَٰرَ ثُمَّ لَا يُنصَرُونَ ﴿١٢﴾

الحشر : ١١ ــ ١٢

إِذَا جَآءَكَ ٱلْمُنَٰفِقُونَ قَالُوا۟ نَشْهَدُ إِنَّكَ لَرَسُولُ ٱللَّهِ
وَٱللَّهُ يَعْلَمُ إِنَّكَ لَرَسُولُهُۥ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ

لَكَٰذِبُونَ ﴿١﴾ ٱتَّخَذُوٓاْ أَيْمَٰنَهُمْ جُنَّةً فَصَدُّواْ عَن سَبِيلِ
ٱللَّهِ ۚ إِنَّهُمْ سَآءَ مَا كَانُواْ يَعْمَلُونَ ﴿٢﴾

المنافقون : ١ ــ ٢

وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْاْ يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ
رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْاْ رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم
مُّسْتَكْبِرُونَ ﴿٥﴾ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ
تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ
ٱلْفَٰسِقِينَ ﴿٦﴾ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُواْ عَلَىٰ مَنْ
عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّواْ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَٰوَٰتِ
وَٱلْأَرْضِ وَلَٰكِنَّ ٱلْمُنَٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ﴿٧﴾

المنافقون : ٥ ــ ٧

* * *

(١) النفاق فى المجتمع المدني :

(أ) ــ النفاق في اللغة وفي المفهوم الإسلامي :

« نَفَقَ اليَربوعُ ونَفَّقَ وانْتَفَقَ ونَفَقَ : خرج منه . وتَنَفَّقه وانْتَفقه : استخرجه من نافِقائه . قال أبوعبيد : سُميّ المنافق منافقا للنفق ، وهو السرب في الأرض ، وقيل : إنما سمِّى منافقا لأنه نافق كاليربوع وهو دخوله نافقاءه .

يقال : قد نفق به ونافقه . وله جحر آخر يقال له : القاصعاء ، فإذا طلب قصع فخرج من القاصعاء ، فهو يدخل في النافقاء ويخرج من القاصعاء ، أو يدخل في القاصعاء ويخرج من النافقاء ، فيقال : هكذا يفعل المنافق ، يدخل في الإسلام ثم يخرج منه من غير الوجه الذي دخل فيه .وقد تكرر في الحديث ذكر النفاق وما تصرف منه اسما وفعلا ، وهو اسم إسلامي لم تعرفه العرب بالمعنى المخصوص به ، وهو الذي يستر كفره ويظهر إيمانه ، وإن كان أصله في اللغة معروفا . يقال : نافق ينافق منافقة ونفاقا ، وهو مأخوذ من النافقاء لا من النفق وهو السرب الذي يستتر فيه لستره كفره . وفي الحديث حنظلة : نافق حنظلة ، أراد أنه إذا كان عند النبي ﷺ ، أخلص وزهد في الدنيا ، وإذا خرج عنه ترك ما كان عليه ورغب فيها » (١) .

« ونافق في الدين : ستر كفره وأظهر إيمانه » (٢) .

« والمنافق كالضب ألف المراوغة والخداع ، فالضب يدخل جحره من باب واضح ثم يهرب إذا شعر بالخطر من باب خفي آخر تتعذر رؤيته ، وكذلك المنافق يدخل الإسلام من باب ظاهر ، فينطق بالشهادتين ، ويصلى مع الناس ، ثم يخرج من الإسلام من باب آخر من الصعب مشاهدته ، ولو شاهده الناس عند نقضه وخروجه عن الإسلام لأُقيم عليه حد الرده » (٣) .

---

(١) لسان العرب : مادة (نفق) ــ م ٣ ص ٦٩٤ ط ١٣٨٩ دار لسان العرب ــ بيروت .

(٢) ترتيب القاموس المحيط للأستاذ الطاهر أحمد الزاوي . ط الثانية عيسى البابي الحلبي وشركاه ــ مادة (نفق) .

(٣) النفاق : آثاره ومفاهيمه للشيخ عبدالرحمن الدوسري ص ١٠٧ مكتبة دار القلم .

وعرف « ابن كثير » النفاق في المفهوم الإسلامي فقال : « النفاق هو إظهار الخير وإسرار الشر ، وهو أنواع : اعتقادي : وهو الذي يخلد صاحبه في النار . وعملي : وهو من أكبر الذنوب . كما قال ابن جريج : المنافق يخالف قوله فعله ، وسره علانيته ، ومدخله مخرجه ، ومشهده مغيبه » (١) .

وهناك آيات عديدة تصور هذه المفاهيم بصورة تجسيدية ، يقول الحق عز وعلا : ﴿ وَمِنَ النَّاسِ مَن يَقُولُ ءَامَنَّا بِاللَّهِ وَبِالْيَوْمِ الْآخِرِ وَمَا هُم بِمُؤْمِنِينَ ﴿٨﴾ يُخَادِعُونَ اللَّهَ وَالَّذِينَ ءَامَنُوا وَمَا يَخْدَعُونَ إِلَّا أَنفُسَهُمْ وَمَا يَشْعُرُونَ ﴿٩﴾ فِي قُلُوبِهِم مَّرَضٌ فَزَادَهُمُ اللَّهُ مَرَضًا وَلَهُمْ عَذَابٌ أَلِيمٌ بِمَا كَانُوا يَكْذِبُونَ ﴿١٠﴾ ﴾ البقرة : ٨ — ١٠

لقد كانت هذه حقيقة واقعة في المدينة ، فالمنافقون يدّعون الإيمان بالله وباليوم الآخر ظانّين في أنفسهم الذكاء والدهاء ، وهم في الحقيقة ليسوا بمؤمنين ، وإنما هم منافقون ، لا يجرؤون على الإنكار والتصريح بحقيقة نواياهم في مواجهة المؤمنين ، وهذا فعل المنافق ، وهو كما قال أبوزيد : الدخول في الإسلام من وجه.والخروج عنه من وجه آخر . (٢) .

﴿ **في قلوبهم مرض** ﴾ وهذا ما يحيد بهم عن الطريق الواضح المستقيم ، ويجعلهم يستحقون أن يزيدهم الله مما هم فيه ﴿ **فزادهم الله مرضاً** ﴾ . .

ومن هذه الحقائق كما يصورها القرآن : ﴿ وَيَقُولُونَ طَاعَةٌ فَإِذَا بَرَزُوا مِنْ عِندِكَ بَيَّتَ طَائِفَةٌ مِّنْهُمْ غَيْرَ الَّذِي تَقُولُ

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٧٤ .

(٢) راجع اللسان : ص ٦٩٤ — مادة نفق .

﴿ وَٱللَّهُ يَكۡتُبُ مَا يُبَيِّتُونَۖ فَأَعۡرِضۡ عَنۡهُمۡ وَتَوَكَّلۡ عَلَى ٱللَّهِۚ وَكَفَىٰ بِٱللَّهِ وَكِيلًا ۝٨١ أَفَلَا يَتَدَبَّرُونَ ٱلۡقُرۡءَانَۚ وَلَوۡ كَانَ مِنۡ عِندِ غَيۡرِ ٱللَّهِ لَوَجَدُواْ فِيهِ ٱخۡتِلَٰفًا كَثِيرًا ۝٨٢ ﴾ النساء : ٨١ ــ ٨٢

صورة حية من صور المنافقين ، إن هذا الفريق من الناس إذا كان عند رسول الله ﷺ يسمع منه القرآن وما فيه من التكاليف ، ويتظاهر بالاستجابة ، ويقولون « طَاعَةٌ » ، وإذا ما خرج من مجلس رسول الله ﷺ بدأ يتآمر ويتخذ الخطط للتخلص من التكاليف ، والله سبحانه وتعالى يُطَمْئِنُ المؤمنين بأن عينه على هذا الفريق الذي يبيت ويمكر ﴿ **والله يكتب مايبيتون** ﴾ .

وكانت الطريقة التي وجه الله إليها نبيه في معاملة المنافقين هي أخذهم بظاهرهم لا بحقيقة نواياهم والإعراض والتغاضى عما يبدر منهم : ﴿ **فأعرض عنهم** ﴾ .

وزيادة في الإيضاح عن النفاق وأهله يضرب القرآن الأمثال لهذه الطائفة ، ويكشف عن طبيعتها وتقلباتها وتأرجحها ليزيد هذه الطبيعة جلاء وإيضاحا : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً فلما أضاءت ما حوله ذهب الله بنورهم وتركهم في ظلمات لا يبصرون** ﴾ .

يقول الزمخشري في الكشاف عند قوله تعالى : ﴿ **مثلهم كمثل الذي استوقد ناراً** ﴾ ولضرب العرب الأمثال واستحضار العلماء المثل والنظائر شأن ليس بالخفي في إبراز خبيئات المعاني ، ورفع الأستار عن الحقائق ، حتى تريك المتخيل في صورة المحقق ، والمتوهم في معرض المتيقن ، والغائب كأنه مشاهد . (١) .

ومثل آخر يصور حالهم ، ويرسم ما في نفوسهم من اضطراب وحيرة وقلق ومخافة :

---

(١) الكشاف ج ١ ص ١٩٥ ــ ط دار المعارف ــ بيروت .

أَوْ كَصَيِّبٍ مِّنَ ٱلسَّمَآءِ فِيهِ ظُلُمَٰتٌ وَرَعْدٌ وَبَرْقٌ يَجْعَلُونَ أَصَٰبِعَهُمْ فِىٓ ءَاذَانِهِم مِّنَ ٱلصَّوَٰعِقِ حَذَرَ ٱلْمَوْتِ ۚ وَٱللَّهُ مُحِيطٌۢ بِٱلْكَٰفِرِينَ ﴿١٩﴾ يَكَادُ ٱلْبَرْقُ يَخْطَفُ أَبْصَٰرَهُمْ ۖ كُلَّمَآ أَضَآءَ لَهُم مَّشَوْا۟ فِيهِ وَإِذَآ أَظْلَمَ عَلَيْهِمْ قَامُوا۟ ۚ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَذَهَبَ بِسَمْعِهِمْ وَأَبْصَٰرِهِمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ قَدِيرٌ ﴿٢٠﴾

البقرة : ١٩ ــ ٢٠

وقيل ﴿ **أو كصيب من السماء** ﴾ أي مثل المنافقين في القرآن مع القرآن كقوم نزلوا في فلاة ليلا ، فجاءهم مطر شديد ، وإنما شبه القرآن بالمطر لأن حياة الناس في المطر كما أن في القرآن حياة ومنفعة لمن آمن به . فمثل المنافقين بتكذيب القرآن كمثل مطر نزل من السماء ليلا قرا وفيه البرق وشدة الرعد . (١) .

إنه مشهد عجيب حافل بالحركة مشوب بالاضطراب فيه تيه وضلال وفيه هول ورعب وفيه فزع وحيرة وفيه أضواء وأصداء : صيب من السماء هاطل غزير ﴿ **فيه ظلمات ورعد وبرق** ﴾ .

﴿ **كلما أضاء لهم مشوا فيه** ﴾ . ﴿ **وإذا أظلم عليهم قاموا** ﴾ : أي وقعوا حائرين لا يدرون أين يذهبون ، وهم مفزعون . يجعلون أصابعهم في آذانهم من الصواعق حذر الموت » (٢) .

وقد وضح صاحب الكشاف هذا المثل قائلا : فإن قلت : قد شبه المنافق في التمثيل الأول بالمستوقد نارا ، وإظهاره الإيمان بالإضاءة ، وانقطاع انتفاعه بانطفاء النار ، فماذا شبه في التمثيل الثاني بالصيب وبالظلمات وبالرعد وبالبرق وبالصواعق . قلت : لقائل أن يقول شبه دين الإسلام

---

(١) الأمثال من الكتاب والسنة لأبي عبدالله محمد بن على الحكيم الترمذي ص ٥ ، ٦ ط دار النهضة بمصر .

(٢) الظلال م ١ ص ٤٦ .

بالصّيب لأن القلوب تحيا به حياة الأرض بالمطر وما يتعلق به من شبه الكفار بالظلمات ، وما فيه من الوعد والوعيد بالرعد والبرق ، وما يصيب الكفره من الأفزاع والبلايا والفتن من جهة أهل الإسلام بالصواعق ، والمعنى : أو كمثل ذوي صيب » (١) .

وفي الحاشية « فإن قيل أين للمنافقين دين تحيا به القلوب حتى يشبه بالصيب ؟ أجيب : بأنهم متلبسون بدين الإسلام الذي فيه حياة العرب لكن على وجه النفاق ، فيكابدون لذلك أفزاعا وبلايا ، فحالهم بالنسبة إليه كحال القوم بالقياس إلى الصَّيب » (٢) .

والآيات تصف المنافقين ، وتصور طبيعتهم بالتعبيرات البليغة وبالأمثال البديعة ، وترسم صورا زرية لهم من واقع ما كانوا يقومون به في المجتمع ، ومن واقع مواقفهم المريبة حسب الظروف وهم يلقون المسلمين ، وهذه السمات والصفات واضحة المعالم كي لا يقع المسلمون في حبائلهم ، وهي ترشد المسلمين إلى الابتعاد عن المنافقين واجتناب مجالسهم .

★ ★ ★

---

(١) الكشاف جـ ١ ص ٢٠٩ .
(٢) الكشاف جـ ١ ص ٢٠٩ ، ٢١٠ .

(ب) بداية النفاق في المجتمع المدني

الظاهرة الواضحة التي يلمسها المؤمن عند تلاوته للآيات البينات أن صفات المنافقين في السور المدينة تتواجد مجتمعة ومتفرقة ، بينما السور المكية لا تكاد تذكر شيئا من ذلك ، لأن مكة لم يكن فيها نفاق ، بل كان على العكس وظروف مكة كانت تتطلب أن يظهر البعض الكفر مضطرا وهو في الحقيقة مؤمن ، « فلما قدم رسول الله ﷺ على المدينة ، وأسلم من أسلم من الأنصار من قبيلتي الأوس والخزرج ، وقلَّ من أسلم من اليهود إلا عبدالله بن سلام ، ولم يكن إذ ذاك نفاق ، لأنه لم يكن للمسلمين بعد شوكة تخاف ، بل قد كان عليه الصلاة والسلام وادع اليهود وقبائل كثيرة من أحياء العرب حوالي المدينة ، فلما كانت وقعة بدر العظمى وأظهر الله كلمته ، وأعز الإسلام وأهله ، قال عبدالله بن سلول : هذا أمر قد توجه . فأظهر الدخول في الإسلام ، ودخل معه طوائف ممن هم على طريقته ونحلته وآخرون من أهل الكتاب ، فمن ثم وجد النفاق في أهل المدينة ومن حولها من الأعراب » (١) .

وإذا لم تتجرد النفس لله ، ولم تتحرر من ضغط القيم والأوضاع والضرورات والمصالح والإعجاب بالنفس والتطلع إلى المنصب ، فهنا تبذر بذرة النفاق ، ويبدأ التردد ، وتصاب النفس بمرض التذبذب ، كما يعبر القرآن عن هذه الظاهرة

إِنَّ ٱلَّذِينَ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ءَامَنُواْ ثُمَّ كَفَرُواْ ثُمَّ ٱزْدَادُواْ كُفْرًا لَّمْ يَكُنِ ٱللَّهُ لِيَغْفِرَ لَهُمْ وَلَا لِيَهْدِيَهُمْ سَبِيلًا ﴿١٣٧﴾ بَشِّرِ ٱلْمُنَٰفِقِينَ بِأَنَّ لَهُمْ عَذَابًا أَلِيمًا ﴿١٣٨﴾

النساء : ١٣٧ ـ ١٣٨

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٤٨ .

« يعني إن المنافقين من هذه الصفة ، فإنهم آمنوا ، ثم كفروا ، فطبع على قلوبهم ، ثم وصفهم بأنهم يتخذون الكافرين أولياء من دون المؤمنين ، ويسرون إليهم بالمودة » (١) وهكذا تكشفت اللمسة الأولى عن طبيعة المنافقين وصفتهم الأولى ، وهي ولاية الكافرين دون المؤمنين . وتستطرد الآيات تبين سمات المنافقين ، وترسم لهم صورة منفرة وهم يلقون المسلمين بوجه ويلقون الكفار بوجه : ﴿ **الذين يتربصون بكم فإن كان لكم فتح من الله قالوا ألم نكن معكم وإن كان للكافرين نصيب قالوا ألم نستحوذ عليكم ونمنعكم من المؤمنين فالله يحكم بينهم يوم القيامة ولن يجعل الله للكافرين على المؤمنين سبيلا . إن المنافقين يخادعون الله وهم خادعهم وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى يراءون الناس ولا يذكرون الله إلا قليلا . مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء ومن يضلل الله فلن تجد له سبيلا** ﴾ (٢) .

وهكذا كانت الآيات تكشف حقائق المنافقين وضغائنهم منذ بداية النفاق ، وتصورهم بصور كريهة لتثير في نفوس المؤمنين الاحتقار والاشمئزاز نحو هذه الفئة ، ليوهن العلائق الشخصية والمصلحية . فالمؤمن يعرف في هذا المجتمع : ﴿ **قد أفلح المؤمنون.الذين هم في صلاتهم خاشعون** ﴾ ، والمنافق يتعرف عليه عند ذهابه إلى المسجد بهذه الصورة : ﴿ **وإذا قاموا إلى الصلاة قاموا كسالى** ﴾ ، وأما في صدقه نحو هذا المجتمع وأفراده وقيمه فموقعه يصوره القرآن بقوله : ﴿ **مذبذبين بين ذلك لا إلى هؤلاء ولا إلى هؤلاء** ﴾ ، وموقف الذبذبة والأرجحة في هذه البيئة المتطورة التي تتطلب الصدق والحزم والجزم في تأسيس هذا المجتمع موقف فاضح يستشري نبته ، فيزكم أنوف الصالحين ، فلا يبقى النفاق تحت ستار كثيف .

علاوة على ذلك فقد كان المنافقون يتخذون مواقف العداء لعرقلة سير الدعوة ، ويضعون العقبات في سبيل تنظيم المجتمع . ولكنها عقبات هي نتاج فكر مضطرب مذبذب ، فلا يستطيع الصمود تحت سنابك جياد الحق العاديات ضبحاً ، الرافعات لواء الإيمان النصوح .

---

(١) تفسير ابن كثير جـ ١ ص ٥٦٧ .

(٢) النساء : ١٤١ إلى ١٤٣ .

(جـ)-عبدالله بن أبي يوسع حركة النفاق في المجتمع المدني :

كان الموكب النبوي يشق طريقه وسط أجواء المدينة المنورة ، وكانت عقبات في طريقة تطوير هذا المجتمع تعترض بين حين وآخر منذ البداية ، وكان نبي هذه الأمة ﷺ يجتازها بالحكمة والموعظة الحسنة .

روى مسلم في صحيحه أن النبي ﷺ ركب حمارا عليه عكاف تحته قطيفة تركية ، وأردف وراءه أسامة وهو يعود سعد بن عباده في بني الحارث بن الخزرج وذاك قبل وقعة « بدر » ، حتى مر بمجلس فيه أخلاط من المسلمين والمشركين عبدة الأوثان واليهود ، فيهم عبدالله بن أبي أنفه بردائه ، ثم قال : لا تغبرِّوا علينا ، فسلم عليهم النبي ﷺ ، ثم وقف فنزل ، فدعاهم إلى الله وقرأ عليهم القرآن ، فقال عبدالله بن أبي : أيها المرء لا أحسن من هذا ، إن كان ما تقول حقا فلا تؤذنا في مجالسنا ، وارجع إلى رحلك ، فمن جاءك منا فاقصص عليه ، فقال عبدالله بن رواحة : أغشنا في مجالسنا فإنا نحب ذلك . قال فاستب المسلمون والمشركون واليهود حتى هموا أن يتواثبوا ، فلم يزل النبي ﷺ يخفضهم ، ثم ركب دابته حتى دخل على سعد بن عبادة ، فقال :**أي سعد، ألم تسمع ما قال أبو حباب**(يريد عبدالله بن أبي) ؟ قال : **كذا وكذا** ، قال : اعف عنه يارسول الله واصفح ، فوالله لقد أعطاك الله الذي أعطاك ، ولقد اصطلح أهل هذه البحيرة (١) أن يتوجوه فيعصبوه بالعصابة ، فلما رد الله ذلك بالحق الذي أعطاكه شرِقَ (٢) بذلك ، فذلك فعل به ما رأيت . فعفا عنه النبي ﷺ (٣) .

فحديث مسلم يصور أزقة وشوارع وساحات المدينة المنورة ، وكيف كانت مجالسها ومنتدياتها تشهد أخلاطا من المشركين والمنافقين واليهود ، ومدى صعوبة تطوير هذه البيئة وتهذيبها وتطهيرها .

---

(١) القرية أو المدينة .

(٢) أي غص وحسد النبي ﷺ .

(٣) صحيح مسلم بشرح النووي ــ كتاب الجهاد والسير ــ جـ ١٢ / ص ١٥٧ دار الفكر .

وكان لعبدالله بن أبي ــ كغيره من رؤساء القبائل ــ أتباع يسيرون وراءه حيثما سار ، وقد بدأ يتحرك ليكسب أعوانا وأنصارا لنفسه من الأعراب واليهود وغيرهم ، فتحالف سرا مع يهود المدينة ضد هذا الدين الجديد ، وجمع من استطاع من حلفائه وأعدائه السابقين من عربان البدو الضاربين حول المدينة . (١) .

كان المنافقون يتمثلون في طائفة من عرب المدينة من الأوس والخزرج ، ومن بعض المتهودة ، ومن رجال بعض البطون اليهودية الصغيرة ، وقد التفوا حول زعيمهم عبدالله بن أبي ، كما التف حوله اليهود لاتفاق مصلحة الطرفين ، وقد ظل خطر المنافقين على الدولة كبيرا ما ظل اليهود في المدينة ، إذ إنهم كانوا على صلة دائمة بهم ، بل إن اليهود كانوا يذكون نار النفاق في المدينة ، فلما تم تطهيرها من اليهود ضعف أمر النفاق . (٢)

والثابت أن بعضا من أهل المدينة قد أظهر الإسلام نفاقا قبل أن يظهره ابن أبي ، ولا يبعد أن يكون ذلك قد تم بإيعازه وتحت إرشاده ، ليضع في صفوف المسلمين وبين ثناياهم عيونا وأرصادا تعينه على الغرض وتهيئة التدابير . (٣) .

★ ★ ★

---

(١) النفاق والمنافقون لإبراهيم علي سالم ص ٤٥ ــ مطبعة حسني .
(٢) مكة والمدينة في الجاهلية وعهد الرسول / لإبراهيم شريف ص ٤١٥ و٤١٨ ط الثانية ــ دار الفكر العربي .
(٣) النفاق والمنافقون ص ٤٦ .

(٢) استغلال المنافقين لمجريات الأحداث :

(أ) ـــ تحركات المنافقين بعد غزوة بدر :

كان انتصار المسلمين في بدر طعنة شديدة في صدر عبدالله بن أبي وصدور أتباعه ، كما كانت طعنة شديده في صدور اليهود .

يقول الواقدي : « لما قدم الرسول ﷺ بالأسرى أذل الله بذلك رقاب المشركين والمنافقين واليهود ، ولم يبق بالمدينة يهودي ولا منافق إلا خضد عنقه لغزوة بدر » (١) .

« وكان مشركو يثرب وبعض المنافقين قد منوا أنفسهم بهزيمة المسلمين ، فقال رجل منهم وهو يرى أسامة بن زيد قادما من ساحة القتال : « قتل صاحبكم ومن معه » ، وقال آخر : « قد تفرق أصحابكم تفرقا لا يجتمعون بعده وقتل محمد ، وهذه ناقته نعرفها ، وهذا زيد لايدري ما يقول من الرعب » (٢) .

ولكن سرعان ما تبددت تلك الأراجيف ، وعلمت أنحاء المدينة المنورة وما جاورها من البلاد حقيقة انتصار المسلمين ، فأسلم كثير ممن لم يسلم من أهل المدينة (٣) ، وشعر المنافقون بإحراج شديد ، ووجدوا أن خير وسيلة للخروج من هذا المأزق هو أن يعلنوا إسلامهم ، ويبقوا على اعتقاداتهم وعلاقاتهم ، وبهذا ينجون من شبح العقاب ، فاضطر عبدالله بن أبي بن سلول أن يذهب إلى النبي ﷺ ويظهر إسلامه ، وقلده أتباعه . (٤) .

منذ ذلك الحين برزت إلى المجتمع المدني قوة جديدة في مواجهة الجماعة المؤمنة ، وسببت لها الكثير من المتاعب والمحن ، ووضعت في دروبها

---

(١) كتاب المغازى لمحمد عمر الواقدى ط اكسفورد ١٩٦٦م .

(٢) أنساب الأشراف لأحمد بن يحيى بن جابر البلاذري جـ ١ ص ٢٩٤ ط / ١٩٥٧ تحقيق حميد الله .

(٣) النفاق والمنافقون ص ٥٠ .

(٤) نفس المصدر ص ٥٠ .

الكثير من الحواجز والعقبات ، ومارست إزاءها عمليات تخريبية لاحصر لها ، والآيات التي تتضمن تحركات وأوصاف المنافقين والحملات عليهم كثيرة جدا ، حتى لا تكاد تخلو سورة مدنية منها وخاصة الطويلة والمتوسطة .

وكانوا يستغلون مجريات الأحداث ، وكانت بداية تحركاتهم مع معركة بدر عندما تحرك جيش المسلمين نحو الساحة ، حيث أبدوا شماتتهم التي يشير إليها القرآن الكريم بقوله تعالى : ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض غر هؤلاء دينهم ومن يتوكل على الله فإن الله عزيز حكيم** ﴾ (١) .

قال ابن جرير عن الحسن في هذه الآية قال : هم قوم لم يشهدوا القتال يوم بدر فسموا منافقين (٢) ، لأن المنافقين والذين في قلوبهم مرض لا يدركون حقيقة أسباب النصر وأسباب الهزيمة ، فهم يرون ظواهر الأمور دون أن تهديهم بصائرهم إلى بواطنها ، فلا غرو أن ينظروا إلى المسلمين وهم يتحركون نحو بدر على أنهم مخدوعون في موقفهم مغرورون بدينهم واردون موارد التهلكة بتعرضهم لجحافل المشركين التي يرونها .

* * *

---

(١) سورة الأنفال : ٤٩ .

(٢) تفسير ابن كثير جـ ٢ ص ٣٢٠ .

(ب) تكتل المنافقين مع اليهود :

ومن الظواهر التى تستحق الدراسة والبحث ظاهرة تكتل المنافقين مع اليهود ، وتعاطف بعضهم مع بعض ، ووقوفهم مع الفئة المعادية للإسلام ، لتشكيل جبهة واحدة ضد المسلمين ، والقرآن يشير إلى هذه الظاهرة ، وينبه المسلمين نحوها بصيغة استفهامية بليغة فيقول : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون . لئن أخرجوا لا يخرجون معهم ولئن قوتلوا لا ينصرونهم ولئن نصروهم ليولن الأدبار ثم لا ينصرون** ﴾[1] .

الآيات تصور تكتل المنافقين مع اليهود ، وتلفت النظر بأسلوب استفهامى إنكارى . إنها ظاهرة تتطلب الوقوف والتبيين، واتخذ القرآن هذا الحدث والتكتل طريقاً لتربية النفوس وربطها بالحقائق الواقعة أمام الناس ، فقد انكشف المنافقون فى غزوة بنى النضير وهم يتحركون لمساندة اليهود ، فعندما ضيق المسلمون عليهم الخناق بسبب خياناتهم ، قال المنافقون لليهود : ﴿ **لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم** .. ﴾ أى لئن أخرجتم من دياركم ومنازلكم لنخرجن معكم ولا نطيع أحداً سألنا خذلانكم وترك نصركم ، وإن قاتلكم المسلمون فنحن معكم نناصركم ونعينكم عليهم ، فلا تهتموا — أيها اليهود — بل اجتهدوا فى قتالهم . لكن الله عز وجل الخبير بحقيقتهم رد عليهم زعمهم هذا بقوله : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ [2] ، وظواهر الكذب يجليها القرآن الكريم عن طريق خصائص ودلالات التركيب الذى حكاه عنهم ، حيث أقيم أسلوبهم على ظاهرة التأكيد المكثف : القسم وإن فى : ﴿ **لئن أخرجتم لله** ﴾ ، واللام ونون التوكيد فى : ﴿ **لنخرجن** ﴾ ، وادعاء الصحبة فى : ﴿ **معكم** ﴾ ، والعموم فى النكرة ﴿ **أحداً** ﴾ فى سياق النفى ، والتأييد فى قولهم : ﴿ **أبداً** ﴾ ، واللام ونون التوكيد فى : ﴿ **لننصرنكم** ﴾ .

---

(١) الحشر : ١١ ، ١٢ .

(٢) بنو إسرائيل فى الكتاب والسنة ، ج ١ ص ٣٠٥ .

كل هذه الظواهر الأسلوبية تكشف عن عمق ما تغلغل فيهم من كذب أخذ بخناقهم ، فأدركوا أن مواقفهم بحاجة إلى تأكيد فأغدقوا هذه المؤكدات حتى ينتزعوا بها ما أفعم قلوب أصحابهم اليهود من عدم اطمئنان إلى قولهم .

وقد أكد الله صراحة الحكم عليهم بالكذب بقوله : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ ، فقدم اسمه الجليل ، وبنى عليه الفعل ﴿ **يشهد** ﴾ ، وذلك مما يعده البلاغيون سبيلا من سبل الإبلاغ فى تقرير المعنى ، وكذلك التأكيد بإن وباللام فى ﴿ **إنهم لكاذبون** ﴾ ، فقابل مؤكداتهم الفاجرة الكاذبة بمؤكدات من معين الحق ، اجتث بها شجرة الكذب والإفك التى أراد المنافقون غرسها ورعايتها .

وفى وسط الأحداث يتحدث القرآن عنهم فيقول : ﴿ **فترى الذين فى قلوبهم مرض يسارعون فيهم يقولون نخشى أن تصيبنا دائرة فعسى الله أن يأتى بالفتح أو أمر من عنده فيصبحوا على ما أسروا فى أنفسهم نادمين** ﴾ [1] .

والآية تتحدث عن موقف مثير يتجلى فيه مسلكان :

مسلك المنافقين يتمثل فى موقف عبد الله بن أبى سلول ، وموقف المؤمنين يتجلى فى كلمات عبادة بن الصامت رضى الله تعالى عنه .

فقد كان اعتذار عبد الله بن أبى سلول وهو من الذين فى قلوبهم مرض عن مسارعته فى الولاء لليهود هى قوله : إننى رجل أخشى الدوائر ، وهى كلمة تنبىء عن مرض القلب وضعف الإيمان ، وهو تصور كل منافق مريض القلب .

أما قلب المؤمن الحى المتدفق بالحيوية والولاء لله ورسوله هو قلب الصحابى الجليل عبادة بن الصامت عندما نفر من ولاء اليهود بعدما بدا منهم ما بدا ، فخلع ولاء اليهود وقذف به .

---

(١) المائدة : ٥٢ .

قال ابن جرير : حدثنا أبو كريب ، حدثنا ابن إدريس قال : سمعت أبي بن عطية بن سعد قال : جاء عبادة بن الصامت من بنى الحارث بن الخزرج إلى رسول الله ﷺ ، فقال : يا رسول الله ، إن لى موالى من يهود كثيراً عددهم ، وإنى أبرأ إلى الله ورسوله من ولاية يهود ، وأتولى الله ورسوله ، فقال عبد الله بن أبي : إنى رجل أخاف الدوائر لا أبرأ من ولاية موالى ، فقال رسول الله ﷺ لعبدالله بن أبي : « **يا أبا الحباب ، ما بخلت به من ولاية يهود على عبادة بن الصامت ، فهو لك دونه** » قال : قد قبلت ، فأنزل الله عز وجل ﴿ **يا أيها الذين آمنوا لا تتخذوا اليهود والنصارى أولياء** ﴾ (١) الآيتين .

إنهما منهجان مختلفان ناشئان عن تصورين مختلفين وعن شعورين متباينين فى بيئة نامية تنظم فيها الأسس والمعايير للارتباطات والعلاقات حسب التوجيهات القرآنية .

ولم يحارب الرسول ﷺ المنافقين محاربة العداء إنما ظل هؤلاء مختلطين بالمجتمع لحكمة يريدها الله تعالى لابتلاء المؤمنين بهم عبر الأيام والسنين ، وليكون المجتمع المدنى بكل فئاته نبراساً يحتذى به ، ومناراً يتطلع إليه المسلمون لإعادته كلما أتيحت لهم الفرصة ، وكذلك فإن هذا النمط من السلوك يبين كياسة الرسول ﷺ وحرصه على عدم تبديد طاقة المسلمين فى مسارب فرعية ، وفيها إشارة إلى عظم التحديات التى واجهها عليه الصلاة والسلام وهو يعمل على بناء هذا المجتمع الجديد .

وبينما كان هذا التكتل فى عنفوان قوته كان المجتمع المدنى فى أوائل نشاطه وتنظيمه ، فيه الصفوة المختارة من السابقين إلى الإسلام من المهاجرين والأنصار ، ولكن فيه كذلك نفوس وشخصيات لم تنضج بعد ، ومن ثم كانت هناك خلخلة فى المجتمع بسبب وجود هذه العناصر مندمجة فى البيئة وممثلة فى مجرياتها ، كما ينجلى ذلك فى أحداث غزوة أحد .

---

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ١٠٩ .

(ج) استغلالهم لأحداث غزوة أحد :

كانت معركة أحد أولى المواقع التى كشفت عن المنافقين ، وسجلت تحركاتهم وانتعاشتهم ، وقد أشار القرآن الكريم إلى ذلك :

﴿مَّا كَانَ ٱللَّهُ لِيَذَرَ ٱلْمُؤْمِنِينَ عَلَىٰ مَآ أَنتُمْ عَلَيْهِ حَتَّىٰ يَمِيزَ ٱلْخَبِيثَ مِنَ ٱلطَّيِّبِ ۗ وَمَا كَانَ ٱللَّهُ لِيُطْلِعَكُمْ عَلَى ٱلْغَيْبِ وَلَٰكِنَّ ٱللَّهَ يَجْتَبِى مِن رُّسُلِهِۦ مَن يَشَآءُ ۖ فَـَٔامِنُوا۟ بِٱللَّهِ وَرُسُلِهِۦ ۚ وَإِن تُؤْمِنُوا۟ وَتَتَّقُوا۟ فَلَكُمْ أَجْرٌ عَظِيمٌ ﴿١٧٩﴾﴾

آل عمران : ١٧٩

ولقد كان المنافقون مختلطين مع المسلمين اختلاطاً كبيراً فى شتى القبائل والبطون ، ولهذا كان يوم أحد يوم بلاء وتمحيص ، اختبر الله به المؤمنين ، ومحق به الكافرين .

وكان من رأى رسول الله ﷺ أن يقيم المسلمون بالمدينة ، فإن يدخل المشركون عليهم قاتلوهم فيها ، وكان رأى عبد الله بن أبى ما رأى رسول الله ﷺ ، فقال رجال من المسلمين ممن فاتتهم غزوة بدر : يا رسول الله ، أخرج بنا إلى أعدائنا لا يرون أنا جَبُنّا عنهم وضعفنا ، فلم يزالوا برسول الله ﷺ حتى دخل بيته ولبس ﷺ لأمته ، وندم الذين اقترحوا الخروج ، فقالوا : استكرهناك يا رسول الله ولم يكن ذلك لنا ، فإن شئت فاقعد صلى الله عليك ، فقال رسول الله ﷺ : « **ما ينبغى لنبى إذا لبس لأمته أن يضعها حتى يقاتل** » .

فخرج رسول الله ﷺ فى ألف من أصحابه ، حتى إذا كان بالشوط بين المدينة وأحد انخذل عنه (عبد الله بن أبى بن سلول) بثلث الناس ، وقال : أطاعهم وعصانى ، ما ندرى علام نقتل أنفسنا هاهنا أيها الناس [1] !! .

---

(١) سيرة ابن هشام ، م ٢ ، ص ٦٤ ط دار الوفاق .

وقد عز ذلك على أحد الصحابة الأجلاء وهو عبد الله بن عمرو بن حرام والد جابر رضى الله عنهما ، وكان من علماء الخزرج ، فتبعهم يقول : (يا قوم أذكركم الله ألا تخذلوا قومكم ونبيكم عندما حضر من عدوهم ، وقاتلوا فى سبيل الله أو ادفعوا ، ولكن عبد الله بن أبى اعتذر بأعذار واهية ، إذ قال : « ما أرى أن يكون قتال ، ولو علمنا أن يكون قتال لكنا معكم » (١) .

وقد سجل القرآن ملابسات هذه القصة ، وما دار بخلد المنافقين ، وكشف خلجات نفوسهم وخبايا نواياهم . قال تعالى :

وَمَآ أَصَـٰبَكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ فَبِإِذْنِ ٱللَّهِ وَلِيَعْلَمَ ٱلْمُؤْمِنِينَ ﴿١٦٦﴾ وَلِيَعْلَمَ ٱلَّذِينَ نَافَقُوا۟ ۚ وَقِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا۟ قَـٰتِلُوا۟ فِى سَبِيلِ ٱللَّهِ أَوِ ٱدْفَعُوا۟ ۖ قَالُوا۟ لَوْ نَعْلَمُ قِتَالًا لَّٱتَّبَعْنَـٰكُمْ ۗ هُمْ لِلْكُفْرِ يَوْمَئِذٍ أَقْرَبُ مِنْهُمْ لِلْإِيمَـٰنِ ۚ يَقُولُونَ بِأَفْوَٰهِهِم مَّا لَيْسَ فِى قُلُوبِهِمْ ۗ وَٱللَّهُ أَعْلَمُ بِمَا يَكْتُمُونَ ﴿١٦٧﴾ ٱلَّذِينَ قَالُوا۟ لِإِخْوَٰنِهِمْ وَقَعَدُوا۟ لَوْ أَطَاعُونَا مَا قُتِلُوا۟ ۗ قُلْ فَٱدْرَءُوا۟ عَنْ أَنفُسِكُمُ ٱلْمَوْتَ إِن كُنتُمْ صَـٰدِقِينَ ﴿١٦٨﴾

آل عمران : ١٦٦ ــ ١٦٨

والآيات تشير إلى موقف عبد الله بن أبي بن سلول ومن معه ، وتسميهم ﴿ **الذين نافقوا** ﴾ ، وقد كشفهم الله تعالى فى هذه الموقعة ، وقرر حقيقة موقفهم يومئذاك : ﴿ **هم للكفر يومئذ أقرب منهم للإيمان** ﴾ ، وهم غير صادقين فى انتحالهم الأعذار بأنهم لا يعلمون أن هناك قتالا سيكون بين المسلمين والمشركين : ﴿ **يقولون بأفواههم ما ليس فى قلوبهم** ﴾ ، وهذا

---

(١) النفاق والمنافقون لإبراهيم على سالم ٦٧ .

هو عين النفاق لغة وشرعاً . ثم تمضى الآيات تبين استغلالهم لمجريات الأحداث لإثارة الخلخلة فى المجتمع ، فتقول : ﴿ **الذين قالوا لإخوانهم وقعدوا لو أطاعونا ما قتلوا** ﴾ ، فهم يجعلون من تخلفهم سياسة ومصلحة ، ويجعلون من طاعة الرسول ﷺ مغرماً ومضرة ، وهذه محاولة أخرى لإثارة البلبلة فى العقيدة ، ولإثارة الشك فى حقيقة الموت والحياة وتعلقهما بقدر الله وحده ، ومن ثم يبادرهم الله تعالى بالرد الحاسم القاطع : ﴿ **قل فادرؤوا عن أنفسكم الموت إن كنتم صادقين** ﴾ [1] .

ولقد كانت الهزيمة فى أحد مجالا لدسائس الكفار والمنافقين واليهود فى المدينة ، وكان المجتمع المدنى ما زال يتطور ويتهذب وما زالت بعض الفئات فيها غضة طرية لم تنضج بعد ، فلما كانت الهزيمة فى أحد سنحت الفرصة للأعداء المتربصين أن يظهروا أحقادهم ويبثوا سمومهم ، وأن يجدوا فى جو الفجائع التى دخلت كل بيت من بيوت المسلمين وبخاصة بيوت الشهداء وما أصابتهم الجراح المثخنة ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة فى المجتمع .

ومن هنا نرى القرآن وكأنه يتابع مجريات الأمور ومنحنيات الطريق ، يوجه المسلمين ويرشدهم ويحذرهم من طاعة الذين كفروا ، ويعدهم النصر على عدوهم وإلقاء الرعب فى قلوبهم .

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓاْ إِن تُطِيعُواْ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ يَرُدُّوكُمْ عَلَىٰٓ أَعْقَـٰبِكُمْ فَتَنقَلِبُواْ خَـٰسِرِينَ ﴿١٤٩﴾ بَلِ ٱللَّهُ مَوْلَىٰكُمْ ۖ وَهُوَ خَيْرُ ٱلنَّـٰصِرِينَ ﴿١٥٠﴾ سَنُلْقِى فِى قُلُوبِ ٱلَّذِينَ كَفَرُواْ ٱلرُّعْبَ بِمَآ أَشْرَكُواْ بِٱللَّهِ مَا لَمْ يُنَزِّلْ بِهِۦ سُلْطَـٰنًا ۖ وَمَأْوَىٰهُمُ ٱلنَّارُ ۚ وَبِئْسَ مَثْوَى ٱلظَّـٰلِمِينَ ﴿١٥١﴾

آل عمران : ١٤٩ ــ ١٥١

---

(١) الظلال : م ١ ص ٥١٦ بتصرف .

ثُمَّ أَنزَلَ

عَلَيْكُم مِّنۢ بَعْدِ ٱلْغَمِّ أَمَنَةً نُّعَاسًا يَغْشَىٰ طَآئِفَةً مِّنكُمْ ۖ وَطَآئِفَةٌ قَدْ أَهَمَّتْهُمْ أَنفُسُهُمْ يَظُنُّونَ بِٱللَّهِ غَيْرَ ٱلْحَقِّ ظَنَّ ٱلْجَٰهِلِيَّةِ ۖ يَقُولُونَ هَل لَّنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ مِن شَىْءٍ ۗ قُلْ إِنَّ ٱلْأَمْرَ كُلَّهُۥ لِلَّهِ ۗ يُخْفُونَ فِىٓ أَنفُسِهِم مَّا لَا يُبْدُونَ لَكَ ۖ يَقُولُونَ لَوْ كَانَ لَنَا مِنَ ٱلْأَمْرِ شَىْءٌ مَّا قُتِلْنَا هَٰهُنَا ۗ قُل لَّوْ كُنتُمْ فِى بُيُوتِكُمْ لَبَرَزَ ٱلَّذِينَ كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقَتْلُ إِلَىٰ مَضَاجِعِهِمْ ۖ وَلِيَبْتَلِىَ ٱللَّهُ مَا فِى صُدُورِكُمْ وَلِيُمَحِّصَ مَا فِى قُلُوبِكُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِذَاتِ ٱلصُّدُورِ ﴿١٥٤﴾ آل عمران : ١٥٤

فهذا قدر قدّره الله عز وجل ، وحكم حتم لا محيد عنه ولا مناص ، والله يختبركم بما جرى عليكم ليميز الخبيث من الطيب ويظهر أمر المؤمن من المنافق للناس فى الأقوال والأفعال (٣) .

لقد انتهز المنافقون واليهود والكفار فى المدينة ما أصاب المسلمين من الهزيمة والانتكاسة ليثبطوا عزائمهم ويصوروا لهم مخاطر القتال وعواقب الاشتباك مع الأقوياء .

والقرآن يتابع هذه التحركات والمؤامرات ، ويوجه المسلمين أولا بأول ، فقال تعالى : **﴿ ولئن قتلتم فى سبيل الله أو متم لمغفرة من الله ورحمة خير مما يجمعون . ولئن متم أو قتلتم لإلى الله تحشرون ﴾** (١) .

تضمن هذا أن القتل فى سبيل الله والموت أيضاً وسيلة إلى نيل رحمة الله وعفوه ورضوانه ، وذلك خير من البقاء فى الدنيا وجمع حطامها الفانى ، ثم إن

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٦٢٧

(٢) آل عمران : ١٥٧ ، ١٥٨ .

كل من مات أو قتل فمصيره ومرجعه إلى الله عز وجل فيجزيه بعمله ، إن خيراً فخير وإن شراً فشر »[(1)] .

هكذا كان القرآن يصحح المفاهيم ، ويرد على مزاعم المنافقين فى حينها . ولقد ظهر خلال غزوة أحد أن التعاطف بين اليهود والمنافقين كان يشكل جبهة قوية ضد المجتمع المدنى وعقبة فى سبيل تنظيمه ، وكانوا يتربصون لاستغلال مجريات الأحداث وكأنها مواسم لهم حتى تكون المجريات حديث الناس في المجالس والمنتديات . وهذا التكتل يظهر من جديد فى غزوة الأحزاب وفى الغزوات التى بعدها .

(د) غزوة الأحزاب ودور المنافقين فيها :

إِذْ جَآءُوكُم مِّن فَوْقِكُمْ وَمِنْ أَسْفَلَ مِنكُمْ وَإِذْ زَاغَتِ ٱلْأَبْصَـٰرُ وَبَلَغَتِ ٱلْقُلُوبُ ٱلْحَنَاجِرَ وَتَظُنُّونَ بِٱللَّهِ ٱلظُّنُونَا۠ ﴿١٠﴾ هُنَالِكَ ٱبْتُلِىَ ٱلْمُؤْمِنُونَ وَزُلْزِلُوا۟ زِلْزَالًا شَدِيدًا ﴿١١﴾

الأحزاب : ١٠ ــ ١١

ولما فرغ رسول الله ﷺ من الخندق ، أقبلت قريش حتى نزلت بمجتمع الأسيال من رومة ، بين الجرف وزغابة فى عشرة آلاف من أحابيشهم ومن تبعهم من بني كنانة وأهل تهامة ، وأقبلت غطفان ومن تبعهم من أهل نجد ،

---

(١) تفسير ابن كثير م ١ ص ٦٢٨ .

حتى نزلوا بذنب نقمى إلى جانب أحد ، وخرج رسول الله ﷺ والمسلمون حتى جعلوا ظهورهم إلى سلع في ثلاثة آلاف من المسلمين ، وضرب هنالك عسكره ، والخندق بينه وبين القوم ، وأمر بالذراري والنساء فجعلوا في الآطام » (١) .

وعظم عند ذلك البلاء ، واشتد الخوف ، وأتاهم عدوهم من فوقهم ومن أسفل منهم ، حتى ظن المؤمنون كل الظنون : ﴿ **إذ جاؤوكم من فوقكم ومن أسفل منكم وإذ زاغت الأبصار وبلغت القلوب الحناجر** ﴾ ، إنها صورة الهول الذي روع المجتمع المدني ككل ، والكرب الذي شمل البيوت والذي لم ينج منه أحد من أهلها ، وقد أطبق عليها المشركون من قريش وغطفان واليهود من بني قريظة من كل جانب من أعلاها ومن أسفلها ، وتهيأت الظروف والأجواء للمنافقين ليحققوا أغراضهم وليتحركوا في مثل هذه الأجواء تحرك الحانق المستغل لمجريات الأحداث ، والتعبير القرآني يسجل هذا المعنى فيقول :

﴿ **وإذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا . وإذ قالت طائفة منهم يا أهل يثرب لا مقام لكم فارجعوا ويستأذن فريق منهم النبي يقولون إن بيوتنا عورة وماهي بعورة إن يريدون إلا فرارا** ﴾ (٢) .

والآيات تسجل لقطات من تحركات المنافقين وانتعاشهم ومن أقاويلهم المنكرة . ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ : قال محمد بن اسحق : ظن المؤمنون كل الظن ، ونجم النفاق حتى قال (معتب بن قشير) : كان محمد يعدنا أن نأكل كنوز كسرى وقيصر ، وأحدنا لا يقدر على أن يذهب إلى الغائط . وقال الحسن في قوله عز وجل : ﴿ **وتظنون بالله الظنونا** ﴾ ظنون مختلفة ، ظن المنافقون أن محمداً ﷺ وأصحابه يستأصلون ، وأيقن المؤمنون أن ما وعد الله ورسوله حق (٣) .

---

(١) الروض الأنف ومعه السيرة النبوية جـ ٣ ص ٢٦١ .
(٢) الأحزاب : ١٢ ــ ١٣ .
(٣) تفسير ابن كثير : م ٣ ص ٧٥٣ .

ولقد كان أشد الكرب على المسلمين وهم محصورون بالمشركين داخل الخندق ، فلم يكونوا يأمنون في أي لحظة أن ينقض عليهم المشركون ، أو تميل عليهم اليهود ، ذلك كله بجانب كيد المنافقين والمرجفين في المدينة وبين الصفوف : ﴿ **إذ يقول المنافقون والذين في قلوبهم مرض ماوعدنا الله ورسوله إلا غرورا** ﴾ .

فقد وجد هؤلاء في الكرب المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم ، وهم آمنون من أن يلومهم أحد ، وفرصة للتوهين والتخذيل وبث الشك والريبة في وعد الله ووعد رسوله .

وفي مثل هذه الظروف « **قالت طائفة من أهل يثرب لا مقام لكم** » أي هاهنا ، يعنون النبي ﷺ ، مقام المرابطة ﴿ **فارجعوا** ﴾ أي إلى بيوتكم ومنازلكم ، ﴿ **ويستأذن فريق منهم النبي** ﴾ قال العوفى عن ابن عباس رضي الله عنهما : هم بنو حارثة ، قالوا : بيوتنا نخاف عليها السُّراق ، اعتذروا في الرجوع إلى منازلهم بأنها عورة ، ورد الله عليهم : ﴿ **وماهي بعورة** ﴾ ، أي ليست كما يزعمون ﴿ **إن يريدون إلا فرارا** ﴾ أي هربا من الزحف [1] .

فهم يحرضون أهل المدينة على ترك الصفوف والعودة إلى بيوتهم بحجة أن إقامتهم أمام الخندق مرابطين هكذا لا موضع لها ولا محل ، وبيوتهم معرضة للخطر من ورائهم . وهي دعوة خبيثة تأتي النفوس من الثغرة الضعيفة فيها ، ثغرة الخوف على النساء والذراري ، وهنا يستغل المنافقون مجريات الأحداث ، ويحاولون الصيد في الماء العكر .

(هـ) نشاط المنافقين في غزوة بني المصطلق :

كانت مواقف المنافقين ومكائدهم بعيدة المدى والأثر على ماتُلْهِمُ الآيات المدنية حتى لكأنه نضال قوي ، وأبدوا نشاطا ملموسا في غزوة

---

(١) تفسير ابن كثير : م ٣ ص ٧٥٤ .

بني المصطلق ، ولعبوا دورين هامين ، كان لهما أثر كبير ، وهزة شديدة شهدتها جنبات المجتمع المدني ، وكادت تؤدي إلى الفتنة لولا أن الله عصم المسلمين ، ورد كيد المنافقين .

أولهما ما ذكره ابن إسحاق في القصة أنه ﷺ : غزا بني المصطلق في شعبان من سنة ست للهجرة ، ولقيهم ﷺ على ماء يقال له : (المريسيع) ، وبينما رسول الله ﷺ على ذلك الماء وردت واردة الناس ومع عمر بن الخطاب أجير له من بني غفار يقال له جهجاه بن مسعود يقود فرسه ، فازدحم جهجاه وسنان بن وبر الجهني حليف بني عوف بن الخزرج على الماء فاقتتلا ، فصرخ الجهني : يامعشر الأنصار ، وصرخ جهجاه : يامعشر المهاجرين ، فغضب عبدالله بن أبي بن سلول وعنده رهط من قومه فيهم زيد بن أرقم غلام حدث ، فقال : « أو قد فعلوها ؟ قد نافرونا وكاثرونا ، والله ماعدنا وجلابيب قريش إلا كما قال الأول : سمن كلبك يأكلك !! أما والله لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل » (١) .

لقد استغل عبدالله بن أبي هذا الموقف ليثير النعرة الجاهلية بين الأنصار والمهاجرين ، وفاته أن التربية النبوية والقيادة الحكيمة قضتا على تلك النعرة ، فلم يتحرك منهما أحد ، واستمر بينهما التآلف والتآخي ، إلا أن كلمة عبدالله بن أبي الأخيرة كان لها صداها العميق بين الأرض والسماء ، فنزلت الآية : ﴿ **يقولون لئن رجعنا إلى المدينة ليخرجن الأعز منها الأذل ولله العزة ولرسوله وللمؤمنين ولكن المنافقين لا يعلمون** ﴾ (٢) .

ونزول القرآن الكريم في مثل هذه الحادثة هو وحده موضع عبر وعظات ، فهذا عبدالله بن أبي بن سلول يعيش بين المجتمع الذي يتغير يوميا ويتطور كل لحظة ، وتتوالى الأحداث والآيات من بين يديه ومن خلفه على حقيقة هذا الدين وصدق هذا الرسول ، ولكن الله لا يهدي قلبه للإيمان ،

---

(١) الروض الأنف ومعه السيرة النبوية جـ ٤ ص ٧ .
(٢) المنافقون : ٨ .

ويعيش في المجتمع ويتحرك في وسط الصف المسلم ، لأن الله تعالى أراد أن يكون وجود هؤلاء المنافقين ابتلاء للمجتمع المسلم ، ليميز الله الخبيث من الطيب ، وهناك نموذج آخر في نفس المجتمع وهو ابنه عبدالله (رضي الله عنه وأرضاه) نموذج رفيع للمسلم المتجرد ، يشقى بأبيه ، ويضيق بأفاعيله ، ويخجل من مواقفه ، ويحب طاعة رسول الله ﷺ ، ويحب أن ينفذ أمره ولو في أبيه ، ولكنه لا يطيق أن يتقدم أحد فيضرب عنق أبيه فيقتله فيقتل المسلم بالكافر ، فيلجأ إلى النبي ﷺ ليعينه على خلجات قلبه ، فيطلب منه إن كان لابد فاعلا أن يأمره هو بقتل أبيه ، وهو لابد مطيع وسيأتيه برأسه ، والرسول ﷺ يرى هذه النفس المؤمنة المحرجة ، فيمسح عنها الحرج في لطافة وأخوة ، ويقول : « **بل نترفق به ونحسن صحبته ما بقي معنا** » . وأصبحت هذه العبارة خطة مدروسة ومعروفة في المجتمع المدني لمعاملة المسلمين للمنافقين .

وأخيرا نقف على عتبة هذا المجتمع المدني لنستحضر مشهد الرجل المؤمن عبد الله بن عبد الله بن أبي بن سلول وهو يأخذ بسيفه عند مدخل المدينة على أبيه ، فلا يدعه يدخل تصديقا لمقاله هو : (ليخرجن الاعز منها الأذل) ، ليعلم أن رسول الله ﷺ هو الأعز وأنه هو الأذل ، ويظل في موقفه هذا حتى يأتي رسول الله ﷺ فيأذن له فيدخلها بإذنه . (١) .

هذه القصة تبين خطورة المنافقين في محاولة تشتيت المجتمع وخاصة في أوائل العهد ، وتوضح أن المنافقين كانوا أقوياء نسبيا بسبب ما لقوه من اليهود من تأييد وما انعقد بينهم من تضامن وتواثق ، وفي مثل هذه المناسبة نزلت في « المنافقون » سورة كاملة تتحدث عن كيدهم ومكرهم : ﴿ **إذا جاءك المنافقون قالوا نشهد إنك لرسول الله والله يعلم إنك لرسوله والله يشهد إن المنافقين لكاذبون . اتخذوا أيمانهم جنة فصدوا عن سبيل الله إنهم ساء ما كانوا يعملون** ﴾ (٢) ، وتستمر الآيات في وصف تصرفاتهم

---

(١) الظلال جـ ٦ ص ٣٥٧٨ ط الشروق بتصرف .
(٢) المنافقون : ١ ، ٢ .

الدالة على دخائل قلوبهم ، وتبييتهم لرسول الله ﷺ :

﴿ وَإِذَا قِيلَ لَهُمْ تَعَالَوْا يَسْتَغْفِرْ لَكُمْ رَسُولُ ٱللَّهِ لَوَّوْا رُءُوسَهُمْ وَرَأَيْتَهُمْ يَصُدُّونَ وَهُم مُّسْتَكْبِرُونَ ۝٥ سَوَآءٌ عَلَيْهِمْ أَسْتَغْفَرْتَ لَهُمْ أَمْ لَمْ تَسْتَغْفِرْ لَهُمْ لَن يَغْفِرَ ٱللَّهُ لَهُمْ ۚ إِنَّ ٱللَّهَ لَا يَهْدِى ٱلْقَوْمَ ٱلْفَـٰسِقِينَ ۝٦ هُمُ ٱلَّذِينَ يَقُولُونَ لَا تُنفِقُوا۟ عَلَىٰ مَنْ عِندَ رَسُولِ ٱللَّهِ حَتَّىٰ يَنفَضُّوا۟ ۗ وَلِلَّهِ خَزَآئِنُ ٱلسَّمَـٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ وَلَـٰكِنَّ ٱلْمُنَـٰفِقِينَ لَا يَفْقَهُونَ ۝٧ ﴾ المنافقون : ٥ ــ ٧

أما نشاطهم الثاني فينحصر في تلفيق « ابن أبيّ » لحادثة الإفك ، فقد تولى ابن أبيّ إشاعة الحادثة بنشاط كبير ، والقرآن تحدث عن تحركاته ، وكشف عن أفاعيله ، وسماه هو وجماعته في هذه الحادثة الشنيعة (بالعصبة) :

﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ جَآءُو بِٱلْإِفْكِ عُصْبَةٌ مِّنكُمْ ۚ لَا تَحْسَبُوهُ شَرًّا لَّكُم ۖ بَلْ هُوَ خَيْرٌ لَّكُمْ ۚ لِكُلِّ ٱمْرِئٍ مِّنْهُم مَّا ٱكْتَسَبَ مِنَ ٱلْإِثْمِ ۚ وَٱلَّذِى تَوَلَّىٰ كِبْرَهُۥ مِنْهُمْ لَهُۥ عَذَابٌ عَظِيمٌ ۝١١ ﴾ النور : ١١

وكان يشكل وجود هذه الفئة الاجتماعية الكامنة غير المحددة البنية والمنبثة في صفوف المسلمين تحديا خطيرا ، وكأنما أراد الله سبحانه وتعالى أن يذكي بهم في النفوس اليقظة والحذر ليكون البناء صلبا متينا ، وليمحص معدنهم ، ويعمل على تقويته بهذا الابتلاء ، فلا تتزعزع أركانه لفتنه طارئة أو حدث غير متوقع من المسلمين . وتتجلى حكمة

الله سبحانه وتعالى في تهيئة الظروف والمواقف التي يمكن من خلالها سبر الأغوار والتعرف على معادن الرجال وكشف مواطن الشر . وفي ذلك ترسيخ لجذور النبتة الجديدة وإرساء لقواعد البناء . وفي سلسلة المواقف التي أشرنا إليها ، والآيات الكريمة التي نزلت في المجتمع الجديد ، مايبين ملامح المنهج القرآني القويم في صياغة البنية الاجتماعية بقيمها الجديدة وترويضها على مواجهة الأزمات والتحديات ، ومعالجتها المبكرة لعوامل الفساد والإفساد لتصمد أمام الزلازل والفتن التي واجهت مسيرتها فيما بعد .

(و) دور المنافقين في غزوة تبوك :

وكانت غزوة تبوك في شهر رجب سنة تسع من الهجرة في فصل الصيف ، ووسط أشعة الشمس المحرقة ، والناس يعانون عسرة من العيش ، وفي مثل هذه الظروف أمر النبي ﷺ بالتهيؤ لغزو الروم .

يقول ابن إسحاق : إنه حدث هذا « حين طابت الثمار ، والناس يحبون المقام في ثمارهم وظلالهم ، ويكرهون الشخوص على الحال من الزمان الذي هم عليه . وكان رسول الله ﷺ كلما يخرج في غزوة إلا كنى عنها ، وأخبر أنه يريد غير الوجه الذي يصمد له ، إلا ما كان من غزوة تبوك ، فإنه بيّنها للناس ، لبعد شقته ، وشدة الزمان ، وكثرة العدو الذي يصمد له ، ليتأهب الناس لذلك أهبته ، فأمر الناس بالجهاد » (١) . وذلك تنفيذا لقوله تعالى :

﴿ انفِرُوا خِفَافًا وَثِقَالًا وَجَاهِدُوا بِأَمْوَالِكُمْ وَأَنفُسِكُمْ فِي سَبِيلِ اللَّهِ ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ إِن كُنتُمْ تَعْلَمُونَ ﴾ (٤١) التوبة : ٤١

« أمر الله تعالى بالنفير العام مع رسول الله ﷺ عام غزوة تبوك لقتال أعداء الله من الروم الكفرة من أهل الكتاب ، وحتم على المؤمنين في الخروج

---

(١) الروض الأنف للسهيلي جـ ٤ ص.١٧٣ .

معه على كل حال في المنشط والمكره والعسر واليسر » [1] .

وكانت هذه الظروف القاسية ثقيلة على النفس في أقصى مظاهر الابتلاء والامتحان ، بادر فيها أهل الثراء من المؤمنين بتقديم أنفسهم وأموالهم ، فأنفق عثمان بن عفان رضي الله تعالى عنه ألف دينار ، وكانت مساعدة فعلية كبيرة ، فقال رسول الله ﷺ : « **اللهم أرض عن عثمان فإني عنه راض** » [2] وأحضر أبوبكر جميع ماله وكان أربعة آلاف درهم [3] ، وهكذا تنافس أثرياء الصحابة ببذل الغالي والنفيس طاعة لله ورسوله .

ثم إن رجالا من المسلمين أقبلوا إلى رسول الله ﷺ يطلق عليهم : « البكاؤون » يطلبون من رسول الله ﷺ ظهورا يركبونها للخروج إلى الجهاد معه ، وكانوا أهل حاجة ، فقال : « **لا أجد ما أحملكم عليه** » ﴿ **تولوا وأعينهم تفيض من الدمع حزنا ألا يجدوا ماينفقون** ﴾ [4] .

هذه صور مشرقة للتضحية والفداء في زمن الجدب والعسرة ، وتفهم معاني الجهاد والبذل في سبيل الله ، في حين انكشف أمر المنافقين وصاروا يتصيدون الأعذار الضعيفة والعلل الواهية ، فما لهم ولهذا الحر القاتل وقلوبهم خاوية من الإيمان بالله ورسوله ، فأخذ البعض منهم يقول لبعضهم : « لاتنفروا في الحر » حين طابت الثمار والظلال في شدة الحر وحمارة القيط ، أما البعض الآخر فقد انتحل الأعذار بصورة تكشف نفاقه ، منها أن الجد بن قيس من بني سلمة حضر إلى الرسول ﷺ وهو في جهاده لهذه الغزوة ، فقال له الرسول الكريم ﷺ : « **ياجد ، هل لك العام في جلاد بني الأصفر** » ؟ فقال : يارسول الله أو تأذن لي ولا تفتني ؟ فوالله لقد عرف قومي أنه مامن رجل بأشد عجبا بالنساء مني ، وإني أخشى إن رأيت نساء بني الأصفر أن لا أصبر ، فأعرض عنه رسول الله ﷺ ، وقال : « **قد أذنت لك** » ، فنزلت فيه هذه الآية : (ومنهم من يقول ائذن لي ولاتفتني ألا في الفتنة سقطوا وإن جهنم لمحيطة بالكافرين) [5] .

---

(1) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥٦٠ .

(2) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٧٤ .

(3) النفاق والمنافقون ص ١٣١ .

(4) التوبة : ٩٢ .

(5) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٧٣ ، ١٧٤ .

وفي قوله : ﴿ **ومنهم من يقول** ﴾ إشارة إلى أن الجد بن قيس إنما هو واحد منهم وليس غريبا فيهم . ويتضح أيضا دور المنافقين فيما يرويه ابن كثير : قال ابن إسحاق : « قد كان جماعة من المنافقين ... يسيرون مع رسول الله ﷺ وهو منطلق إلى تبوك ، فقال بعضهم لبعض : أتحسبون جلاد بني الأصفر كقتال العرب بعضهم بعضاً ؟ والله لكأنّا بكم غدا مقرنين في الحبال ، إرجافا وترهيبا للمؤمنين : فقال مَخْشيّ بن حُمَيِّر : والله لوددت أن أقاضي على أن يضرب كل رجل منا مائة جلدة ، وأننا نغلب أن ينزل فينا قرآن لمقالتكم هذه ، وقال رسول الله ﷺ — فيما بلغني — لعمار بن ياسر : « **أدركِ القوم فإنهم احترقوا ، فاسألهم عما قالوا ، فإن أنكروا فقل : بلى قلتم كذا وكذا** » ، فانطلق إليهم عمار ، فقال ذلك لهم ، فأتوا رسول الله ﷺ يعتذرون إليه ، فقال وديعة بن ثابت ورسول الله ﷺ واقف على راحلته ، فجعل يقول وهو آخذ بحقبها : يارسول الله إنما كنا نخوض ونلعب » (١) .

وهكذا يظهر دور المنافقين في غزوة تبوك ، انتحال الأعذار ، وتثبيط همة المسلمين ، وتخويفهم من الانطلاق نحو المعركة ، وتلك سنتهم في كل مجتمع وحال .

ووجدوا أن تخلفهم وحدهم غير كاف للخروج من ذلك الحرج ، فلجأوا إلى تأليف فرقة همها أن تثبط هم الناس عن الجهاد ، وكان أفراد هذه الفرقة يجتمعون في بيت يهودي يدعى سويلم بمكان بالمدينة .

وورد أن النبي ﷺ بعث إليهم نفرا من أصحابه ، وأمره أن يحرق عليهم بيت سويلم ، ففعل (٢) . جزاء وفاقا ، إذ إنهم أرادوا أن يشعلوا نار الفتنة في المسلمين ، فأشعل فيهم نار العقوبة ﴿ **والفتنة أشد من القتل** ﴾ .

ومن مظاهر نشاطهم في هذه الغزوة وتحركاتهم في وسط البيئة إظهار فرحتهم بتخلفهم في مثل هذه الظروف ، كما يصور القرآن ذلك ، فيقول تعالى :

﴿ **فرح المخلفون بمقعدهم خلاف رسول الله وكرهوا أن يجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله وقالوا لا تنفروا في الحر قل نار جهنم أشد حرا لو كانوا يفقهون** ﴾ التوبة : ٨١ .

---

(١) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٥٧٢ .

(٢) النفاق والمنافقون ص ١٤١ .

وتستمر الآيات في فضح المنافقين وأفعالهم في المجتمع، ووصف أحوالهم النفسية والعملية، ومواقفهم في غزوة تبوك، وكشف نواياهم وحيلهم في التخلف عن الجهاد وإيذاء رسول الله ﷺ والخلص من المؤمنين، وتحديد العلاقات بين هؤلاء وهؤلاء، لأن المجتمع المدني بدأ يتضح ويستكمل أنظمته ودساتيره، ويكاد يستكمل كل مقوماته ومميزاته، فلابد أن تكون هناك مفاصلة بين الفريقين وتمييز كل صنف بصفاته وأعماله:

* وَلَوْ أَرَادُوا۟ ٱلْخُرُوجَ لَأَعَدُّوا۟ لَهُۥ عُدَّةً وَلَٰكِن كَرِهَ ٱللَّهُ ٱنۢبِعَاثَهُمْ فَثَبَّطَهُمْ وَقِيلَ ٱقْعُدُوا۟ مَعَ ٱلْقَٰعِدِينَ ﴿٤٦﴾ لَوْ خَرَجُوا۟ فِيكُم مَّا زَادُوكُمْ إِلَّا خَبَالًا وَلَأَوْضَعُوا۟ خِلَٰلَكُمْ يَبْغُونَكُمُ ٱلْفِتْنَةَ وَفِيكُمْ سَمَّٰعُونَ لَهُمْ ۗ وَٱللَّهُ عَلِيمٌۢ بِٱلظَّٰلِمِينَ ﴿٤٧﴾

التوبة: ٤٦ ـ ٤٧

لقد كان أولئك المتخلفون ذوي قدرة على الخروج لديهم وسائله وعدته، وكانوا ذوي مكانة في قومهم أثرياء، **﴿ ولكن كره الله انبعاثهم ﴾** لما عُرِفَ من طبيعتهم الدنيئة ونفاقهم الخطير ونواياهم المنطوية **﴿ فثبطهم ﴾**، لم يبعث فيهم الحمية للخروج **﴿ وقيل اقعدوا مع القاعدين ﴾**، وكان ذلك خيرا للجميع، لأنهم لو خرجوا زادوا المسلمين اضطرابا وفوضى، ولأسرعوا بينهم بالوقيعة والفرقة.

لقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم في المجتمع لا عن إيمان واعتقاد، ولكن عن خوف وتقية، ثم يحلفون أنهم من المسلمين أسلموا اقتناعا وآمنوا اعتقادا: وَيَحْلِفُونَ بِٱللَّهِ إِنَّهُمْ لَمِنكُمْ وَمَا هُم مِّنكُمْ وَلَٰكِنَّهُمْ قَوْمٌ يَفْرَقُونَ ﴿٥٦﴾ لَوْ يَجِدُونَ مَلْجَـًٔا أَوْ مَغَٰرَٰتٍ أَوْ مُدَّخَلًا لَّوَلَّوْا۟ إِلَيْهِ وَهُمْ يَجْمَحُونَ ﴿٥٧﴾

التوبة: ٥٦ ـ ٥٧

وتستمر الآيات في إبراز أعمال المنافقين ونواياهم ، فيقول :
﴿ ومنهم من يلمزك في الصدقات فإن أعطوا منها رضوا وإن لم يعطوا منها إذا هم يسخطون ﴾ .

هكذا وضعت الآيات دور المنافقين في غزوة تبوك من اللمز والغمز وانتحال الأعذار ونشر الأراجيف في المجتمع ، حتى ذمهم الله لتخلفهم وفرحهم بقعودهم بعد خروجه ﷺ :

قُلْ نَارُ جَهَنَّمَ أَشَدُّ حَرًّا لَّوْ كَانُوا۟ يَفْقَهُونَ ﴿٨١﴾ فَلْيَضْحَكُوا۟ قَلِيلًا وَلْيَبْكُوا۟ كَثِيرًا جَزَآءًۢ بِمَا كَانُوا۟ يَكْسِبُونَ ﴿٨٢﴾

التوبة : ٨١ ــ ٨٢

(ز) ــ المنافقون ومسجد الضرار :

وقصة مسجد الضرار قصة بالغة الأهمية ، حدثت في وقت كان المسلمون يتجهزون فيه لغزوة تبوك : قال تعالى :

وَٱلَّذِينَ ٱتَّخَذُوا۟ مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًۢا بَيْنَ ٱلْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ ٱللَّهَ وَرَسُولَهُۥ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَآ إِلَّا ٱلْحُسْنَىٰ ۖ وَٱللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَٰذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى ٱلتَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا۟ ۚ وَٱللَّهُ يُحِبُّ ٱلْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾

التوبة : ١٠٧ ــ ١٠٨

وكانت فكرة إنشاء مسجد الضرار بالمدينة بعد مقدم رسول الله ﷺ إليها ، إذ إن رجلا من الخزرج يقال له « أبوعامر الراهب » ، وكان قد تنصر في الجاهلية ، وقرأ علم أهل الكتاب ، وكان فيه عبادة في الجاهلية ،

وله شرف في الخزرج كبير ، فلما قدم رسول الله ﷺ مهاجرا إلى المدينة ، واجتمع المسلمون عليه ، وصارت للإسلام كلمة عالية ، وأظهرهم الله يوم بدر ، شرق اللعين « أبوعامر » بريقه ، وبارز بالعداوة وظاهر بها ، وخرج فارا إلى كفار مكة من مشركي قريش ، يمالئهم على حرب رسول الله ﷺ ، وذهب إلى « هرقل » ملك الروم ينستنصره على النبي ﷺ ، فوعده وَمنَّاه ، وأقام عنده ، وكتب إلى جماعة من قومه من الأنصار من أهل النفاق والريب يعدهم ويمنيهم أنه سيقدم بجيش يقاتل به رسول الله ﷺ ، وأمرهم أن يتخذوا له معقلا يقدم عليهم فيه من يقدم من عنده لأداء كتبه ، فشرعوا في بناء مسجد مجاور لمسجد قباء ، وفرغوا منه قبل خروج رسول الله ﷺ إلى تبوك ، وجاءوا فسألو رسول الله أن يأتي إليهم فيصلي في مسجدهم ليحتجوا بصلاته فيه ، فعصمه الله من الصلاة فيه ، فقال : « **أنا على سفر ولكن إذا رجعنا إن شاء الله** » ، فلما قفل عليه السلام راجعا إلى المدينة من تبوك ، ولم يبق بينه وبينها إلا يوم أو بعض يوم ، نزل عليه جبريل بخبر مسجد الضرار وما اعتمده بانوه من الكفر والتفريق بين جماعة المؤمنين ، فبعث رسول الله ﷺ إلى ذلك المسجد مَنْ هَدَمَهُ قبل مقدمه المدينة (١) .

فهذا هو مسجد الضرار الذي أمر الله رسوله ﷺ أن لا يقوم فيه ، وأن يقوم في المسجد الأول « مسجد قباء » الذي أقيم على التقوى من أول يوم ، والذي يضم رجالا يحبون أن يتطهروا ، ﴿ **والله يحب المطهرين** ﴾ .

وصار المنافقون يعقدون مؤتمراتهم ، ووجدوا بين جدرانه مكانا ملائما لاجتماعهم وتآمرهم ، وصاروا يعيبون النبي ﷺ يستهزئون به ، وينتظرون أبا عامرهم بما وعدهم ، وستروا أمرهم ، وأتوا رسول الله ﷺ وهو يتجهز إلى تبوك ، فقالوا : يارسول الله ، إنا قد بنينا مسجدا للعلة والحاجة والليلة المطيرة ، إنا نحب أن تأتينا فتصلي لنا فيه ، فقال: إني على جناح السفر وحال شغل أو كما قال ﷺ ، ولو قدمنا إن شاء الله لأتيناكم ، فصلينا لكم فيه (٢) .

---

(١) ابن كثير : م ٢ ص ٦٠٢ ، ٦٠٣ مختصرا .
(٢) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٨٠ .

ولكن الله تعالى كشف سترهم وفضح نياتهم ، فما كاد النبي ﷺ يصل إلى ذي أوان من ضواحي المدينة راجعا من تبوك ، أتاه خبر المسجد ، فدعا رسول الله ﷺ بعض الصحابة ، وأمرهم بهدم المسجد وحرقه (١) فنزل قوله تعالى :

وَالَّذِينَ اتَّخَذُوا مَسْجِدًا ضِرَارًا وَكُفْرًا وَتَفْرِيقًا بَيْنَ الْمُؤْمِنِينَ وَإِرْصَادًا لِّمَنْ حَارَبَ اللَّهَ وَرَسُولَهُ مِن قَبْلُ ۚ وَلَيَحْلِفُنَّ إِنْ أَرَدْنَا إِلَّا الْحُسْنَىٰ ۖ وَاللَّهُ يَشْهَدُ إِنَّهُمْ لَكَاذِبُونَ ﴿١٠٧﴾ لَا تَقُمْ فِيهِ أَبَدًا ۚ لَّمَسْجِدٌ أُسِّسَ عَلَى التَّقْوَىٰ مِنْ أَوَّلِ يَوْمٍ أَحَقُّ أَن تَقُومَ فِيهِ ۚ فِيهِ رِجَالٌ يُحِبُّونَ أَن يَتَطَهَّرُوا ۚ وَاللَّهُ يُحِبُّ الْمُطَّهِّرِينَ ﴿١٠٨﴾ أَفَمَنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ تَقْوَىٰ مِنَ اللَّهِ وَرِضْوَانٍ خَيْرٌ أَم مَّنْ أَسَّسَ بُنْيَانَهُ عَلَىٰ شَفَا جُرُفٍ هَارٍ فَانْهَارَ بِهِ فِي نَارِ جَهَنَّمَ ۗ وَاللَّهُ لَا يَهْدِي الْقَوْمَ الظَّالِمِينَ ﴿١٠٩﴾ لَا يَزَالُ بُنْيَانُهُمُ الَّذِي بَنَوْا رِيبَةً فِي قُلُوبِهِمْ إِلَّا أَن تَقَطَّعَ قُلُوبُهُمْ ۗ وَاللَّهُ عَلِيمٌ حَكِيمٌ ﴿١١٠﴾ *

التوبة : ١٠٧ ـ ١١٠

---

(١) الروض الأنف جـ ٤ ص ١٨٠ .

وأراد الله تعالى أن تكون هذه الخطوة النبوية عبرة ودرسا لكل من أراد أن يتستر من المنافقين وراء جدران المسجد للتفريق بين جماعة المؤمنين .

ومشهد آخر يرسم التعبير القرآني الفريد لآثار مسجد الضرار في نفوس بناته المنافقين : ﴿ **لايزال بنيانهم الذي بنوا ريبة في قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم** ﴾ (١) . « أي شكا ونفاقا بسبب إقدامهم على هذا الصنيع الشنيع ، أورثهم نفاقا في قلوبهم كما أشرب عابدوا العجل حبه » (٢) .

وقصة مسجد الضرار شاهد على المنهج الرباني العظيم الذي عمد إلى تبصير المجتمع المدني بما ينتظِره من مكائد ، وما يخبأ له من مؤامرات ، ليأخذ حذره في تطويره وتنظيمه وترسيخ قواعده وتطهيره من دسائس أعدائه . ومايزال مسجد ضرار يقام في كل مجتمع أراد أولُو النِفَاق تدمير بنية المجتمع من داخله في خفية وتوارٍ تحت ستار الشرعية الفعلية ، بغض النظر عن الصورة التي يشكلِ فيها مسجد ضرار . فليس بلازم أن يكون بناء للعبادة ، بل قد يكون تَوَجُّهاً فكريا يُزْعَمُ تَأْصِيلُهُ الإسلاميُّ ، ويُرَادُ به التدمير لا التعمير .

المهم أن مسجد ضرار مايزال مطمح عيون سَلِيل « ابن أُبَيّ » في كل زمان ومكان في المجتمع الإسلامي .

والتكوين البياني للآيات التي تحدثت عن مسجد ضرار أقيم على نحو يكشف عن هوية وكينونة وتوجهات أولئك المنافقين ، فالتعريف باسم الموصول ﴿ **الذين اتخذوا مسجدا ضرارا ...** ﴾ ، يدل على أن هذا الاتخاذ هو الصفة المميزة الكاشفة لهذه الفئة وكأن هذا الاتخاذ الآثم أضحى الهوية المشخصة لهم .

واستخدم الفعل ﴿ **اتخذوا** ﴾ بدلالته المعجمية (أخذ) ودلالته التركيبية (افتعلوا) يفهمنا مدى اهتمام أولئك المنافقين بتأسيس هذا الوكر الذي يسجدون فيه للشيطان ولهوى نفوسهم الدنسة .

---

(١) التوبة : ١١٠ .
(٢) تفسير ابن كثير م ٢ ص ٦٠٧ .

ثم بيان التوجه العقيم الذي انطلقوا إليه بهذا الاتخاذ بقوله : ﴿ **ضرارا وكفرا وتفريقا بين المؤمنين وإرصادا لمن حارب الله ورسوله من قبل** ﴾ ، إنما يكشف عن ما توغل في تجاويف أفئدتهم المحترقة بالنفاق من رغبة عارمة تمازجت فيها صنوف الإفساد : ضرار ، وكفر ، وتفريق ، وإرصاد . إن كل واحدة من هذه التوجهات الإفسادية الأربعة لكفيلة بالتدمير إذا ما ألفت بيئة قد غشاها نعاس الغفلة ، أو زَوَتْ فيها أشجار الحذر .

ثم يضيف القرآن إلى ذلك بيانا لما يجري في شرايينهم من الإفك الفاضح : ﴿ **وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى** ﴾ ، بكل ما يومىء إليه (اللام ونون التوكيد) في ﴿ **ليحلفن** ﴾ ، واستخدام (إن) فى النفي دون (ما) ، مما يوحي بمحاولة القطع والجزم ، ثم هذا التركيب الدال على القصر والتخصيص ، وهو في حقيقته تأكيد على تأكيد . ثم استخدام كلمة ﴿ **الحسنى** ﴾ بكل ما تُوحِي به الدلالة المعجمية لها ، والدلالة التركيبية (فُعْلَى) ، والدلالة الأدائية في الألف ﴿ **الحسنى** ﴾ حيث الإطلاق الصوتي والامتداد الأدائي الموحي بشمولية الدلالة .

ولكن الله قد محق كل هذا الإفك بقوله : ﴿ **والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ ، حيث أقيم على بناء تركيبي يؤكد في عمق توغل الكذب في أعماقهم ، بل وتوغلهم هم في دياجير الكذب الفاضح . فاختيار الفعل (يشهد) ، وبناؤه على « اسم الجلالة » ، والتأكيد بإن ، واستخدام الضمير الدال على أن الكذب غائر في تجاويفهم دون استخدام الاسم الظاهر ، ثم دلالة اللام واسم الفاعل الموحى بثبوت الوصف وانغماسه فى أخلاقهم ، كل ذلك وكثير غيره يكشف به القرآن جبلة أولئك المؤتفكة في المجتمع المدني والإسلامي عامة . عسى أن يستلهم منه أبناء الأمة ما يتحصنون به ضد عادياتهم ، فيبقى المجتمع المسلم في عصمة من التلاشي والتردي في هوة الفرقة .

وتلك سمة من سمات البيان القرآني في تصوير الأحداث ، تجمع بين الجمال الأسلوبي الممتع للذوق والحسّ المرهف ، وبين الجلال التربوي المؤدب للأمة المتعطشة إلى هدى السماء ، فهو يوائم بين حاجة الوجدان وحاجة الفكر ، وذلك عنصر من عناصر إعجازه .

بسم الله الرحمن الرحيم

الخاتمة

قدم القرآن الكريم نماذج من المجتمع البشري في أصل نشأته وعناصر بنائه وصور تفكيرها وألوان حياتها في أخلاقها وعاداتها وطريقة عيشها، واستعرض الأطوار التي مرت بها في مراحل حياتها بين مد واتساع، ثم بين أسباب الفناء الجزئي في جانب من جوانبها في زمن معين ومكان محدود، وبين عوامل الانحلال التي جعلها الله سبحانه وتعالى في طبيعة الحياة معاول هدمَ لبناء أيّ مجتمع من المجتمعات التي قام بناؤها في أصل وجودها على دعائم اجتماعية سليمة وعلى أُسس أخلاقية عالية ثم انحرف أهلها، ومال قوادها عن جادة الطريق فانهارت، أمثال مجتمعات « عاد » و « ثمود » وغيرهما، وكثيرا مايشير القرآن إلى مجتمع بني إسرائيل، ويبين عيوبَ هذا المجتمع وأمراضَه وعللَه، ومن هنا كان مجتمع المدينة في عصر الرسول ﷺ منارا يقتدى به، وتدور الدراسات حوله لإبراز معالمه ودراسة أُسُسه، وهذه الدراسة ليست إلا لبنة في صرح ذلك البناء الشامخ.

انقسمت هذه الدراسة إلى أربعة أبواب، تضم عشرة فصول:

دار الباب الأول حول تأسيس هذا المجتمع، واشتمل على ثلاثة فصول:

الفصل الأول عن الهجرة ودورها في تأسيس هذا المجتمع، وضرورة البحث عن قاعدة أخرى غير مكة تحمى الدين الجديد الذي لم تَكُفّ مكة منذ أن بدأ الرسول ﷺ الدعوة إليه عن محاربته.

وكان عملي في هذا الفصل دراسة لعناصر الهجرة من دوافع وطوالع، وسبب اختيار المدينة دارا للهجرة، وبزوغ فجر الإسلام في المدينة، ثم الإذن العام بالهجرة إلى المدينة، ثم تحرك موكب الرسول عليه الصلاة والسلام إلى المدينة.

كل هذه العناصر الرئيسية تمت دراستها وتنسيقها في ضوء النصوص القرآنية لتبقى الدراسة في إطارها الفني الأدبي ، والذي يختلف عن الدراسات التاريخية ، وما يتعلق بالسيرة النبوية التي تعتمد في مادتها على الحديث والروايات التاريخية .

وكان الفصل الثاني عن ركائز المجتمع المدني الجديد من بناء المسجد ، وكتابة الوثيقة والأخوة ، وكما رسمت منهج هذه الرسالة اعتمدت على الآيات القرآنية ، وجعلتها المادة الأساسية لدراسة هذه الركائز ، فوضحت دور المسجد في تربية النفوس وتطهير القلوب وتنظيم البيئة ، وأبرزت مفهوم الأخوة ودورها الهام في تأسيس المجتمع الإسلامي ، فجمعت النصوص التي تدل على أنه ﷺ آخى بين المسلمين في مكة قبل الهجرة على الحق والمساواة ، ويعتبر « البلاذري » المتوفى سنة ٢٧٦هـ أقدم من أشار إلى المؤاخاة المكية ، والأخوة التي أشار إليها « البلاذري » كانت قوة معنوية ومادية ، وكانت هي الصلابة التي تحلت بها الجماعة الإسلامية في مكة ، فلما كان العهد المدني كان لابد من تطوير هذا الإخاء وخاصة في مجتمع جديد مختلف عن المجتمع المكي ، يتألف من غربائه المهاجرين وأصحاب الديار وهم الأوس والخزرج وكل من تآلف معه وقبل دعوته واندمج في هذا المجتمع سماهم القرآن « أمة » : ﴿ **كنتم خير أمة أخرجت للناس** ﴾ كانت ثمرة الإخاء الاسلامي .

ثم درست تنظيم الأخوة وتعميقها حتى أصبحت نظاما وأصولا في تبادل الهدايا والمحبة وفي تبادل المنافع المادية ، وكانت الخطوة الثانية في ذلك التنظيم هي إلغاء التوارث بين المتآخين ، واستمرار المؤاخاة دون توارث ، ووضحت موقف المؤمنين نحو المجتمع الجديد ، كيف يتعاملون مع المشركين واليهود والنصارى ، فقد حصر الإسلام الأخوة بين المؤمنين فقط ، فقال : ﴿ **إنما المؤمنون إخوة** ﴾ ، وقطع الولاية بين المؤمنين والكافرين واليهود والنصارى : يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَتَّخِذُوٓا۟ ءَابَآءَكُمْ

وَإِخْوَٰنَكُمْ أَوْلِيَآءَ إِنِ ٱسْتَحَبُّوا۟ ٱلْكُفْرَ عَلَى ٱلْإِيمَـٰنِ ۚ

وَمَن يَتَوَلَّهُم مِّنكُمْ فَأُو۟لَـٰٓئِكَ هُمُ ٱلظَّـٰلِمُونَ ﴿٢٣﴾ التوبة : ٢٣

وبينت مظاهر الأخوة وبخاصة حفاوة الأنصار بالمهاجرين : ﴿ **إن الذين آمنوا وهاجروا وجاهدوا بأموالهم وأنفسهم في سبيل الله والذين آووا ونصروا أولئك بعضهم أولياء بعض** ﴾ . ومما وفقني الله تعالى إليه أن أثبت أن « أهل الصفة » مظهر من مظاهر هذه الأخوة ، لأن ميزانيتهم الأساسية كانت هي الأخوة ، وعندما أخطأ بعض الصحابة في فهم أبعاد هذه الأخوة ، وحاولوا أن يمدوا أهل الصفة ببعض الطعام الرَّدِيء ، وجههم القرآن توجيها ربانيا ، فقال :

يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوٓا۟ أَنفِقُوا۟ مِن طَيِّبَٰتِ مَا كَسَبْتُمْ وَمِمَّآ أَخْرَجْنَا لَكُم مِّنَ ٱلْأَرْضِ وَلَا تَيَمَّمُوا۟ ٱلْخَبِيثَ مِنْهُ تُنفِقُونَ وَلَسْتُم بِـَٔاخِذِيهِ إِلَّآ أَن تُغْمِضُوا۟ فِيهِ وَٱعْلَمُوٓا۟ أَنَّ ٱللَّهَ غَنِىٌّ حَمِيدٌ ﴿٢٦٧﴾ البقرة : ٢٦٧

وكان الفصل الثالث عن الجهاد والغزوات الأولى ، والمنجزات التي حققها الرسول ﷺ بسراياه الأولى ، ودرست في هذا الفصل غزوة بدر وغزوة أحد دون غيرهما من الغزوات ، لأن لهما تأثيراً مباشرا في تنظيم المجتمع وتكوينه ، وبالذات غزوة بدر الكبرى ، فقد كانت حدثا عظيما هزت أوساط المجتمع المدني ، وأحدثت تغييرا جذريا في كثير من المفاهيم ، ومن أهمها أن النصر في هذه المعركة يرد إلى فضل الله ونعمته : ﴿ **فلم تقتلوهم ولكن الله قتلهم وما رميت إذ رميت ولكن الله رمى** ﴾ مفهوم جديد تقدمه الآيات لهذا المجتمع الذي كان العربي فيه من قبل يتفاخر للناس ويعتز بقوته وبقوة قبيلته ، ومفهوم آخر كان جديدا على هذا المجتمع يسجله قوله تعالى : ﴿ **يا أيها الذين آمنوا إذا لقيتم فئة فاثبتوا واذكروا الله كثيرا لعلكم تفلحون** ﴾ فيذكر الله وسط معمعة الرماح وَصَليل السيوف فكرة جديدة على المجتمع اليثربي ، وكانت دراستي لهذه الغزوة دراسة لآثارها البعيدة المدى في المجتمع الجديد ، ورصداً للقيم الجديدة التي أصلتها فيه ، ولم تكن دراسة تاريخية ولا سردية ، وكذلك درست غزوة أحد على أساس من المنهج نفسه ، ورأيت أنه ﷺ كان يربي أمته تربية عملية ، ويعطيهم قيما

ومبادىء جديدة وسط الأحداث لأن الأمم تربى بالأحداث وبرصيد التجارب التي تتمخض عنها هذه الأحداث ، فغزوة أحد لم تكن معركة في ميدان القتال وحده ، وإنما كانت أيضا معركة في الضمير ، كان النصر أولا ثم كانت الهزيمة ثانيا ، وتمحيص النفوس وتمييز الصفوف وانطلاق الجماعة المسلمة بعد ذلك متحررة من كثير من غبش التصور بتمييز المنافقين والتزام الطاعة ورد الأمر إلى الله وحده في الهزيمة والنصر ، في الموت والحياة ، وكانت هذه هي الحصيلة الضخمة التي استقرت في أعماق المجتمع الجديد من وراء هذه الغزوة .

واَختَصَّ البابُ الثاني بوسائل تطوير المجتمع المدني ، واشتمل على فصلين : « الأول » منهما عن الوسائل النظرية ، وتشتمل على التربية الفردية والجماعية ، لأن المجتمع في حقيقته التكوينيه بناء بشري لبناته الأفراد الذين تتألف من ترابطهم الاجتماعي عناصره الحية التي يتهيأ بها للمجتمع أن يتبوأ مكانه في الحياة بقدر مافي تلك العناصر من قوة وحيوية .

ولذلك عنى القرآن بالتربية الفردية بصورة شاملة ، وقد جمعت كثيرا من الآيات البينات التي تلقى الأضواء على التربية الفردية الشاملة من القيم والسلوك والابتعاد عن العصبية والعنصرية والشعور بالتبعة كاملة : ﴿ **ألا تزر وازرة وزر أخرى . وأن ليس للانسان إلا ماسعى** ﴾ . وقد سلك القرآن لذلك وسائل كثيرة ، منها : التوبة ، والصبر ، والعفو ، والتقوى ، ومراقبة الله ، والاستقامة ، وهي وسائل تسعى لإعداد الفَرْدِ ليكون لبنة صالحة في الحياة الاجتماعية ، ومن هنا درست التربية الجماعية وتحديد مسئولياتها ، فكل فرد مكلف أن يرعى مصالح الجماعة كأنه حارس لها ، والحياة سفينة في خضم ، والراكبون فيها جميعا مسئولون عن سلامتها — جمعتُ الآيات والأحاديث التي توضح هذه الفكرة ، وتبين قيمة التربية الجماعية ، ثم درست الوسائل التي سلكها القرآن للتربية الجماعية : — التربية بالقدوة والقيادة ، والتربية بالموعظة ، والتربية بالعقوبة ، والتربية بالأحداث .

فالعربي تعود أن يكون ولاؤه للقبيلة ولرئيس القبيلة :

وما أنا إلا من غزية إن غوت غويت وإن ترشد غزية أرشد

وبدأ القرآن يحول ذلك التصور وتلك العادة الجاهلية إلى روح الطاعة للقدوة الميمونة : ﴿ **لقد كان لكم في رسول الله أسوة حسنة** ﴾ .

درست هذا المفهوم في ضوء الآيات البينات لإخلاء معاني القيادة والطاعة ، وأوردت في هذا الصدد بعض الروايات والقصص مثل قصة ذلك الأنصاري الذي خاصم الزبير في شراج الحرة ، وقال النبي ﷺ : « **اسق يازبير ، ثم أرسل الماء إلى جارك** » ، فقال الأنصاري : يارسول الله ، إنه كان ابن عمتك ، فتلون وجه رسول الله ﷺ ، وفي مثل هذه المناسبة يتدخل القرآن ، ويدرب الجماعة على تفهم وتشبع معاني القيادة ، فيقول : ﴿ **فلا وربك لا يؤمنون حتى يحكموك فيما شجر بينهم** ﴾ .

وبعد هذه التربية ، ظهرت على أُفقِ المجتمع المدني ظواهر جميلة جديدة ، ومضى المجتمع يأخذ شخصيته الخاصة ، فلم يعد أولئك الأفراد المبعثرين ، ولا تلك القبائل المتناثرة ، وإنما أصبح أمة لها كيان ونظام ، فظهرت ظاهرة الأسئلة : ﴿ **ويسألونك ماذا أحل لهم** ﴾ ، ﴿ **ويستفتونك في النساء** ﴾ ، ﴿ **يسألونك عن الساعة** ﴾ ، ﴿ **يسألونك عن الأنفال** ﴾ ، ﴿ **يسألونك عن الخمر والميسر** ﴾ .

وظاهرة الأسئلة تدل على الحالة الشعورية الجديدة التي ظهرت بعد التربية الفردية والجماعية .

ثم تناولت وسائل التربية ومنها الموعظة : ﴿ **هذا بيان للناس وهدى وموعظة للمتقين** ﴾ .

ثم التربية بالعقوبة ، وأوردت فيها الآيات التي توضح هذه الفكرة ، ثم الوقائع التي استحقت العقوبة ، وخصصت الفصل الثاني للتربية العملية ، وتناولت فيها الأحداث التي كانت خير وسيلة للتربية ولإرساء قيم ومفاهيم جديدة في المجتمع المدني ، ومن أبرز هذه الحوادث حادث زواج زينب بنت جحش الذي كان خطوة ميمونة وجريئة في المجتمع المنغمس في الطبقية لتحطيم الفوارق الموروثة من طرف ، والقضاء على فكرة التبني من طرف آخر .

ومن وسائل التربية التطبيقية التي سلكها القرآن لتنظيم المجتمع المدني كانت قضية اللعان ، وقد أخرج البخاري عن ابن عباس أن هلال بن أمية

قذف امرأته بشريك بن سحمان ، وقال النبي ﷺ : « **البينة وإلا حد في الظهر** » ، وانتشر هذا الخبر سريعا في ساحات المدينة وبيوتها ، وشغل الناس واحتاروا ، وبدؤوا يتساءلون كيف وأين الحق ؟ وكيف العلاج ؟ فنزلت آيات تعالج هذه القضية :

وَالَّذِينَ يَرْمُونَ الْمُحْصَنَاتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا بِأَرْبَعَةِ شُهَدَاءَ فَاجْلِدُوهُمْ ثَمَانِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا لَهُمْ شَهَادَةً أَبَدًا وَأُولَٰئِكَ هُمُ الْفَاسِقُونَ ﴿٤﴾ إِلَّا الَّذِينَ تَابُوا مِن بَعْدِ ذَٰلِكَ وَأَصْلَحُوا فَإِنَّ اللَّهَ غَفُورٌ رَّحِيمٌ ﴿٥﴾ وَالَّذِينَ يَرْمُونَ أَزْوَاجَهُمْ وَلَمْ يَكُن لَّهُمْ شُهَدَاءُ إِلَّا أَنفُسُهُمْ فَشَهَادَةُ أَحَدِهِمْ أَرْبَعُ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٦﴾ وَالْخَامِسَةُ أَنَّ لَعْنَتَ اللَّهِ عَلَيْهِ إِن كَانَ مِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٧﴾ وَيَدْرَأُ عَنْهَا الْعَذَابَ أَن تَشْهَدَ أَرْبَعَ شَهَادَاتٍ بِاللَّهِ إِنَّهُ لَمِنَ الْكَاذِبِينَ ﴿٨﴾ وَالْخَامِسَةَ أَنَّ غَضَبَ اللَّهِ عَلَيْهَا إِن كَانَ مِنَ الصَّادِقِينَ ﴿٩﴾

النور : ٤ ــ ٩

لقد عالج القرآن هذه الحادثة بحكمة بالغة ، وهي من أخطر القضايا التي يمكن أن يواجهها الإنسان في حياته الواقعية حين يبصر جريمة الزنا ترتكب في أهل بيته فلا يستطيع أن يتكلم لأنه ليس لديه بينة أو شهداء عليها . جمعت فى هذا الفصل مجموعة من هذه الحوادث الهامة الخطيرة التي كان لها آثارها البعيدة والقريبة في المجتمع المدني ، لتتجلى صورة المجتمع بحقيقته الواقعية ، فكانت قضية اللعان سببا لإيجاد نظام اللعان وأحكامه الذي عرفه المجتمع المدني لأول مرة قبل أن يعرفه أحد على وجه الأرض .

ثم درست حادثة الإفك دراسة مفصلة ، ووقفت عندها وقفة المتأمل المتمعن الحريص على استخراج النتائج ، واستطعت من خلال هذه الدراسة أن أستنتج كثيرا من العيوب والنقائص التي كانت موجودة في المجتمع المدني واستمرت حتى السنة السادسة تقريبا ، وكأنها كانت تنتظر حدثا عظيما يقع ، فيشغل الناس ويلفت الأنظار ، وتتلبد الغيوم ، ثم تنقشع لتظهر وراء هذه الأحداث أنظمة دقيقة تنظم سلوك المجتمع وأخلاقياته .

وكان آخر مادرست في هذا الموضوع غزوة تبوك وحادثة الثلاثة الذين خلفوا ، وهذه الحادثة كما رواها كعب بن مالك بأسلوبه الأدبي المثير ، جاءت شرحا للآيات التي تتحدث عنها ، وفي هذه الرواية صورة بارزة عن المجتمع المدني المتكامل ، ولمحات جميلة تدل على متانة بنائه وصفاء عناصره ، ونصاعة تصوره لمعاني الجماعة ولتفهم معاني القيادة .

وأثبتُّ من خلال هذا الحدث التطبيقى ما حدث من تطور في المحاسبة ، وفرق في مراجعة الأخطاء بين ما وقع فيه أفراد المجتمع فى غزوة أحد ، وما تشير إليه التعبيرات المذكورة فى غزوة تبوك ، ففي غزوة أحد تسجل الآيات الأخطاء فتقول : ﴿ **حتى إذا فشلتم وتنازعتم في الأمر وعصيتم من بعد ما أراكم ماتحبون منكم من يريد الدنيا ومنكم من يريد الآخرة ثم صرفكم عنهم ليبتليكم ولقد عفا عنكم** ﴾ عفا عما وقع من ضعف ومن نزاع ومن عصيان ، وعفا كذلك عما وقع منهم من فرار وانقلاب ، عفا عنهم رغم الأخطاء الجسيمة والخسائر الفادحة ، وأما في غزوة تبوك فقد اختلف الأمر ، وكان العتاب ، وكان العقاب ، وكانت المقاطعة .

واختص « الباب الثالث » بدراسة البنية الاجتماعية للمجتمع المدني في صورته الجديدة ، واشتمل على ثلاثة فصول ، « الفصل الأول » عن الأسرة ووسائل الحفاظ عليها ، ووضحت في هذا الفصل الفرق بين الزواج في الجاهلية والإسلام ، وبدأت بذكر حديث « عائشة » لأسجل معاني النكاح وأنواعه وأقسامه في الجاهلية تمهيدا لذكر التطور الذي أحدثه الإسلام في هذا المجال ، وما أعطى للمجتمع من قيم جديدة في مفهوم الأسرة ، سجلها القرآن الكريم وهي قيم كانت جديدة ولها علاقة مباشرة وعميقة بالأسرة والمجتمع والحياة الاجتماعية الجديدة .

وجمعت في هذا الفصل الآيات والأحاديث التي تتحدث عن الزواج ، ودرستها وأثبت من خلالها أن الزواج وسيلة مهمة من وسائل تنظيم المجتمع وتطهيره ﴿ **وأنكحوا الأيامى منكم والصالحين من عبادكم وإمائكم إن يكونوا فقراء يغنهم الله من فضله والله واسع عليم** ﴾ وأن هذا من واجبات المجتمع .

ودرست في هذا الفصل الأمراض الخطيرة التي كانت فاشية في المجتمع اليثربي ، واستمرت حتى بعد الهجرة بفترة غير قصيرة ، ومنها الزنا والخمر والميسر ، واستعرضت المراحل التي راعاها القرآن في معالجة هذه الأمراض الخطيرة ، فنسقت الآيات حسب الترتيب الزمني ، ودرستها دراسة علمية حتى اتضحت كل مرحلة على حدة ، تصور حلقة مسلسلة متدرجة في معالجة هذه الأمراض .

وكان « الفصل الثاني » عن التطورات الاقتصادية والتكافل الاجتماعي ، أولا تحدثت عن التطورات الاقتصادية ، فبدأت بجمع الآيات التي تبين حب الناس للمال واهتمامهم به :

زُيِّنَ لِلنَّاسِ حُبُّ ٱلشَّهَوَٰتِ مِنَ ٱلنِّسَآءِ وَٱلْبَنِينَ وَٱلْقَنَٰطِيرِ ٱلْمُقَنطَرَةِ مِنَ ٱلذَّهَبِ وَٱلْفِضَّةِ وَٱلْخَيْلِ ٱلْمُسَوَّمَةِ وَٱلْأَنْعَٰمِ وَٱلْحَرْثِ

آل عمران : ١٤

لقد قلل الإسلام من هذا الحب الجم للمال ، وجعله حبا معتدلا ، وبينت كيف تطلب هذا الأمر جهدا ووقتا ، ثم جمعت الآيات التي تحث على الإنفاق حتى صفت النفوس وتسابق الناس في الإنفاق ونيل البر .

فالإنفاق والكرم من الصفات المفطورة عند العرب إلا أنها لم تكن في وجوه البر ، ولما دب الوعى في المجتمع ، وبدأت المفاهيم والمعايير الجاهلية تتغير ، بدأ الناس يتساءلون : ماذا ينفقون : ﴿ **يسألونك ماذا ينفقون ؟** ﴾ فجاء الجواب في صورة توجيه :

﴿ قُلْ مَا أَنفَقْتُم مِّنْ خَيْرٍ فَلِلْوَالِدَيْنِ وَالْأَقْرَبِينَ وَالْيَتَامَىٰ وَالْمَسَاكِينِ وَابْنِ السَّبِيلِ ۗ وَمَا تَفْعَلُوا مِنْ خَيْرٍ فَإِنَّ اللَّهَ بِهِ عَلِيمٌ ﴿٢١٥﴾ ﴾

البقرة : ٢١٥

وخلال هذا الحماس وتلك الأسئلة بدأ القرآن يحدد مدلول كلمة الاقتصاد تحديدا واضحا في قوله تبارك وتعالى : ﴿ **والذين إذا أنفقوا لم يسرفوا ولم يقتروا وكان بين ذلك قواماً** ﴾ ، وعرف الناس أن الاعتدال من قوام الاقتصاد الإسلامي ، وأن معانى الاقتصاد الإسلامي حق انتفاع الغير في المال والاهتمام بطرق توزيعه قال تعالى : ﴿ **كلوا من ثمره إذا أثمر وآتوا حقه يوم حصاده** ﴾ .

هكذا بدأت الآيات تضع الأسس والمفاهيم لهذا الاقتصاد الجديد ، ومن أجمل مظاهره الاهتمام بالكيل والدقة في الميزان :

﴿ وَيْلٌ لِّلْمُطَفِّفِينَ ﴿١﴾ الَّذِينَ إِذَا اكْتَالُوا عَلَى النَّاسِ يَسْتَوْفُونَ ﴿٢﴾ وَإِذَا كَالُوهُمْ أَو وَّزَنُوهُمْ يُخْسِرُونَ ﴿٣﴾ ﴾

المطففين : ١ ــ ٣

وذكرت بعد ذلك صورة واقعية لهذا التطور بما روى الطبري عن عكرمة عن ابن عباس أنه قال : « لما قدم النبي ﷺ المدينة كانوا من أخبث الناس كيلا ، فأنزل الله : ﴿ **ويل للمطففين** ﴾ فأحسنوا الكيل . وسقت في هذا الصدد أكثر من رواية كلها تصور أسواق المدينة ، وما يدور في جنباتها من نشاط اقتصادي ، وما يحدث في دكاكينها . وأبرزت أنه ﷺ كيف بدأ يطور هذه المفاهيم الاقتصادية ، وبينت مدى استجابة المجتمع لهذه الأسس الاقتصادية الجديدة وسقت على ذلك نماذج حية ، فعندما نزلت الآية : ﴿ **من ذا الذي يقرض الله قرضاً حسناً** ﴾ انطلق أبوالدحداح رضي الله عنه إلى الرسول ﷺ قائلا : فاني أقرضت ربي عز وجل حائطي . قال ابن مسعود : وحائطه فيه ستمائة نخلة ، وأم الدحداح فيه

وعيالها ، قال : فجاء أبوالدحداح ، فناداها : يا أم الدحداح ، قالت : لبيك . قال اخرجي فقد أقرضته ربي عز وجل .

والقصة تمثل تطورا رائعا في التطبيق العملي الاقتصادي وتطبيقا بليغا في الإنفاق في سبيل الله . وبعد هذه الخطوة درست الآيات التي عالجت قضية الربا مراعيا في ذلك التدرج الزمني والحكمة المطلوبة حتى قيل : إن آخر آيه نزلت هي آية الربا .

وكان طبيعيا بعد الحديث عن التطورات الاقتصادية أن أتحدث عن التكافل الاجتماعي ، فقدْ أصبح من السمات البارزة لهذا المجتمع ، فأوردت جملة من الآيات التي تتحدث عن فكرة التكافل ، ودرست في ضوء ذلك معنى التكافل لغة وشرعا ، ووضحت هذا المفهوم في ضوء الأحاديث الموثوقة ، ثم بينت أن الإسلام نظم هذا التكافل بحيث إنه قسم المجتمع في صورة وحدات متكافلة :

الوحدة الأولى أقرباء الوالدين ، وهي وحدة عادة ما تكون كبيرة ومتشعبة وشاملة ، ومن ثم تتسع فتشمل وحدات اليتامى والمساكين ، ثم وحدة الجار ، ثم ذكرت الروافد التي يقوم عليها التكافل ، ومن أهمها : الزكاة ، ونفقة الأقارب ، والصدقات ، والكفارات .

وكان « الفصل الثالث » والأخير في هذا الباب عن الآداب الاجتماعية في المجتمع المدني الجديد ، وقد كانت الأبواب والفصول السابقة دراسة للوسائل والأساسيات التي تكون المجتمع المثالي « مجتمع المؤمنين » ، أما هذا الفصل فكان ثمرة للدراسات السابقة ونتيجة لها .

هذا المجتمع المتواد المتحاب المترابط المتكافل الذي حققه القرآن في أرقى وأصفى صوره ليكون نبراسا للأمة يحتذى به ، أحاطه بسياج من الأسباب الوقائية ، منها : « التثبت في الأخبار : ﴿ **إن جاءكم فاسق بنبأ فتبينوا** ﴾ ، ومنها : عدم إساءة الظن « بالمسلم » : ﴿ **إن بعض الظن إثم** ﴾ ، ومنها : النهي عن السخرية من المسلم والاستهزاء به : ﴿ **لا يسخر قوم من قوم** ﴾ ، ومنها : النهي عن التجسس والغيبة : ﴿ **ولاتجسسوا ولا يغتب بعضكم بعضا** ﴾ .

ومن هذه الآداب الاجتماعية التي تجلت خلال دراستنا للآيات النهي عن رمي المحصنات ، لأن الإسلام يربي الناس تربية شاملة ، وينظم شئونهم وحياتهم وفق شريعة خاصة لينشيء مجتمعا نظيفا ، مجتمعا كلُّ فردٍ فيه مصونُ العرض ، تضيق فيه فرص الغواية وعوامل الإثارة والفتنة ، فلا يجوز أن تترك الألسن تلوك عرض المحصنات بدون دليل قاطع ، وتنشأ حالة من الريبة والقلق ، ولذلك وضعت أنظمة دقيقة :

وَٱلَّذِينَ يَرْمُونَ ٱلْمُحْصَنَٰتِ ثُمَّ لَمْ يَأْتُوا۟
بِأَرْبَعَةِ شُهَدَآءَ فَٱجْلِدُوهُمْ ثَمَٰنِينَ جَلْدَةً وَلَا تَقْبَلُوا۟ لَهُمْ
شَهَٰدَةً أَبَدًا ۚ وَأُو۟لَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْفَٰسِقُونَ ﴿٤﴾ النور : ٤

وهذا التشديد في العقوبة مقصود به أن تقطع أحاديث الناس الذين يقومون بنشر قَالَةِ السُّوءِ بين أفراد المجتمع .

ومن هذه الآداب الجديدة (الأمر بغض البصر) :

﴿ قل للمؤمنين يغضوا من أبصارهم ويحفظوا فروجهم ﴾ ، فكرة جديدة عرفها هذا المجتمع النامي ، لأن الإسلام يهدف إلى إقامة بيئة نظيفه لاتهاج فيها الشهوات في كل لحظة ، والآية تشير إلى طريق فطري لتقليل فرص الإثارة ، وللنساء من أحكام غض البصر وحفظ الفرج ما للرجال على أن لهن بعض أحكام أخرى ليست للرجال : **﴿ وقل للمؤمنات يغضضن من أبصارهن ويحفظن فروجهن ... ﴾** .

درجت هذه الآيات مقارنة بالأحاديث بحيث تتجلى هذه الآداب في صورة أنظمة اجتماعية وآداب ربانية تلقاها المجتمع بلهف وشوق ..

ومنها آداب السلام : والتحية في المجتمع علاقة من العلاقات التي تدور بها عجلة الحياة في يسر إذا اتبع الأدب الواجب فيها ، قال تعالى :

وَإِذَا حُيِّيتُم بِتَحِيَّةٍ فَحَيُّوا۟ بِأَحْسَنَ مِنْهَآ أَوْ رُدُّوهَآ ۗ
إِنَّ ٱللَّهَ كَانَ عَلَىٰ كُلِّ شَىْءٍ حَسِيبًا ﴿٨٦﴾ النساء : ٨٦

وقد أثبتُّ خلال دراستي لهذه الآيات أن الإسلام جاء بتحيته الخاصة التي تميز المجتمع المسلم ، وتجعل كل سمة فيه حتى اليومية منها متميزة متفردة ، وأعلن أن تحيته الجديدة : (السلام عليكم ورحمة الله وبركاته) .

وكذلك آداب الاستئذان : ومن الأفكار والقيم الجديدة التي تلقاها المجتمع المدني وسط الأحداث والتطورات في العقائد والسلوك أسس وآداب الاستئذان .

وآيات الآداب تشير إلى خاصية نفسية لايدركها إلا من كان ذا حساسية مرهفة ومشاعر يقظة ، وفي الإيحاء بهذه السجية مايعبر عن اهتمام القرآن الكريم بثقل النفوس وتخليصها من أوضار العنجهية وبداوة النفس . قال تعالى :

يَـٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ لَا تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ بُيُوتِكُمْ حَتَّىٰ تَسْتَأْنِسُوا۟ وَتُسَلِّمُوا۟ عَلَىٰٓ أَهْلِهَا ۚ ذَٰلِكُمْ خَيْرٌ لَّكُمْ لَعَلَّكُمْ تَذَكَّرُونَ ﴿٢٧﴾ فَإِن لَّمْ تَجِدُوا۟ فِيهَآ أَحَدًا فَلَا تَدْخُلُوهَا حَتَّىٰ يُؤْذَنَ لَكُمْ ۖ وَإِن قِيلَ لَكُمُ ٱرْجِعُوا۟ فَٱرْجِعُوا۟ ۖ هُوَ أَزْكَىٰ لَكُمْ ۚ وَٱللَّهُ بِمَا تَعْمَلُونَ عَلِيمٌ ﴿٢٨﴾ لَّيْسَ عَلَيْكُمْ جُنَاحٌ أَن تَدْخُلُوا۟ بُيُوتًا غَيْرَ مَسْكُونَةٍ فِيهَا مَتَـٰعٌ لَّكُمْ ۚ وَٱللَّهُ يَعْلَمُ مَا تُبْدُونَ وَمَا تَكْتُمُونَ ﴿٢٩﴾ النور : ٢٧ ـ ٢٩

فالاستئذان فضلا عن أنه قيمة خلقية فهو يمس مصالح البشر وأسرار الناس . لأن العرب لم يكونوا يعرفون آداب الاستئذان ، بل كانوا يهجمون هجوما ، فيدخل الزائر منهم البيت ثم يقول : لقد دخلت ، فنزل القرآن ينظم للناس هذا السلوك الاجتماعي ، ويحدد لهم آدابه .

ولقد درست آيات الآداب الاجتماعية في ضوء هذه الآداب حتى يلمس القارىء أن هذه القيم متداخلة ومترابطة لا تنفصل فيها ظاهرة عن أخرى .

وأفردت « الباب الرابع » للأقليات في المجتمع المدني ، وجعلته في فصلين :

جعلت « الأول » منهما لليهود الذين كان لهم مركز ثقل في المجتمع اليثربى ، ولهم دور نشط وفعال فى تحريك الوقائع وإثارة الأحداث ونرى السور المدنية مليئة بذكرهم . وكانوا يشكلون مجتمعاً خاصاً يؤثرون فى الأوس والخزرج ثم فى الأنصار والمهاجرين ويرتبطون معهم بروابط أسرية : اجتماعية واقتصادية ، ودرست معهم النصارى ، ولم أفرد لهم فصلا مستقلا ، لقتلهم وضعف دورهم فى المجتمع المدنى .

درست فى هذا الفصل أولا النصوص التى تتعلق باليهود وتبين تحركاتهم وتأثيرهم فى هذا المجتمع ، مراعياً فى ذلك الترتيب الزمنى وتسلسل الأحداث بقدر المستطاع . وكانت البداية مع موقف اليهود من مقدم الرسول ﷺ ودعوته ، فقمت بجمع الآيات التى توضح ذلك : ﴿ **ولما جاءهم كتاب من عند الله مصدق لما معهم وكانوا من قبل يستفتحون على الذين كفروا فلما جاءهم ما عرفوا كفروا به فلعنة الله على الكافرين** ﴾ ثم درست الأسباب التى دعت اليهود إلى الاصطدام بدعوة محمد ﷺ ، ودعمت بعضها باعتراف الكاتب اليهودى الشهير « ويلفنسون » .

ثم وضحت كيف عالج القرآن هذا الموقف ، وأن العلاج كان ذا شقين :

أولا : تنديد القرآن بمواقف اليهود العدائية ، والشق الآخر خطاب إلى المجتمع المدنى ونصحه بألا ينخدع بأقوال اليهود وأباطيلهم : ﴿ **أفتطمعون أن يؤمنوا لكم وقد كان فريق منهم يسمعون كلام الله ثم يحرفونه من بعد ما عقلوه وهم يعلمون** ﴾ .

ووقفت بعد ذلك عند جدال اليهود مع الرسول ﷺ وهو يصور جانباً من جوانب الصراع بين العقيدة الإسلامية والعقائد المنحرفة ، وهو ليس صراعاً نظرياً ، إنما هو لمحة من لمحات المعركة الشاملة بين المجتمع الناشىء وكل أعدائه الذين كانوا يتربصون به ، ويتحفزون من حوله ، ويستخدمون فى حربه كل الأسلحة والوسائل ، وفى مقدمتها زعزعة العقيدة وإثارة البلبلة وبث الشكوك والوساوس حول القيم والتعليمات الجديدة وقفت عند جدالهم مع النبى ﷺ فى شأن نبوته بقصد الطعن فيها :

﴿ **الذين قالوا إن الله عهد إلينا ألا نؤمن لرسول حتى يأتينا بقربان تأكله النار** ﴾ .

ووقفت عند جدالهم حول تحويل القبلة : ﴿ **ما ولاهم عن قبلتهم التى كانوا عليها قل لله المشرق والمغرب** ﴾ .وكانت فرحتهم كبيرة لإثارة الشك فى نفوس المسلمين ، فنشطوا وتحمسوا وبدؤوا يتفوهون فى مجالسهم ، وقالوا : إن كان التوجه إلى بيت المقدس فيما مضى باطلا فقد ضاعت صلاتكم ، فرد الله عليهم : ﴿ **وما كان الله ليضيع إيمانكم** ﴾ ، وكان لهذا الجدال تأثيره الكبير فى نفوس وأذهان الناس وأفكارهم ، درست هذه المواقف لأخلص بنتيجة فرضتها الأحداث ، وهى ضرورة تطهير المجتمع المدنى منهم ، وهو ما وقفت عنده بعد ذلك ، فذكرت مواقف اليهود العنادية والجدالية من القرآن والمجتمع الجديد ، بداية من غزوة أحد ونهاية إلى جلاء بنى النضير والقضاء على بنى قريظة ، وكنت أتتبع تحركاتهم فى ضوء الآيات ، مراعياً فى ذلك التسلسل الزمنى ، ثم أمضى إلى توضيح وتفسير النصوص القرآنية بالروايات الموثوقة حتى ندرك خطورة اليهود وثقلهم فى هذه البيئة ، ثم نقدر صعوبة إخراجهم لتطهير المجتمع المدنى منهم . لقد تمت هذه الخطوة الجريئة بفضل من الله تعالى ، ويشير القرآن إلى ذلك قائلا : ﴿ **وأنزل الذين ظاهروهم من أهل الكتاب من صياصيهم وقذف فى قلبهم الرعب فريقاً تقتلون وتأسرون فريقاً . وأورثكم أرضهم وديارهم وأموالهم وأرضاً لم تطؤوها وكان الله على كل شىء قديراً** ﴾ .

وكنت أدرس الآيات التى تتعلق باليهود بحيث تتجلى تحركاتهم ومواقفهم فى المجتمع المدنى ، وأترك القارىء يعيش فى ثنايا هذه الدراسة ليرى حقيقة اليهود ويلمس عاداتهم ويشاهد شخوصهم ، وهى تتسلل إلى نوادى المسلمين ، وتتحرك نحو بيوتهم تتآمر وتكيد ، تستهزىء بالمؤمنين ، وتتعالى على الله : ﴿ **لقد سمع الله قول الذين قالوا إن الله فقير ونحن أغنياء سنكتب ما قالوا وقتلهم الأنبياء بغير حق ونقول ذوقوا عذاب الحريق** ﴾ .

وبعدما تحدثت عن مواقفهم وتحركاتهم فى المجتمع المدنى تطرقت إلى

أسباب التطهير ، فذكرت أن اليهود لم يقفوا عند إنكار نبوة النبى ﷺ ، بل تجاوزه إلى الغدر ونقض العهد والعداء الفعلى وعدم احترام الوثيقة المبرمة بينهم وبين النبى ﷺ : **﴿ أو كلما عاهدوا عهداً نبذه فريق منهم بل أكثرهم لا يؤمنون ﴾** .

وكأن الآية تشير إلى أن هذا النمط من الناس يشكلون حجر عثرة فى بنية المجتمع الجديد ، فلا بد من تطهير الجو منهم .

ولقد تعددت مواقف التطهير ، فكان لكل فريق من اليهود موقف ، وهذا يدل على أن التطهير إنما كان يجرى بمقدار الضرورة ، وبقصد إزالة الضرر والخطر ، وليس بنية التنكيل والانتقام كما توهمه بعض الناس .

فى نهاية هذا الفصل تحدثت عن تأثير النصارى فى المجتمع المدنى ، وذكرت كيف تمكنت النصرانية فى الدخول إلى الحجاز ونجد وجنوبى جزيرة العرب وشرقيها ، وبدأت بالتبشير بين أكثر القبائل العربية ، وذكرت الآيات التى تخاطب أهل الكتاب من النصارى ، وتدل على تواجدهم فى المجتمع المدنى وتأثيرهم فى أفراده : **﴿ وقالوا لن يدخل الجنة إلا من كان هوداً أو نصارى تلك أمانيهم قل هاتوا برهانكم إن كنتم صادقين ﴾** **﴿ كذلك قال الذين لا يعلمون مثل قولهم ﴾** . والآية تشير إلى أن العرب كانوا يتصلون بالنصارى ، ويستمعون إلى مجادلاتهم ، فيتأثرون نفسياً وفكرياً وعقائدياً ، حتى قالوا : ليس محمد على شيء ، ثم ذكرت حقيقة النصارى كما يسجلها القرآن على لسان عيسى عليه السلام **﴿ قال إنى عبد الله آتانى الكتاب وجعلنى نبياً .. ﴾** .

ثم سجلت مباهلة النصارى ومجادلتهم للنبى ﷺ ، وشرحت آية المباهلة : **﴿ إن مثل عيسى عند الله كمثل آدم خلقه من تراب ثم قال له كن فيكون . الحق من ربك فلا تكن من الممترين . فمن حاجك فيه من بعد ما جاءك من العلم فقل تعالوا ندع أبناءنا وأبناءكم ونساءنا ونساءكم وأنفسنا وأنفسكم ثم نبتهل فنجعل لعنة الله على الكاذبين ﴾** [آل عمران : ٥٩ : ٦٠] ، وذكرت فى ذلك رواية تفسير الخازن حتى ظهر منظر

المباهلة بصورة حية صورة تظهرها كأنها معركة العقيدة ، وكيف انجلى الحق عندما تراجع النصارى وأبوا المباهلة .

وأما الفصل الثانى فى هذا الباب فقد أفردته للأقلية الثالثة (المنافقين) ، ودرست فى هذا الفصل معنى النفاق اللغوى والشرعى وبدايته ومواجهته للموكب النبوى ، وكيف أن « عبد الله بن أبى » بدأ يوسع حركة النفاق ، ومتى كان ذلك ، ثم كيف كانوا يستغلون مجريات الأحداث لإثارة البلبلة فى المجتمع ، وانكشافهم جهاراً نهاراً بعد غزوة بدر ، ثم كيف تعاطفوا مع اليهود ، وشكلوا جبهة قوية ضد هذا المجتمع الناشىء ، وذكرت أكثرمن آية تبين تكتلهم من مثل قوله تعالى : ﴿ **ألم تر إلى الذين نافقوا يقولون لإخوانهم الذين كفروا من أهل الكتاب لئن أخرجتم لنخرجن معكم ولا نطيع فيكم أحداً أبداً وإن قوتلتم لننصرنكم والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ .

ثم ذكرت حرصهم على استغلال مجريات الأحداث الجارية بالمجتمع ، وكانت بداية استغلالهم فى معركة أحد ، لأن الهزيمة فى أحد كانت مجالا لدسائس الكفار والمنافقين واليهود لإظهار أحقادهم ونفث سمومهم ، ووجدوا فى جو الفجائع التى دخلت كل بيت من بيوت المسلمين ما يساعد على ترويج الكيد والدس والبلبلة فى الأفكار ، وكذلك فى غزوة الأحزاب فقد وجدوا فى الكرب المزلزل والشدة الآخذة بالخناق فرصة للكشف عن خبيئة نفوسهم وهم آمنون من أن ينالهم أحد ، ثم ذكرت نشاط المنافقين فى غزوة بنى المصطلق ، وموقف عبد الله بن أبى لتعكير صفو الأخوة ، كذلك درست موقف المنافقين من غزوة تبوك ، لقد كان أولئك المنافقون يدسون أنفسهم فى المجتمع ، لا عن إيمان واعتقاد ولكن عن خوف وتقيه وعن طمع ورهب ، ثم يحلفون إنهم من المسلمين : ﴿ **ويحلفون بالله إنهم لمنكم وما هم منكم ولكنهم قوم يفرقون لو يجدون ملجأ أو مغارات أو مدخلا لولوا إليه وهم يجمحون** ﴾ .

وجاء بعد ذلك دور مسجد الضرار وتحركات المنافقين وراء ستار هذا

المسجد : ﴿ **والذين اتخذوا مسجداً ضراراً وكفراً وتفريقاً بين المؤمنين وإرصاداً لمن حارب الله ورسوله من قبل وليحلفن إن أردنا إلا الحسنى والله يشهد إنهم لكاذبون** ﴾ [التوبة : ١٠٧] .

ثم بينت الحكمة الربانية التى تجلت فى الحديث عن المسجد الضرار ، ثم فى أمر النبى ﷺ فى هدم هذا المسجد .

ثم أشرت إلى مشهد يرسم التعبير القرآنى الفريد لآثار مسجد الضرار فى نفوس بناته الأشرار : ﴿ **لا يزال بنيانهم الذى بنوا ريبة فى قلوبهم إلا أن تقطع قلوبهم والله عليم حكيم** ﴾ .

وبذلك تمت عناصر المجتمع المدنى من المؤمنين واليهود والنصارى والمنافقين . والله الموفق وهو الهادى إلى سواء السبيل .

* * *



المصادر والمراجع

١ ــ **ابن أبى شيبة** : الإمام الحافظ أبو بكر ــ الكتاب المصنف فى الأحاديث والآثار ــ الدار السلفية ــ بومباى الهند ط ١ سنة ١٩٨١ .

٢ ــ **ابن الأثير** : الإمام مجد الدين أبو السعادات المبارك بن محمد ــ الكامل فى التاريخ ط ٤ سنة ١٩٨٣ ــ جامع الأصول فى أحاديث الرسول ــ تحقيق وتخريج وتعليق عبد القادر الأرناؤط ط سنة ١٩٦٩ .

٣ ــ **ابن إدريس** : عبد الله عبد العزيز ــ مجتمع المدينة فى عهد الرسول ﷺ ط الرياض سنة ١٩٨٢ م .

٤ ــ **ابن أنس** : الإمام مالك ــ الموطأ ــ جزءان ط القاهرة ١٩٥١ ــ رواية يحيى الليثى بيروت ط / ٦ سنة ١٩٨٢ م .

٥ ــ **ابن الجوزى** : الإمام أبو الفرج عبد الرحمن ــ الوفا بأحوال المصطفى ــ صححه ونسقه وعلق عليه محمد زهر النجار ــ المؤسسة السعيدية بالرياض ــ صفوة الصفوة ــ دار المعرفة ــ بيروت ط ٢/ سنة ١٩٧٩ .

٦ ــ **ابن حجر العسقلانى** : شهاب الدين أبو الفضل أحمد بن على بن محمد الكنانى ــ الإصابة فى تمييز الصحابة وبهامشه الاستيعاب فى معرفة الأصحاب . ط ١ سنة ١٣٢٨ هـ .

٧ ــ **ابن حنبل** : الإمام أبو عبد الله أحمد بن محمد ــ مسند الإمام أحمد ــ دار صادر للطباعة والنشر ــ بيروت .

٨ ــ **ابن سعد** : الإمام محمد ــ الطبقات الكبرى ــ ط دار صادر بيروت .

٩ ــ **ابن سيد الناس** : فتح الدين أبو الفتح محمد بن عبد الله ــ عيون الأثر فى فنون المغازى والشمائل والسير ــ دار الآفاق الجديدة ــ بيروت ط ١ سنة ١٩٧٧ .

١٠ ــ **ابن عبد البر** : أبو عمر يوسف بن عبد الله بن محمد ــ الدرر فى اختصار المغازى والسير .

١١ ــ **ابن عبد الوهاب** : عبد الله بن الشيخ محمد ــ مختصر سيرة الرسول ﷺ ــ المطبعة اليوسفية .

١٢ ــ **ابن قتيبة** : أبو محمد عبد الله بن مسلم ــ المعارف ــ تحقيق ثروت عكاشة ــ القاهرة ط ٢ سنة ١٩٦٩ .

١٣ ــ **ابن قيم الجوزية** : الإمام أبو عبد الله محمد بن بكر بن أيوب ابن سعد الزرعى ــ زاد المعاد فى هدى خير العباد ــ المطبعة المصرية ومكتبتها .

١٤ ــ **ابن كثير** : عماد الدين أبو الفداء إسماعيل بن عمر القرشى :

(أ) البداية والنهاية ــ بيروت ط / ١٩٨٣ م .

(ب) تفسير القرآن العظيم :

* دار إحياء التراث العربى ــ بيروت ١٩٦٩ .

* دار الفكر سنة ١٩٨١ م .

* دار الكتب العلمية : (كتب هوامشه /حسين بن إبراهيم زهران ط / سنة ١٩٨٦ .

ــ مختصر تفسير ابن كثير (اختصار) محمد على الصابونى .

*دار القرآن الكريم / بيروت ط (٧) سنة ١٩٨١ .

* المكتبة الفيصلية ــ مكة المكرمة .

(ج) السيرة النبوية :

* طبعة القاهرة سنة ١٩٧١ .

* طبعة دار المعرفة بيروت (ت / مصطفى عبد الواحد) سنة ١٩٧٦ .

(د) الفصول فى سيرة الرسول ﷺ — تحقيق / محمد العيد الخضراوى ، ومحيي الدين مستو ط (٣) سنة ١٤٠٢ — ١٤٠٣ هـ .

١٥ — ابن ماجة : أبو عبد الله محمد بن يزيد — سنن ابن ماجة — تحقيق محمد فؤاد عبد الباق — ط — دار الفكر (د . ت) .

١٦ — ابن منظور : العلامة : جمال الدين أبو الفضل محمد بن مكرم بن على بن أحمد — لسان العرب — إعداد وتصنيف يوسف خياط ونديم مرعشلى — دار لسان العرب ، بيروت ط ١٣٨٩ هـ .

١٧ — ابن النجار : أبو عبد الله البغدادى محمد بن محمود بن الحسن — أخبار مدينة الرسول (المعروف باسم الدرة الثمينة فى أخبار المدينة) ط ١ مكة المكرمة ١٩٦٦ م .

١٨—ابن هشام : أبو محمد عبد الملك — السيرة النبوية — تحقيق مصطفى السقا وزملائه — مكتبة ومطبعة مصطفى البابى الحلبى بمصر ط ٢ ١٩٥٥ م . ط دار الفكر القاهرة .

— تهذيب سيرة ابن هشام — عبد السلام هارون — ط دار البحوث العلمية — الكويت .

١٩ — أبو داود : سليمان بن الأشعث السجستانى — سنن أبى داود — ط الأولى ١٩٦٩ م .

— مختصر سنن أبى داود ومعالم السنن — تحقيق أحمد محمد شاكر — ومحمد حامد الفقى — المكتبة الأثرية — باكستان . ط الثانية ١٩٧٩ م .

٢٠ ــ أبو زهرة : الإمام محمد ــ تاريخ الجدل ــ دار الفكر العربى ط ٢ ١٩٨٠ .

ــ الجريمة والعقوبة فى الفقه الإسلامى ــ دار الفكر العربى .

ــ محاضرات فى النصرانية ط ١٩٨٢ .

ــ تنظيم الإسلام للمجتمع ــ دار الفكر العربى د . ت .

٢١ ــ **الأصبهانى** : أبو نعيم أحمد بن عبد الله ــ دلائل النبوة ــ دار المعرفة ــ بيروت ط سنة ١٣٨٨ هـ .

٢٢ ــ **الأصمعى** : أبو سعيد عبد الملك بن قُريب بن عبد الملك الأصمعيات ــ تحقيق وشرح أحمد محمد شاكر وعبد السلام هارون ــ ط دار المعارف بمصر .

٢٣ ــ **الأعشى** : ديوان الأعشى ــ دار صادر بيروت .

٢٤ ــ **الألبانى** : محمد ناصر الدين ــ صحيح الجامع الصغير وزيادته ــ المكتب الإسلامى ــ بيروت ط ١٩٦٩ .

٢٥ ــ **الألوسى** : أبو الفضل شهاب الدين السيد محمد البغدادى ــ روح المعانى فى تفسير القرآن العظيم والسبع المثانى ــ دار إحياء التراث العربى ــ بيروت .

٢٦ ــ **الأنبارى** : أبو بكر محمد بن القاسم ــ شرح القصائد السبع الطوال الجاهليات ــ تحقيق وتعليق عبد السلام هارون ــ دار المعارف بمصر ط ٢ .

٢٧ ــ **البهى** : د . محمد ــ منهج القرآن فى تطوير المجتمع ــ ط أولى ١٩٧٤ م .

٢٨ ــ **بابللى** : د . محمود محمد ــ الاقتصاد فى ضوء الشريعة الإسلامية ــ ط ١ .

٢٩ ـ **البخارى** : الإمام أبو عبد الله محمد بن إسماعيل ـ صحيح البخارى : (الجامع الصحيح المسند من حديث رسول الله ﷺ وسننه وأيامه) .

ـ مطابع الشعب ـ القاهرة ١٣٧٨ هـ .

ـ مكتبة الجمهورية العربية بمصر .

٣٠ ـ **بركات** : محمد فارس ـ الجامع لمواضيع آيات القرآن الكريم ـ المطبعة الهاشمية ـ دمشق ـ ١٩٥٩ م .

٣١ ـ **البلاذرى** : أحمد بن يحيى بن جابر ـ أنساب الأشراف ـ تحقيق د . محمد حميد الله (د . ت) .

٣٢ ـ **البوطى** : د . محمد سعيد رمضان ـ فقه السيرة ـ دار الفكر ط ٧ .

٣٣ ـ **البيهقى** : العلامة أبو بكر أحمد بن حسين بن على ـ السنن الكبرى ـ ط الأولى ١٣٤٤ هـ .

٣٤ ـ **التبريزى** : أبو زكريا يحيى بن على بن محمد الشيبانى ـ شرح المفضليات ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

٣٥ ـ **الترمذى** : أبو عبد الله محمد بن على الحكيم :

(أ) الأمثال من الكتاب والسنة ـ تحقيق على محمد البجاوى ـ دار نهضة مصر للطبع والنشر .

(ب) سنن الترمذى ـ تحقيق عبد الرحمن محمد عثمان ط ٣ ـ ١٩٨٣ .

٣٦ ـ **التل** : عبد الله ـ خطر اليهودية العالمية على الإسلام ـ المكتب الإسلامى ـ بيروت ط ٣ ١٩٧٩ .

٣٧ ـ **الجصاص** : حجة الإسلام أبو بكر أحمد بن على الرازى ـ أحكام القرآن ـ دار الكتاب العربى ـ بيروت ط ١ سنة ١٣٣٥ هـ .

٣٨ ــ **جواد** : على ــ المفصل فى تاريخ العرب قبل الإسلام ــ بيروت ط ١٩٧٦ م .

٣٩ ــ **الحلبى** : على بن برهان الدين ــ السيرة الحلبية فى سيرة الأمين المأمون ــ ثلاثة أجزاء القاهرة ط / ١٩٦٤ م .

٤٠ ــ **حميد الله** : د . محمد ــ مجموعة الوثائق السياسية للعهد النبوى والخلافة الراشدة ــ دار الإرشاد ــ بيروت ط ٣ .

٤١ ــ **الخازن** : علاء الدين على بن محمد بن إبراهيم البغدادى :

ــ لباب التأويل فى معانى التنزيل ط / ١٩٧٩ استانبول .

ــ مجمع التفاسير (قاضي ــ خازن ــ نسفى ــ ابن عباس) ــ دار الدعوة ــ استانبول ط ٢ ــ ١٩٨٤ .

٤٢ ــ **الخضرى** : الشيخ محمد ــ تاريخ التشريع الإسلامى ط ٧ / ١٩٦٠ .

٤٣ ــ **خليف** : د . يوسف ــ دراسات فى القرآن والحديث ــ مكتبة غريب ــ القاهرة .

٤٤ ــ **خليل** : د . عماد الدين ــ دراسة فى السيرة ــ مؤسسة الرسالة ــ بيروت ط ١٠ ــ ١٩٨٦ .

٤٥ ــ **الخياط** : د . عبد العزيز ــ المجتمع المتكافل فى الإسلام ــ مؤسسة الرسالة .

٤٦ ــ **الدارمى** : العلامة أبو محمد عبد الله بن عبد الرحمن بن فضل بن بهرم ــ سنن الدارمى (د ت) ــ جزءان فى مجلد واحد ــ دار إحياء السنة النبوية ــ بيروت .

٤٧ ــ **دروزة** : محمد عزة ــ سيرة الرسول ﷺ « صور مقتبسة من القرآن الكريم وتحليلات ودراسات قرآنية » ــ مكتبة عيسى البابى الحلبى ــ القاهرة ط ٢/١٩٦٥ .

٤٨ ــ **الدقس** : كامل ــ آيات الجهاد فى القرآن ط ١ .

٤٩ ــ **الدوسرى** : الشيخ عبد الرحمن ــ النفاق « آثاره ومفاهيمه » ــ مكتبة دار الأرقم ــ الكويت ط ١ ــ ١٩٨٠ .

٥٠ ــ **رضا** : الشيخ محمد رشيد ــ تفسير المنار ــ بيروت ط٢٠ (د . ت) .

٥١ ــ **الزمخشرى** : أبو القاسم جار الله محمود بن عمر ــ الكشاف عن حقائق التنزيل وعيون الأقاويل فى وجوه التأويل ــ دار المعارف ــ بيروت (تصوير أوفست ــ د . ت) .

٥٢ ــ **سابق** : الشيخ سيد ــ فقه السنة ــ مكتبة المسلم .

٥٣ ــ **سالم** : إبراهيم على ــ النفاق والمنافقون فى عصر الرسول ﷺ ــ مطبعة حسنى .

٥٤ ــ **السمهودى** : نور الدين على بن عبد الله بن أحمد وفاء الوفا بأخبار دار المصطفى ــ تحقيق محمد محيي الدين ــ القاهرة ط ١٣٩٢ هـ .

٥٥ ــ **السهيلى** : أبو القاسم عبد الرحمن بن عبد الله ــ الروض الأنف :

(أ) تحقيق وتعليق عبد الرحمن الوكيل ــ دار الكتب الحديثة ــ القاهرة ط ١ / ١٩٦٧ .

(ب) تعليق طه عبد الرؤوف ــ ط القاهرة .

٥٦ ــ **السيوطى** : جلال الدين بن عبد الرحمن بن أبى بكر :

(أ) الإتقان فى علوم القرآن . ــ مطبعة البابى الحلبى بمصر .

(ب) الجامع الصغير فى أحاديث البشير النذير ط القاهرة .

(ج) لباب المنقول فى أسباب النزول .

٥٧ ــ **الشريف** : د . أحمد إبراهيم ــ دولة الرسول فى المدينة ــ دار البيان ــ الكويت ط ١٩٧٢ .

ــ مكة والمدينة فى الجاهلية وعهد الرسول ــ دار الفكر العربى ط ٢ .

٥٨ ــ **شلبى** : د . أحمد ــ مقارنة الأديان ١ ــ اليهودية ــ مكتبة النهضة المصرية ط ٧-١٩٨٤ .

٥٩ ــ **شلبى** : د . رؤوف ــ الدعوة الإسلامية فى عهدها المدنى ــ دار القلم ــ الكويت ط ١ ١٩٨٣ .

٦٠ ــ **شلتوت** : الشيخ محمود ــ الإسلام عقيدة وشريعة ــ دار الشروق ط ١٢ / ١٩٨٣ .

٦١ ــ **الشوكانى** : محمد بن على بن محمد ــ فتح القدير ــ الجامع بين فنى الرواية والدراية من علم التفسير ــ دار المعرفة ــ بيروت .

٦٢ ــ **الصابونى** : محمد على ــ روائع البيان فى تفسير آيات الأحكام ــ مكتبة الغزالى . ط ١٩٧٧ م .

٦٣ ــ **صالح** : محمد زكى : الترتيب والبيان عن تفصيل آى القرآن : ــ ط القاهرة ــ ط دار المكتبة العلمية ــ بغداد ط / ١٩٧٩ .

٦٤ ــ **ضيف** : د . شوق ــ تاريخ الأدب العربى « العصر الجاهلى » ــ دار المعارف بمصر .

٦٥ ــ **الطبرى** : أبو جعفر محمد بن جرير :

ــ تاريخ الطبرى ــ تحقيق محمد أبو الفضل ط ١٩٦٦ .

ــ جامع البيان عن تأويل آى القرآن ــ دار الفكر ــ بيروت ط ١٩٨٤ .

ــ مختصر تفسير الطبري محمد علي الصابوني ود. صالح أحمد رضا . دار

القرآن الكريم ــ بيروت ط ١٩٨٣/١ .

٦٦ ــ **طعيمة** : ــ صابر التاريخ اليهودى العام ــ دار الجيل ــ بيروت ط ١٩٧٥/١ .

٦٧ ــ **طنطاوي** : د. محمد سيد ــ بنو إسرائيل في القرآن والسنة ــ مطبعة قاصد خير ــ القاهرة ط ١٩٦٨/١م .

٦٨ ــ **عبدالباقي** : محمد فؤاد ــ المعجم المفهرس لألفاظ القرآن الكريم ط/ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ مصورة عن ط/ دار الكتب المصرية (سنة ١٩٤٥م) .

٦٩ ــ **العمري** : د. أكرم ضياء ــ المجتمع المدني في عهد النبوة ــ بيروت ط/١٩٨٣ .

٧٠ ــ **علوان** : عبدالله ــ التكافل الاجتماعي في الإسلام ط ٢ .

٧١ ــ **الغزالي** : الشيخ محمد ــ فقه السيرة ــ دار القلم ــ دمشق ط ١/ ١٩٨٢ .

٧٢ ــ **الفنجري** : د. محمد شوقي ــ المذهب الاقتصادي في الإسلام ــ جدة ط ١/ ١٩٨١ .

٧٣ ــ **القرضاوي** : د. يوسف ــ فقه الزكاة ــ مؤسسة الرسالة (ط/٥) سنة ١٤٠١هـ ــ مشكلة الفقر وكيف عالجها الإسلام مؤسسة الرسالة .

٧٤ ــ **القرطبي** : أبو عبدالله محمد بن أحمد الأنصاري الجامع لأحكام القرآن ــ دار إحياء التراث العربي ــ بيروت ــ ط/١٩٨٥ .

٧٥ ــ **قطب** : الشهيد سيد ــ فى ظلال القرآن ــ دار الشروق ــ بيروت ط ١٩٧٣ .

ــ العدالة الاجتماعية ــ دار الشروق ط ٩ ــ ١٩٨٣ .

ــ معالم في الطريق ــ دار الشروق .

٧٦ ــ **قطب** : محمد ــ منهج التربية الإسلامية ط دار الشروق ــ دراسات قرآنية ط دار الشروق .

٧٧ ــ **لابوم** : جول ــ تفصيل آيات القرآن الحكيم ويليه المستدرك وضعه إدوارد مونتيه .. نقلها إلى العربية محمد فؤاد عبدالباقي ــ دار الكتاب العربي ــ بيروت ــ ط ٢ .

٧٨ ــ **المراغي** : أحمد مصطفى ــ تفسير المراغي ــ مكتبة مصطفى البابي الحلبي بمصر ط ٤ /١٩٧٣ .

٧٩ ــ **مسلم** : الإمام أبوالحسن بن الحجاج بن مسلم صحيح مسلم ــ القاهرة ط ١ /١٣٧٤ هـ .

٨٠ ــ **المرصفي** : د. سعد ــ الهجرة النبوية ودورها في بناء المجتمع الإسلامى ط ١ / ١٩٨٢ .

٨١ ــ **المستشرقين** : رتبه ونظمه لفيف من المستشرقين ــ المعجم المفهرس لألفاظ الحديث النبوي نشره الدكتور أ.ي . ونسنك أستاذ العربية بجامعة ليدن . مكتبة بريل ــ ليدن ١٩٣٦ م .

٨٢ ــ **المودودي** : أبو الأعلى ــ تفسير سورة النور ــ دار الاعتصام .

ــ الجهاد فى سبيل الله (وحسن البنا وسيد قطب) إصدار الاتحاد الإسلامى العالمى للمنظمات الطلابية ط ٢ ــ ١٩٧٠ م .

٨٣ ــ **النـدوي** : أبو الحسن علي الجسني ــ السيرة النبوية ــ دار الشروق ــ جدة ط ١ / ١٩٧٧ .

ــ ماذا خسر العالم بانحطاط المسلمين . ط ٤ / ١٩٨٥ .

٨٤ ــ **النسائي** : القاضي أحمد بن شعيب بن علي ــ سنن النسائي (ثمانية أجزاء) ــ المكتبة التجارية بالقاهرة .

٨٥ ــ **النسفي** : أبو البركات عبدالله بن أحمد بن محمود ــ مدارك التنزيل وحقائق التأويل ــ استانبول ط ١٩٧٩ .

٨٦ ــ **الهاشمي** : د. محمد علي ــ كعب بن مالك الأنصاري ــ الصحابي الشاعر الأديب ــ الرياض ط ١ ــ ١٩٨٥ .

٨٧ ــ **الواحدي** : أبوالحسن على بن أحمد ــ أسباب النزول ــ تحقيق السيد أحمد صقر ــ دار القبلة للثقافة الإسلامية ــ السعودية ــ ط ٢ / ١٩٨٤ .

٨٨ ــ **الواقدي** : أبوعبدالله محمد بن عمر ــ مغازي رسول الله ٣ أجزاء ــ تحقيق مايسدن جونس اكسفورد ط / ١٩٤١ .

٨٩ ــ **الوكيل** : د. محمد سيد ــ المدينة المنورة عاصمة الإسلام ــ جدة ط ١ .

ملاحظتان :

(أ) اكتفيت هنا بذكر أهم المصادر والمراجع وما لم يذكر أشير إليه فى موضعه .

(ب) تعددت طبعات بعض المراجع وفقا لظروف أسفارى المتعددة .

* * *



دكتور

محمد لقمان الأعظمى الندوى

★ حصل على « العالمية » و « الفضيلة » من كلية الشريعة لدار العلوم « ندوة العلماء بالهند » .

★ حصل على « العالمية مع إجازة التدريس » من جامعة الأزهر .

★ حصل على « ليسانس والماجستير والدكتوراه » من كلية الآداب ــ جامعة القاهرة .

★ عمل مدرساً فى المعهد العالى للبعوث الإسلامية للجامعة السنوسية بليبيا .

★ عمل مرشداً وواعظاً فى التوعية الإسلامية فى الحج .

★ عمل مدرساً فى وزارة المعارف بالمملكة العربية السعودية .

★ يعمل الآن رئيساً لقسم الدراسات الإسلامية بكلية إعداد المعلمين بحائل .

★ ألف « دراسات فى الحديث النبوى » .

★ حقق ديوان خالد بن يزيد الكاتب ــ تحت الطبع .



فهرس الكتاب

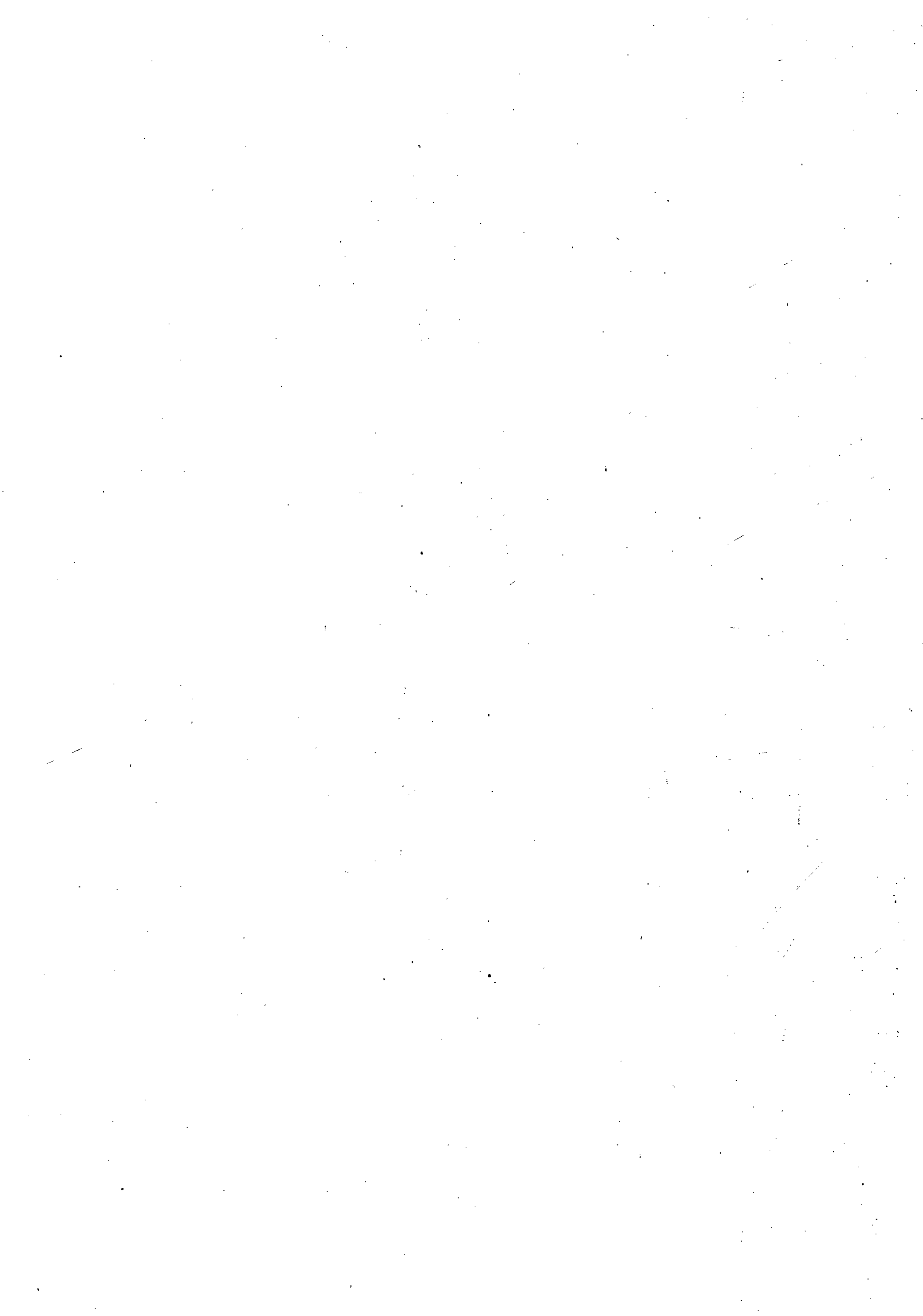


المقـدمات :

الباب الأول :

الفصل الأول :

الفصل الثانى :



رقم الإيداع ٨٤٢٥/ ١٩٨٩م

الترقيم الدولي ٣ -٨٢٣ - ١٤٢ - ٩٧٧

دار النصر للطباعة الإسلامية
٢ - شارع نشاطي شبرا القاهرة
الرقم البريدى ــ ١١٢٣١